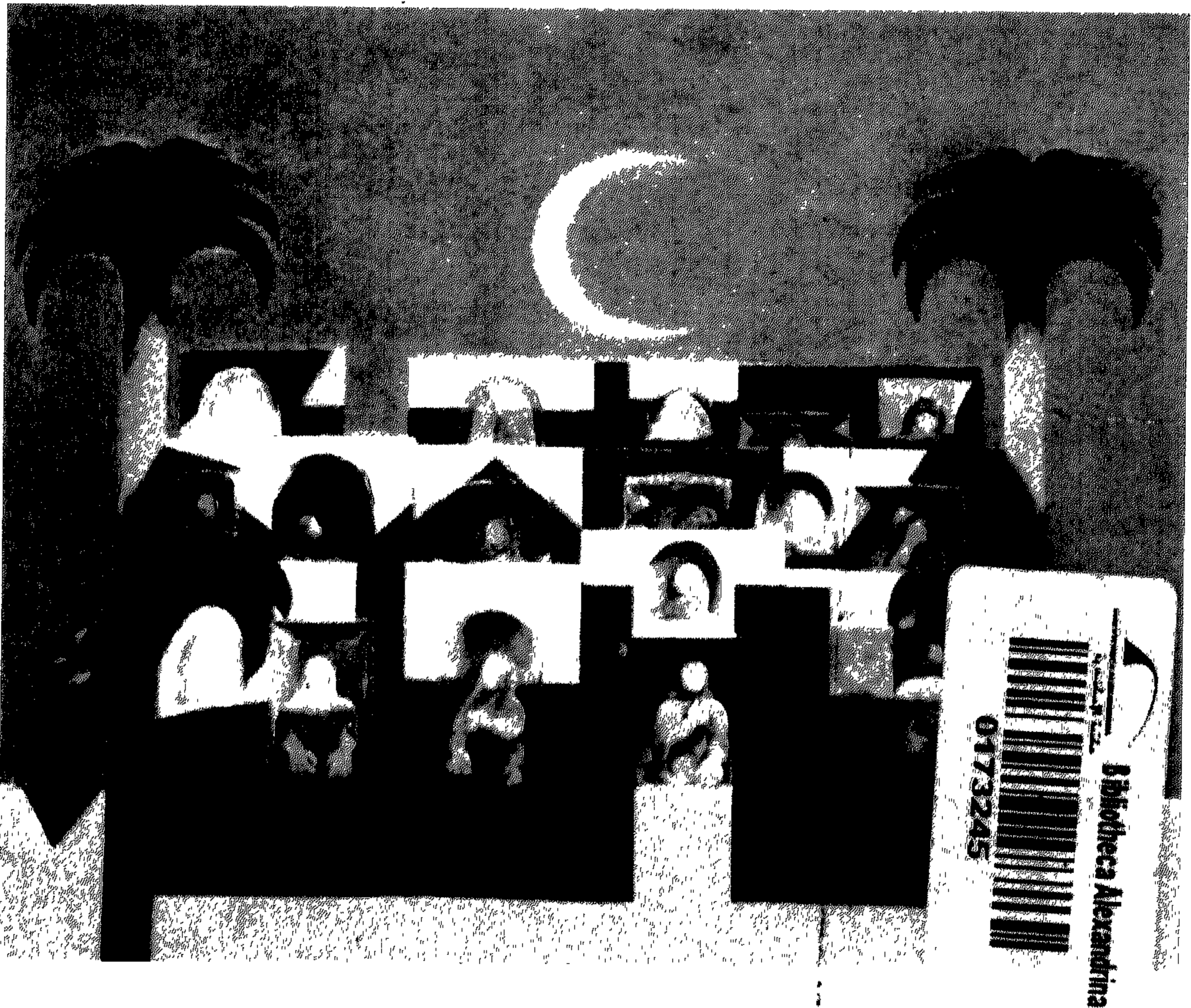
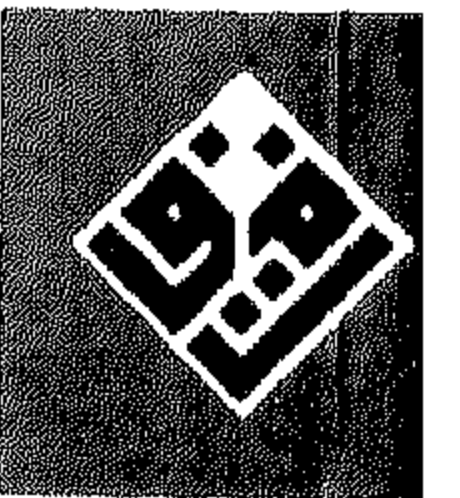


ديرك لايد

قصايا التنظيم في البحث الاجتماعي



ترجمة: عدلى السمرى مراجعة وتقديم: محمد الجوهري

اهداءات ٢٠٠١

المهندس / محمد عبد السلام العمري

الإسكندرية

المجلس الأعلى للثقافة
المشروع القومى للترجمة

ديرك لايدر

قضايا التنظير فى البحث الاجتماعى

ترجمة

عدلى السمرى

أستاذ علم الاجتماع المساعد
جامعة القاهرة

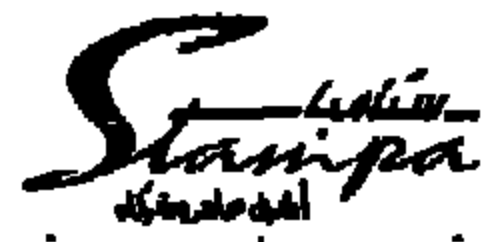
مراجعة وتقديم

محمد الجوهري

أستاذ علم الاجتماع
جامعة القاهرة

٢٠٠٠

التصميم والتنفيذ وفصل الألوان



الشركة الإعلامية للطباعة والنشر ستامبا

Information Co. For printing and publishing

فيلا ٤١ محمود عزى - أحمد عرابي - المهندسين - الجيزة - مصر ٢٤٤٦٨٧٢ - ٢٠٢٤٤٠٩

الإعلامية

هذه ترجمة للكتاب التالي

Derek Layder

Sociological Practice

Linking Theory and Social Research

London, SAGE Publications Ltd,

1998

قائمة المحتويات

٥	قائمة المحتويات
٩	مقدمة الترجمة
٤٣	تصدير
٤٥	الفصل الأول: الصلات بين النظرية والبحث
٥٢	المناخ المعاصر للأفكار المطروحة
٥٨	أبعاد التنظير في البحث الاجتماعي
٧٩	دلالات ذلك للنظرية التكيفية
٨٣	الفصل الثاني: عناصر عملية البحث
٨٦	إختيار موضوع ومشكلة البحث
٩٢	الأطر المرجعية والمواقف النظرية المختارة
٩٧	إدخال النظرية التكيفية
١٠٣	إمناهج وأساليب جمع البيانات
١٢٩	سحب عينة البيانات، والترميز، وكتابة التقرير
١١٧	الفصل الثالث: تحليل البيانات في ضوء النظرية
١١٨	ترميز وتحليل بيانات المقابلة
١٢٠	الترميز الأولي والترميز المؤقت
١٢٤	الرموز الأساسية والثانوية
١٢٨	الترميز وكتابة التقرير النظرى
١٢٨	طبيعة كتابة التقرير
١٣٠	التقارير وتوليد النظرية
١٣٦	المنطق الداخلى لتوليد النظرية
١٣٨	النظرية وتحليل البيانات
١٤١	بناء النظرية في سياق البحث المتعدد الاستراتيجيات
١٥٥	خاتمة: هل نسعى إلى استخلاص نظرية من البيانات؟

١٥٩	الفصل الرابع: البحث الاجتماعي والصلات بين المفهوم والمؤشر
١٦٠	مشكلة الصلات بين المفهوم والمؤشر
١٦١	المفاهيم والبيانات والقضايا المعرفية
١٦٥	أنماط الصلة بين المفهوم والمؤشر
١٨٥	خاتمة: بعض الدلالات العملية
١٨٩	الفصل الخامس: من النظرية إلى البيانات: بداية التنظير
١٩٠	استخدام المفاهيم الموجهة
١٩٢	اختيار المفاهيم الموجهة
٢٠٠	دور المفاهيم الموجهة في عملية البحث
٢١٢	تدقيق النظرية
٢١٣	التدقيق الأولي
٢١٨	التدقيق الثانوي
٢٢٠	التدقيق الثلاثي: الاعتماد على نظرية عامة
٢٢٩	خاتمة: التدقيق النظري والبحث الاجتماعي
٢٣٣	الفصل السادس: نحو نظرية تكيفية
٢٣٦	استخدام الأساليب الاستنباطية والاستقرائية
٢٣٩	نظريات الحقيقة: النزعة الإمبيريقية والمذهب العقلي
٢٤٣	طبيعة العلم الاجتماعي والواقع الاجتماعي
٢٤٦	التعقد والعلاقات بين الفعل/ البناء
٢٥٢	الجوانب العملية للنظرية التكيفية
٢٥٥	نطاق ومجال النظرية التكيفية
٢٥٧	ما هو المقصود بالتكيف في النظرية التكيفية؟
٢٦٥	المحور الإمبيريقى والنظري للنظرية التكيفية
٢٦٨	عناصر النظرية التكيفية
٢٧٤	مصادر النظرية التكيفية

٢٧٩	أنماط عملية توليد النظرية
٢٨٠	التأثيرات الثانوية
٢٨٣	النظرية التكوينية بالمعنى الصحيح
٢٨٥	خاتمة
٢٨٧	الفصل السابع: بعض قواعد المنهج الجديدة
٢٨٧	الخصائص العامة لمدخل النظرية التكوينية
٢٩١	هل هي قواعد جديدة للمنهج؟
٢٩٥	قائمة المراجع
٣٠٣	قائمة المصطلحات الانجليزية مترجمة إلى اللغة العربية

مقدمة الترجمة
إعلان للوفاق بين الآراء المتعارضة
حول التنظير في البحث الاجتماعي
بقلم
محمد الجوهري

علم الاجتماع الوضعي

قطع علم الاجتماع شوطا طويلا في رحلة التنظير والبحث على امتداد نحو قرنين من الزمان أو أقل قليلا. شهد في البداية تفلسفا اجتماعيا، أو محاولة لرؤية الحقيقة الاجتماعية (التي لم تكن قد اتخذت بعد شكل الحقيقة الواحدة) من منظور تطورها التاريخي، أو إطارها المعياري والقيمي، أو مدى قابليتها للتقنين بمفهوم القانون في العلم الطبيعي.....الخ.

ونلاحظ أن مفهوم علم الاجتماع في القرن التاسع عشر قد اصطبغ بمفهومه الذي كان شائعا في القارة الأوروبية أساسا، وتصور أوجست كونت (١٧٩٨ - ١٨٥٧) بالذات. وكان علم الاجتماع عنده بمثابة حجر الزاوية في فلسفته الوضعية. كان شاهدا على فكر متحرر وتقدمي يسعى إلى التخلص من كل تأملات ميتافيزيقية أو لاهوتية، ويستهدف الاستعانة بمناهج العلوم الطبيعية للوصول إلى نتائج مماثلة أو مقاربة لما توصلت إليه العلوم الطبيعية في فهم القوانين التي تنظم حياة المجتمعات والأفراد.

حقيقة أن كونت قد طالب بأن يصطنع علم الاجتماع في دراسته العلمية للظواهر الاجتماعية مناهج الملاحظة والتجربة و المقارنة، ولكنه لم يلتزم هو نفسه بتطبيق ما دعا إليه. فظلت كتاباته دائرة في نفس الفلك القديم، فقد

أوضح بالقول -فقط- ما يجب أن يكون عليه المنهج العلمى فى دراسة المجتمع، ولكنه لم يقدم لنا نماذج تبرز تمثله هذا المنهج الجديد. وهكذا فقدت الآراء الجديدة المتناثرة فى ثنايا كتاباته كل تأثير، ولم يلتفت إليها أحد.

حتى جاء عالم الاجتماع الفرنسى الأشهر إميل دوركايم (١٨٥٨ - ١٩١٦) فحاول جمع شتات ما جاء عرضا فى ثنايا كتابات كونت مثل: " أنه لا يمكن أساسا أن تتم ملاحظة سليمة إلا إذا وضع الباحث نفسه خارج الموضوع "، وأنه " لا تكون لأى حقيقة اجتماعية أهمية حقيقية إلا إذا ربطت مباشرة بحقيقة اجتماعية أخرى"، أو أنه "يمكن فى علم الاجتماع اعتبار الحالات المرضية معادلة للتجربة".

لم يكن ذلك كل فضل دوركايم، فإليه وإلى مدرسته يرجع الفضل فى ترسيخ المنهج الوضعى فى دراسة المجتمع، واستخدام الإحصاء فى دراسة الموضوعات الاجتماعية، والتتظير لطبيعة التحولات الاجتماعية المصاحبة للمجتمع الرأسمالى الفتى (آنذاك)، من خلال دراساته لموضوعات تقسيم العمل، والتكامل الاجتماعى و غيرها على أرضية أخلاقية (بمفهوم الأخلاق الاجتماعية لا اللاهوتية).

وتلقى الاتجاه الوضعى الإمبريقي فى علم الاجتماع بعد ذلك دفعة قوية من بحوث مدرسة شيكاغو فى الولايات المتحدة^(١). فقد عمدت جامعة شيكاغو إلى تشجيع هذا الأسلوب الجديد فى البحث. و إذا بالمجلة الأمريكية لعلم الاجتماع - وهى المجلة الرسمية للجمعية الأمريكية لعلم الاجتماع - تبدأ منذ عامها الرابع (سنة ١٨٩٩) تنشر بانتظام تقارير عن الدراسات الاجتماعية الحضرية التى أجريت فى شيكاغو. حيث تحولت تلك المدينة الكبيرة إلى " معمل اجتماعى" على حد تعبير عالم الاجتماع الأمريكى بارك (١٨٦٤ - ١٩٤٤). وقد ساهم بارك وزملاؤه من رجال الاجتماع فى تنمية وتطوير هذا الخط الجديد بدراسات جديدة وأصيلة. وأصبحوا يرسمون أسلوب العمل ويحددون الخط الذى تسير فيه البحوث الاجتماعية الأمريكية

(١) أنشئ أول قسم لعلم الاجتماع بجامعة شيكاغو عام ١٨٩٢.

فى فترة ما بعد الحرب العالمية الأولى، وهى الفترة التى أصبح فيها علم الاجتماع يرتبط لأول مرة بالبحوث الاجتماعية.

والى جانب جامعة شيكاغو كان لجامعة نيويورك فضل يذكر فى المزج بين علم الاجتماع النظرى والبحث الاجتماعى بمناهجه الكمية على وجه الخصوص. ويرجع فضل ذلك إلى عالم الاجتماع فرانكلين جينجز (١٨٥٥ - ١٩٣١) [ليس انتونى جينجز البريطانى المعاصر صاحب "الطريق الثالث"] وزملاؤه. ويمكن القول -مع نيقولا تيماشيف- أن، الإسهامات السوسيولوجية التى قدمها جينجز قد اتخذت اتجاهين أساسيين. ففى أعماله المبكرة اتسمت كتاباته بنزعة سيكولوجية طاغية. أما كتاباته الأخيرة فقد أكدت الاتجاه الكمي السلوكى، دون أن يهجر نزعة التطورية. وهكذا أصبح جينجز من رواد الاتجاه الوضعى المحدث فى علم الاجتماع، وهو الاتجاه الذى ازدهر خلال الربع الثانى من القرن العشرين.

من ذلك نرى بجلاء أن جامعتى شيكاغو ونيويورك قد قادتا عملية التحول التى اعتورت علم الاجتماع التقليدى، وقدمت لهذه العملية كل ما تحتاج إليه من وسائل معينة. وكان علم الاجتماع الأمريكى قبل ذلك الحين - على خلاف الحال فى القارة الأوروبية- يخضع لتأثير علم الاجتماع الاستنتاجى الذى كان يقول به هربرت سبنسر (١٨٢٠ - ١٩٠٣).

وشهدت بحوث علم الاجتماع فى شتى بقاع العالم خلال فترة ما بين الحربين وبعدها ازدهارا فائقا فى استخدام المناهج الكمية والكيفية على السواء، واحتفاء ظاهرا بتطويرها وتحسينها ورفع كفاءتها. ومع اختلاف الظروف والبواعث التى دعت إلى تطوير هذا النوع (الكمى) أو ذاك (الكيفى) من المناهج، فإن المؤكد أن النزعة الوضعية المحدثه، مع تعدد نظرياتها وأطرها التصورية، كانت تضع فى المحل الأول من اهتمامها جمع أكبر قدر من المادة الإمبريقية جمعا دقيقا منضبطا، من أجل النظر فى تحليلها وتفسيرها و استنتاج النتائج منها.

كذلك شهدت عشرينات القرن العشرين الإفادة من الاحصاء على نحو جديد لا كمجرد وسيلة لوصف الظواهر الكبيرة وصفا دقيقا، وانما كأداة تحليلية أيضا لأى قدر من البيانات. فإذا بنا نسجل حدوث ثورة فى استخدام

منهج العينة فى البحث الاجتماعى. وتعددت مجالات الإفادة من هذا المنهج واتسعت بفضل اعتماد كثير من الهيئات الحكومية عليها سواء فى أمريكا أو فى القارة الأوروبية. ومن أشهر المجالات التى استعين فيها بمنهج العينة دراسات السوق وغيرها من الأغراض التجارية، وقياس الرأى العام وبحوث الاتصال عموماً..... الخ ولم يعد هناك من بين رجال علم الاجتماع (آنذاك) من يحاول الطعن فى أهمية الأساليب الإحصائية فى البحوث الاجتماعية.

وأصبحت وسيلتا الاستبيان والمقابلة (أو الاستبار) - وقد كانتا معروفتان منذ أمد بعيد فى ميدان الخدمة الاجتماعية والمسح الاجتماعى ودراسات السوق - أهم طرق الدراسة فى البحوث الاجتماعية. وواكب التوسع فى استخدامهما نشاط فى تحسينهما وضبطهما من أجل زيادة دقتهما.

وأصبحت المناقشات المنهجية منذ ذلك التاريخ تشغل حيزاً متزايداً فى المجالات والكتب الاجتماعية المتخصصة. وإذا كان الانتقال من المسح الاجتماعى إلى البحث الاجتماعى الحقيقى بعد الحرب العالمية الأولى قد تميز بالتوسع فى استخدام الأساليب غير الكمية على يد مدرسة شيكاغو، فقد بدأت المناهج ذات الطابع الكمي البارز تفرض نفسها منذ أواخر العشرينات وأوائل الثلاثينات. و أخذت النزعة الوضعية المحدثة ترسخ أقدامها فى حقل البحوث الاجتماعية (كما تمثل ذلك عند جورج لندبرج على وجه الخصوص) وظهرت بعض الدراسات الرائدة التى أبدت حذقاً كبيراً فى الانتفاع بهذه المناهج الكمية فى دراسة موضوعات محددة تحديداً دقيقاً. وتجلى الاهتمام الكبير بالمسائل والمشكلات المنهجية فى أن الكتب الدراسية وكتب المدخل الخاصة بالبحث الاجتماعى كانت تستطيع فى بداية الأمر أن تستوعب الحديث عن مناهج البحث الاجتماعى كلها، ثم إذا بهذه الكتابات تنمو وتتسع بحيث أصبحت تستعصى على المعالجة بين دفتى كتاب واحد. ولم يعد بوسع باحث واحد بمفرده أن يتابع كل ما ينشر فى هذا الميدان، وأن يلم بكل جديد فيه. وكان من شأن هذا كله أن تكون الانطباعات بأن البحث الاجتماعى الحديث قد غرق فى دراسة أمور منهجه. ثم كان من شأن إنشاء بعض الأجهزة والمجلات وغيرها من الأدوات المتخصصة أعظم الأثر فى خلق نوع من التنسيق والتوجيه الذى يعين السفينة على مواصلة طريقها إلى الأمام بنجاح.

بدايات النقد

ومع أن علم الاجتماع منذ دوركايم وحتى روبرت ميرتون (١٩١٠ - ١٩٩٢) لم يتوقف عن الاشتغال بالتنظير على نحو ما رأينا، إلا أن المسرح السوسيولوجي ظل يشهد مع ذلك عناصر رافضة، أو لنقل ناقدة، لذلك العلم الاجتماعي البورجوازي (في نظرهم) الذي بات عاجزا عن ملاحقة التغيرات التي طرأت على المجتمع الرأسمالي في مراحلها اللاحقة "المتقدمة". وانطلق هذا النقد من أرضية النظرية السوسيولوجية، فظهرت النظرية النقدية التي طرحت رؤية جديدة لتطور المجتمع الرأسمالي، ووجهت مزيدا من النقد للماركسية الأصولية التي انطلقت منها، واستهدفت في النهاية صك مفاهيم ومصطلحات جديدة للتعامل مع التطورات الأحدث في مجتمع الرأسمالية المتقدمة. ومع أن النظرية النقدية بدأت في إطار مدرسة فرانكفورت (وهي تعرف أحيانا باسم مدرسة فرانكفورت) للبحوث الاجتماعية التي تأسست في عام ١٩٢٣ كمركز للبحوث ذات التوجه الاشتراكي، إلا أن جهودها تبعثرت بفعل الزلزال النازي، ولم تسترجع عافيتها إلا خلال الخمسينات وبلغت ذروة التأثير إبان الستينات (الحقبة الراديكالية في كل ميدان: الأدب، والفن، والسياسة، وخاصة الحركات الطلابية).

ويمكن القول من باب التبسيط - دون إخلال بالحقيقة - أن النظرية النقدية كانت بمثابة إرهاب فعلى العديد من التيارات الأخرى المؤثرة، والتي عرفها الفكر الإنساني في الفن والعلم الاجتماعي على السواء على امتداد النصف الثاني من القرن العشرين. فنقدتها للتفسير القائم، الذي يقوم على الشرح، هو الذي أعطى دفعة لحركة التأويل، التي تسعى إلى التفسير ومن ثم الفهم. وبذلك كانت الحركة النقدية قوة لدعم أصحاب الهرمنيوطيقيا (نترجمها بالتأويل)، التي سنفرد لها فقرة خاصة. ليس هذا فحسب بل إن النظرية النقدية كانت إرهابا حقيقيا لفكرة ما بعد الحداثة، وإن لم تسع إلى ذلك، أو تتوقع على الأقل المدى البعيد الذي انطلق إليه أصحاب ما بعد الحداثة. وسوف نرى تفصيل ذلك في فقرة لاحقة.

والأساس الأول للنظرية النقدية هو رفض بعض الأفكار الجوهرية للمدارس الفكرية التي كانت تتسيد مسرح الفكر الغربى آنذاك، خاصة فى علم الاجتماع الذى يهمنى التركيز عليه هنا. فانطلقت من نقد الوضعية، سواء كانت محدثة أو تقليدية. ووجهت سهام نقدها - بداهة - إلى الثمرة اليائحة للفكر الوضعى: النظرية الوظيفية. على أن الأمر لم يقتصر على ذلك، وإنما امتد إلى نقد بعض المقولات المهمة فى الماركسية الأصولية. ولعل هذا ينتهى بنا إلى نتيجة مهمة، أو قل "إنجاز" باهر من إنجازات النظرية النقدية، ألا وهو نقد النظريات الكبرى والتعميمات الكاسحة بكافة أنواعها وتوجهاتها، أو التحفظ عليها بقوة (فى أحسن الأحوال). وكان ذلك بداية لوضع جديد أصبحت فيه الحياة اليومية للناس فى المجتمع هى محل الاهتمام الأول والأثير لدى علماء الاجتماع (شجع على ذلك بالطبع تطورات مهمة على صعيد النظرية، تجلت فى ازدهار التفاعلية الرمزية، و الفينومينولوجيا، والإثنوميثودولوجيا وغيرها من الاتجاهات).

هذا على الصعيد النظرى، أما على الصعيد المنهجى فقد صبت النظرية النقدية جام غضبها على التوجه الإمبريقى فى البحث الاجتماعى. (*) وهو نقد مترتب على رؤيتها للواقع الإنسانى، ومتأسس على نظريتها فى المعرفة.

فالنظرية النقدية شكل من أشكال المذهب العقلى Rationalism، فتختلف بذلك عن أولئك الذين يقولون أن المعرفة تتبع من خبرتنا الحسية (وهو الأساس المعرفى للإمبريقية). فالأساس أن البشر كائنات عاقلة (رشيدة). وإذا كان هيجل قد قال: "ان الواقعى عقلى"، فإن النظرية النقدية ترى أن "الواقعى يتعين أن يكون عقلياً". والعقلية فى هذا السياق النقدى لا تشير الى المنطق الصورى، وإنما تدل على عملية فكرية جدلية، يكون فيها الكل أكثر من

(*) يهمنى أن أوضح هنا أنه إذا فهمنا الإمبريقية على أنها تعنى الاحتكام إلى الواقع، فإننا فى إطار البحوث الإمبريقية نلجأ إلى مناهج كمية تماماً كما نستعين بالمناهج الكيفية. فالإمبريقية بمعناها الواسع تأخذ فى اعتبارها الوثائق التاريخية، والزاجم الشخصية، والسجلات الحكومية والخاصة على السواء... الخ كما تحاول ضبط الملاحظة. وهى فى النهاية لا يمكن أن تقترب من هذا الواقع إلا فى ضوء مفاهيم نظرية معينة تحدد لها المقصود بالفعل الاجتماعى، والدور الاجتماعى، والجماعة... الخ. لذلك يمكن القول بأن البحث الإمبريقى الذى يضرب صفحاً عن التنظير كلية - مهما تواضع مستواه - قد جانب الصواب، لأن صاحبه شرع فيه، وسار خطواته معه وهو معصوب العينين.

مجموع أجزائه، وفيها تظهر التناقضات باستمرار وتختفى فى إطار قضايا تركيبية جديدة.

وفى رأى هيجل أن التاريخ كان يتحرك بلا هوادة تجاه نهاية عقلية (رشيدة)، ولكن التفسير الماركسى لهيجل عند أصحاب النظرية النقدية قد استبعد نهائيا فكرة الحتمية وربط عملية التطور التاريخى بالممارسة الإنسانية. ويمكن أن نتابع الفكرة بأجلى صورها فى أعمال جورج لوكاتش على أى حال.

وترى النظرية النقدية أننا نستطيع من واقع فكرة العقلانية أن نستنتج الشكل الأساسى للمجتمع العقلانى. فنحن جميعا بفضل كوننا بشرا نمتلك خاصية أو إمكانية القدرة على التفكير العقلى الرشيد. ومن هنا فان المجتمع الرشيد هو ذلك الذى نشارك فيه جميعا من أجل خلق بينتنا وتعديلها على النحو الذى نريده لأنفسنا. وهذه النقطة نفسها هى التى تزودنا بالمعيار الذى على أساسه وبهدى منه نستطيع تقويم ونقد المجتمعات القائمة فى الحاضر: وهى مجتمعات تستبعد من المشاركة فى حياتها الاقتصادية والسياسية بعض الجماعات، كالجماعات الإثنية أو ربما أحيانا جماعات الطلاب، بوصفها تمثل بؤرا محتملة لرفع لواء المعارضة. ولكن أدورنو كان يتميز بأنه يرى بعض علامات الأمل وراء تلك الثقافة الثورية (أو الريادية) الجديدة، يمكنها على أقل تقدير أن تحمل الناس على ممارسة التفكير. ومن أشهر الأعمال التى صدرت عن جماعة مدرسة فرانكفورت كتاب الشخصية التسلطية لأدورنو وزملائه (١٩٥٠) وكتاب الحب والحضارة لهربرت ماركوز (١٩٥٥) اللذان اعتمدا على التحليل النفسى لكى يقدمتا نظرية فى الإيديولوجيا، تستطيع أن تفسر لنا كيف يخضع الناس للسيطرة، ولكن الأهم أنها تفسر لنا كيف يريد الناس الخضوع للسيطرة.

أما مؤلفات هابرماس فتختلف مذاقا عن تلك النوعية، حيث نجدها تقترب بشكل أوثق من نظرية النسق عن تالكوت بارسونز، وإن ظلت محتفظة مع ذلك بالبعد النقدى فيها حيا ونشطا. ويختلف هابرماس عن الجيل الأول من مفكرى مدرسة فرانكفورت فى رغبته فى تشييد نظرية اجتماعية منظمة وحرصه على أن يؤمن للتفكير الذرائعى مكانه شرعية معترفا بها فى بنائه

النظري الجديد هذا. وقد أفسح هابرماس مكانا معترفا به للتفكير الذرائعي، واستخدم التحليل النفسي كنموذج لوصف ما يقصده بالعلم التحرري أو العلم الذي يخدم وظيفة تحرير العقل البشري. فهو في رأيه لا يقتصر على إنتاج معرفة جديدة وحسب، وإنما يمكننا من أن نصبح واعيين بانفسنا وقادرين على تغيير أنفسنا كذلك. ومن شأن ذلك أن يزيل كل ما يشوب عمليات الاتصال من تشوه وعدم تكافؤ.

وقد حدد هابرماس في كتابه المعرفة و المصالح البشرية (الصادر عام ١٩٦٨) ما أسماه ثلاثة مصالح معرفية مشتركة لدى جميع البشر. المصلحة الأولى مصلحة تقنية فنية تتمثل في معرفة البيئة المحيطة وفي السيطرة عليها والتحكم فيها، وهذا الجانب هو المسئول عن قيام العلوم الطبيعية ذات التوجه الإمبريقي أساسا. ثم هناك مصلحة عملية تتمثل في قدرة كل منا على فهم الآخرين وعلى العمل المشترك والتعاون في مناشط الحياة، وهذه المصلحة هي المسئولة عن قيام علوم التأويل. وهناك أخيرا مصلحة تحريرية تنطوي على الرغبة في تخليص أنفسنا من كل ما يعمل على تشويه عمليات الفهم والاتصال، وهي المصلحة المسئولة عن قيام العلوم النقدية كالتحليل النفسي.

ونلاحظ وراء هذه الآراء مراجعة نقدية جذرية لنظرة الماركسية الأصولية الى طبيعة الوجود الإنساني. فهابرماس ينظر الى العمل كعنصر مهم في الوجود البشري، ولكنه يعتبره العامل المسئول عن توليد أول تلك المصالح المعرفية الثلاثة. ولكننا كبشر نتميز أيضا بالاضافة الى ذلك باننا كائنات مستخدمه للرموز، وهذه قضية تمثل في نظره مرتبة متقدمة من الأهمية، وتلك السمة هي المسئولة عن توليد المصلحتين المعرفيتين الثانية والثالثة. ولذلك كان هابرماس يرى بوضوح أننا لا نستطيع الدفاع عن أي شكل من أشكال الحتمية الاقتصادية، اللهم إلا بالنسبة لفترة فجر الرأسمالية، وهي فترة زمنية محدودة تاريخيا.

وقد اعتمد هابرماس على عدد من العلوم في تطوير نظرية تطويرية في التاريخ ذات خطوط عريضة. وكان يحدد المراحل التطورية في ضوء ازدياد مستويات العمومية، ويرى أن كل مستوى يطرح على البشرية مشكلات جديدة ويقدم لها فرصا وامكانيات جديدة، كما ان كل نمط من أنماط المجتمعات كان

يحكمه مركب تنظيمي خاص به. من هذا مثلا أن المجتمع القبلي كانت تحكمه نظم القرابة، والراسمالية المتأخرة تحكمها نظم الدولة. وفي تحليله للرأسمالية وضع يده على عدد من الأزمات التي يتحرك النظام عبرها. ونجد أن تحليله للمرحلة المبكرة من الرأسمالية كان يتم على أسس قريبة من تحليل ماركس لها، حيث أوضح فيه أن الأزمات الاقتصادية تمثل المشكلة الرئيسية.

وقد تبين هابرماس أن التدخلات السياسية التي تستهدف التصدي للمشكلات الاقتصادية من شأنها أن تخلق أزمة في التفكير العقلي، وذلك بسبب استحالة تأسيس نظام اجتماعي مستقر على اقتصاد سوق غير مستقر، وهو الأمر الذي يمكن أن يؤدي - بدوره - إلى أزمة شرعية تفقد فيها الدولة شرعيتها نتيجة عجزها عن التوفيق بين المطالبات المتعارضة التي توجه إليها، الأمر الذي يستوجب وجود نوع من تخطيط النظام الاقتصادي القائم. ولكن الدولة إذا نجحت في التوفيق بين المتطلبات المتعارضة للمصالح المختلفة، فإن ذلك يؤدي إلى إضعاف أخلاقيات العمل والدوافع التنافسية، الأمر الذي يقود إلى أزمة دافعية يمكن أن تعمل كذلك على تهديد التكامل الاجتماعي.

وبلاحظ هنا أن النموذج الذي يتبناه هابرماس لا يستند إلى فكرة المجتمع الرشيد بصورتها التقليدية التي كانت معروفة بها في النظرية النقدية، وإنما ينهض على مفهوم نموذج موقف الكلام. وأساس ذلك أننا كبشر نتميز جميعا بأننا مستخدمون للرمز ونؤدي مهام حياتنا الاجتماعية بالعمل المشترك، وهو الأمر الذي يطرح نموذجا اجتماعيا يكون فيه الاتصال حرا لا تشوّه أشكال عدم التكافؤ الاجتماعي، والقمع الخارجي، أو القهر الداخلي. وهكذا نتبين بجلاء أن النظرية النقدية - مجسدة في أبرز أعلامها - قد احتفت بتشديد النظريات وأثرت الفكر النظري في علم الاجتماع من خلال نقدها للواقع الاجتماعي المعاصر، وللبنى النظرية التي تتولى التنظير لهذا الواقع وتفسيره. فهي إذن لم ترفض التنظير أو تهدمه و تشكك فيه على نحو ما فعل مفكرو ما بعد الحداثة.

هكذا يمكن أن نفهم نقد النظرية النقدية للنزعة الإمبريقية التي كانت مسيطرة على علم الاجتماع بوصفها تفتيتا للواقع من شأنه أن يؤدي إلى حجب رؤية الكل (لأن هذا الكل أكثر من مجموع أجزائه). ومن هنا يمكن أن

نفهم أيضا المكانة المركزية التي بات يحتلها التحليل البنائي التاريخي في إطار النظرية النقدية.

وإلى النظرية النقدية يرجع فضل كبير -لا ينكره إلا جاحد- يتمثل في كشف الهيمنة بأنواعها في المجتمع الحديث، خاصة هيمنة الثقافات الأقوى على الثقافات الأضعف. وليس بعيدا عن ذلك فضحها للمركزية الأوروبية التي تجد أقوى تمثيل لها في نظريات التحديث. ولكن النتيجة الأبرز لذلك هو الاحتفاء بالخصوصية الثقافية وبالروح المحلية (والتي تتجسد في ازدهار دراسة الثقافات الفرعية في حقل علم الاجتماع والأنثروبولوجيا).

وهذا الاهتمام ببعد القوة والمعرفة في المجتمع كان علامة على اهتمام أوسع واشتغال أكثر تركيزا بمفهوم العلم، خاصة الاجتماعي، في المجتمع المعاصر. وكان من ثمار ذلك الاجتهاد في تعريف "ما هو علمي" في العلم الاجتماعي، إبرازا لخصوصية ذلك العلم، وكذلك تسليط الضوء على الدور السياسي لعلماء الاجتماع، انطلاقا من نقد دورهم خلال النصف الأول من القرن العشرين، ومرورا بنقد الحياد الأخلاقي (المزعوم في نظرهم) عند علماء الاجتماع، وانتهاء بدعوتهم إلى الاضطلاع بدور سياسي ينهض على وعي جديد، ويخلق لهذا العلم دورا جديدا يختلف عن دوره حتى الآن، خاصة نقد الاستخدام اللا أخلاقي لنتائج العلوم الطبيعية.

النزعة الإنسانية

اتخذت النزعة الإنسانية مسارا نقديا آخر، ونبت على أسس مختلفة بعض الشيء. ويتمثل لب النزعة الإنسانية في طائفة عريضة من الفلسفات والرؤى النظرية التي تتمركز حول الاعتقاد بأن مصلحة الإنسان وكرامة الإنسان يجب أن يحظيا بالمرتبة الأولى من الأهمية، في أي شأن، بحثا كان أو سياسة. ومن فضول القول أن نشير إلى جذور النزعة الإنسانية في التراث الإغريقي، أو في ثقافة عصر التنوير. ويكفي أن نؤكد على موقفها -مع ما بينها من اختلافات- الذي سبق أن بشر به بروتا جوراس، وهو أن "الإنسان هو مقياس كل الأشياء"، أو بشر به بوب وهو أن "الدراسة الحقة

للإنسانية هي الإنسان". فهي تتفق -كما يوضح مارشال- على أن طبيعة العالم تكمن في أن المقصد الإنساني والنشاط الإنساني يمكن أن يلعبا دورا حاسما في التأثير على المشروع الإنساني، بحيث لا يخضعان إلا للعوامل المؤثرة على السياق الاجتماعي.

وتظهر النزعة الإنسانية بصور عديدة في العلوم الاجتماعية المعاصرة جميعا تقريبا، في الماركسية (الإنسانية) وفي علم النفس، وفي علم الاجتماع بطبيعة الحال. وقد تجسدت النزعة الإنسانية في علم الاجتماع في تلك الكتابات التي تعارض التوجهات الميكانيكية (في رأى تلك الكتابات)، والاتجاهات ذات التقنيات المنهجية التي تنجح إلى المغالاة، وكذلك الاتجاهات المغرقة في التجريد، وأخيرا التوجهات الحرفية. وتجتهد الكتابات الإنسانية أن تقدم عوضا عن ذلك تحليلا اجتماعيا "في خدمة الإنسانية"، ومن ثم يلعب أصحابها دور النقاد، ودعاة التنوير، والمراقبين، و الشراح.

وأبرز الأسماء التي ارتبطت بالنزعة الإنسانية السوسيولوجية ألفرد ماكلونج لي وتشارلز رايت ميلز و روبرت نيسبت وغيرهم، ممن عرض مارشال لأهم مؤلفاتهم. ولقد حدد كين بلامر في عرضه للمشكلات والتراث في منهج علم الاجتماع الإنساني أربعة محكات لعلم الاجتماع الإنساني : فهو يولى اهتماما للذاتية الإنسانية والإبداع موضحا كيف يستجيب الأفراد للضوابط الاجتماعية، وكيف يقومون بدور إيجابي في تشكيل عالمهم الاجتماعي، وذلك لأنه يهتم بالخبرات الإنسانية الملموسة -كالكلام والمشاعر والأفعال- عبر تنظيمها الاجتماعي والاقتصادي. ويكشف عن ألفة حميمة، وطبيعية بمثل هذه الخبرات، ووجود وعي ذاتي لدى عالم الاجتماع بالدور الأخلاقي والسياسي نحو تحقيق بناء اجتماعي به قدر أقل من الاستغلال والقهر والظلم.

كذلك تجسد أعمال عالم الاجتماع الأمريكي روبرت نيسبت علم الاجتماع الإنساني، والسمة الغالبة عليها مزج وتضفير علم الاجتماع بكل من الفلسفة والتاريخ، وهي العلوم الثلاثة التي كان يرى أنها يجب ألا تنقسم أبدا. وقد صنف مؤرخو النظرية السوسيولوجية نيسبت كواحد من المحافظين المحدثين، ومن المؤكد أنه كان من أصحاب الاتجاه الأخلاقي. والحقيقة أن

مؤلفاته تهتم بدراسة وفحص الأزمة الأخلاقية للحدثة، وبعملية تركيز القوة في الدولة البيروقراطية، وغموض تراث نزعات الحرية والتحرر.

وقد بدأنا منذ السبعينات نقرأ نقدا قويا للنزعة الإنسانية في كتابات البنيويين والتفكيكيين. وتقدم أعمال ميشيل فوكو -على سبيل المثال- دراسة أركيولوجية لتطور المعارف التي تركز على الذات الإنسانية، كما وجدنا المؤلفات السيميولوجية (علم العلامات) لجاك ثيريدا و رونالد بارت تعلن موت المؤلف، وتقول بالطبيعة "غير المركزية" للأشياء، ومن ثم فإنها أرادت أن ترحل الذات الإنسانية عن النقطة المركزية للإبداع. ونجد كذلك لوى ألتوسير يذهب إلى أن الإيمان بالإنسان هو كارثة معرفية، وأن هذا الإيمان ليس سوى "نزعة مثالية للماهية"، "وخرافة من خرافات الإيديولوجيا البورجوازية". ورغم ضراوة مثل هذا الهجوم، ظلت النزعة الإنسانية تمارس تأثيرا قويا على الفكر الغربي والثقافة الغربية.

وما من شك في أن الاتجاهات الإنسانية في علم الاجتماع مثلت مع سائر الاتجاهات النقدية والمابعد حدائية خلفية للنظرية التكوينية التي يبسطها الكتاب الذي بين أيدينا. (راجع مادتي المذهب الانساني، والاتجاهات الإنسانية في علم الاجتماع في موسوعة علم الاجتماع، التي ألفها جوردن مارشال، وتصدر ترجمتها العربية بإشراف كاتب هذه السطور ضمن المشروع القومي للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة).

ما بعد الحداثة

لا أريد أن يفهم القارئ من تتابع فقرات هذا العرض نوعا من انتهاء مرحلة ودخول أخرى جديدة، أو أقول نظرية وبزوغ أخرى غيرها، فالفكر الانساني تيار متدفق، تتداخل مياهه، ولكنها تتزود كل حين وآخر بدفقة جديدة تثرى ذلك التيار، وتجدد فيه شيئا، وقد تضيف إليه أبعادا جديدة، وتلفت النظر إلى نواحي القصور في التراث الانساني القائم.

فالوضعية فى علم الاجتماع قديمة، تجدد نفسها، قد تتجح وتصادف قبولاً هنا وفشلاً هناك، ولكنها تستمر، قد تخرج من "الموضة" ولكنها تعيش تغذى قطاعاً من الباحثين، كذلك النظرية النقدية قديمة ممتدة، وإن ازدادت سخونة فى الستينات. ويصدق نفس الكلام على فلسفة التأويل، والنزعة الإنسانية فى علم الاجتماع وغيرها.

وينسحب نفس التعميم على تيار ما بعد الحداثة، فهى نفسها ليست سوى حلقة فى سلسلة متصلة من التطور الفكرى الإنسانى، على صعيد العلوم والفنون والآداب، ومن بينها علم الاجتماع.

والحداثة نفسها - التى ثارت عليها ما بعد الحداثة - كانت فى حينها ثورة على المجتمع التقليدى، أو العالم الذى تحكمه التقاليد، ثم ازدهرت الحداثة وترسخت، ولكن تطرفت أو تطرف مجاذيب الحداثة فى حبها والإيمان بقدراتها، إلى الحد الذى جعلها تقصر - فى نظر قلة فى البداية - عن فهم تطورات العالم المعاصر آنذاك، وعن ملاحقة ما يطرأ على ذلك العالم من تغيرات سريعة وعنيفة، بل ومأساوية أحياناً.

وهذا الإحساس الجديد بإخفاق الحداثة هو ثمرة مباشرة لتطرف دعاوى الحداثيين وطموحهم الزائد، وإيمانهم القاطع والكاسح بالقدرة على تفسير كل شئ، ومن ثم التحكم فى كل شأن من شئون الإنسان، وهو الأمر الذى ثبت خطؤه - ليس تماماً أو كلية بالطبع - ولكنه اهتز على أى حال، وباتت مقدرة العلم الإنسانى على فهم العالم الاجتماعى وعلى التحكم فيه محل شك وجدل كبيرين.

وهكذا جاءت ما بعد الحداثة تعبيراً عن نقد متعمق للحداثة، ومحاولة لتقديم رؤية جديدة للعلم ورسالته، وفى الأساس نقد لهذا العالم الذى نعيش فيه.

ويؤكد مارشال أن هناك قدراً من الاتفاق على مدلول هذا المصطلح: "ما بعد الحداثة" كتعبير عن بناء نظرى جديد، فهو يضم مختارات من كتابات بعض المؤلفين مثل جان فرانسوا ليوتار، وجان بودريار، التى تدعمها قراءة خاصة لطائفة أخرى من كتابات مفكرى ما بعد البنيوية، مثل: جاك لاكان، و

رولاند بارت، وميشيل فوكو، وجاك ديريدا.^(*) وما أن ننتقل إلى التساؤل عن العناصر المشتركة محل الاتفاق داخل هذا البناء النظرى (وكذلك نظائره فى ميادين العمارة، والفن السينمائى، والنقد الأدبى) حتى نكتشف بسرعة أنها محدودة، فليس هناك الكثير مما تجمع عليه كافة تيارات ما بعد الحداثة.

وقد أعلن ليوتار فى مؤلفه: "حالة ما بعد الحداثة"، الصادر عام ١٩٧٩ أن أبناء المجتمعات الرأسمالية المتقدمة يعيشون فى عالم ما بعد الحداثة فعلا منذ الستينات على الأقل. وهذا الادعاء هو الذى جعل نظرية ما بعد الحداثة موضوعا للدرس السوسيولوجى. والشئ الجديد فى دعوة ليوتار لإعلانه أن ما بعد الحداثة حالة اجتماعية من نوع خاص، وليست مجرد أسلوب إبداعى جديد أو نظرية جديدة. فهى فى نظره حالة يسودها التسليم العام - وإن جاء متأخرا بعض الشئ - بأن الأسطورتين الرئيسيتين أو نسقَي التفسير اللتين ظلت تضيفان المشروعية على كافة ألوان النشاط العلمى (بما فى ذلك طبعا العلوم الاجتماعية) طوال القرنين الماضيين، هاتان الأسطورتان لم يعد يؤمن بهما اليوم أحد.

الأسطورة الأولى التى انكشف فسادها هى أسطورة التحرر، فقد فقدت مصداقيتها بسبب اشتراك كل العلوم وتواطؤها فى اقتراح الجرائم الكبرى التى شهدتها القرن العشرون، ومن بينها محارق النازية، وجرائم السوفييت، وصنع أسلحة الدمار الشامل التى لا تميز بين العدو والصديق.

وتؤكد تلك النقطة أنه إذا نظرنا إلى ما بعد الحداثة كحركة لنقد الحداثة، فمن الطبيعى أن تكون لهذه الحركة الجديدة توجهات اجتماعية أخلاقية، بعد توجيهها الاجتماعى الإنسانى الذى أشرنا عليه. ويتجلى هذا التوجه الأخلاقى فى نبذ الأحكام العامة، وهى فى موضوعنا هنا النظريات الكبرى، والاتجاه إلى الأحكام الأضيق نطاقا، وإلى النسبية ذات الإطار الثقافى المحلى. وهذا الاحترام للخاص والمحلى يعطى مساحة أكبر للتوجه للأخلاقى الإنسانى على نحو يفوق ماجرى عليه الشأن لدى الحداثيين.

^(*) يشير مارشال إلى أنه يتعين علينا أن نلاحظ أن أغلب هؤلاء المفكرين، إن لم يكن كافهم، يرفضون إطلاق هذه التسمية على كتاباتهم، وهو أمر يبدو فى نظر البعض مدعاة للسخرية فعلا.

وكان من شأن التأكيد على هذا البعد وكثيرة لحركة النقد عموماً أن أُلقيت أضواء كاشفة على تلاعب السلطات السياسية والعسكرية في العالم الرأسمالي المتقدم بالبحث العلمي وبالباحثين العلميين. وهنا للأسف وجد العلماء الاجتماعيون أنفسهم في موقف شديد الشبه بزملائهم العلماء الطبيعيين، حيث بات كلا الفريقين موضع استغلال السلطات في كثير من الدول، التي تسخر جهودهم وعلمهم لزلزلة بعض نظم الحكم، أو إثارة القلاقل وشق الصفوف، أو إشعال الحروب الأهلية والنزاعات الحدودية وغيرها أو إلهاء الشعوب عن أطماع مستغليها.....الخ.

من هنا بدأت الأبعاد الأخلاقية في ممارسة العلم الاجتماعي تأخذ مكانة بارزة، وتلتفت إليها كل الأنظار، فنشطت حركة وضع المواثيق الأخلاقية التي تضبط ممارسة البحث العلمي، ونشر نتائجها، ووضعها موضع التطبيق، وتقويم آثارها ونحو ذلك. وبديهي أن الوضعيين (الحداثيين) كانوا ينفرون من حديث الأخلاق، أو على الأقل يتجاهلونه، لأنهم يضعون الالتزام بالمعايير العلمية ويضعون الضبط المنهجي فوق أي معايير وفوق أي نوع آخر من أنواع الضبط.

أما ثاني أساطير الحداثة التي سقطت وفقدت مصداقيتها في رأي ليوتار فهي أسطورة الحقيقة. وقد أرجع انهيار مصداقيتها إلى الأفكار المتشككة التي وردت عن مؤرخي العلم وفلاسفته، على نحو ما نجد مثلاً في نسبية باول فاير أبند وتوماس كون. فهي عبارة أخرى إنكار ورفض لتصديق أولئك الذين يفترض أنهم يعلمون.

من هنا يرى مفكرو ما بعد الحداثة أن الحقيقة لم تعد حقيقة واحدة مؤكدة، ولم تعد خارجية، ولم تعد ملزمة (أدعو القارئ أن يتذكر تشخيص ملامح الظاهرة الاجتماعية عند دوركايم). وإنما باتت الحقيقة تتعدد بتعدد الرؤى الثقافية والتصورات الذاتية، على نحو ما نجده عند الثقافات الفرعية: النوعية، أو الطبقيّة، أو الجيلية (خاصة ثقافة الشباب)....الخ.

ولاشك أن التأكيد على نسبية الحقيقة الاجتماعية، وإمكانية تعددها (بتعدد المنظورات)، وضرورة تخيرها المستمر كان من إسهامات الحركات

النقدية في العلوم الاجتماعية، كما كان أيضا من عمل بعض تيارات ما بعد الحداثة.

فإذا كان الأمر كذلك بالنسبة للحقيقة الاجتماعية، فطبيعي أن يتهاوى أى أساس معقول لنظريات كبرى، أو تعميمات كاسحة، أو قواعد تدعى العمومية من أى نوع. ويمتد النقد، أو قل الهدم، إلى البحث الاجتماعى الذى ينطلق من نظرية عامة من هذا النوع، وتروج لبحث اجتماعى من نوع جديد وفهم جديد.

والنتيجة النهائية لحالة فقدان المصداقية بشكل عام تجاه مثل هذه الأساطير أو أنساق التفسير أن أصبح أبناء المجتمعات الرأسمالية المتقدمة - فى رأى ليوتار - يعيشون اليوم فى عالم يتسم بالخصائص التالية: ليست هناك ضمانات سواء بالنسبة لقيمة ما يبذلونه من أنشطة وجدواها، أو لصدق العبارات التى يرددونها، وكل ما هناك ليس سوى "ألعاب لغوية"، وأخيرا لم تعد هناك ثمة قيود اقتصادية على المجال الثقافى.

وقد عبر مارشال عن دهشته من أن الناقد الأدبى الماركسى الأمريكى فريدريك جيمسون هو الذى قدم لنا أدق وأوفى وأهم وصف لثقافة العالم الجديد، عالم ما بعد الحداثة. وبسط جيمسون ذلك فى ثنايا كتابة الهام: ما بعد الحداثة، أو المنطق الثقافى لمرحلة الرأسمالية المتأخرة، الذى صدر عام ١٩٨٤، حيث أبرز بجلاء الأشياء التى يستشعر مفكرو ما بعد الحداثة حساسية خاصة تجاهها، وتلك التى أسهموا بفكرهم فى تحقيقها. ويرى جيمسون أن مراجعة النقد الجمالى والفلسفى والاجتماعى الحديث سوف يكشف لنا عن أشكال متعددة من الإحساس بنهاية هذا أو ذاك من الأمور أو الظواهر، ويخلص إلى تقديم ملامح صورة لثقافة تهتم اهتماما بارزا بالسطح وبالظاهر والخارجى، ومن ثم تتسم بعدم العمق. ثقافة تتحرق شوقا إلى التنوع فى تزيين أو تشكيل هذا السطح الخارجى، ولذلك تكون فائقة البراعة فى المزج بين إبداعات السابقين^(١) وفى إهمال الزمن التاريخى. وهى أيضا ثقافة

(١) استخدم جيمسون مصطلح *pastiche*، ولعله إشارة إلى شئ قريب من فن المعارضات، ويعنى العمل الفنى (أديا كال أو فنيا موسيقيا) الذى يحاكي فيه صاحبه أسلوب عمل فنى سابق. وكذلك إلى فكرة المجموع (وجمعها: المجاميع) التى تشير إلى لحن أو أثر أدبى مؤلف من مختارات من ألحان أو آثار أدبية مختلفة.

تعى افتقادها للعمق، ولذلك تتسم بالولع بالسخرية، وبانحسار العاطفة أو البخل الواضح فى التعبير عن العواطف المتأججة. كما أنها ثقافة مفتونة بالحالات النفسية الفصامية (الشيزوفرينية)، ولذلك تسهم فى إحداثها عند الأفراد. وهى أخيرا ثقافة يوتوبية (خيالية) على نحو مذهب، على أساس أن ما تحلم به هو ما ستحصل عليه.

ويشير مارشال إلى اهتمام علماء الاجتماع اهتماما فائقا بالبحث فيما إذا كان هناك ثمة وجود لحالة اجتماعية اسمها ما بعد الحداثة، أم أنه لا وجود لها كحالة اجتماعية، وإذا كان لها وجود، فما هى أسباب وجودها (ولاشك أن هذا التساؤل عن الأسباب راجع إلى إسقاط أصحاب ما بعد الحداثة أى اهتمام بالبحث فى ذلك، وسعادتهم به أيضا). ونوافق مارشال عندما استغرب أن قلة قليلة فقط من أولئك الذين يقرون بوجود ما بعد الحداثة كحالة اجتماعية قد طرحوا على أنفسهم سؤالا عما يمكن -أو ينبغى- أن يحدث لعلم الاجتماع نفسه، لو أنه أخذ أفكار ما بعد الحداثة مأخذ الجد. ويمكن القول بأن كتاب لايدر -الذى نقدم له- يمثل استجابة مبدعة لما بعد الحداثة على صعيد مشكلات التنظير وعلاقته بالبحث الاجتماعى.

فقد أكدنا فى ثنايا حديثنا خطورة دعوة ما بعد الحداثة إلى الخروج من أسر النظريات الكبرى والأحكام العامة، وتوجيهها إلى الاعتماد على تعبير الذات البشرية عن أنفسهم، وعلى نظرتهم إلى الحقيقة. يضاف إلى ذلك أن تزامن ما بعد الحداثة مع ثورة المعلومات، والنمو الهائل فى حجم المعارف المتاحة للإنسان فى مجتمع العولمة قد أدى إلى أن تضع تيارات ما بعد الحداثة تعدد روافد المعرفة وتنوع مصادرها فى المحل الأول من اعتبارها. ويعنى ذلك -من ضمن ما يعنى- تأكيد ما بعد الحداثة على أن العلم ليس هو المصدر الأوحد للمعرفة (وهى العقيدة الأساسية عند الوضعيين)، وإنما تضيف إليه الحدس، والوعى، والرؤية الثقافية الخاصة المستمدة من التاريخ والتراث والقيم... الخ.

وهنا نتوقف ونطرح سؤالا مهما: لو أننا سايرنا هذا النقد المابعد حدائى إلى مداه، فقد يفهمه البعض على أنه إسقاط لدور التنظير فى توجيه البحث الاجتماعى، وهدم لعلاقة الممارسة البحثية بالتنظير كرافد من شأنه أن يقوم

بتوليد نظريات جديدة، أو تعديل نظرية قائمة، أو دحض وتفنيد نظرية أخرى..... وهكذا.

ولو أن هذا الوضع -الافتراضى- قد تحقق لانهار العلم لأنه ستنهار أى إمكانية للتواصل بين الباحثين وبعضهم البعض من ناحية وبينهم وبين مجتمعهم من ناحية أخرى، كما ستنهار أى إمكانية للتراكم، والتراكم كما نعلم خصيصة من خصائص الثقافة البشرية، وأروع منجزات حضارتنا هى بعض ثمار هذا التراكم، ولا نستطرد أكثر من ذلك.

هناك أصوات قوية قادرة (ليس أقلها نيل سملسر، وبودريار، وجيدنز وغيرهم) تصدت لهذه الفكرة أو تلك من أفكار ما بعد الحداثة بهدف أن تبين ما تستند إليه من أساس، وتهافت وما تؤدي إليه من مقاصد. وبعضها اتخذ موقف الرفض الكامل لتوجهات ما بعد الحداثة، والبعض الآخر حاول إدخال شئ من التعديل عليها، والتوفيق بينها وبين الحداثة (القائمة) لكى يتحقق نوع من تصحيح المسيرة مع القدرة على الاستمرار والإفادة من الرؤى و الانتقادات المستحدثة.

وقد أشار احمد مجدى حجازى فى دراسته إلى جانب من النقد الذى وجه إلى ما بعد الحداثة، خاصة ما قيل دفاعا عن التنظير، وبالذات عن النظريات العامة أو الكبرى. يقول حجازى "... وفى مناقشة تلك التساؤلات رصد نقاد ما بعد الحداثة أهم إخفاقات هذا التيار، وأكدوا فشله فى التمييز بين الكلية والنسبية، أى عدم قدرة هذا التيار على التفرقة بين نسبية المجالات التى يجب أن يتحرك فى إطارها التنظير الاجتماعى، وبين تلك المعرفة الكلية العامة التى تتولد عن استخدام تلك المجالات. وقد ولد ذلك تارجا واضحا بين الرؤيتين: الكلية العامة والنسبية الخاصة، بين الرؤية الشمولية والأخرى التجزئية، مما شكل صعوبة أمام المنظرين الاجتماعيين تتمثل فى تحديد دقيق للحد الفاصل بين التعميم النظرى والتجزئى الإمبيريقى".

واستعرض التحليل السابق ثلاث محاولات لإنقاذ التنظير فى علم الاجتماع من نقد ما بعد الحداثة، تقوم المحاولة الأولى على فرز وتمييز واستبعاد المحتوى الايديولوجى للنظريات العامة، على اعتبار أن هذا "التلوث" الايديولوجى هو العقبة الرئيسية فى سبيل تشييد نظريات عامة تتصف بالصدق

و الإقناع. أما المحاولة الثانية فتتقترح النظر إلى تلك الأطر النظرية العامة كنوع من الاستراتيجيات الموجهة، التي ليست نظريات عامة عن المجتمع، ولكنها نوع من الأداة لتوجيه البحث الإمبريقي. وتدعو المحاولة الثالثة والأخيرة إلى نظريات كلية تتسم بتعدد المداخل، ولكنها مع ذلك متسقة داخليا، ومن ثم تسمح بتغطية (أى تفسير) طائفة أعرض من المواقف و الأوضاع الاجتماعية. (انظر: دراسة مجدى حجازى، ص ص ٢١-٢٢) .

تلك نماذج سريعة من محاولات التصدى لتيار ما بعد الحداثة على صعيد التنظير، والوقوف أمام دعاوى المابعد حداثيين استحالة قيام النظريات الكبرى وتداعى أى مبرر لوجودها أو أى إمكانية لتأسيسها. وكان لابد من ذلك التصدى وإلا كان معنى ذلك قطيعة مع تراث العلم الاجتماعى، لو حدثت لكانت كارثة بكل معانى الكلمة.

بين القطيعة مع التراث و التواصل معه

وكان من النتائج الرئيسية المتطرفة لدعاوى ما بعد الحداثة دعوة القطيعة مع التراث السوسيولوجى، والتشكيك فى أغلب المقولات والمبادئ والمسلمات التى كانت محل اتفاق غالبية المشتغلين بذلك العلم على مدى يقترب من قرن كامل من الزمان (منذ ظهور مؤلف دوركايم الأشهر قواعد المنهج فى علم الاجتماع (١٨٩٥) وحتى السبعينيات من القرن العشرين).

ولأن الأدوات المنهجية وطرائق البحث هى استجابة للرؤية النظرية التى ينطلق منها الباحث ووسيلة لوضعها موضع التنفيذ، فكانت هذه الدعوة إلى القطيعة مع التراث فى نفس الوقت دعوة للقطيعة مع تراث المناهج السوسيولوجية العريض.

لذلك كان لا بد من رؤية أكثر اعتدالا، تأخذ النقد الجديد فى الاعتبار، دون أن نفقد القوة الهائلة التى يمكن أن تستمد منها من التراث. يمكن تعديل حدود النظرية العامة، كما يمكن ربطها وتحديدتها ببعض الاشتراطات والتحفظات، ولكن يبقى هناك دائما بناء نظرى بمواصفات جديدة- قادر

على الإفادة من تراث المناهج، إفادة معدلة أيضا، واستخدام بعض ما حققه علم الاجتماع من إنجاز في ميدان أدوات البحث.

عند هذا الحد يصبح التساؤل عن شكل مثل هذه النظرية العامة الجديدة (أو المعدلة) مطروحا ومشروعا أيضا، هل نحن بصدد "تعديل"، أم بصدد "بديل"؟ ما هي شروط هذا البناء النظرى الجديد؟ هل يمكن أن توصف نظرية اجتماعية بالعمومية، فى نفس الوقت الذى تحافظ فيه على ارتباطها بالظرف التاريخى والسياق الاجتماعى؟ كيف لنا أن نثق فى أن نظرية اجتماعية عامة مغينة تحافظ على صلة أمينة بالواقع الذى تنتظر له؟

ملاحظة أخيرة: انتبه نايل سملسر بحق إلى أن الجدل الايديولوجى الذى كان مستعرا إبان الستينيات والسبعينات قد خبت جذوته الآن، ولم يعد الخلاف بين الرؤى السوسيولوجية خلافا ايديولوجيا، ولكنه اكتسب طابعا جديدا معقدا أدواته الفلسفة، ولغته وحيله من طبيعة سوسيولوجية فنية، ويدور على أرض أخلاقية، وهو على العموم من أجل الانسان. ويلاحظ سملسر أن السمة الغالبة على مشهد التسعينات تقترب من التعددية السلمية، أى الاعتراف بأن البحث الاجتماعى يضم بشكل مشروع اتجاهات نظرية ومنهجية متنوعة، مع وجود تفضيلات واضحة لبعض الاتجاهات النظرية، تظهر لدى هذه الجماعة أو تلك من المنظرين والباحثين الإمبيريقين، الذين يمكن تحديدهم والتعرف عليهم. (انظر دراسة مجدى حجازى ، ص ٣٥).

فى هذا الإطار، ولتحقيق تلك الغايات النبيلة، يأتى انجاز لايدر الذى يبسطه فى هذا الكتاب، والذي يشرفنا أن نقدمه للقارئ العربى على امتداد الجزء التالى من هذه الكلمة التمهيدية.

النظرية التكيفية مدخل جديد يفيد من التراث

ينطلق لايدر -صاحب هذا الكتاب- من أن التنظير يجب أن يكون سمة مستمرة ملازمة لعملية البحث. ويلاحظ أن كتب مناهج البحث تتضمن ثلاثة مداخل فيما يتصل بموضوع التنظير وتشبيد النظرية في عملية البحث. المدخل الأول يركز على الأهمية المطلقة لجمع البيانات الإمبريقية، مقللاً من أهمية النظرية و التنظير. ويركز المدخل الثاني على اختيار وتطبيق مجموعة من المفاهيم والأفكار التي يمكن أن تشكل الإطار النظري المرجعي للبحث. وتلعب هذه المفاهيم دوراً في تنظيم البيانات، وتنفيذ النظريات أو الفروض القائمة، أكثر من اهتمامها بتشبيد نظرية جديدة. أما المدخل الثالث فيهتم بإعادة صياغة أو تشكيل بنية نظرية موجودة بالفعل أكثر من اكتشاف أو تشبيد نظريات جديدة. ويعزز ذلك أهمية الاستمرارية والحوار بين البحث الراهن والجهود السابقة، كما أنه يقيم رابطة قوية مع فكرة الطبيعة التراكمية في تطوير كل من النظرية والبحث الإمبريقي.

و يلاحظ لايدر أنه يمكن استخدام بعض جوانب النظرية العامة(*) كمفاهيم مدققة -ذات علاقة مؤقتة بالبيانات الإمبريقية- تكون بمثابة أداة موجهة تطرح خطوطاً ممكنة للبحث أكثر من كونها مجرد مؤشر جامد لما تحدده البيانات. كما يمكن استخدام مفاهيم معينة بهدف الاختبار، مثلما يحدث عندما يتم استخدام مفهوم بعينه للوقوف على مدى فائدته في فهم البيانات الإمبريقية.

وهنا يؤكد المؤلف أن مدخل النظرية التكيفية يوجه اهتمامه إلى النظرية التي تظهر من ثنايا البحث الجاري، بنفس القدر الذي يهتم به بالنظرية العامة التي يكون وجودها سابقاً على مشروعات بحث محددة مثل النظريات العامة،

(*) النظرية العامة ذات قدرة تفسيرية واسعة النطاق، وينصب اهتمامها على مجتمعات بأكملها، وعلى الجوانب العامة للواقع الاجتماعي كالعلاقة بين الفعل والبناء. وتمثل النظرية العامة في المدارس الفكرية في علم الاجتماع كالمدرسة الوظيفية، والماركسية، والتفاعلية الرمزية، والبنوية، وما بعد البنوية، وما بعد الحداثة. كما توجد أيضاً في أعمال المنظرين مثل النسق الاجتماعي عند بارسونز، والصياغة البنائية عند جيدنز، والعلاقة بين الخطاب والقوة عند فوكو.

والفروض التي تحتاج إلى الاختبار، أو مجموعة الافتراضات التي أيدتها بحوث سابقة، والبدهييات المتعلقة بجانب معين من جوانب الحياة الاجتماعية. وبهذا المعنى فإن النظرية التكيفية تعتمد على كافة مداخل التنظير للبحث، وتستفيد منها. فالنظرية التكيفية تتكيف مع -أو تتشكل من خلال- الشواهد التي تستجد أثناء البحث، في نفس الوقت الذي يجرى فيه تنقية البيانات ذاتها أو مواعمتها مع العناصر و المكونات النظرية الموجودة المتصلة بها والمتاحة.

وهكذا نرى لايدر يسعى على طول هذا الكتاب، ومن خلال المدخل الجديد الذي يطرحه ويسميه: النظرية التكيفية Adaptive Theory، يسعى إلى تجديد التراث وذلك بتقوية الصلات بين النظرية و البحث لتضييق الهوة بين المتخصصين في النظرية الاجتماعية من جانب، وبين المتخصصين في جمع البيانات والبحث الإمبريقي من جانب آخر. ومن ثم فإن ما يطرحه المؤلف يمثل مجموعة جديدة من قواعد المنهج في علم الاجتماع^(*)، دون أن يعنى ذلك أن القواعد القائمة قد عفا عليها الزمن أو أضحت غير ذات قيمة. فالنظرية التكيفية -كما يطرحها لايدر صاحب هذا الكتاب- تحرص على تبني بعض عناصر القوة في المداخل الموجودة وتوسيع نطاقها، في نفس الوقت الذي تطرح فيه مدخلا جديدا ومجموعة من الاستراتيجيات البديلة متجاوزة في ذلك نطاق المداخل التقليدية القائمة.

التواصل مع التراث النظرى:

وفي البداية يتناول لايدر بالمناقشة الأفكار الحديثة عن أهمية النظرية و التنظير، وكذلك الاتجاهات نحو عملية التحليل الاجتماعى بصفة عامة، وذلك من خلال متابعة مجموعة من الخيوط و الاتجاهات، كالجدل بشأن

(*) مما يؤكد أن العلاقة بين التنظير والممارسة البحثية تمثل شاغلا رئيسيا لكبار علماء الاجتماع -من شتى الاتجاهات- الذين يجتهدون للاستجابة لتيارات ما بعد الحداثة و أزمة التنظير السوسيولوجي، يؤكد ذلك كتاب أنتوني جيدنز: قواعد جديدة للمنهج في علم الاجتماع، وتحت الطبع الآن ترجمة عربية له أعدها محمد محي الدين، وراجعها كاتب هذه السطور.

أهمية النظرية الاجتماعية التقليدية، ودورها في توفير معرفة ملائمة وصادقة وتراكمية عن الواقع الاجتماعي. كما ناقش محاولات مفكرى مابعد الحداثة تشويه النظرية والإقلال من قيمتها، وكذلك ندرة محاولات تضيق الهوة المتنامية بين النظرية العامة والبحث الاجتماعي.

ويعارض لايدر بصفة عامة أى مدخل ينتزع نفسه من التراث ويتجاهل مطلب الاستمرارية والتجديد فى التحليل الاجتماعي، لأنه يعتقد أن ذلك سيؤدى فى النهاية إلى جمود المعرفة وركودها بدلا من أن يساعد على اضطراد نموها وتطورها. ثم يتناول المؤلف بالمناقشة بعض المداخل القائمة لفهم الصلات بين النظرية والبحث، المطروحة فى الكتابات المنهجية والنظرية للبحث الاجتماعي، وذلك من خلال طرح عدد من أبعاد التنظير فى البحوث الاجتماعية، التى يمكن على أساسها فهم تنوع أساليب التنظير المستخدمة بالفعل فى البحوث الاجتماعية الجارية.

من الملاحظ أن تأكيد لايدر على ضرورة التواصل والاستمرارية بين النظرية الاجتماعية الكلاسيكية والنظرية الاجتماعية الحديثة والمعاصرة يتعارض مع كثير من الكتابات المعاصرة التى تجارى "الموضات" النظرية وترفض التراث و تؤكد على وجوب إحداث قطيعة جذرية بين المشروع الحدائى للنظرية وعملية التنظير. كما يتعارض أيضا مع تلك الوجهات من النظر التى ترى أنه لم يعد هناك أى مبرر للدفاع عن الاتجاه الموضوعى، وأن التحليل الاجتماعى هو عبارة عن وصف لجوانب الحياة الاجتماعية، وليس محاولة لتحليلها. إن تبنى مثل هذه الأفكار من شأنه أن يبعث على التشاؤم من إمكانية التراكم المعرفى. وإزاء ذلك يرى لايدر أن التحليل الاجتماعى المعاصر لابد أن يجدد صلاته مع علم الاجتماع الكلاسيكى ويحدثها، حتى يمكن المحافظة على بعض العناصر المهمة والأساسية فى التحليل الاجتماعى. فإن كتابا من أمثال ماركس، ودوركايم، وفيبر، وزيمل لم يقصروا جهودهم على البحث الإمبريقي فقط، ولكنهم اهتموا أيضا بتطوير أطر نظرية، وأطر للمفاهيم استعانوا بها فى فهم المجتمع ككل وفهم عمليات التطور الاجتماعى الشاملة. إلا أنه من الملاحظ أن عددا من الكتاب و المحللين الاجتماعيين المعاصرين اعترضوا على مثل هذا المدخل، وذهبوا

إلى أن الاهتمام بأنساق التفسير (أو ما يعرف بالنظريات الكبرى) أمر غير ملائم، وأن الاهتمام بالتفسيرات والرؤى المحلية والذاتية هو الأمر الأكثر ملاءمة. ولما كان يشترك في تبني هذا الموقف علماء ما بعد البنيوية، وما بعد الحداثة، فقد أثر ذلك الموقف أكبر الأثر في إضعاف شأن النظرية كعنصر أساسي ومستقل نسبياً في عملية التحليل الاجتماعي. وإذا كان لا يدر -مؤلف هذا الكتاب- يرى أهمية إحياء اهتمامات علماء الاجتماع الكلاسيكيين، فإن ذلك الإحياء لا يعنى بالضرورة تطوير نظريات كبرى عن المجتمع، كما لا يعنى أن الاهتمامات المحدودة النطاق التي تخدمها غالبية البحوث الاجتماعية اليوم قليلة الشأن و الفائدة أو تفتقر إلى الأهمية.

إن تأثير النظرية العامة على الاعتبارات العملية للبحث هي النقطة التي لا يقدرها علماء النظرية حق قدرها، وهي تتعرض للتجاهل والإنكار من جانب القائمين بإجراء البحوث الميدانية. ولا شك أن كلا من النظرية العامة والبحث الإمبريقي سوف يفيد من التعاون والحوار المتبادل بينهما. فمن ناحية سوف تصبح النظرية أكثر قوة وصلابة، وتتعزيز قدرتها التفسيرية عموماً، لأن فروضها ومسلماتها وقضاياها ستصبح أكثر قابلية للقياس الدقيق في ضوء الشواهد الإمبريكية. ومن ناحية أخرى، سوف يستفيد البحث الإمبريقي من الأشكال الدقيقة في التحليل والتفسير، الأمر الذي سوف يعزز إمكانية التعميم والتطبيق.

دعوة إلى نبذ التطرف في الاتجاهين:

ويرى المؤلف أنه إذا كان المفكرون النظريون يسخرون من قصر نظر اهتمامات الباحثين الإمبريقيين الذين يعتقدون أن الحقائق تتحدث عن نفسها، فإن الآراء المعارضة للتنظير تتبثق من آراء الباحثين الإمبريقيين التقليديين (الذين يهتمون بجمع المادة الميدانية وفقاً لقواعد وإجراءات منهجية صارمة) كما تتبثق من جانب أنصار ما بعد البنائية وما بعد الحداثة الذين يصرون على أن النظرية إنما هي بمثابة هروب من الرسالة الحقيقية للتحليل الاجتماعي الذي يتعين عليه أن يفسح مكاناً لآراء ومواقف مجموعات معينة، ويصف بأمانة العالم الاجتماعي ذا المعنى، والخبرات الذاتية للفاعلين. إن ذلك النوع

من المواقف من النظرية يقوم - فى رأى لايدر - على وجهة نظر ضيقة جدا للحياة الاجتماعية، الأمر الذى يعكس قصورا خطيرا فى فهم طبيعة كل من العالم الاجتماعى والتحليل الاجتماعى معا. وقد دعا إلى تبني هذا الموقف فى الغالب المبالغة فى رد الفعل تجاه سيطرة وجهة النظر الوضعية على العلم الاجتماعى وعلى التحليل الاجتماعى على امتداد قرن من الزمان أو نحو ذلك.

وفى ضوء ذلك يذهب لايدر إلى أنه من المهم فهم الحياة الاجتماعية باعتبارها تتكون من عناصر ذاتية وموضوعية معا، لأن الاختصار على رفض الموضوعية أو محاولة تبني موقف يقترب من الرفض، يستبق إمكانية فهم الجوانب الكلية للمجتمع والحياة الاجتماعية، وكيفية تداخلها فى الحياة اليومية. وفى محاولة التمييز بين أنواع هذه المداخل، يتبين أن منظور النظرية التكيفية يفترض سلفا أهمية الاهتمام بعنصرى الحياة الاجتماعية بصورة متعادلة، ولا ينظر إليهما كأشياء يمكن تحللها إلى كتل صلبة منفصلة عن بعضها البعض. فالبحث الاجتماعى والنظرية يجب أن يتعاونوا فى تفسير كيف أن أشكالا معينة من الفعل (النشاط) والبناء (النظام) تتحد معا فى الواقع بحيث تؤدي إلى إنتاج مخرجات محددة فى أى مجال من مجالات الحياة الاجتماعية.

ويمكن القول بصفة عامة أن المدخل التنظيرى فى البحث الاجتماعى - الذى يطرحه مؤلف هذا الكتاب - يقترن بفكرة أن الهدف من البحث الاجتماعى هو إنتاج معرفة أكثر دقة وكفاءة، وتطوير تفسيرات أكثر قوة وسلامة لبعض الظواهر الاجتماعية، خاصة علاقات التداخل بين الفعل والبناء. ومن هنا يستجيب مدخل النظرية التكيفية لتعدد العالم الاجتماعى، ولكن ليس بالتخلي عن البحث عن الحقيقة فى صورة قدر أكبر من الكفاءة والمصداقية (على نحو ما يدعونا تيار ما بعد الحداثة للتخلي عن البحث عن الحقيقة)، وإنما عن طريق زيادة الجهد المبذول لفهم هذا العالم الاجتماعى، ومن خلال ابتكار مناهج أكثر قوة وإحكاما، ووضع استراتيجيات وأدوات تفسيرية تمكنا من تحقيق ذلك.

التنظير عملية مستمرة:

يعلّمنا هذا الكتاب شيئاً مفيداً ألا وهو أن التنظير لا يكون حاضراً في أول البحث فحسب (أى عند اختيار المشكلة، والمنهج، والأدوات)، ولا فى نهاية البحث فقط (أى عند تحليل النتائج واستنتاج دلالاتها)، ولكن التنظير عنصر مستمر فى عملية البحث، لا يقتصر استخدامه على مرحلة دون أخرى من مراحل البحث.

و يؤكد لنا المؤلف أن هناك ثلاثة نماذج لاستخدام النظرية العامة أو للمراجعة النظرية تتوافق جميعها مع مراحل البحث المختلفة، أى قبله، وأثناءه، وبعده. النموذج الأول من المراجعة النظرية يأتى فى مرحلة ما قبل البحث عندما يتبنى الباحث نظرية عامة بناء على استعراض التراث، وتعد بعض المدخلات النظرية العامة وسيلة مفيدة لتنظيم بعض البيانات حول القضايا المستمدة من بحوث بعينها. كما أن اطلاع الباحث على النظريات العامة قد يدفعه إلى الاهتمام بالتطبيق الإمبريقي لبعض جوانب النظرية.

وضرب مثلاً على ذلك يبحث يجريه صاحبه حول موضوع الضبط، ففي هذه الحالة تكون هناك ثلاثة مصادر ممكنة للنظريات العامة (وهناك الكثير من هذه المصادر) يمكن أن تكون ذات صلة بالموضوع وهى:

* مقولة فيير عن السلطة والثروة: الأنماط الكاريزمية، والرشيّدة، والقانونية، والتقليدية للسلطة، صور الشرعية، التمييز بين السلطة والقوة، روتينية الكاريزما، الترشيّد، البيروقراطية، وتفويض السلطة.

* نظرية جينز عن الصياغة البنائية: جدلية الضبط، ثنائيات القوة، القوة كعلاقة، المصادر الرسمية والخاصة، الفعل والقوة، أهمية أسباب ودوافع الفاعلين.

* مقولة فوكو عن القوة: طبيعة الخطاب، والمعرفة، والقوة، والعلاقات المتبادلة بينها، القوة الحيوية، القوة المنظمة، نقد القوة المطلقة، القوة كسلطة أو كشيء مملوك للأفراد و الجماعات، القوة باعتبارها ذات سمة منتجة لا قوة حظر وتحريم.

ويرى لايدر أن الباحث قد يتبنى مقولة جيدنز عن "جدلية الضبط" كنقطة انطلاق مفيدة لفهم جوانب معينة من البيانات في دراسته، دراسة توازن القوة بين جماعات معينة أو أفراد بعينهم خلال ما يعترتهم من تغيرات عبر الزمن وفي سياقات معينة. وقد يرغب الباحث في الاستفادة من القضايا العامة لنظرية الصياغة البنائية، التي تشكل السياق النظري الأرحب لجدلية الضبط. وربما يقتنع باحث آخر برؤية فوكو، أو وجهة نظر فيبر عن القوة، ومن ثم يعتمد جزئياً - أو بصورة أكثر شمولاً - على صياغاتهم النظرية كأداة لتنظيم البيانات في المراحل الأولى من البحث.

ويتضمن النموذج الثاني من المراجعة النظرية (الثلاثية) قراراً بتبنى جوانب مختلفة من النظرية العامة خلال تنفيذ البحث ومع اضطراد العمل فيه. ففي مثال دراسة الضبط قد يتطلب موضوع البحث معلومات نظرية إضافية لمساعدة عملية المراجعة النظرية، ومصادر جديدة من الابداع في تفسير البيانات (كتلك المستمدة من المقابلات، والوثائق، والملاحظات). فعند دراسة العلاقات الشخصية بين الشركاء - على سبيل المثال - قد يقتنع الباحث بأهمية الضبط أو بأهمية جانب معين من جوانب الضبط، كالتمييز بين الضبط المباشر و الضبط غير المباشر، ولكن الباحث قد يختار فيما يختص بتطوير أو تدقيق التحليل لتفسير النتائج تفسيراً كاملاً. عند ذلك يجب على الباحث أن يستدعي فكرة جيدنز عن "جدلية الضبط" كي يستمد منها قوة الدفع. فهذه الفكرة تؤكد على وجود موازنات متغيرة باستمرار للقوة في العلاقات الاجتماعية. وقد يقود ذلك الباحث إلى التركيز على أنواع الموارد المتاحة للأفراد، والتي يستعينون بها في ممارسة علاقاتهم مع الآخرين. ومن شأن ذلك أن يسمح بدوره للباحث أن يبدأ في تطوير أفكار عن كيفية تحكم الناس في رفاقهم بوسائل مباشرة وغير مباشرة، وكيف أن ذلك يغذى عملية توازن مستمرة للقوة بينهم. ويؤدي ذلك - مجدداً - إلى فتح الباب أمام المزيد من إمكانيات توليد المفاهيم، كتطوير تخطيط لاستراتيجيات العلاقات بين الأشخاص التي تستخدم في استعادة التوازن في مثل هذه العلاقات أو الحفاظ عليه.

أما النموذج الثالث من المراجعة النظرية فيركز على الاهتمام بتبني النظرية العامة، بعد أن تكتمل عملية البحث، فقد يتضح بعد جمع البيانات أن هناك بعض الأفكار أو المفاهيم النظرية التي يمكن أن تلقى ضوءاً على البيانات، أو يحدث عكس ذلك عندما تلقى البيانات ضوءاً على مبادئ نظرية معينة. ويضرب لايدر مثلاً بدراسة بلور وماكينتوش (١٩٩٠) عن الزيارات المنزلية الصحية وجمعيات العلاج في إنجلترا، والتي ركزت على علاقات المريض بالفريق الطبي، إذ كانت الأفكار الرئيسية لملاحظتهما ومقابلاتهما تتركز حول المشكلات التي يواجهها المتخصصون في مجال الصحة، والعاملون في الجمعية في ضبط سلوك المرضى، والطرق التي يتعامل بها المرضى في ظل هذا الضبط، من خلال تبني أشكال متعددة من المقاومة. وبعد أن أتم الباحثون جمع بيانات بحثهما أدركا أن دراسة فوكو (الصادرة عام ١٩٧٧) عن القوة، والإشراف، والمقاومة تتصل بالبيانات التي تجمعت لديهما، وبالتالي استفادا عند تحليلهما النهائي ببعض أفكار ومفاهيم فوكو التي ساعدت على تنظيم البيانات.

فهذه الدراسة لبلور وماكينتوش تمثل نموذجاً لتعزيز عملية تفسير البيانات باللجوء -في مرحلة النهاية- إلى بعض جوانب النظرية العامة. فالباحثان شيدا نموذجاً تنميطياً في المراحل الأولى من البحث، كما حرصا على الارتقاء بمستوى التحليل و زيادة قوته التفسيرية، وصقله من خلال ربط هذا التنميط بنظرية أخرى هي هنا أفكار فوكو عن القوة والإشراف والمقاومة. وهنا يسجل المؤلف -بحق- أن هذا العمل قد أضاف إلى تحليل فوكو مادة إمبيريقية غير معتادة يمكن من خلالها الحكم على القدرة التفسيرية لمفاهيم وأفكار فوكو. كما أن هذا البحث عزز المدى التفسيري والقوة التفسيرية لنموذج مقاومة العمل بطريقة مستقلة -إلى حد ما- عن مجمل التحليل الاجتماعي العام عند فوكو.

تعريف النظرية التكوينية:

أعتقد أننا أفضنا حتى الآن في الحديث عن إحدى القضيتين الرئيسيتين اللتين يدور حولهما هذا الكتاب القيم، وهي قضية العلاقة بين النظرية والبحث، وكذلك بين التنظير والبحث.

ولعلنى أقول -دون مبالغة- أن هذه القضية الأولى التى استحوذت على الجزء التمهيدى من الكتاب إنما تمثل تقدماً للقضية الأخرى، وهى تطوير مدخل بديل، وقد نقول جديداً، هو مدخل النظرية التكوينية. ويقول المؤلف عنها إنها تقع بين مدخل "اختبار النظرية" (أو مدخل استخلاص الفروض) من ناحية، ومدخل النظرية الموثقة (أو تشييد النظرية) من ناحية أخرى. وقد أبرز على امتداد الكتاب اختلاف النظرية التكوينية عن بعض المداخل الأخرى، وخاصة مابعد الحداثة، والتفاعلية الرمزية بأنواعها، والفينومينولوجيا، التى تشترك فى اتخاذ موقف مضاد للتنظير.

وقد بلور المؤلف الدلالات العملية للنظرية التكوينية بالإشارة إلى سمتها كنظرية تتبنى توجهها تركيباً، يستعير الكثير من الاتجاهات الأخرى، فى نفس الوقت الذى يطرح فيه بديلاً متميزاً عنها. وينبئ إلى أنها تعد نظرية متوسطة المدى، تحرص على أن تحافظ على علاقة مفتوحة بالنظريات الكبرى، وبأنماط البحث الشاملة فى نفس الوقت. وتضطلع النظرية التكوينية بمهمة تشكيل البيانات الإمبريقية النابعة من البحث، كما تتشكل هى بها فى الآن نفسه، مما يسمح بالتأثير المزدوج للنظريات القائمة (أو النماذج النظرية) وكذلك النظريات التى يكشف عنها البحث. ومن ثم يعد التنظير التكويني سمة مستمرة فى عملية البحث.

و استوفى المؤلف تعريفه للنظرية بشرح سياقها الفلسفى والمنهجى والنظري. فأكد أن النظرية التكوينية تستخدم كلا من الأساليب الاستقرائية والاستدلالية للتطوير النظرى والتحقق النظرى، وأنها تركز على موقف معرفى لاهو وضعى ولا هو تأويلى. بل إنها قادرة على أن تفيد كلا من النزعتين الموضوعية والذاتية فيما يتعلق بافتراضاتها الأونطولوجية. فهى تفترض أن العالم الاجتماعى عالم معقد، ومتعدد الأوجه، ومتلاحم بصورة

كثيفة. وتركز النظرية على الارتباطات المتنوعة من الفعل الانساني والأنشطة الاجتماعية والتنظيم الاجتماعي (الأبنية والاتساق).

وهكذا نرى بجلاء أن النظرية التكيفية هي - بحسب تسميتها - توفيقية، مرنة، وسطية، ومع ذلك لا يفصح الاسم وحده عن مدلوله الفني الدقيق مباشرة. ومن هنا حرص لايدر على أن يحدد بنفسه المقصود بالتكيف في النظرية التكيفية. وأعطانا معنيين أساسيين، يشير الأول إلى النظرية التي يكون محور اهتمامها الحساسية الفائقة للظواهر الإمبيريقية والحرص على تسجيل المعلومات اللازمة عنها، وهي معلومات تتمثل في: بيانات الملاحظات والمقابلات... الخ. كما يشير هذا المعنى أيضا إلى أن النظرية التكيفية قابلة للتكيف أو التعديل للتلاؤم مع تحليل وتفسير البيانات.

أما المعنى الثاني للتكيف فيوحى بأن بعض العناصر ذات الصلة بالنظرية (كالنماذج النظرية) توجد أولا، كما توجد أيضا بالترادف مع عمليات جمع وتحليل بيانات البحث. وتكون تلك العناصر النظرية هي موضوع الاستجابات التكيفية لبيانات جديدة تفسرها. فوجود دعامة نظرية قوية وراسخة نسييا، لا ينفى قدرتها على التكيف بشكل تأملي - لا بشكل آلي - مع البيانات الإمبيريقية. أي أنها قابلة للتكيف مع ما يستجد من معلومات وتفسيرات من خلال إعادة تشكيل نفسها.

فالنظرية التكيفية عند لايدر تسعى إلى عقد صلة بين رؤيتين، الرؤية الأولى تفيد أن هناك نظاما في العالم نحاول نحن - من خلال البحث - التعرف عليه وفهمه. والثانية أننا نفرض في نفس الوقت أنماطا متعددة من النظام على هذا العالم الذي ندرسه، في سبيل ما نقوم به من تحليل وتفسير له.

وينبها المؤلف إلى أن هذا الفهم للنظرية التكيفية يطرح علينا مشكلتين يتعين مواجهتهما، أو على الأقل أخذهما في الحسبان. المشكلة الأولى: يتعين أن تتوفر لدينا الحساسية تجاه احتمال أن تتجاوز التصورات التي نفرضها على الواقع الذي ندرسه (لكي نفهمه) قد تتجاوز بشكل خطير أو تتعدى على "النظام الجوهرى" المائل في الواقع الاجتماعي الفعلي (من هذا القبيل مشكلة الإفراط في العقلانية). المشكلة الثانية: الاعتقاد - خطأ - أن الواقع الاجتماعي

يطرح تفسيراً ذاتياً عن نفسه، بمعنى أن بناءه يتيح لنا أن نعرفه بشكل مستقل عن المعاني الاجتماعية التي تنتقل من خلال اللغة، والتي ننسبها إلى ذلك البناء.

و تولى النظرية التكيفية اهتماماً خاصاً بتوليد نماذج نظرية من الواقع الاجتماعي الذي يتناوله موضوع البحث. ويعني ذلك أن النظرية التكيفية تحاول أن تتبع صور الاقتران بين بعض أشكال النشاط والعلاقات الاجتماعية من ناحية، وأنماط التنظيم التي تحتويها من ناحية أخرى. لذلك تسعى النظرية التكيفية إلى ضمان أن يظهر عند مرحلة ما من مراحل البحث نموذج نظري عن تصور التداخل بين الفعل والنسق، لديه القدرة على أن يقدم تفسيراً لما يحدث، وأسباب حدوثه. وعندما يبدأ هذا النموذج في الظهور، فمن المقرر أن يلعب دوراً مهماً في البحث الجاري، والتفسيرات الكلية للبيانات التي تم التوصل إليها من خلال البحث. وهكذا يبدأ النموذج في تغذية البحث، بمعنى الإسهام في تنظيم البحث على نحو معين، في نفس الوقت الذي يكون فيه النموذج نفسه معرضاً على الدوام لإمكانية إعادة الصياغة على ضوء تنظيمات الواقع الاجتماعي التي تكشف عن نفسها من خلال بيانات البحث المتاحة.

و يؤكد لايدر على حرص النظرية التكيفية على أن تلعب النظريات السابقة دوراً حيوياً في البحث الاجتماعي الذي يعمل على توليد النظرية. وعلى الرغم من أن البيانات الجديدة وتحليلاتها تلعب دوراً مهماً في صقل النماذج النظرية التي يتعامل معها الباحث، إلا أنها لا تقدم تلك النماذج بشكل كامل متكامل. كما أن النماذج لا تستجيب إلى ما لانهاية لمتطلبات البيانات أو المعلومات الجديدة المترجمة، وإنما تستجيب بشكل انتقائي وتأملي (انعكاسي)، ومن ثم تتوافق مع العالم الإمبريقي، أكثر من كونها نتيجة لاستجابة آلية لهذا العالم الإمبريقي.

ولما كان المدخل التكيفي يتعامل مع كل من الجوانب السلوكية والنفسية معاً، فإننا نجده يشجع الحوار بين النظرية المسبقة (بما في ذلك النماذج النظرية) وعناصر المفاهيم الموجودة في البيانات، والتي تنشأ كاستجابة تكيفية لجمع البيانات وتحليلها. وعن هذا الطريق تمكنا هذه النظرية من

تحديد أهمية المفاهيم الجديدة بشكل أدق، بصرف النظر عما إذا كانت تلك المفاهيم نابعة من تجميع البيانات، أو من التطوير النظري.

والخلاصة أن النظرية التكيفية تتميز بطبيعة متماسكة ولكنها متنامية باستمرار، كما أنها تعيد تشكيل ذاتها نتيجة للتأثير المتبادل والحوار بين النظرية المتولدة حديثاً (التي ولدها الباحث من بيانات بحثه)، والنظرية المسبقة أى القائمة فعلاً (مثل مفاهيم النماذج و الأطر العامة ونحو ذلك). فهي بذلك تقف على النقيض من المداخل الأخرى التي تنظر إلى التنظير كما لو كان عملية منفصلة، وتطبيقاً أكثر استاتيكية للأسس والجراءات التحليلية، وهي ترى التنظير كياناً عضوياً دائماً التطور يشكل جزءاً حقيقياً ومستمرًا من عمليات البحث والتحليل.

وأخيراً نقول مع المؤلف لكل من يطالع هذا الكتاب الطريف المهم إنه ليس المقصود من طرح مدخل النظرية التكيفية أن يحل محل المداخل القائمة المستقرة أو التقليدية، إذ لا توجد أى مشكلة فى استخدام ذلك المدخل - المقترح - مقترنا بالمداخل التقليدية المعروفة، من أجل خلق حوار حي فعال بين الأفكار المتعلقة بتطوير النظرية. كذلك يمكن استخدام مدخل النظرية التكيفية كبديل راديكالى، أى كمجموعة من القواعد والاستراتيجيات الجديدة للمنهج السوسيولوجى التى تحاول أن تشق لنفسها طريقاً مستقلاً، وقد أفلحت حتى الآن أن تحرز قدراً ليس يسيراً من النجاح، الذى نأمل له أن يضطرر ويستمر.

* * *

وبعد

فقد سعدت بالعمل مع الإبن والزميل الدكتور عدلى السمرى فى إنجاز هذه الترجمة، و إلى حماسه واجتهاده ودأبه الذى لا يعرف الكلل، يرجع الفضل الأول فى خروج هذا الكتاب النظرى الرفيع المستوى على هذه الدرجة من الدقة والوضوح. ولقد استفدنا فى إعداد هذه الترجمة بما حققناه من تقدم مشترك فى ترجمة أعمال أخرى، وحرصنا على تزويد الترجمة بقائمة

بالمصطلحات السوسولوجية المهمة التي وردت فى الكتاب، وإذا جانب بعضها الصواب، أو صادف شيئاً من عدم رضا البعض عن الترجمة فمسئولية ذلك تقع على المراجع وحده، أما كل ما قد يجده القارئ من قيمة لهذه الترجمة فهو فضل خالص للزميل المجتهد عدلى السمرى، الذى يعمل ما وسعه الجهد لخدمة العلم الاجتماعى العربى بكل إخلاص وهمة.

محمد الجوهري

القاهرة فى ديسمبر ١٩٩٩

المراجع

- ١- أحمد زايد، الهرمنيوطيقا وأشكاليات التأويل والفهم فى العلوم الاجتماعية ، مقال فى : حولىة كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية، جامعة قطر، الدوحة ، ١٩٨٥ .
- ٢- أحمد مجدى حجازى، النظرية الاجتماعية فى مرحلة مابعد الحداثة، ورقة غير منشورة، القاهرة يناير ١٩٩٧ .
- ٣- جوردون مارشال، موسوعة علم الاجتماع، ترجمة مجموعة من أساتذة علم الاجتماع بإشراف محمد الجوهري، المشروع القومى للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، تحت الطبع (يصدر عام ٢٠٠٠) .
- ٤- شارلوت سيمون سميث ، موسوعة علم الانسان، ترجمة مجموعة من أساتذة علم الاجتماع بإشراف محمد الجوهري، المشروع القومى للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ، ١٩٩٩ .
- ٥- نيقولا تيماشيف، نظرية علم الاجتماع ، طبيعتها وتطورها، ترجمة محمود عوده وزملاؤه، طبعات متعددة، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، ١٩٩٥ .
- ٦- محمد الجوهري ، دراسة المجتمع بين الإمبريقية والتنظير ، فى محمد الجوهري وزميله، مناهج البحث العلمى، الفصل الثانى، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية ، ١٩٨٦ ، ص ص ٢٩ - ٥٠ .

تصدير

تتخصر أهدافى من وضع هذا الكتاب فى هدفين اثنين، أولهما طرح مقدمة للمداخل التى تتناول العلاقة بين النظرية والبحث، وثانيهما تطوير مدخل بديل يركز على توليد النظرية الاجتماعية فى ضوء النتائج التى يسفر عنها البحث الإمبريقي، هذا البديل الذى أسميه *النظرية التكيفية* لأنها تمزج ما بين استخدام نظرية موجودة سلفا تنظم بيانات البحث وتنمطها، فى نفس الوقت الذى تعمل فيه على التكيف مع النظام والنمط الذى تحويه هذه البيانات الجديدة. وعلى الرغم من وصفى لهذه النظرية التكيفية على أنها تمثل بديلا جديدا، إلا أنها -كذلك- تشترك فى الجوانب الأساسية للتراث القائم فى النظرية الاجتماعية ومناهج البحث وتبنى عليها. ومن هنا يمكن أن تعد النظرية التكيفية مكملة للمداخل الأخرى، وبالتالي يمكن توظيفها جنبا إلى جنب تلك المداخل. وعلى الرغم من أن النظرية التكيفية تستمد أساسها من البحث، إلا أنها ترتبط بنظريتي عن المجالات الاجتماعية، التى عرضت لها بصورة مختصرة فى كتاب *"النظرية الاجتماعية الحديثة"* الصادر عام ١٩٩٧ وتتسق معها. كما أن النظرية التكيفية ترتبط بدراستى *"عن استراتيجيات البحث"* المنشورة عام ١٩٩٣، و *"فلسفة المنهج"* المنشورة عام ١٩٩٠، وتعد ثمرة من ثمارها على نحو ما.

يدين ظهور هذا الكتاب بالفضل لجهد العديد من الاشخاص، ففى المراحل الأولى من اعداده قدم بول سكورد دعما كبيرا وأساسيا لبعض الأفكار الأولية. وفى مرحلة متقدمة شجعتى شريز و روبرت روجيك من مؤسسة سيدج Sage للنشر، والعديد من المراجعين على الاستمرار فى انجاز الكتاب. وعندما راجعت أليسون درويت مسودة الكتاب بأكملها اتسمت مراجعتها بالدقة الفائقة، وطرحت عددا من الملاحظات والاقتراحات البارعة وعظيمة الفائدة. وقد حاولت الإفادة من أكثرها بقدر الإمكان. كما قرأ بوب كارتر المسودة كلها وطرح مقترحات مهمة بشأن بعض التعديلات والاضافات. كما أجد لزاما على أن أتوجه بالشكر لأليسون و بوب على حماسهما الذى انتقل إلى من خلال احتفائهما بالمشروع، وهو الحماس الذى أثر دون شك فى حفز همتى لاستكمال الكتاب. ومن نافلة القول أن أشير أن

أيًا من الذين ذكرتهم ليس مسئولًا بأي شكل من الأشكال عن أي قصور في هذا الكتاب.

وقد تمت المراجعات النهائية لمخطوط هذا الكتاب خلال زيارتي - كزميل زائر - لمركز البحوث الإنسانية في جامعة أستراليا الوطنية في كانبرا، في شهري يوليو وأغسطس من عام ١٩٩٧. وأود أن أشكر المركز بمن فيه من زملاء، ومديره جرايم كلارك لما لقيته من عون وتسهيلات كانت عظيمة الأثر. ففي خلال تواجدي في جامعة أستراليا الوطنية استمتعت حقيقة بصحبة أليس بيلارد، جاك باربالييت، مارجوت ليون، دوج بوربور، كما استمتعت بزيارتي لمركز آشورت للنظرية الاجتماعية في جامعة ملبورن بدعوة من مديره جون رينديل. كما أتوجه بالشكر أيضًا لكيت سبراتلي لما قدمته من مساعدة وعون.

ديريك لايدر

ديسمبر ١٩٩٧

الفصل الأول

الصلات بين النظرية والبحث

يتوجه هذا الكتاب إلى الباحثين الاجتماعيين الذين يرغبون في الاعتماد في بحوثهم على أكثر من نظرية (سواء من خلال استخدام النظرية كموجه للبحث، أو من خلال محاولة التوصل إلى صياغة نظرية بناء على البيانات التي يحصلون عليها من بحوثهم، كما يتوجه الكتاب إلى علماء النظرية الاجتماعية الحريصين على أن تكون أفكارهم أكثر رسوخاً من خلال تأصيلها بدقة في ضوء البيانات والشواهد البحثية الإمبريقية. ولبلوغ ذلك، سوف أستعرض أكثر الصلات بين النظرية الاجتماعية والبحث الاجتماعي شيوعاً، من خلال وجهة نظر تستهدف طرح مدخل جديد (هو النظرية التكوينية) التي تحاول الوفاء باحتياجات كل من علماء النظرية وممارسي البحث الميداني. وتعد النظرية التكوينية محاولة للمزج بين استخدام نظرية موجودة سلفاً، وبين نظرية تتولد من تحليل البيانات في صياغة البحث الإمبريقي وممارسته الفعلية. أعتقد أن مدخلا من هذه النوعية سوف يضيق الفجوة الموجودة بين المتخصصين في النظرية الاجتماعية من جانب، وبين المتخصصين في جمع البيانات وفي البحث الإمبريقي في جانب آخر.

وبالنظر إلى هذين الهدفين العامين، فإنني أسعى إلى مخاطبة نوعين من جمهور القراء من خلال هذا الكتاب. فنلاحظ أولاً داخل ميدان علم الاجتماع أن الهوة -التي سلفت الإشارة إليها- بين النظرية والبحث تبرز بشكل واضح كل الوضوح، وأعتقد أنها تمثل عقبة أمام تطوير علم الاجتماع كنظام علمي، وأمام إمكانية تطوير التراث التراكمي للمعرفة النظرية. ولهذا فإن هدفي الأكبر هو محاولة طرح بعض الطرق التي يمكن من خلالها عبور هذه الهوة، وأن تصبح الصلات بين النظرية والبحث أكثر قوة ومتانة. ولأني سوف أتناول المزيد من هذه الأمور في مواضع لاحقة من هذا الفصل، فلن أستفيض في الحديث عنها هنا.

ومن المهم على أية حال أن نذكر أن هذا الكتاب يحاول -بصرف النظر عن ايضاح المسار عبر متاهة الصلات بين النظرية والبحث - طرح مدخل أصيل للتنظير في البحث الاجتماعي. وكما أوضحت فإن ما أطلقت عليه "النظرية التكميلية" تدخل في مواجهة مع بعض الآراء السوسيولوجية الراسخة في ميدان منهج البحث، وعن استخدامات النظرية الاجتماعية وطبيعتها. وفي ضوء ذلك فإن ما نطرحه لا يمكن ان نطلق عليه سوى مجموعة جديدة من قواعد المنهج في علم الاجتماع، دون أن نصر على وصف الممارسات السابقة بأنه قد عفا عليها الزمن، أو أضحت غير ذات قيمة. وهكذا تحرص النظرية التكميلية على تبني بعض عناصر القوة في المداخل الموجودة وتوسيع نطاقها، وفي نفس الوقت تطرح مدخلا جديدا ومجموعة من الاستراتيجيات البديلة متجاوزة في ذلك نطاق المداخل التقليدية القائمة.

وعلى كل حال، فإنني أوجه ملاحظاتي أيضا إلى دائرة أوسع من الباحثين الاجتماعيين الذين ينتمون إلى تخصصات علمية مختلفة، وليسوا على دراية بنوع النظرية العامة التي يتضمنها هذا الكتاب، وبالتالي غير مدركين للهوة بين النظرية والبحث التي حاولت أن أعرض ملامحها. ومع ذلك فإنني أعتقد أن هذا الجمهور سيزداد وعيا بوجود أنواع أخرى من المشكلات التي تحيط بالعلاقة بين النظرية والبحث الاجتماعي. واعتقد على وجه الخصوص أن الكثير من الباحثين الاجتماعيين لطالما عانوا من عدم وجود مرشد يوجههم نحو كيفية التعامل مع النظرية، وكيفية استخدامها وتطويرها في ضوء البيانات التي يتوصلون إليها من خلال بحوثهم. ويرجع السبب في ذلك إلى أن كتب مناهج البحث والكتب الأخرى التي تصف عملية إجراء البحث الاجتماعي تتفق عادة في أنها إما لا توجه اهتماما يذكر لقضية النظرية والتنظير بصورة مباشرة، أو أنها تنظر إلى النظرية والتنظير كقضية مسلم بها. وحتى إذا توافر الحد الأدنى من هذا التوجيه في تلك الكتابات، فكثيرا ما تستخدم عددا محدودا للغاية من الأمثلة والمداخل الخاصة بمسألة استخدام النظرية أو توليدها من خلال البحث الاجتماعي. ومن هذه الناحية، يهدف هذا الكتاب إلى توسيع نطاق الإمكانيات المتاحة للمشتغلين بالبحث الاجتماعي،

سواء كانت حصيلتهم من الدراية بالأمور النظرية ضئيلة، أو كانوا يسعون إلى تلمس مداخل بديلة.

وسوف تجرى دراستي للموضوع على النحو التالي. بعد هذه التعليقات التمهيدية، سوف انتقل إلى بلورة خلفية أو بعض القضايا الأساسية المرتبطة بالموضوع، والتي تعد بمثابة قضايا تنظيمية لهذا الكتاب. ويتضمن ذلك بعض القضايا التي تعد بمثابة معالم رئيسية للمناخ العام الذي تتفاعل في سياق قضايا الكتاب الأساسية. وهكذا سوف أحاول تأطير المناقشة في ضوء الأفكار الحديثة عن أهمية النظرية والتنظير، وكذلك في ضوء اتجاهات التحليل الاجتماعي بصفة عامة. وسوف أعمل على تطوير أفكار حول موضوعات عديدة، بما فيها الجدل بشأن أهمية النظرية الاجتماعية التقليدية ودلالاتها، ودورها في توفير معرفة ملائمة وصادقة وتراكمية عن الواقع الاجتماعي.

وترتبط هذه التساؤلات بدورها بالمناقشات التي تتناول طبيعة العلم الاجتماعي، وادعاءاته بالموضوعية والحقيقة، ودور عملية التفسير. كذلك سوف أتطرق إلى مسألة محاولات "ما بعد الحداثة" تشويه النظرية والإقلال من قيمتها، وكذلك ندرة محاولات تضيق الهوة المتنامية بين النظرية العامة والبحث الاجتماعي التي أشرت إليها من قبل.

وسوف أبسط وجهات نظري حول هذه الموضوعات كلما اضطررت للمناقشة، ولكنني أحب أن أشير أنه فيما يتعلق بالمحاولات الحديثة لعلماء ما بعد الحداثة لانكار أهمية دور النظرية في التحليل الاجتماعي أو التقليل من شأنها بصفة عامة، فإنني أعارض بوضوح أي مدخل ينتزع نفسه -ببساطة- من التراث ويتجاهل الاستمرارية في التحليل الاجتماعي. وسبب ذلك أنني أعتقد أن مثل هذا الوضع سوف يؤدي في النهاية إلى جمود المعرفة وركودها بدلا من أن يساعد على اضطراب نموها وتطورها. ويتصل بهذا الرأي، أنني أذهب -أيضا وبقوة- إلى أنه من الحماسة ومن الفجاجة التخلي - كلية - عن التماس الموضوعية والبحث عن "الحقيقة" في العلم الاجتماعي والتحليل الاجتماعي، بالرغم من أن ما نعهه حقيقة ربما يكون هو نفسه قد أعيد ترتيبه أو تشكيله بشكل كبير في ثانيا عملية إعادة النظر فيه. ويتضمن ذلك فكرة أن

التحليل الاجتماعي (أو العلم الذي يتم فهمه بمعنى معدل) يجب الدفاع عنه باعتباره نمطا من التفسير، خاصة في مواجهة المحاولات الحديثة لتفكيك العلم وإحالة إلى شيء أقرب إلى التحقيق الصحفي أو وصف القصص المحلية، أي أصوات الناس محل الدراسة.

وبعد تناول بعض هذه المناقشات - يجب أن أشير هنا إلى أن المناقشة ستكون موجزة، وقاصرة على الموضوع الأساسي محل الاهتمام وهو الصلات بين النظرية والبحث - بعد ذلك سوف أنتقل إلى الاهتمام ببعض المداخل القائمة لفهم تلك الصلات والتي نجدها مطروحة في الكتابات المنهجية والنظرية للبحث الاجتماعي. وسوف أتناول ذلك من خلال طرح عدد من أبعاد التنظير في البحوث الاجتماعية وهي الأبعاد التي يمكن على أساسها أن نفهم تنوع أساليب التنظير المستخدمة في مشروعات بحثية اجتماعية قائمة بالفعل، ويمثل ذلك الجهد خلفية ضرورية لفهم محاولتي - التي سنتوالى خلال الفصول التالية - لتطوير أفكار ومداخل جديدة لفهم الصلة بين النظرية والبحث. وهكذا فإن مناقشة الأبعاد والأنواع القائمة للتنظير في البحث تزود الفصول الأخيرة بالمؤشرات التي تستهدي بها في الحكم على أشكال الاستمرار أو الانحراف عن المداخل القائمة بالفعل.

ويمثل الفصل الثاني جسرا إلى الفصول التالية من الكتاب التي تحاول رسم الملامح المميزة لوجهات نظري البديلة بشأن نوع الصلات بين النظرية والبحث التي سوف ألتزم بها، والتي أريد أن أراها تلعب دورا فعالا في عملية البحث. وفي ضوء ذلك يركز الفصل الثاني على عناصر أو مراحل عملية البحث بصورتها الشائعة في تراث مناهج البحث. وبدلا من النظر إلى عناصر ومراحل عملية البحث بوصفها سلسلة ذات مراحل محددة ثابتة نسبيا، فإنني أقترح في ضوء وجهة نظر التشجيع على توليد النظرية وتنمية الخيال النظري أنه من الأفيد رؤية عناصر البحث المختلفة كوحدات تجمعها ببعضها البعض علاقات مرنة غير جامدة. كما أنني أرى علاوة على ذلك - وعلى عكس العديد من الكتب التقليدية - أنه يتعين فهم التنظير كعملية مستمرة تصاحب البحث في كل مرحله، وأنه ليس عنصرا مستقلا - في عملية البحث - لا يرتبط بها إلا في بداية أو في نهاية جمع البيانات. وعلى هذا

الأساس أؤكد على امتداد الكتاب بضرورة أن يحتل التنظير مكانة مهمة في عملية البحث تفوق المكانة التي يحتلها اليوم عادة.

أما الفصل الثالث فيركز على الديناميات الفعلية في بناء النظرية من وجهة نظر النظرية التكوينية، وبالرغم من أنني أرجئ المناقشة الدقيقة المفصلة للسمات والخصائص الشكلية والعملية للنظرية التكوينية - باعتبارها بديلا ممتازا ومتكاملا للأوضاع التقليدية - حتى الفصل السادس من هذا الكتاب، بالرغم من ذلك يتناول الفصل الثالث عملية توليد النظرية من وجهة نظر تحليل بيانات البحث. وبهذا الفهم نجد أن هذا الفصل يدافع عن النظرية الناشئة أو الموثقة، ذلك أنى أعتقد أن مدخلا من هذا النوع سوف يقود بسهولة إلى الاكتشاف النظرى، وبالتالي يساعد ذلك على حل مشكلة الجمود النظرى الناتجة عن التطبيق الروتينى للنظريات أو الاتجاهات النظرية القائمة. ومع ذلك فمن الأمور البالغة الأهمية أن ندرك أن هذا النمط من النظرية الناشئة إنما هو جزء مكمل للمدخل التكويني الأوسع، ومن خلال ذلك يمكن أن يتحقق تآلف مع الأفكار التقليدية للنظريات الموثقة.

والرأى عندى أن النظرية الموثقة -بحكم طبيعتها- قاصرة بسبب استبعادها القطعى (الدوجماتيقى) للأنماط الأخرى من النظريات والاستراتيجيات البديلة المصممة لتوليد النظرية من خلال البيانات الإمبريقية. ومع ذلك، فإن الفصل الثالث ليس مجرد مناقشة أو حوار شكلى للقضايا المنهجية، ولكنه يهتم فى معظمه بتناول الأساليب العملية التى ستساعد الباحث على تحويل تحليل البيانات إلى شكل قادر على استثارة الخيال نحو التنظير وبالتالى فإننى أناقش وأطرح أمثلة تتعلق بترميز البيانات، وكتابة التقارير النظرية الموجزة. وأخيرا فإننى أتناول قضية تطوير النظرية فى سياق استراتيجيات بحثية متعددة تتضمن جمع وتحليل البيانات الكمية والكيفية، والتحليل التاريخى، واختيار العينة، واجراء المقابلة، والترميز، وكتابة التقارير، واستخراج الأنماط.

ويركز الفصل الرابع على مشكلة الصلة بين المفهوم والمؤشر فى البحث الاجتماعى، ويتم ذلك على نحو يربط المسائل العملية فى توليد النظرية -كما

تم تحديدها في الفصلين الثالث والخامس - بالمسائل الأكثر شكلية الخاصة بمكانة المفاهيم و مصداقيتها. ويلاحظ على أى حال أن ذلك ليس مجرد ممارسة شكلية، لأن مشكلة الصلة بين المفهوم والمؤشر تحدد لنا الرابطة القوية بين المفاهيم النظرية وبين الأشياء التى تشير إليها إمبيريقيا. ومن أجل تحقيق هذه الغاية فإننى أحدد وأصف أنماطا مختلفة من المفاهيم (السلوكية، والنظامية، والتأملية، والنظرية) فى ضوء ارتباطها بكل من البيانات والجوانب العامة للمجتمع. وكثيرا جدا ما تناولت كتب المناهج مشكلة الصلة بين المفهوم والمؤشر، ولكنى أجمل أهميتها هنا ليس فقط بالنسبة للقضايا التى ترتبط بلب الموضوع فى ممارسة البحث، ولكن بالنسبة للأمور الأساسية التى تتعلق بطبيعة الواقع الاجتماعى، وتأثير المشكلات النظرية العامة على البحث الامبيريقى.

ويتبنى الفصل الخامس الوجه المقابل المطروح فى الفصل الثالث، ويركز على بناء النظرية بتطبيق المواد النظرية القائمة على عملية البحث كوسيلة لحفز التوصل إلى نظريات جديدة. وأحد الملامح التى تميز المدخل الذى أتبناه عن النظرية الموثقة أنه من المستحيل أن يشرع الباحث فى بحثه وهو محايد نظريا، ومن ثم يكون من الأفضل أن نعترف ونحاول السيطرة على مدخلات البحث من نظريات ومناهج سابقة نود الاستعانة بها، وإلا فإنها سوف تؤثر على مسار البحث. وهكذا يعالج الفصل الخامس هذه المسألة، ويقترح استراتيجيات تسهل الاستفادة من النظريات السابقة وتطبيقها فى إطار البحث الجارى. وفى هذا السياق أرى أن استخدام المفاهيم العامة والموجهة يمكن أن يساعد فى الصياغة المستمرة لمشكلات البحث، وفى تفسير البيانات وتحليلها على المدى الطويل وقد طرحت -أيضا- أمثلة توضح كيف يمكن تدقيق النظرية خلال البحث بالاعتماد على كل من النظريات القائمة بالفعل، وكذلك على النظريات والمفاهيم التى تتولد خلال عمليات جمع البيانات وتحليلها.

أما الفصل السادس فيجمع كل خيوط المناقشات السابقة معا، من خلال توضيح ما أقصده بالنظرية التكميلية كمدخل موحد متميز. وفى هذا السياق أحدد ما أعنيه بالنظرية التكميلية فى ضوء عدد من النقاط، ثم اجتهد بعد ذلك لكى

أزِيدها دقة وأحكاما. والنظرية التكوينية - كما أتصورها باختصار - مزيج أصيل من مؤثرات ومداخل مختلفة، وبالتالي فهي تقع في مكان وسط بين ما يسمى - بصورة متنوعة - النظرية الاستدلالية أو النظرية ذات المداخل الاختبارية من ناحية، والنظرية الاستقرائية أو النظرية ذات المداخل البنائية من ناحية أخرى (وان كان أنصار كل من هذين المدخلين سوف يدعون - وهو ادعاء خاطئ في رأيي - أن كلا منهما يتضمن قدرا متساويا من كل من العناصر الاستدلالية والاستقرائية).

وعلى الرغم من أن النظرية التكوينية تشغل - إلى حد ما - منطقة وسطا بين هذه المداخل، فإن ذلك ليس هو الملمح الوحيد الذي يميز نظريتنا هذه. وسواء كان ذلك واضحا أم لا، فإنني أشعر - بقوة - أنه يجب سد الفجوة بين النظرية الاجتماعية العامة وبين النظريات الإمبريقية (المرتبطة بتحليل وتفسير البيانات الإمبريقية والمعلومات والنتائج) حتى يمكن التحكم في التفاعل الإيجابي الذي يحتمل أن ينشأ بينهما. وهكذا فإن رؤيتي للنظرية التكوينية تحاول ادماج رؤى النظرية العامة في ثانيا التفكير العملي والاستراتيجي للباحثين الذين يجمعون ويحللون البيانات الإمبريقية، وذلك على أمل التوصل إلى نظريات ومفاهيم ورؤى جديدة.

والمقصود من كلمة "التكوينية" أن النظرية تتكيف - أو تتشكل - مع الشواهد التي يتم التوصل إليها، بينما يجري في نفس الوقت فحص البيانات وتفتيتها، وبالتالي تتكيف مع العناصر الموجودة سلفا (كالأطر المرجعية، والمفاهيمات، والأفكار) التي يستعان بها في ذلك التحليل. وهنا أ طرح مرة ثانية أمثلة عملية وقواعد مستمرة من التجربة تتعلق بالطريقة التي يمكن من خلالها تطبيق هذا المدخل بواسطة الباحثين الذين يحتاجون إلى دليل أو مصادر بديلة تحفز مساعيهم إلى النظرية في بحوثهم، وعمليات تحليل وتفسير وتنظيم ما يتوصلون إليه من نتائج.

و يمثل الفصل السابع خاتمة الكتاب، حيث يقدم تلخيصا للمناقشات الأساسية التي وردت على امتداد الكتاب، كما يعرض للنظرية التكوينية في سياق أرحب لمداخل العلاقة بين النظرية والبحث. ووجهة نظري العامة أن

النظرية التكيفية يمكن أن تجد لها مكانا بجانب النظريات القائمة الآن، كما يمكن أن تمارس وظيفتها كبديل راديكالي لهذه النظريات.

ولكن المهم على أى حال - وحتى فى ضوء هذا التصور الأخير - أننى لا أنظر إلى النظرية التكيفية بوصفها بديلا عن كافة الآراء والمذاهب التقليدية القائمة. وإنما الأصح أن ننظر إليها باعتبارها فرعا داخل اتجاه جديد، وباعتبارها واحدا من بين المداخل العديدة والمتنوعة على نحو صحى سليم. ولتحقيق هذه الغاية عرضت لبعض السمات العامة للنظرية التكيفية، كما بلورت بعض القواعد المنهجية الجديدة التى يقوم عليها هذا المدخل.

المناخ المعاصر للأفكار المطروحة

أشرت فى ملاحظتى الافتتاحية إلى أن هذا الكتاب يمكن أن يعد اسهاما مباشرا فى الجدل الدائر حول أفضل مدخل (أو أفضل المداخل) ملائمة للتحليل الاجتماعى بصفة عامة، واستخدامات ووظائف النظرية الاجتماعية والبحث الاجتماعى على وجه الخصوص. ومن القضايا الأساسية فى الكتاب - التى تستأثر بالجانب الأكبر من التوصيات العملية والخاصة المتعلقة باستخدام النظرية فى عملية البحث - هى اعتقادى بأن هناك فعلا - ويجب أن يكون هناك - تواصل واستمرارية بين النظرية الاجتماعية الكلاسيكية والنظرية الحديثة المعاصرة. ويتعارض هذا الاعتقاد مع كثير من الكتابات المعاصرة التى تجارى "الموضات" النظرية أو تتمسك بالتراث، والتى تصر على أنه يجب أن يكون هناك قطيعة راديكالية (جذرية) بين المشروع الحدائى للنظرية وعملية التنظيم. ويرتبط هذا - بصورة عامة - بوجهات نظر أخرى، كتلك التى ترى أنه لم يعد هناك أى مبررات للدفاع عن الاتجاه الموضوعى، والبحث عن الحقيقة فى أى صورة كانت، وفكرة أن التحليل الاجتماعى هو عبارة عن وصف - وليس محاولة لتحليل - جوانب الحياة الاجتماعية. فإذا نظرنا إلى هذه الأفكار فى مجملها، فسوف نجد أنها تعمق الاحساس بالتشاؤم من إمكانية التراكم المعرفى، وهو ما أود التصدى له بصورة مباشرة وقوية قدر الامكان. وسوف أتعامل مع هذه الأفكار على النحو التالى:

أولاً: أعتقد أن التحليل الاجتماعي المعاصر لابد أن يجدد ويحدث صلاته مع علم الاجتماع الكلاسيكي، حتى يمكن أن نحافظ على بعض العناصر المهمة والأساسية في التحليل الاجتماعي. إذ نجد أن كتاباً (أمثال ماركس، ودوركايم، وفيبر، وزيمل) لم يقصروا جهودهم على البحث الإمبريقي فقط، ولكنهم اهتموا كذلك بتطوير الأطر النظرية، وأطر المفاهيم التي استعانوا بها في فهم المجتمع ككل، وفهم العمليات الأشمل للتطور الاجتماعي التي تهيئ الأطر التاريخي لتلك النظريات والمفاهيم. ونلاحظ أن أعداد لا يستهان بها من الكتاب والمحللين الاجتماعيين المعاصرين قد اعترضوا على مثل هذا المدخل، فقد ذهبوا إلى أن الاهتمام بما وراء التقارير القصصية (أو ما يعرف بالنظريات الكبرى) أمر غير ملائم، وأن الاهتمام بالقصص المحلية والذاتية هو الأمر الأكثر ملاءمة. ويشترك في تبني هذا الموقف علماء ما بعد البنيوية، وما بعد الحداثة -على الرغم من وجود معارضين آخرين- مما كان له أثر في الاستغناء عن النظرية كعنصر أساسي ومستقل نسبياً في عملية التحليل الاجتماعي.

وكما سيتضح فيما بعد، فإنني أعتقد كل الاعتقاد أن مشروع النظرية الاجتماعية أمر ضروري تماماً للتحليل الاجتماعي بصفة عامة، وللبحث الاجتماعي على وجه الخصوص. وفي ضوء ذلك أعتقد أنه يجب أن نحاول إحياء بعض اهتمامات علماء الاجتماع الكلاسيكيين. ولا يعني ذلك أن تطوير النظريات الكبرى عن المجتمع والتغير الاجتماعي شرط ضروري من شروط البحث الاجتماعي، ولا أفترض أن الاهتمامات المحدودة النطاق التي تخدمها غالبية البحوث الاجتماعية اليوم هي -على نحو ما- أقل أهمية ولكنني أشعر على أي حال أن الصلة بين النظرية العامة والتظير عن المجتمع، والصياغة الفعلية وممارسة البحث الاجتماعي يجب التأكيد مجدداً على أهميتها في السياق الحالي الذي ظهرت بينهما في إطاره هوة التخصص الدقيق.

ذلك أمر على جانب عظيم من الأهمية لأنني أعتقد - كما سيتضح في مواضع عدة على امتداد هذا الكتاب - أن الجدل الدائر هو العلاقة بين الفعل والبناء (أو النسق) في النظرية الاجتماعية، وكذلك الجدل المتعلق بطبيعة الواقع الاجتماعي (الأنطولوجيا) وأشكال التصور أو التفسير، كانت بعيدة

التأثير على عمليات اجراء البحث وتحليل البيانات الإمبريقية التي يتم جمعها. ومن ثم يكون من المهم أن نضع في اعتبارنا -وبصورة جدية- الطريقة التي تؤثر بها الاهتمامات النظرية العامة- بصورة مباشرة - في الاعتبارات العملية للبحث. وتلك هي النقطة التي لا يقدرها حق قدرها في الغالب أولئك الذين يطلقون على أنفسهم المنظرين، كما أنها تتعرض للتجاهل و الإنكار إلى حد كبير من جانب الباحثين الاجتماعيين الممارسين للبحث الميداني. ولا شك أن كلا من النظرية العامة والبحث الإمبريقي سوف يفيد من التعاون والحوار المتبادل بينهما. فمن ناحية سوف تصبح النظرية أكثر قوة وصلابة، وتتعزيز قدرتها التفسيرية عموماً، حيث أن فروضها ومسلماتها وقضاياها ستكون أكثر قابلية للقياس الدقيق في ضوء الشواهد الإمبريقية. ومن الناحية الأخرى سوف يستفيد البحث الإمبريقي من الأشكال الدقيقة في التحليل والتفسير، الأمر الذي سوف يعزز إمكانية التعميم والتطبيق.

وهناك اليوم عوامل عديدة تعمل ضد هذا الاتجاه الجديد في تناول هذه الصلة بين النظرية والبحث. إن الأمر ليس هو مجرد التجاهل أو التحامل أو التنافس بين المنظرين والباحثين الذي يقف في طريق قيام صلة وثيقة بينهما. ولعل الأهم من هذا التعارض الفكري أو التطبيقي أن التخصص العلمي- الذي يوجه ويؤسس كلا من التخصص الأكاديمي والبحثي- هو الذي يعزز بصورة منتظمة الهوة بدلاً من أن يعمل على تجاوزها، فالممارسة المهنية تحظى بالمكافأة والتقدير نظير ما تقدمه من اسهامات في مجالات التخصص، مثل حل مشكلات معينة في النظرية الاجتماعية، أو إضافة معلومات عن أحد مجالات البحث الاجتماعي، كالطب، أو التعليم، أو محاولة التغلب على مشكلات اجتماعية مثل تعاطي المخدرات أو البغاء. إن مقاومة منافذ النشر المتخصص كالمجلات الأكاديمية، وناشرى الكتب والتي كان يمكن أن تسمح للأكاديميين والباحثين بتطوير قضايا هذا الاتجاه، إنما تعمل على إبقائه داخل حدود الحقل العلمي المستقر خوفاً من العقاب، أو التجاهل الذي يمكن أن يقع على المستقبل المهني للباحث. وهكذا نجد أن في بعض المجالات المعروفة للنشر، مثل النظرية الاجتماعية، ومناهج البحث، والمرض العقلي، ودراسات

التنظيم، والدراسات الثقافية يكون هناك حرص على عزلها عن بعضها البعض تماما.

ومع ذلك فكما أن بعض المتقنين والمنظرين يسخرون من قصر النظر البادى فى اهتمامات الباحثين الميدانيين المعاصرين -خاصة الباحثين الإمبريقيين الذين يعتقدون أن الحقائق تتحدث عن نفسها - كذلك نجد أن قوة الآراء المناهضة للتنظير تنهل من روافد أخرى لا يمكن الاستخفاف بها أو التقليل من شأنها. تنبثق الآراء المعارضة للتنظير من جانب كل من الباحثين الإمبريقيين بصورتهم التقليدية (حيث يهتمون بجمع المادة الميدانية تبعا لقواعد وإجراءات منهجية صارمة) كما تنبثق من جانب أنصار ما بعد البنيوية وما بعد الحداثة (وغيرهم، كما سيتضح من سياق المناقشة التالية). ويصر أنصار ما بعد البنيوية، وما بعد الحداثة على أن النظرية هى بمثابة هروب من الرسالة الحقيقية للتحليل الاجتماعى الذى يتعين عليه أن يفسح مكانا لآراء ومواقف مجموعات معينة، و/ أو يصف بأمانة عالمهم الاجتماعى ذا المعنى، وخبراتهم الذاتية. إن ذلك النمط من الموقف من النظرية يقوم على وجهة نظر ضيقة جدا للحياة الاجتماعية، الأمر الذى يعكس قصورا خطيرا فى فهم طبيعة العالم الاجتماعى والتحليل الاجتماعى جميعا. وقد دعا إلى تبني هذا الموقف فى الغالب المبالغة فى رد الفعل تجاه سيطرة وجهة النظر الوضعية على العلم الاجتماعى وعلى التحليل الاجتماعى. ولاشك أن المدخل الذى أتبعناه فى هذا الكتاب - هو بالتأكيد - مدخل نقدى لوجهات النظر الوضعية الساذجة فى التحليل الاجتماعى (لأنها شكل ساذج أو قطعى من النزعة الإنسانية، أو وجهات النظر التأويلية). ولكننى أعتقد أنه من المهم أن نفهم الحياة الاجتماعية باعتبارها تتكون من عناصر ذاتية وموضوعية معا. إن الإقتصار على رفض الموضوعية و/أو محاولة تبني ما يقترب من وجهة النظر الموضوعية، يستبق إمكانية فهم الجوانب الكلية للمجتمع والحياة الاجتماعية، وكيفية تداخلها فى الحياة اليومية. (أنظر: مؤلفى هابرماس، ١٩٨٧، ولايدر، ١٩٩٧). وفى محاولة التمييز بين أنواع هذه المداخل، سوف نثبين أن منظور النظرية التكيفية يفترض سلفا أننا يجب أن نهتم بعنصرى الحياة الاجتماعية بصورة متعادلة، ولا ننظر إليهما كأشياء يمكن تحليلها إلى كتل

صلبة منفصلة. وهكذا، لا نستطيع أن ندعى أو نتظاهر بأننا قد تجاوزنا على نحو ما مشكلات فهم كيف أن المجالات المستقلة من الفعل والبناء، وأن العناصر الكبرى والصغرى يمكن أن تتصهر بطرق مختلفة.

ولعل اختتم تلك التعليقات على المناخ الفكرى العام الذى توجد فيه العلاقة بين النظرية والبحث بطرح سؤال البحث عن الحقيقة، والمحاولات الحديثة (خاصة تلك التى قام بها مفكرو ما بعد الحداثة) لدحض هذه الفكرة. ويمكن القول أن هذه القضية تترتب بمعنى ما على المناقشة السابقة، إلى الحد الذى أعتقد معه أن البحث الاجتماعى والنظرية يجب أن يتعاونوا فى تفسير كيف أن أشكالاً معينة من الفعل (النشاط) والبناء (أو النظام) تتحد لإنتاج مخرجات محددة فى أى مجال من الحياة الاجتماعية. وفيما يتعلق بذلك وبأمور أخرى، يقترن المدخل التنظيرى فى البحث الاجتماعى الذى أطرحه فى هذا الكتاب بفكرة مؤداها أن الهدف من البحث الاجتماعى هو إنتاج معرفة أكثر دقة وكفاءة. وتتعكس هذه الدرجة العالية من كفاءة المعرفة وصدقها فى محاولة إبراز إسهامات أوضح وأدق للجماعات أو البيئات أو المشكلات محل الدراسة، وذلك بصورة تفوق الوضع المتبع اليوم. كما أنها تتعكس فى الحاجة إلى تطوير تفسيرات أكثر قوة لبعض الظواهر الاجتماعية (خاصة علاقات التداخل بين الفعل والبناء).

وهكذا نرى أن مدخل النظرية التكوينية يستجيب لتعدد العالم الاجتماعى، ولكن ليس بالتخلي عن البحث عن الحقيقة، فى صورة قدر أكبر من الكفاءة والمصداقية (كما فى اتجاه ما بعد الحداثة)، ولكن من خلال زيادة الجهد المبذول لفهم هذا العالم الاجتماعى، ومن خلال ابتكار مناهج أكثر دقة وإحكاماً، ووضع استراتيجيات وأدوات تفسيرية يمكن من خلالها تحقيق ذلك. ولا شك أن المقولة الوضعية بوجود حقيقة موضوعية واحدة للظاهرة تصدق فى كل الأوقات، أو أن هناك تطابقاً تاماً بين الحقيقة الموضوعية وحقائق موضوع معين هي أفكار ثبت الدليل على فسادها، ومن ثم لا يمكن بالتالى أن تشكل أساساً لمدخل قابل للتطبيق فيما يتعلق بالصلة بين النظرية والبحث. وفى مقابل ذلك، تذهب النظرية التكوينية إلى أن توافر قدر أكبر من الكفاءة والمصداقية هما أفضل وسيلة للاقترب من الحقيقة يمكن أن يوفره الوضع

الحالى للمعرفة والفهم. فالحقيقة ليست فكرة دائمة، ومن ثم تمثل النظرية التكيفية -عندما تكتمل صياغتها- المرحلة الأخيرة فى تطور النظرية. ويظل من الممكن أن تتعرض دوماً للتعديل فى ضوء البحوث التى ستجرى فى المستقبل، وفى ضوء التطورات النظرية. ومع أن هذا النمط من الشروط على الأقل لا يمنع الباحثين من استكمال مشروعات بحوثهم من خلال تطوير نتائج نظرية فى النهاية، فإن ذلك يعنى -من وجهة نظر طويلة المدى- أن النظرية التكيفية يجب النظر إليها على أنها محطة على الطريق يمكن تعديلها أو إعادة صياغتها باستمرار.

أبعاد التنظير في البحث الاجتماعي

سوف انتقل الآن إلى مناقشة بعض المداخل الأكثر تخصصاً في فهم علاقة النظرية بالبحث كما هي مطروحة حالياً في العلوم الاجتماعية والتحليل الاجتماعي بصفة عامة وسأبدأ بتحديد بعض التعريفات، ثم أصف بعد ذلك بعض أبعاد التنظير في البحوث التي تنتمي إلى أطر مختلفة. وهكذا فلو كان البحث الاجتماعي يتعلق بالتجميع المنظم للشواهد والمادة العلمية، فإن التنظير حينئذ يعد بمثابة محاولة لتنظيم هذه المادة في صورة إطار من الأطر التفسيرية. ولهذا يتناول التنظير أسئلة تتعلق بكيف ولماذا تظهر أنماط بعينها من الشواهد، وكيف يعكس ذلك تنظيم المجتمع والحياة الاجتماعية بصورة أكثر عمومية. فكل من التنظير والبحث الاجتماعي يشير بذاته - إلى نطاق شديد السعة والتنوع من الممارسات في الوقت الذي تتنوع فيه بنفس القدر وتتعد طرق الارتباط بينهما، إلى حد أن أي محاولة لتقديم أي وصف للعلاقات بينهما تثير مشاكل هائلة. ولهذا اعتزم تناول هذه المشكلات بتحديد ما اعتبره أهم أبعاد العلاقة بين التنظير والبحث في ضوء من مجموعة الثنائيات القطبية (انظر جدول رقم ١).

جدول رقم (١)

أبعاد التنظير في البحث الاجتماعي

محور الاهتمام: النظرية	محور الاهتمام: الواقع الإمبريقي
اختبار النظرية	توليد النظرية
نظرية شكلية	نظرية حقيقية
اتجاه معرفي	اتجاه اتولوجي
الفاهيم المدققة	أطر تفسيرية للمفاهيم
عنصر متواصل في البحث	عنصر مستقل في البحث

ولعلّى أبداً حديثى بكلمات قليلة عن هذا الاجراء حتى اتجنب حدوث أى سوء فهم مستقبلاً، ولا أعنى باستخدام مجموعة من الثنائيات القطبية أو التعارضات أن كل مصطلح فى كل ثنائية يمثل بديلاً صارماً، أو أن القطبين منفصلان. وإنما تمثل كل ثنائية متصلاً، بمعنى أن معظم أنواع البحوث تقع فى نقطة ما بين القطبين، ومن شأن هذا أن يساعدنا على فهم تنوع أشكال وأنماط التنظير فى البحث الاجتماعى. ومن الانتقادات النمطية لمثل هذه الاستراتيجية التحليلية أنها تطرح تمايزات مصطنعة بين أشياء هى فى الواقع متصلة ومتراصة فى نفس الوقت. بالطبع هناك بعض الخطورة فى ذلك، ولكن إذا أفهمت الثنائيات على أنها مترابطة و لكنها مختلفة (وليس متفصلة ومتعارضة) وأن تلك السمات موجودة داخل البحث الواحد، كما أنها موجودة بين المشروعات البحثية، فإذا فهمنا ذلك أمكن تجنب هذه المشكلة، أما إذا لم نقم بمثل هذا التمييز منذ البداية، فلن نستطيع أن نقدر تقديراً سليماً للطبيعة الحقيقية للتأثيرات القائمة وتداخلاتها. كما أنه من المهم أن نوضح أن كل زوج من الخصائص ليس منفصلاً بالضرورة عن خصائص الثنائيات الأخرى، إذ كثيراً ما يتداخل فى بعضهما البعض فى مشروعات البحث الفعلية. وسوف أوضح أكثر تلك الخصائص انتشاراً فى ثنايا المناقشة.

الاهتمام بالنظرية فى مقابل الاهتمام الإمبريقي

إن الثنائية بين البحوث التى تسعى إلى التنظير كهدف أساسى، وبين البحوث التى تركز اهتمامها على جمع المادة الإمبريقية يعنى ضمناً أن بعض البحوث تكون أقرب إلى أحد طرفى المتصل من الطرف الآخر. وهذا صحيح إلى حد ما، وإن كان يجب أن نتذكر أن أغلب البحوث تمثل خليطاً من الاتجاهين. ومع ذلك لا يشير الفصل بينهما إلى تباين حقيقى فى محور الاهتمام الذى قد يكون هو الأكثر أهمية إذا وضعنا فى الاعتبار قضية التنظير فى البحث الاجتماعى، وهذا المحور فى ذاته يمكن تقسيمه إلى محاور أخرى فرعية. وأحد تلك الاهتمامات هو ما إذا كان البحث ينكر النظرية صراحة أو يقلل من قيمتها بمقارنته بالبحوث التى ترتبط أولوياتها وأهدافها ارتباطاً أكبر باهتمامات أخرى (مثل جمع البيانات).

البحوث التي تستهدف جمع المعلومات والبحوث التطبيقية:

كثيرا جدا ما يرجع قصور الاهتمام بالنظرية والتتظير إلى أن القوة الدافعة للقيام بالبحث هي وجود مشكلة اجتماعية، أو وجود هدف تطبيقي يراد أن يخدمه البحث من هنا يتسم مثل هذا البحث عادة بتحقيق أهداف عملية كالاستجابة لطلبات عميل معين أو مجموعة من العملاء (كما في حالة مؤسسة محلية للصحة العقلية، أو رعاية المسنين، أو وضع بعض الأشخاص تحت المراقبة). وفي هذه الحالة يكون نقص الاهتمام الواضح بالنظرية نتيجة غير متعمدة لعملية جمع المعلومات الأساسية أو جمع شواهد عن احتياجات جماعات من العملاء أو المستهلكين، أو البحث عن أفضل الوسائل لتطبيق برنامج للتدخل أو تنفيذه (أنظر: مؤلف ريتش وسبنسر، ١٩٩٤).

من هذا مثلا الدراسات التي أجراها ماك كيجاني في عام ١٩٩٠ في جلاسجو عن العلاقة بين اشتراك المتعاطين في استخدام إبر حقن المخدرات، وبين مخاطر انتقال عدوى الإصابة بمرض الإيدز. وكذلك دراسة ماك كيجاني وبرنارد وبلور في عام ١٩٩٠ أيضا والتي قارنت بين بغايا الشوارع ودعارة الاطفال من ناحية الممارسة الجنسية الآمنة وبين مخاطر الإصابة بعدوى الإيدز. فمثل هذه الدراسات جميعا قد أجريت من منظور المشكلات الاجتماعية. ونقصد بهذا أن البحث حاول تقديم معلومات مطلوبة عن الممارسات الجنسية وتعاطي المخدرات في منطقة محلية بعينها، سوف يتم الاستعانة بها في وضع السياسة الاجتماعية، كما أنها تدلنا على أفضل وسائل التدخل. ومع أن الهدف الأساسي لمثل هذه النوعية من البحوث أنه يسد نقصا في المعلومات عن بعض المشكلات الاجتماعية الحادة، فإن ذلك لا يعنى أن هذا البحث مناوئ للنظرية صراحة أو بالضرورة، وإنما يعنى أن أولويات هذا البحث إمبيريقية وتتصب بطبيعتها على موضوع محدد. يمكن القول على أى حال أن مثل تلك البحوث تتأثر ضمنا ببعض الاهتمامات النظرية كالسؤال عن الأسباب أو كيفية تخلق تلك الظواهر واستمرارها. بل أكثر من ذلك، أنه فى بعض الحالات تكون عملية جمع المعلومات -فى الواقع- مقدمة لمحاولات أكثر تنظيما لبناء واختبار النظريات، وإن كان ذلك أمرا نادر الحدوث تماما.

وعلى الرغم من أن المدخل الذى يستهدف جمع المعلومات، أو مدخل البحث الذى يستهدف خدمة السياسة أو حل المشكلات غالبا ما يتم تنفيذها بإحكام، وتتميز بالقابلية للتطبيق فى ذاتها، فإننى أعتقد أنها تستطيع -أحيانا- تحقيق فائدة بالاضطلاع بتحقيق بعض الأهداف النظرية الواضحة. وهكذا فإن التوصيات التى طرحتها فى الفصول الأخيرة من هذا الكتاب يمكن استخدامها لتعزيز القدرة التفسيرية لمثل هذه البحوث وذلك فيما يتعلق بتحليل بياناتها وما تصل إليه من استنتاجات. كما يمكن من خلال ربط الاهتمامات العملية التطبيقية لصنع السياسة باطار أشمل من مفاهيم التحليل الاجتماعى وأطره المرجعية تقديم أفضل خدمة بهدف التوصل إلى توفير حشد متراكم من المعرفة الاجتماعية العلمية العامة. كما يمكن، فضلا عن ذلك، تضيق الهوة بين النظرية والبحث. وأنا بالطبع أوافق على القول بأن أية محاولة لاقامة الصلة بين النظرية والبحث قد لا تكون ناجحة أو ممكنة دائما فى هذا النوع من البحوث، نظرا لأن معظم الباحثين يعملون تحت ضغط زمنى (ومالى) صارم. كما أننا نجد فى العادة أن قائمة الموضوعات والأهداف والأغراض الخاصة بمثل هذه الدراسات تتحدد سلفا بشكل قاطع قبل البحث ذاته بمعرفة الهيئات الممولة. ومن شأن مثل هذه الظروف أن تجعل من الصعب تماما على الباحثين أن يهتموا بأية أمور أو موضوعات خارج نطاق ما هو مرسوم ومحدد لهم سلفا.

المدخل المناوئة للنظرية :

يجب التفرقة بوضوح بين أهداف واستراتيجيات البحوث التى سبق ذكرها، وبين البحوث التى تبدو صراحة مناوئة للإتجاه النظرى أو التنظير. إن هذا الأمر ليس مجرد تمييز بين البحث التطبيقى والبحث الأكاديمى، على أساس أن وجهات النظر المناوئة للنظرية يمكن أن توجد -وبصورة عمدية- بين العلماء الاجتماعيين أيضا. وقد حذر بيكر وروك (أنظر: مؤلف روك، ١٩٧٩)، وبدرجة أقل بلومر (١٩٦٩)، من استخدام النظرية أو استهداف توليد النظرية من البحث الاجتماعى. فالنظرية والتنظير فى رأى هذا الفريق هى ثمرة انتاج مجموعة من المنظرين القابعين فى

أبراجهم العالية المقطوعة الصلة بالعالم الحقيقي للحياة اليومية، وبالتالي فإن نظرياتهم تلك لا تربطها صلة بحياة الناس. ونلاحظ أن مثل هذه الآراء تتعارض بشدة مع آراء علماء اجتماع آخرين -مثل ميرتون (١٩٦٧)، وجلاس و شتراوس في مؤلفهما الصادر في عام ١٩٦٧-الذين أكدوا على أهمية العلاقة بين البحث الإمبريقي وتطوير النظرية باعتبارها شرطاً أساسياً للنمو المتراكم في المعرفة السوسيولوجية بصفة عامة (على الرغم من أن آراء جلاس و شتراوس حول طبيعة العلاقة بين التنظير والبحث تختلف عن وجهة نظر ميرتون. انظر الفقرة التالية).

سبق أن ألمحت في المقدمة إلى مسألة انكار النظرية والتنظير والخط من قدرهما، وسوف أعود إلى هذه القضية العامة عدة مرات على امتداد الكتاب. يتوافق موقفي -بوضوح- مع مواقف بعض علماء الاجتماع مثل ميرتون وجلاس و شتراوس وأضرابهم، على الرغم من أنه يختلف أيضاً من عدة نواح، وإن كان يختلف مع بعض آرائهم اختلافاً بعيداً. وأنا أعتقد، فضلاً عن ذلك، أن إنكار النظرية أو قمعها يقوم على سوء فهم لطبيعة التنظير وهدفه. ونتيجة لذلك فإن الاتجاه الرئيسي لهذا الكتاب هو إلقاء الضوء على أهمية النظرية للبحث الإمبريقي، وطرح استراتيجيات عملية لتحقيق قيام ترابط قوى بينهما.

استخدام مفهوم واحد أو مفاهيم متعددة:

من التقسيمات الأخرى داخل إطار الاهتمام بالنظرية في مقابل الاهتمام بالبحث الإمبريقي، ذلك الذي يتعلق بمدى تواجد القضايا النظرية في البحث. إذ نجد على سبيل المثال أن بعض البحوث ذات الاهتمامات الإمبريكية قد تهتم بتوضيح أو تقييم فائدة مفهوم أو مفاهيم بعينها على نحو ما فعل باكت (١٩٩٠) بمفهوم "ثقافة الأسرة" في دراسته لعمليات اتخاذ القرار في الأسرة، أو كما فعل نيجمانز (١٩٩١) مع مفهوم "الثقافة التنظيمية" في دراسته لأحد المؤسسات الاستشارية. وبالمثل قد تستخدم البحوث المفاهيم الدقيقة لتوضيح أو تنظيم المادة التي تم جمعها. وفي هذه الحالة نجد أنه على

الرغم من أن الاهتمام الأساسى هو عرض المادة أو الشواهد المتوفرة فى صورة متماسكة، فإنه يمكن أن يكون للبحث مضامين نظرية مهما قل شأنها، وبصرف النظر عن الأولويات المباشرة. من هذا مثلا استخدام جوفمان (١٩٦٨) لمفهوم "المؤسسة الشاملة" فى دراسته لاحدى مستشفيات الأمراض العقلية فى أمريكا، والذي كان عملا رائدا أثر بصورة كبيرة فى توجيه الدراسات اللاحقة التى أجريت على مثل هذا النوع من التنظيمات والمؤسسات وعلى غيرها.

وهنا نجد أن قضية ما إذا كان الاهتمام الأساسى للبحث نظريا أو إمبيريقيا يتداخل مع ثنائيات أخرى، وهى فى هذه الحالة ثنائية استخدام مفاهيم متفردة فى مقابل توظيف شبكة عامة متكاملة أو إطار من المفاهيم. ويمكن القول أن استخدام أجزاء من النظريات لا يعد استخداما صائبا للنظرية، لأنه يصبح استخداما غير منظم، ومن ثم لا يؤدي إلى تراكم المعرفة، بل سيؤدي إلى انكار المضامين طويلة المدى للبحث، ومن ثم يتعذر البدء فى تطوير النظرية بصورة واعية. كما أن مثل هذا الوضع يغفل أن النظرية يمكن إنتاجها بعدة طرق مختلفة، قد لا يكون بعضها محاولات تنظيرية مقصودة أو منظمة، ويتداخل ذلك مع قضية ما إذا كان الباحث منظرا فى المقام الأول- وتصادف قيامه ببعض الأبحاث الإمبيريقية، أم أنه يعتبر نفسه باحثا- بالدرجة الأولى- يتعامل مع النظرية على سبيل التجربة أو الاستكشاف.

وهنا توجد بعض القضايا وثيقة الصلة- بصورة مباشرة- ببعض القضايا التى سوف أتناولها فى مواضع لاحقة من هذا الكتاب. أولا: أن الكثير مما ذكر فى الفصول من الثانى إلى السادس يستهدف تشجيع الباحثين الذين يستخدمون مفاهيم متفردة أو مفاهيم دقيقة على إقامة علاقات منتظمة ومحكمة فى بحوثهم من أجل زيادة القوة التفسيرية لما توصلوا إليه من نتائج. ثانيا: يطرح جزء أساسى من مدخل النظرية التكيفية سؤالا عن الطرق العديدة المختلفة التى يمكن من خلالها توليد النظرية، والأنواع المختلفة من المهارات اللازمة لتحقيق ذلك. وسأحاول فى هذا الصدد صياغة وتنظيم بعض أكثر الوسائل انتشارا -وغير المقصودة فى الغالب- التى يمكن من

خلالها بناء النظرية (أو التمهيد لذلك) كما سأطرق إلى مناقشة بعض المهارات البديهية المطلوبة لعملية التنظير وكيفية توظيفها في تطوير النظرية وتدقيقها، والخيال النظري. وألاحظ أخيراً أن كثيراً من التعليقات التي قدمتها والاستراتيجيات التي طرحتها تستهدف تشجيع الباحثين -أو أولئك الذين يحتمل أن يصبحوا باحثين- ممن يفتقرون إلى الثقة في قدراتهم النظرية بحيث تكون لديهم الشجاعة للتفكير على أسس نظرية.

استخدام نظرية عامة في البحث الإمبريقي:

القضية المهمة هنا هي كيفية تعريف أو تحديد المقصود بالبحث، وما إذا كان يتضمن استخدام نظرية عامة، كذلك التي نجدتها في أعمال المنظرين أمثال تالكوت بارسونز، ويورجن هامبرماس، وميشيل فوكو، وأنتوني جيدنز وغيرهم، وذلك في مقابل الاهتمام والتركيز المتزايد على المضامين الإمبريكية. ومشكلة النظرية العامة أنها غالباً ما تكون ذات قدرة تفسيرية شديدة الاتساع، وينصب اهتمامها إما على مجتمعات بأكملها والعمليات المتضمنة في تطورها، أو على الجوانب العامة للواقع الاجتماعي، كالعلاقة بين الفعل والبناء أو مستويات التحليل الكبرى (الماكرو)، والمحدودة النطاق (الميكرو) - سوف سيكون من الخطأ القول بأن الشخص المنصرف كلية إلى النظرية العامة لا يقوم بأبحاث بمعنى الكلمة، وإن كان مصطلح البحث يرتبط غالباً بفكرة جمع الشواهد والبيانات الإمبريكية.

ومع ذلك، فإن الشخص الذي يبدأ في تطوير نظرية عامة أو شاملة، ربما يرغب في تشجيع استخدامها في البحث الإمبريقي، سواء لإلقاء الضوء على المعلومات الإمبريكية نفسها، أو لتعزيز أو تطوير أو رفض بعض جوانب النظرية. فعلى سبيل المثال يذكر تيرنر (١٩٨٨) في تفسيره وتطويره لنظريته العامة عن "التفاعل الاجتماعي" أنه يأمل أن يختبر الباحثون بعض قضايا إمبريقيا. وبالمثل فقد طرح جيدنز (١٩٨٤) بعض الطرق التي يمكن من خلالها استخدام نظريته العامة عن "الصياغة البنائية" لتوضيح الجوانب المختلفة للبحث الإمبريقي (انظر: كذلك مؤلف لايدر، ١٩٩٣). وقد استخدم

باحثون آخرون البيانات الإمبريقية لاختبار بعض مسلمات نظرية "الصياغة البنائية" (انظر: مؤلف لايدر وزملاؤه، ١٩٩١). إن ذلك التعاون والاستعارة المتبادلة في الاتجاهين -من النظرية العامة إلى البحث الإمبريقي، ومن البحث الإمبريقي إلى النظرية- هو ما أشجعه صراحة على امتداد الفصول التالية من هذا الكتاب. وهكذا أعتقد أن هناك امكانية لقيام اتحاد بين النظرية الموجودة سلفا - حيث تقوم بدورها كنموذج أو مرشد للبحث- وبين النظرية التي تشكلت من الاشتغال المباشر بالمادة الإمبريقية وتحليلها، وهي التي تقوم بدورها في تعديل وتشكيل النموذج النظري.

اختبار النظرية في مقابل توليد النظرية

فرق روز (١٩٨٤) بين اختبار النظرية وبين البحث المولد للنظرية، ثم تبعه في ذلك لوينز (١٩٩٢)، ولايدر (١٩٩٣). هذه التفرقة مفيدة في وصف بعض جوانب البحث، وعلى بعض مواضع الاهتمام والأولويات في البحث. ولكننا يجب أن نتذكر دائما أن بعض عناصر عملية اختبار النظرية وتوليد النظرية موجودة بدرجات متفاوتة في معظم البحوث. وإن كانت القضية الأساسية تتعلق بما يعنيه مختلف الكتاب والمداخل المتباينة بهذه المصطلحات على وجه التحديد. كذلك تتداخل هذه التفرقة مع مصطلحات أخرى، فهناك في الأساس التفرقة بين النظرية الموثقة وكما طرحها جلاسر وشتراوس في عام ١٩٦٧، وشتراوس في عام ١٩٨٧، وشتراوس وكوربن في عام ١٩٩٠، وبين أشكال الفروض الاستدلالية في التنظير والتي يشار إليها بصورة مختلفة (مثل جلاسر وشتراوس، ١٩٧١) والاستقراء التحليلي (انظر: مؤلف برايمان وبيرجس، ١٩٩٤)، أو بصورة أكثر بساطة فيما عرف بالنظرية المتوسطة المدى (ميرتون، ١٩٦٧).

فنحن هنا نتعامل أساسا مع مدخلين مختلفين في تناول مسألة كيف أننا كباحثين نتعامل مع النظرية في المحل الأول. فنجد -من ناحية- أن المدخل المتوسط المدى (كما سوف أطلق عليه) يركز على أهمية صياغة الفروض النظرية بصورة مسبقة قبل اجراء البحث لارشاد البحث وتوجيهه،

والمساعدة فى بلورة أى عملية تنظير لاحقة بعد انتهاء جمع المادة الإمبريقية. ومن ناحية أخرى تركز النظرية الموثقة على أهمية أن يبدأ البحث بصياغة نظرية بسيطة على قدر الإمكان، لأنها ربما تتشكل وتتكون خلال عملية البحث ذاتها. وسأحاول فى العرض التالى أن أبدأ بوصف السمات والخصائص الأساسية للنظرية المتوسطة المدى، والنظرية الموثقة على نحو ما جاء فى صياغتهما الأساسية، وأناقش بعد ذلك دلالاتهما بالنسبة للمدخل الذى أحاول توضيحه فى باقى الكتاب.

النظرية المتوسطة المدى:

قام روبرت ميرتون (١٩٦٧) بتلخيص وجهة نظره فى البحث المتوسط المدى فى ورقة أولية أثارت العديد من الأفكار تحت عنوان "تأثير النظرية السوسيولوجية على البحث". يذهب ميرتون إلى أنه على الرغم من أننا نطور أفكارنا الأولية عن مشكلات البحث من خلال الملاحظات الإمبريقية لبعض الظواهر الاجتماعية (مثل معدلات الانتحار فى مجتمعات معينة)، وحينئذ نطرح تفسيراً نظرياً محتملاً للظاهرة من خلال عملية منطقية استدلالية تتسق مع الوقائع المعروفة. وعلى ذلك فإن البحث يقوم على أساس التوصل إلى العديد من الوقائع والمعلومات عن الموضوع أو المجال أو المشكلة موضوع الدراسة بهدف اختبار الفروض الأساسية. إن الشواهد التى يتم التوصل إليها من خلال البحث الإمبريقى إما أنها تؤكد الأفكار النظرية الأولية أو تدحضها، مما يؤدي إلى إعادة صياغتها أو التخلي عنها كلية. وكلما تعرضت النظرية لمزيد من الاختبارات بهذه الطريقة، كلما توافرت الشواهد المدعمة لها، مما يقودنا فى النهاية إلى نظرية ذات بناء راسخ نسبياً يمكن أن يدفعنا إلى إجراء بحوث أخرى فى هذا المجال.

ويشير ميرتون إلى النموذج الأساسى لهذا النوع من البحوث، وهو دراسة دوركايم عن الانتحار (انظر: الترجمة المنشورة عام ١٩٥٢). حيث انطلق دوركايم من ملاحظة مؤداها أن معدلات الانتحار السائدة فى المجتمعات ذات الأغلبية الكاثوليكية كانت أقل من المعدلات السائدة فى

المجتمعات ذات الأغلبية البروتستانتية. وفي ضوء هذا التعميم الإمبيريقى طرح دوركايم تفسيراً ممكناً، وهو أن المذهب الكاثوليكي يعكس مجتمعا على درجة عالية من التكامل يقدم دعماً سيكولوجياً لأفراده في أوقات الأزمات، أما الروابط الاجتماعية بين الأفراد والمؤسسة الدينية - في المجتمعات البروتستانتية - فنجدتها ضعيفة، حيث الناس أكثر خصوصية وفردية. وبالتالي فإنهم في أوقات الأزمات يكونون أكثر عرضة للضغوط النفسية. ويقودنا ذلك إلى استنتاج مؤداه أنه من المتوقع أن تكون معدلات الانتحار في المجتمعات البروتستانتية أعلى منها في المجتمعات الكاثوليكية، وهكذا يمكن تفسير الملاحظة الأساسية. ولذلك لا يصبح للتعميم الأصلي دلالة وأهمية نظرية إلا عندما يرتبط بمجموعة من الفروض التجريبية، مثال ذلك ارتباط معدلات الانتحار بالتماسك الاجتماعي، ومدى وجود علاقات تدعيمية.

ويرى ميرتون أن التنظير المنظم لا يمكن أن يتحقق إلا في هذا الإطار فقط، الذي يقع في منتصف الطريق بين الفروض المحدودة عن الحياة اليومية، والنظريات الموثقة العامة (لكتاب من أمثال تالكوت بارسونز أو كارل ماركس). تتعامل النظريات المتوسطة المدى مع عدد محدود من المتغيرات التي يمكن ضبطها والتحكم فيها (مثل معدلات الانتحار، والدخل، والمكانة، والمهنة، وتوقعات الدور وما إلى ذلك) حتى نكون قادرين على إجراء دراسات إمبيريقية محكمة عليها في ضوء علاقاتها بالمتغيرات الأخرى. يميل ميرتون - بسبب رغبته القوية في أن يتسم عمله بالدقة والتنظيم - إلى البيانات الكمية التي توفرها المسوح الاجتماعية وإلى أساليب التحليل الإحصائية. ويعكس ذلك - من جانب ميرتون - اهتماماً مبكراً في علم الاجتماع بمحاكاة العلوم الطبيعية، بأن يصبح علماً موضوعياً لا شخصياً، ويستخدم ما يطلق عليه البيانات الكمية الصلبة. وعلى الرغم من أن ميرتون لم يكن يدافع عن استخدام البيانات الكيفية في ظروف معينة، فإنه ينظر إليها - بصفة عامة - على أنها أقل علمية من البيانات الكمية لأنها تتسم بعدم الدقة إلى حد كبير والمرونة وعدم التحديد، على الرغم من أن وجهة النظر هذه عن البيانات الكيفية كانت محل اعتراض مؤخراً. (انظر: مؤلف لايدر، ١٩٩٣، ومؤلف برايمان وبيرجس، ١٩٩٤).

النظرية الموثقة:

كان التقليل من أهمية البيانات الكيفية -في الواقع- أحد العناصر المهمة التي وضعها جلاسر وشتراوس (١٩٦٧) في اعتبارهما عندما طرحا لأول مرة فكرتهما عن النظرية الموثقة كمقابل لما طرحه ميرتون عن النظرية المتوسطة المدى، ولكل ما يطلق عليه النظريات الكبرى أو التأملية. ومن أبرز القوى الكامنة وراء تطوير النظرية الموثقة أحد الانتقادات الموجهة إلى النظرية المتوسطة المدى بسبب ميلها إلى اعتبار التنظير موجهًا ومرشدًا للبحث، بينما البحث نفسه يعد وسيلة لاختبار مدى كفاءة وفعالية النظرية. وعلى الرغم من أن جلاسر وشتراوس يوافقان على أن النظرية يجب أن تكون دائما ثمرة للإتحاد مع البحث الإمبريقي (وتلك هي إحدى مشكلات النظرية العامة) إلا أنهما لا يشاركان ميرتون في وجهة نظره عن طبيعة التنظير، وعلاقته بالبيانات الإمبريكية.

وفي هذا الصدد يعتمد كل من جلاسر وشتراوس على تراث الفكر التأويلي والانساني الذي يرى أن علم الاجتماع -والتحليل الاجتماعي بصفة عامة- لا يستطيع أن يتخذ لنفسه قالب العلوم الطبيعية. فالنظرية الاجتماعية يجب أن تعكس الخبرات والمعاني وصور الفهم الشائعة بين الناس في ثنايا التفاعل المباشر، لا أن تهتم بتحديد المتغيرات الإمبريكية التي تؤثر على السلوك من الخارج، وهو ما أكدت عليه وجهة نظر ميرتون الوضعية في التحليل الاجتماعي. وعلى الجانب الآخر تتمثل مشكلة النظرية الكبرى أو العامة في كونها قد صيغت في مرحلة سابقة على البحث وتطورت بشكل مستقل عن جمع المادة الإمبريكية، الأمر الذي يجعلها -بحكم ذلك- ذات طبيعة تأملية غير مؤكدة.

غير أننا نلاحظ أن النظرية المتوسطة المدى تعاني من نفس المشكلة أيضا، حيث أنها تبدأ بتطوير منطقي للفروض النظرية والقضايا (بالرغم من أنها غالبا ما تكون مشتقة من ملاحظات وتعميمات مؤقتة). ويرى جلاسر وشتراوس أنه عند تطبيق مثل هذه النظريات على الواقع الواقعي يتم عادة

تطويع البيانات وارغامها لتلائم مع مقولات ومفاهيم تم صياغتها سلفاً. وتصر النظرية الموثقة على أن المفاهيم والفروض النظرية يجب أن تنبثق من البيانات التي تم جمعها أو الكشف عنها خلال عملية البحث ذاتها. ويطلب مدخل النظرية الموثقة بأنه بدلاً من الاعتماد على المسوح والمقابلات المقننة وتحديد المتغيرات الخارجية، يجب تحقيق علاقة ألفة وتعاطف مع الناس الخاضعين للدراسة حتى يمكن تصوير مفاهيمهم وخبراتهم الاجتماعية تصويراً أميناً. ولهذا تعد أشكال الملاحظة عن قرب (والتي تتضمن الملاحظة المشاركة)، واستخدام جماعات عينة دائمة، والمقابلات المتعمقة أمراً ضرورياً لهذا النمط من البحوث والتتظير. فهي باختصار تؤكد تأكيداً فائقاً على أهمية البيانات الكيفية بصورة تفوق ما هو موجود في المدخل المتوسط المدى (أو المداخل الأخرى لاختبار النظرية).

وهكذا يذهب جلاسر وشتراوس إلى أن كلا من النظريات العامة والنظريات متوسطة المدى تبدأ -خطأ- بأفكار مسبقة (تتضمن افتراضات ومسلمات عن طبيعة البناء الاجتماعي والثقافة) وهي لذلك تميل إلى أن تكون ذات طابع مجرد، ومنفصلة عن الحياة اليومية للناس. وفي مقابل هذا نجد النظرية الموثقة ترتبط مباشرة بالبيانات الإمبريقية، ومن ثم تعكس وقائع الحياة اليومية أياً كان نوع الجماعة البشرية التي تتناولها. وهكذا فإن أحد المعايير التي يمكن على أساسها الحكم على مدى ملائمة وصدق النظرية المؤكدة هو أن تصبح مفهومة وذات معنى لأولئك الذين تحاول النظرية تصوير حياتهم. ومن الواضح أنه على الرغم من أن النظرية الموثقة ليست من بين مداخل اختبار النظرية في أساسها، إلا أنها لا تستبعد بعض عناصر عملية الاختبار (انظر شتراوس، ١٩٨٧، وفوجان، ١٩٩٢) بمعنى أن الأفكار التي تظهر أثناء البحث تخضع باستمرار للفحص في ضوء (ومن ثم يتم اختبارها في علاقاتها ب) الأفكار والبيانات التي تم جمعها، وفي ضوء ما يستجد من بيانات. وبنفس الطريقة، وعلى الرغم من أن النظرية المتوسطة المدى لا تهتم في الدرجة الأولى بإقامة نظرية جديدة من واقع بيانات البحث، فإنها لا تنأى بنفسها عن بعض أشكال إعادة الصياغة أو التطوير النظري (انظر : مؤلف دي فو، ١٩٩٦). معنى هذا إذن أن ما نعيه بصحة النظرية

وكيفية اختبارها، وكيفية توليدها يعنى أشياء مختلفة تمام الاختلاف لدى كل مدخل من هذين المدخلين.

دلالات ذلك بالنسبة لمدخل النظرية التكيفية:

يمكن القول بان كلا من المدخل المتوسط المدى، ومدخل النظرية الموثقة كانا من المصادر المهمة لإلهام أنواع من الاستراتيجيات والتوصيات التي سوف أعرض لها في الفصول التالية. وفي نفس الوقت تعاني رؤية النظرية التكيفية من عديد من أوجه القصور والعقبات التي ترتبط بهذين المدخلين. ومن أبرز هذه المشكلات -كما صاغها مؤسسو هذه المداخل- تعارض هذه المداخل مع بعضها البعض، حيث يدعى كل منهما أنه المحور الأساسي لاستخدام النظرية والتطوير النظري في البحث الاجتماعي. فمن ناحية نجد ميرتون (كما هو الحال بالنسبة لعديد من المداخل الكمية السائدة) يولى دورا ثانويا فقط للبيانات الكيفية، ولعملية توليد نظريات جديدة، بينما يضيف أهمية كبيرة على البيانات الكمية كوسائل للتحقق من صحة الأفكار النظرية التي تطورت عن نسق منطقي استدلالى. من ناحية أخرى يبرز جلاسر وشتراوس الأهمية الأساسية للبيانات الكيفية لعملية الاكتشاف النظري، أى خلق مفاهيم وأفكار وأطر جديدة تطبق على المادة المستمدة من مجال أو موضوع معين.

ومع أنى أعتقد أن كلا المدخلين -حتى فى ضوء آرائهما- يعاني من أوجه قصور وعوائق خطيرة، فإن قدرا من روح المدخلين والدلالات العملية لكل منهما تجتمع (وان كان على نحو معدل كثيرا) فيما أسميه مدخل النظرية التكيفية. فالنظرية التكيفية تحاول -على سبيل التحديد- أن تجمع بين الاهتمام بالأفكار والنماذج النظرية السابقة التي تغذى البحث وتوجهه، بينما تهتم فى نفس الوقت بتوليد النظرية من خلال التحليل المستمر للبيانات. وكما أوضحت سلفا فإن النظرية التكيفية هي الوحيدة القادرة على أداء ذلك من خلال تحويل جذرى لبعض مسلمات كل من النظرية المتوسطة المدى، والنظرية الموثقة.

فالنظرية المتوسطة المدى يعيها في الأساس استبعاد النظرية العامة (أو ما يسميه ميرتون النظرية الكبرى) الأمر الذي يحد دون مقتضى من نطاقها وقدرتها التفسيرية. وهذا بدوره يحد من قدرتها على أن تضيف إلى التراث المتراكم من المعرفة النظرية. بالإضافة إلى ذلك فإن ما يعوق قدرتها على الاحاطة الكاملة بجوانب الواقع الاجتماعي تركيزها على كل ما يمكن قياسه قياسا كميا أو ما يطلق عليه المتغيرات "البنائية" وإهمالها النسبي للمعاني الذاتية وخبرات أولئك الذين تضطلع بدراساتهم. وبالمثل أيضا على حين يمكن إلى حد ما دعم ادعائها بأنها تتعامل مع المتغيرات البنائية، فإن ذلك لا يعنى أنها تتعامل بصورة ملائمة مع ظواهر البناء الاجتماعي أو مع الظواهر المنظمة بصورة كلية. وبهذا المعنى تتطلب النظرية التكيفية ادماج النماذج النظرية لأشكال التنظيم الاجتماعي (كالأسواق، والبيروقراطيات على سبيل المثال) وموارده (كالقوة، والمال، وبعض أشكال الايديولوجيا، والتعبير الرمزي، انظر مؤلف لايدر، ١٩٩٧)، ادماج كل ذلك ضمن اطارها المرجعي العام. فمثل هذه الظواهر لا يكون من الملائم التعامل معها على أنها مجرد متغيرات كمية. وفي النهاية لا تهتم النظرية المتوسطة المدى بالقدر الكافي بمشكلة بناء النظرية كملح روتيني من ملامح عملية البحث، وهذا بالتحديد هو ما يحاول المدخل التكيفي ان يقوم به.

على العكس من ذلك ينطوي بناء النظرية الموثقة على بعض أوجه القصور الكامنة فيه. فقد أوضحت أولا أنها هي الأخرى ترفض اسهام النظرية العامة، ومن شأن هذا -وفي رأيي- أن يضعف قدرتها التفسيرية (أي قوتها ومجالها) بصورة عديمة المرونة وليس لها ضرورة. ومن الممكن تجنب فاقد مثل هذه الأفكار النظرية الجيدة، كما يمكن خدمة الهدف العام لتراكم المعلومات (بدلا من أن تكون شذرات منفصلة ومعزولة) بالإفادة من النظرية العامة. ثانيا على الرغم من أن النظرية الموثقة تفيد في وصف الخبرات الحية المعاشة، والمعاني الذاتية لدى الأفراد، فإنها لا تقدر البناء الاجتماعي أو الجوانب المنظمة في المجتمع حق قدرها. ويرجع ذلك إلى التزاماتها المعرفية (بمبدأ مصداقية المعرفة) والانتولوجية (رؤيتها للواقع الاجتماعي) التي تعنى انكار وجود الظواهر التي لا تدخل ضمن الظواهر

السلوكية، أو التي ليست سلوكية فقط (كالاسواق، والبيروقراطيات، وبعض أشكال السيطرة). وعلى العكس من هذا يتناول المدخل التكيفي كلا من الظواهر السلوكية (كالنشاط، والمعنى، والخبرة المعاشة) تماما كما يتناول الظواهر المنظمة. وفي هذا الصدد نجده يحاول تتبع التأثيرات والصلات المتبادلة بين الأنشطة الاجتماعية للأفراد والبيئة الاجتماعية الأكبر (المنظمة) التي يمارسون فيها أنشطتهم. ثالثا على الرغم من أن النظرية الموثقة تؤكد بقوة على اكتشاف وتوليد النظريات الجديدة، فإنها لا تؤكد بنفس القوة على اختبار النظرية، وخاصة فيما يتعلق بالفروض أو الأفكار النظرية، أو المفاهيم أو الأطر المرجعية المسبقة. ويولى اتجاه النظرية التكيفية نفس القدر من الاهتمام لاكتشاف النظريات، ولا استخدام النظريات القائمة بالفعل، إذ تربط بينهما علاقة تأثير متبادل. وفي هذه الحالة تصبح نقطة الخلاف مع رؤية النظرية الموثقة أن التنظير يجب أن يكون عملية مستمرة، وألا تكون هناك مخططات نظرية مسبقة قبل بداية جمع البيانات أو في أي مرحلة خلال عملية البحث.

النظرية الشكلية في مقابل النظرية الحقيقية

أريد أن أفرق بين ما أعنيه بالنظرية الشكلية وبين ما يعنيه جلاسر وشتراوس بهذا المصطلح (١٩٦٧). ولكن لما كانوا يستخدمون هذا المصطلح في سياق التمييز بين النظرية الحقيقية والنظرية الشكلية، فمن المهم أن نكون على بينة مما يقصدونه بهذين المصطلحين، على اعتبار أن ذلك يساعدنا على فهم السمات الخاصة للعلاقة بين التنظير والبحث بصفة عامة. وفيما يتعلق بالنظرية الموثقة يؤكد جلاسر وشتراوس على أن تطوير النظرية عادة ما يبدأ بالتأكد من البيانات المتصلة بمجال حقيقى معين من مجالات البحث في علم الاجتماع مثل العناية بالمرضى، والتنشئة العنصرية، ونمط حياة المسنين وما إلى ذلك. وبعد أن يتم تطوير النظرية الحقيقية في هذا المجال نتيجة لإغراق الباحث نفسه بالبيانات الإيميريقية التي تجمعت من المقابلات والملاحظات (والمصادر الوثائقية) يصبح من الممكن حينئذ أن يطور النظرية

ويوسعها بحيث تغطي مجالات بحثية أكثر عمومية وشكلية كالسلطة، والقوة، والتنظيمات، والسلك المهني التنظيمي، وتغير المكانة..... وما إلى ذلك.

و تفرض الضرورة أن تبدأ النظرية الموثقة عادة من نقطة ارتكاز حقيقية، ثم تنطلق منها نحو النظرية الشكلية. أما النظرية الشكلية التي تحققت من خلال العملية السابقة فيمكن استخدامها كموجه أساسي لبحوث مستقبلية، ولكن بشرط ألا تصبح جامدة وعديمة المرونة، وتتحول إلى البحث عن البيانات التي تتسق مع النظرية (وتؤكد لها)، وذلك بدلا من توليد نظرية تتوافق مع البيانات. لذلك من المهم دائما التأكيد على الاكتشاف والانفتاح بالنسبة لعملية التنظير. وقد أشار جلاسر وشتراوس، على أى حال، إلى الحاجة إلى تعدد النظريات (الحقيقية والشكلية)، وذلك على النقيض تماما من أولئك الذين يتحدثون كما لو أن هناك نظرية واحدة لكل مجال من المجالات الشكلية، أو نظرية شكلية واحدة لكافة المجالات جميعا (انظر: مؤلف جلاسر وشتراوس، ١٩٧١، صفحة ١٨٢).

إذا نظرنا إلى التفرقة بين النظرية الحقيقية وبين النظرية الشكلية خارج سياق النظرية الموثقة، فسوف نجد أنها تشير إلى وجود تشعب في البحث الاجتماعي. ويبدو هذا التشعب بين هؤلاء الذين يفهمون النظرية على أنها مرتبطة ارتباطا مطلقا بمجموعة متميزة من الاهتمامات أو القضايا الإمبريقية، كالاتحار، أو التدرج الطبقي، أو السلوك الجنسي، أو المرض العقلي، أو تعاطي المخدرات، أو التمريض، أو التعليم.... وما إلى ذلك، وبين أولئك المهتمين بدلالات البحوث بالنسبة للقضايا النظرية العامة. إن ما نعينه هنا بالنظرية الشكلية أمر حاسم عظيم الدلالة. فعلى الرغم من أن عدیدا من الباحثين سيوافقون على أهمية الدلالات العامة للنظرية، فإنهم سوف يحجمون أمام فكرة استخدام أى من عناصر النظرية العامة (على نحو ما نجد في أعمال فوكو، وهابرماس، وبارسونز وغيرهم) كعنصر من عناصر البحث الأساسية.

وفي ضوء المدخل الذى أعرض له فى بقية هذا الكتاب، أرى من الضروري أن أحرر فكرة النظرية الشكلية من القيود التى فرضها عليها

تعريف جلاسر وشتراوس، والذي يستبعد تأثير النظرية الاجتماعية العامة. فمن شأن استبعاد أكثر الأطر النظرية عمومية أن يؤثر على تجفيف منابع التنظير الممكنة في البحوث، أو لا كموجه أساسي (أى كجزء من تصميم البحث) كملحق متمم للنظريات الموثقة. وفي هذا الصدد قد يكون من المفيد لتراكم المعرفة النظرية والإمبيريقية أن نتقبل فكرة وجود أنماط ومستويات مختلفة من التنظير. ونتيجة لذلك، كان لديهم تصوراتهم الخاصة عن الصدق، ومن ثم توفر أكثر من سبيل لوصف النظرية -بحق- بأنها نظرية موثقة من واقع البيانات، وعدد من السبل التي يمكن عن طريقها توليد النظرية. وعلى الرغم من وجود عديد من المشكلات التي تكتنف هذا المجال وتحتاج إلى حل، فإن الاستجابة البناءة ربما تتمثل في التوفيق بين وجهات النظر الراسخة عما يجب أن تكون عليه النظرية، أو عما يجب أن تشبهه أو تقترب منه (انظر: مؤلف لايدر، ١٩٩٣).

الجوانب المعرفية والأنطولوجية للنظرية

ونقطة الخلاف فيما يتعلق بقضية تطوير مدخل أكثر شمولاً للتنظير في البحوث، تتمثل في فهم بعض الافتراضات التي تشكل أساس مداخل معينة. ونلاحظ في هذا الصدد أن البحث يرتبط ببعض القضايا الفلسفية الأساسية، التي لا يمكن أن تكون محايدة من الناحية النظرية بالمعنى الدقيق للحياة. وحتى الباحث الذي يدعى أن نظريته لم تتأثر بأى افتراضات نظرية فإنه بذلك إنما يقدم ادعاء نظرياً في هذا الشأن. وهكذا فإن دعاوى وضعية التوصل إلى نتائج محايدة موضوعياً وغير متأثرة بأى مقولات معرفية أو نظرية مسبقة تبدو أمراً زائفاً (انظر: مؤلف كيت و أوري، ١٩٧٥، ومؤلف باسكار، ١٩٧٩). كذلك نجد أن ادعاء الاتجاه الانسانى (أو التاويلي) أنه يقدم وصفاً أكثر كفاءة للواقع الاجتماعى بمجرد الاهتمام بالمعاني والمفاهيم الذاتية قد أمكن التصدي له ونقده حديثاً على يد أصحاب مدخل الواقعية الجديدة في علم الاجتماع (انظر: مؤلف باوسون، ١٩٨٩، ومؤلف لايدر، ١٩٩٠).

لاشك أن هذه قضية معقدة، ولكنى عند هذا الحد لا أنوى الدخول في مناقشة شكلية تبعدنا عن الاعتبارات العملية التي سأعرض لها في الفصول

التالية. ومع ذلك فإن قضية دراسة الافتراضات المعرفية الأساسية لبعض استراتيجيات البحث تتطوى على ثلاث دلالات رئيسية للتنظير في البحث الاجتماعي. أولاً، من شأن الوقوف على المقدمات التي تقوم عليها صور التحليل واستراتيجيات البحث الاجتماعي أن تتيح لنا فرصة فحص الفروض المستترة التي يمكن أن تؤثر على تطوير النظرية مستقبلاً كثمرة للبحث الاجتماعي. من هذا مثلاً، لو اعتقد شخص أن الشكل الوحيد الصائب من المعرفة هو الشكل ذي الطبيعة الإمبريقية فقط، وأن هذه المعرفة مشتقة من شواهد حسية (النزعة الإمبريقية)، فمن المحتمل حينئذ ألا نتعاطف مع الادعاءات التي تقول أن الروابط الداخلية بين المفاهيم (النزعة العقلانية) يمكن أن يكون لها أي دور مفيد في توفير المعرفة الصحيحة الموثوق بها.

وفي سياق النظرية التكوينية أرى (كما سيرد في الفصل السادس) أن التوتر القائم بين المداخل الإمبريقية والمداخل العقلية للمعرفة يجب التغلب عليه، وهنا يطرح المدخل التكويني حلاً واحداً لهذه المشكلة. ثانياً، إذا ارتبط الباحث ارتباطاً وثيقاً بفكرة أن البحث الاجتماعي يجب أن يلتزم بالمعايير المنهجية المتبعة في العلوم الطبيعية ويخلص لها، فإنه قد يرفض حينئذ القول بأن البحث الاجتماعي يستطيع أن يستند على مسلمات أكثر ارتباطاً بالمذهب الإنساني، وأن يتضمن استجابات أكثر انتماء للمذهب التأويلي، والتزاماً بمبدأ التعاطف. وأشار مرة أخرى إلى أنني سوف أعرض لهذه القضية في الفصل السادس، حيث أرى أن النظرية التكوينية تقوم اعتماداً على كلا نوعي مداخل التحليل الاجتماعي والعلم الاجتماعي ومن الواضح أن تحليل الالتزامات المعرفية والأنطولوجية الأساسية يسمح بالتعامل مع مستويات مختلفة من التنظير، وأنواع ادعاءات الصدق التي ترتبط بها.

ثالثاً، وهي نقطة ترتبط بالنقطتين الأولى والثانية، إن مسألة العلاقة بين المعرفة والأنطولوجيا تعد أمراً فائق الأهمية للنظرية الاجتماعية والبحث الاجتماعي. يذهب كل من جينز (١٩٨٤) وباسكار (١٩٧٩) إلى أن التساؤلات الأنطولوجية (عن طبيعة الواقع الاجتماعي) تسبق التساؤلات المعرفية حول الصدق. والرأي عندى، على أي حال، أن كلا نوعي التساؤلات - عن طبيعة الواقع، وكيف نتوصل إلى معرفته - يرتبطان معاً

بصورة لافكاك منها، وهو أمر ينطوى على دلالات مهمة لكيفية أداء البحوث، وأنواع المشكلات البحثية التي نواجهها، والأسئلة التي نطرحها. وينطبق هذا بصفة خاصة على ما يتعلق بمسألة كيفية نظرنا للروابط الداخلية بين الأنشطة الاجتماعية من ناحية، وجوانب البناء الاجتماعي (النسق) من ناحية أخرى، والتأثيرات المتبادلة بينهما.

المفاهيم المدققة فى مقابل الأطر التفسيرية

ترتبط هذه القضية بالقضية السابقة (وهى الجوانب المعرفية والانطولوجية للنظرية)، ولكنها تشير مرة أخرى أيضا إلى التساؤل المطروح حول درجة تركيز المشروعات البحثية على المسائل الامبيريقية أو النظرية. وبقدر ما يرتبط ذلك بالمسائل المعرفية، فإنها تهتم بتحديد إلى أى مدى يكون استخدام مفاهيم جزئية، أو أجزاء من نظريات أكبر فى البحث الاجتماعى مبررا مشروعا لاعتبارها نظرية بالمعنى الدقيق أو أنها مجرد خطوة أولية نحو التنظير. إن القضية الأكبر هنا هى ما إذا كانت المفاهيم الجزئية تؤدي مجرد وظيفة محددة كديكور فى البحث، أم أنها تضيف فى الحقيقة قوة تفسيرية إلى عملية تحليل نتائج البحث. إنه من الصعب على المفاهيم الجزئية أن تمدنا بتفسيرات نظرية شاملة وعميقة من ذلك النوع الذى نتوقعه من النظريات العامة الكبرى، ولكن ليس هناك سبب واقعى يجعلنا نفترض أن المفاهيم الجزئية أقل قدرة على الاسهام سواء على المستوى الوصفى أو النظرى.

وهناك بالتأكيد أمثلة جيدة للبحوث التى اعتمدت على نظريات كبرى فى محاولة فهم النتائج التى توصلوا إليها وتصنيفها، كما فى بحث بلور وماكينتوش (١٩٩٠) الذى استخدم فيه أفكار فوكو عن القوة والمقاومة والاشراف فى دراستهما عن المؤسسات العلاجية والزيارات الصحية فى إنجلترا. ولعل هناك مخاطرتان تكتنفان استخدام نظرية عامة. أولا عندما يكون استخدامهما انتقائيا، فإن احتمالات تحريف المفاهيم عن سياقها النظرى تصبح أمرا واردا، الأمر الذى يؤدي إلى أحداث تشويه غير متعمد لمعانيها

(وهو أمر يمكن أن يؤدي إما إلى إرغام البيانات على التوافق مع مفاهيم غير ملائمة، أو استخدام المفاهيم كديكور وحسب). ثانياً قد تثار مشكلات على النقيض من هذا تماماً عندما يستخدم الباحث شبكة متكاملة من المفاهيم، أونظرية عامة كإطار تفسيري لنتائج البحث. ففي كلا الحالتين غالباً ما يتعرض الباحث لإغراء استخدام مجموعة متكاملة من المفاهيم والمسلمات الأساسية لتقديم تفسير سابق التجهيز للنتائج، بدون أخذ النتائج ذاتها في الاعتبار بالقدر الواجب. ونتيجة لذلك قد يتحول الأمر إلى مجرد ممارسة لتعزيز الذات و/ أو تبرير الذات.

بالرغم من هذه المخاطر المحتملة، فإن وجهة نظري العامة في هذا الكتاب أن أفضل استخدام للمفاهيم الجزئية المستمدة من بناء معرفي أو نظري أكبر، أن يكون بمثابة وسيلة لتيسير عملية التنظير، سواء من خلال تدقيق وتطوير النظرية القائمة، أو من خلال توليد نظرية من واقع الشواهد التي وفرها البحث. ومن خلال استخدام مثل هذه المفاهيم كأدوات موجهة يترود الباحث بوسيلة أولية للتنظيم، وبلورة الكم الهائل من البيانات. إن مثل هذه المفاهيم قد يتم التخلي عنها في أي مرحلة خلال تحليل البيانات، وهو ما يحدث عندما يتضح مثلاً أنها باتت عديمة النفع كأداة موجهة للبحث. من ناحية أخرى، فإن تحليل مزيد من البيانات قد يؤكد الأهمية التفسيرية للمفاهيم (الأولية) المبدئية، وحينئذ فإنها سوف تشكل -في نهاية الأمر- جانباً مهماً في تطوير النظرية.

و الملاحظ على أي حال، فيما يتعلق بالمدخل التكيفي ككل أن المفاهيم الجزئية تستخدم - من وجهة نظر طويلة المدى- في تطوير مزيد من النظريات، والنماذج، والأطر المرجعية الأكثر دقة. علاوة على ذلك، على حين أقر بأن استخدام مفهوم واحد -أو عدة مفاهيم- مشتقة من إحدى النظريات القائمة لإلقاء الضوء على نتائج البحث وتفسيرها يعد أمراً مشروعاً تماماً، ومقبولاً في ذاته كاستراتيجية بحثية، فإن المدخل الذي أطرحه في هذا الكتاب يحاول التآليف بين استخدام نظرية موجودة سلفاً، وبين صياغة نظرية من واقع نتائج البحث. فمن شأن ذلك أن يسمح بتدقيق النظرية القائمة في ضوء نتائج البحث، كما يسمح أيضاً بالتوصل إلى نظرية جديدة من خلال

التأليف بين نظرية سابقة (وكذلك النماذج النظرية القائمة) وتحليل البيانات المتوفرة من مشروع بحثي جار. هذا الوضع الثرى المركب يسمح بقدر أكبر من المرونة، والانفتاح، والشمول في استخدام الامكانيات المتاحة في تطوير النظرية، وتراكم المعرفة بالعالم الاجتماعي.

التنظير كعنصر متواصل في مقابل كونه عنصرا مستقلا عن البحث

هذا التعارض الثنائي الذي يتعلق بمدى اعتبار التنظير نشاطا منفصلا ومتميزا لا يدخل عملية البحث الاجتماعي عند مرحلة معينة، أو اعتباره متوصلا متكاملا مع كافة مراحل البحث. وهنا نلاحظ، مرة أخرى، أن هذا البعد يتداخل مع عديد من الأبعاد الأخرى التي فرغنا من مناقشتها. وكلما تزايد الاعتقاد بأن النظرية يجب أن توجه البحث، بمعنى تبني اتجاه فحص النظريات، كلما سادت النظرة إلى التنظير كنشاط مستقل يدخل في عملية البحث عند مراحل محددة. ففي حالة مداخل اختبار النظرية نجد أن بلورة إطار للمسلمات النظرية يسبق البحث نفسه، ثم يترد مرة أخرى إلى العملية بعد الفراغ من تنفيذ البحث، أي كمرحلة ختامية في تحليل البيانات الإمبريقية.

وعندما تتم صياغة البحث استنادا إلى إطار عام من المفاهيم كالماركسية أو التطورية أو النزعة النسوية، فإن التنظير حينئذ يمثل مرافقا مستمرا لعملية البحث، بمعنى أن يمثل الإطار مرجعا دائما. ومع أن النتائج تستخدم في العادة لمجرد تأكيد أهمية النظرية في المحل الأول، فإنه نادرا ما يتم استخدامها كوسيلة لاختبار النظريات من خلالها. وتمثل كثير من البحوث الكيفية (خاصة تلك المتأثرة بفكرة النظرية الموثقة) نقيضا متميزا يعارض هذا الاتجاه، بمعنى أنها تنظر للتنظير كجانب مستمر في عملية البحث، ولكنها تصر على أنه يجب أن يكون جانبا ناشئا عن جمع البيانات وتحليلها يتجلى رد فعله باستمرار في تلك الأنشطة (انظر: مؤلف برايمان وبيرجس، ١٩٩٤). على أننا نلاحظ أن البحوث الكيفية لا تسلك جميعها هذا السبيل. فقد قام كل من بلور وماكنتوش على سبيل المثال (١٩٩٠) بجمع البيانات الميدانية

لبحثهما عن الزيارات الصحية والمؤسسات العلاجية قبل أن يدركا أنها وثيقة الصلة بآراء فوكو النظرية عن القوة والاشراف والمقاومة. وهكذا تعد هذه الحالة مثالا لحدوث التنظير بعد اتمام عملية البحث كوسيلة لتنظيم البيانات وتحليلها.

ويؤكد مدخل النظرية التكوينية على أن التنظير يجب أن يكون عنصرا مستمرا في عملية البحث (انظر الفصل الثاني)، ولا يقتصر على الاستخدام عند مراحل معينة و / أو مناسبات معينة في عملية البحث. من هنا يمكن أن يتم التنظير في أى مرحلة من عملية البحث، أى قبل وبعد عملية جمع البيانات، مع أنني أعتقد أنه يجب أن يتم فى ترابط وثيق مع عملية تحليل البيانات. فمن شأن هذا أن يدعم الاستخدام الفعال للموارد بتنظيم كمية الزمان والمساحة المخصصة للأمور النظرية إلى أقصى حد ممكن. وأنا لا أقصد بذلك بالطبع أن تكون عملية البحث بأكملها حكرا على القضايا النظرية وحدها. فمن الوجهة العملية الصرفة، تمثل الأمور المنهجية والفنية عناصر ضرورية لعملية البحث، وسوف يواجهها الباحث باستمرار فى كل مرحلة من مراحل البحث. ولكنى أعتقد، على أى حال، أن زيادة الموارد، والوقت والطاقة الموجهة نحو تطوير النظرية من شأنه أن يعزز القوة والنطاق التفسيري لنتائج البحث، وكذلك ربطها ربطا محكما بالشواهد الإمبريقية التى تمثل الأساس الذى تقوم عليه.

دلالات ذلك للنظرية التكوينية

حاولت أن أوضح أن التنظير والبحث الاجتماعى مرتبطان ببعضهما البعض ارتباطا محقدا متعدد الأبعاد. وعلى الرغم من أنني قد حددت بعضا من الأبعاد الأساسية فى هذا الشأن، إلا أنني حاولت فى نفس الوقت أن أوصل للقارئ حقيقة مؤداها أن كثيرا من البحوث تنهض على أساس توليفة مشوشة من العناصر والاهتمامات المختلفة. والموضوع الأساسى فى هذه المناقشة هو الكشف عن بعض أهم الملامح الرئيسية للعلاقة بين النظرية والبحث، على النحو الذى تتجلى به فى البحوث الراهنة. وإلى جانب هذا تمثل تلك المناقشة

خلفية عامة لطرح اتجاهي الخاص بالنظرية التكيفية والذي يشكل لب باقي الكتاب. والملاحظ أن الأبعاد والخيوط المختلفة التي حددتها ترتبط في ذاتها - وعلى نحو ما- بالنظرية التكيفية، وإن كان يجب أن يكون واضحاً أن ذلك الارتباط يتم بطرق مختلفة ولا اعتبارات متباينة. وسوف أحاول أن أخص فيما يلي النقاط الرئيسية للتباين والتداخل:-

أولاً: فيما يتعلق بمدى التناقض القائم بين الاهتمام النظري في مقابل الاهتمام الإمبريقي، أوضحت أن النظرية التكيفية تركز في المقام الأول على قدر متساو من التنظير ومن جمع البيانات فيما يتصل بكل مشروع بحثي. وإن كان الخط العام للمدخل التكيفي هو التأكد من عدم التغاضي أبداً عن الاستفادة من امكانيات وفرص التنظير. وهكذا فإنني أشدد على أهمية اليقظة المستمرة والحساسية لما قد يتاح من امكانيات التنظير. ويتعين على الباحث ألا "يخلق مفتاح" حساسية النظرية عندما ينخرط في الجوانب الفنية أو المنهجية للبحث. وينقلنا ذلك إلى البعد الثاني المرتبط بقضية ما إذا كان التنظير يجب أن يعتبر مرحلة مستقلة (أو أنه قاصر على مراحل معينة) أو على أنه من عناصر التحليل. وفي هذا الصدد ينظر المدخل التكيفي إلى التنظير على أنه الرفيق الملازم دائماً لعملية البحث الإمبريقي وجمع البيانات (انظر الفصل الثاني).

أما فيما يتعلق ببعدي اختبار النظرية، وتوليد النظرية محل الاهتمام، فنجد أن عناصر من كليهما يتداخلان معاً. وإن كان من المهم أن نترجم ذلك التداخل المتبادل في سياق إعادة صياغة المقدمات التي تقوم عليها كل من مدخل النظرية المتوسطة المدى، ومدخل النظرية الموثقة، لانهما طالما هما موجودتان فإن كل منهما يناقض الآخر على نحو ما. ومن شأن عملية إعادة الصياغة تلك أن تطرح على بساط البحث أهمية الأفكار الأساسية المتصلة بالصدق وبأنواع الظواهر الاجتماعية التي تشكل الموضوعات المشروعة للبحث الاجتماعي والبحث الإمبريقي. أما فيما يتعلق بمسألة الاستخدام الانتقائي أو الاجمالي للنظرية العامة، فإننا نجد أن المدخل التكيفي يتخذ موقفاً متسامحاً من كليهما طالما ينظر إليهما على أنهما مجرد مصادر قابلة للتعديل والمراجعة وإعادة الصياغة من حيث المبدأ. ولا تتعرض مقاصد النظرية

التكيفية للخذلان والاختلال إلا عندما يتم استخدام النظرية العامة كأداة أساسية لتنظيم البيانات الإمبيريقية مقدما.

ويؤكد المدخل التكيفي على تطوير النظرية القائم على توليفات مختلفة لأنواع متباينة من المصادر النظرية والحقيقية، ويستغل التآلف والتآزر العقلي الذي ينشأ بينهما. ونجد بالمثل أن عناصر استخدام كل من المفاهيم المدققة والشبكات التفسيرية يتم دمجها وامتصاصها في إطار النظرية التكيفية. وهكذا نجد أنه على حين تستوعب النظرية التكيفية العامة عملية البحث عن إطار تفسيري، فإن أحد سبل تحقيق ذلك يتمثل في تشجيع استخدام مفاهيم موجهة وتوضيحية قادرة على استثارة الخيال النظري، والمزيد من التدقيق والإحكام النظري.

و إذا كانت التعليقات السابقة لا تقدم أكثر من وصف غير مباشر للنظرية التكيفية، فلأحاول في ختام هذا الفصل أن أحدد بشكل أكثر مباشرة بعض ملامحها المميزة (سوف أقدم مناقشة كاملة مفصلة لها في الفصلين السادس والسابع من هذا الكتاب). أولا تركز النظرية التكيفية على تشييد نظريات جديدة في سياق البحث الجارى من خلال الاستفادة من مكونات النظريات السابقة (بنوعيتها النظرية العامة، والنظرية الحقيقية)، وذلك جنبا إلى جنب مع النظريات التى تنبثق من جمع البيانات وتحليلها. فالتفاعل المتبادل والحوار بين النظريات الموجودة سلفا (كالنماذج، والمفاهيم، ومجموعات المفاهيم) والنظريات الجديدة المنبثقة يشكل الديناميات الحقيقية للنظرية التكيفية. وبهذا المعنى يتميز هذا المدخل بصورة واضحة عن النظرية الموثقة، والنظرية المتوسطة المدى، واستخدام النظريات العامة كأطر تفسيرية شاملة.

وتعد النظرية التكيفية الناتجة عن مثل هذا التفاعل أو الحوار المتبادل دائما محاولة لوصف العلاقات والروابط بين عالم الحياة وعناصر النسق في المجتمع. ومعنى ذلك أنها تتمحور حول الروابط الداخلية بين معانى الفاعلين، وأنشطتهم ومقاصدهم (عالم الحياة) من ناحية، ومن ناحية أخرى العلاقات بين الثقافة، والمؤسسات، والقوة، و الممارسات، والعلاقات الاجتماعية التى يعاد انتاجها (عناصر النسق). وفى هذا الصدد تركز النظرية التكيفية على الروابط

بين الفعل والبناء فى الحياة الاجتماعية، والصلات بين مستويات التحليل الواسعة النطاق (الماكرو) والمحدودة النطاق (الميكرو). وهكذا تمثل النظرية التكيفية مدخلا منهجيا يضع فى اعتباره الطبيعة الغنية والمركبة للواقع الاجتماعى (أى عمقه الأنطولوجى). كما يعترف بالحاجة إلى أساس معرفى يعكس التمازج بين العناصر الموضوعية والذاتية للحياة الاجتماعية. وهذا المدخل المتعدد الأبعاد يميز النظرية التكيفية عن النظريات الأخرى التى تقصر اهتمامها على بعد واحد أو مجال واحد من مجالات الحياة الاجتماعية.

إن النظرية التكيفية فى تعاضم، فهى كيان عضوى يعدل من نفسه باستمرار فيما يتعلق بما تمليه عليه المبررات النظرية، وما تفرضه عليه الطبيعة الواقعية للعالم الإمبريقي. أما المفاهيم والنماذج النظرية الموجودة سلفا، فتطرح على البيانات الجديدة أنماطا ونظاما، بينما تظل دائمة الاستجابة للنظام المقترح الذى يستخرج من واقع البيانات نفسها. وهكذا نرى أنه على الرغم من أن النظرية التكيفية تشدد على النظرية التى يتم توليدها، فإن ذلك يختلف كل الاختلاف عن النظرية الموثقة فى أنها تستفيد من النماذج النظرية المحكمة الموجودة سلفا قبل جمع البيانات فى مراحل معينة من البحث. وعلى نقيض ذلك، يرفض مدخل النظرية الموثقة أهمية النظرية المسبقة (خاصة النظرية العامة) ويصر على أن النظرية يجب أن تتبثق مباشرة - وعلى سبيل الحصر - من جمع البيانات وتحليلها. ونلاحظ فى هذا الصدد أن السمة المميزة للنظرية التكيفية - أنها تفيد فى نفس الوقت من كل من النظرية المسبقة وبيانات البحث فى تشييد النظريات الجديدة، فى حين أن النظرية الموثقة تولى من قيمة البيانات الإمبريقية، وتتناهى النظرية المسبقة أيا كان نوعها.

الفصل الثانى

عناصر عملية البحث

بعد أن فرغت من تحديد الملامح الأساسية وصور التباين فى العلاقة بين التنظير والبحث، أود أن انتقل الآن إلى تناول ديناميات عملية البحث نفسها. وستقوم استراتيجيتى فى الدراسة على تمييز العناصر المختلفة لعملية البحث الشائعة بين كل أنواع البحوث. أما العناصر التى سوف أركز عليها وأهتم بها فهى : اختيار الموضوع والمشكلة، والإطار المرجعى النظرى - أو بتعبير أدق المواقف النظرية التى يتبناها الباحث - ومناهج وأساليب جمع البيانات، واختيار العينة، والترميز، وكتابة تقرير البحث. ولن أتناول تحليل البيانات فى جزء منفصل، وذلك لأننى أفترض أن عملية تحليل البيانات تدخل فى كل خطوة فى عملية البحث، وبالتالي سوف أتعرض لها فى مختلف الأجزاء. وحتى بالرغم من تناول القضايا النظرية بصورة مستقلة، فإننى أفترض أن التنظير وتحليل البيانات يسيران معاً فى يد، وهكذا يجب النظر إلى التنظير على أنه عنصر مستمر فى البحث. حاول بعض الكتاب بنجاح تناول عناصر البحث - مماثلة لتلك التى أطرحها وإن كانت غير مطابقة تماماً لما أطرحه - كمراحل فى عملية البحث. ومع أن طرحهم هذا كانت له فوائده الواضحة، وأن بعض هذه العناصر يمكن النظر إليها على أنها مراحل متعاقبة فى المشروعات البحثية الجديدة، فإننى أرى - لأسباب عديدة - فى التخلي عن فكرة وجود تسلسل زمنى ضرورى أو ثابت نسبياً.

ومن الواضح بالطبع، أن هناك بعض الحالات التى يكون فيها ما يبرر تصور أن مراحل البحث المختلفة محددة زمنياً، بمعنى انتظامها فى تسلسل معين، بحيث يأتى بعضها قبل البعض الآخر أو بعده. فمن الواضح على سبيل المثال أنه لا يمكن الحديث عن تحليل البيانات أو النتائج والاستخلاصات قبل تحديد الأسلوب الذى سوف يتبع فى جمع المادة. وإن كان هذا التسلسل الثابت لا يصدق على معظم عناصر البحث الأخرى التى حددتها. أحياناً ما

يكون ذلك بسبب أن البحث كثيرا ما يتسم بقدر من الفوضى أثناء التطبيق العملي، بحيث لا يتبع تسلسلا زمنيا يمكن التنبؤ به، أو يلتزم بتعليمات واضحة متفق عليها. ولهذا قد تصبح خطوات البحث عرضة للفوضى والاضطراب. يدلنا الواقع الفعلي أن مراحل البحث ليست متميزة دائما عن بعضها البعض، أو منفصلة عن بعضها البعض بإحكام، وهكذا تميل إلى الامتزاج ببعضها البعض وتداخل كل منها في الآخر، مما يجعل من المستحيل علينا أن نحدد متى تنتهي مرحلة ومتى تبدأ الأخرى.

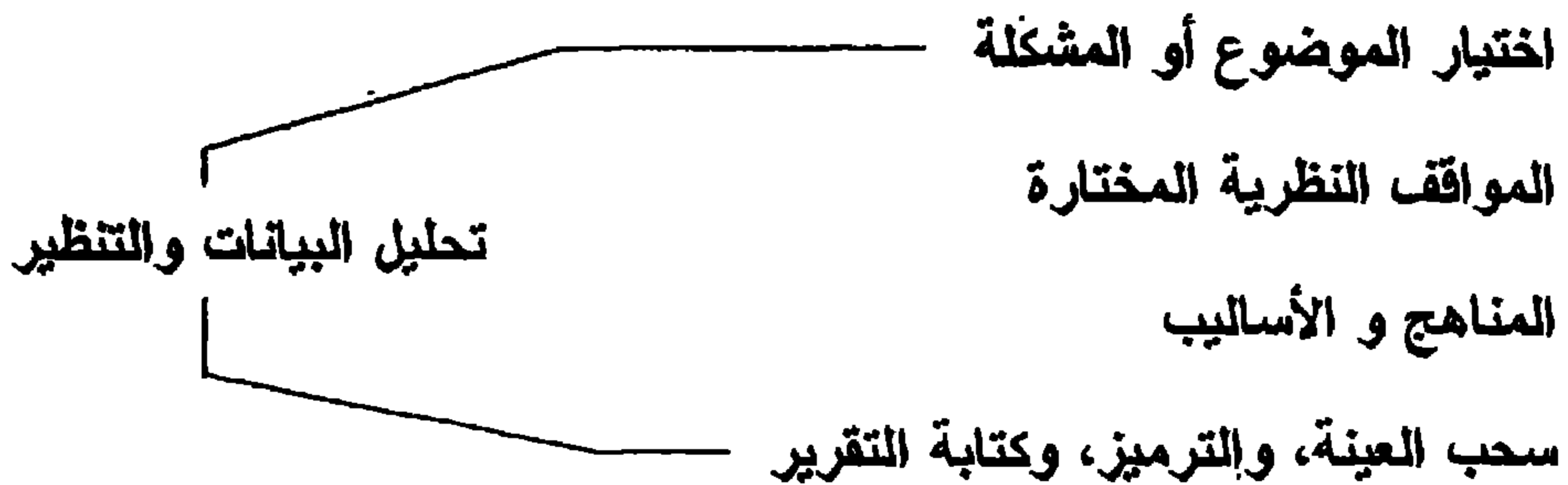
والأمر المهم في النهاية، إذا وضعنا في الاعتبار التباين الواسع للنماذج المحتملة في البحث الاجتماعي، فسوف يبدو واضحا تماما أن بدء مراحل معينة سوف يتباين من حالة لأخرى تبعا لعدد من العوامل. فنجد مثلا أن سحب العينة وأساليب اختيارها لا يقتصر بالضرورة على المرحلة المبكرة في عملية البحث. لو اعتقد الباحث أن سحب العينة يجب أن يتوافق بمرونة مع طبيعة البحث، فإن تلك المرونة سوف تصبح سمة مستمرة من سمات عملية البحث كلها، وليست قاصرة على مرحلة محددة من مراحلها. وهذا هو ما يحدث على سبيل المثال في حالة تبني أسلوب كرة الثلج التي تستخدم في البحث عندما لا تتوافر معلومات يمكن الاعتماد عليها بشأن طبيعة المجتمع الذي يراد سحب العينة منه (أي أعداد الناس ومواقعهم وأوضاعهم). وهكذا نرى أنه بالنسبة لبعض الجماعات المجهولة نسبيا، مثل الخدم الآسيويين، أو الشواذ المتزوجين، أو المجرمين النشطين يتعين سحب العينة بهذه الطريقة (انظر التعليقات التالية بشأن سحب العينة في ضوء نظرية).

كذلك نجد أن ميول الباحث واتجاهاته قد تسمح بأن يجرى التنظير في مرحلة معينة أو في كل مراحل البحث، ومن ثم يصبح من الصعب تعيين الموقع الطبيعي أو الصحيح للتنظير في بعض مراحل إجراء البحث. الواقع أن هذا النمط من مداخل التنظير التي تتسم بعدم القطعية أو المرونة أو الفوضى هو بالضبط ما اسعى إلى الدفاع عنه في هذا الفصل، لأنني أعتقد أن ذلك هو أكثر الوسائل المفضية إلى التنظير الواسع الخيال. يغذى هذا

التصور الفصول التالية التي اقترح فيها طرقا لتشييد النظرية في سياق البحث الجارى، وأحاول تطوير مدخل النظرية التكيفية الذى يسعى إلى الاستفادة من الحوار التعاونى مع النظرية الاجتماعية العامة. وبرغم هذه النوايا والأهداف، فسوف أتناول فيما يلى مختلف عناصر البحث التى ذكرتها سابقا، وفق تسلسل يمكن أن يعد تقليديا، وذلك بهدف الشرح لا أكثر، لأن المناقشة يجب أن تلتزم ببعض النظام فى تناول عناصرها (انظر شكل ٢-١)

شكل (٢-١)

عناصر عملية البحث



ولكن هذا التسلسل يجب النظر إليه باعتباره تحكما إلى حد ما (لأسباب التى ذكرتها من قبل) وعلى أنه قابل للتعديل أو التوزيع تبعا لتباين أنماط البحث والظروف العملية.

اختيار موضوع ومشكلة البحث

بمجرد أن نضع في اعتبارنا مشكلة الصياغة الأولية لمشروع البحث، نستطيع أن نفهم وجهة النظر التي تقول بعدم وجود مراحل منفصلة ومقسمة تقسيما واضحا . أول مبررات وجهة النظر هذه أن مرحلة صياغة مشكلة البحث ليست لها نهاية محددة وقاطعة، بل الواقع أنها قد تكون أقرب إلى التطور العفوي الذي يتسم بسلسلة من حالات التذبذب بين حالات الفوضى النسبية والوضوح النسبي. ثانيا، لا يوجد سبب يدفعنا للإفترض بأن القرارات المتعلقة بتحديد موضوع البحث والمشكلات الأساسية التي يجب أن ينصب عليها يمكن فصلها تماما عن القضايا العامة للإطار النظري المرجعي أو أساليب جمع البيانات. فهذه القضايا سوف تظل ذات أهمية مستمرة - بالضرورة - سواء أثناء المرحلة الأولية عند صياغة المشكلة، أو بالنسبة للعناصر الأخرى لعملية البحث. وإن كان من المهم على أي حال أن نولي اهتمامنا للقرارات والاختيارات التي نستقر عليها في البدايات الأولى للبحث، لأنها تكون ذات تأثير هام على تطوره فيما بعد. ولعلنا نرى أنه من الواجب أن ندرك أنه يمكن عمل الكثير في هذه المرحلة فيما يتعلق بتطوير المفاهيم وتشديد النظرية.

غالبا ما تبدأ معظم كتب المدخل في مناهج البحث، والكتب التي تتناول أساليب البحث بافتراض مؤداه أن الموضوع أو المشكلة التي تقود البحث، والتي ينصب عليها الجهد البحثي (والتي يتم حلها في النهاية) يتم اختيارها بصورة مسبقة، ومن ثم تنتقل تلك الكتب مباشرة إلى الحديث عن الجوانب الفنية لمناهج البحث المختلفة، وأساليب جمع البيانات، وأشكال سحب العينة، وترميز البيانات، وما إلى ذلك. وفي حالات أقل تسقط من دائرة الاهتمام الأسئلة المتعلقة بدور النظرية في صياغة مشكلات البحث، وحتى عندما تثار فاما أن يتم تهيميشها (وتعالج كمجرد مرحلة فنية أخرى للبحث) أو يتم تفسيرها بأسلوب خاص. معنى هذا أن القضايا النظرية تتم معالجتها - باستمرار - باحدى طريقتين (أو ربما بمزيج منهما معا). أولا، يعتقد أن

النظرية والقضايا النظرية تدور حول فروض محكمة الصياغة (أو مجموعة من الافتراضات) التي يتعين اختبارها بطرق متنوعة خلال البحث. وعلى العكس من ذلك فإنه إلى ينظر إلى النظرية باعتبارها النتاج النهائي لعملية البحث، والتي تتولد من النتائج أو البيانات التي كشف عنها البحث. ومن شأن اتجاه الكتب المدرسية إلى تحديد القضايا النظرية المرتبطة بالبحث على هذا النحو المحدود، أن يؤدي بها في أغلب الأحوال إلى تقليص الإمكانيات والفرص المتاحة أمام الباحث ليصبح منظرا إلى أدنى حد. وهكذا نجد أن هذا الميل نحو الانغماس في القضايا الفنية لمنهج البحث إلى جانب هذه التعريفات الضيقة للنظرية يؤدي إلى إجهاد أى تأمل أو تفكير عميق للقضايا المتعلقة باختيار الموضوع، وطريقة الصياغة الفكرية لمشكلة البحث في المحل الأول.

ومن شأن تبني فكر تقليدى عن النظرية والقضايا النظرية، ورفض الافتراض الذى مؤداه أن قضايا اختيار الموضوع ومشكلة البحث يتم حسمها بصورة مسبقة، من شأن ذلك أن يمكننا من طرح أسئلة مفيدة عن مرحلة البحث الأولى التى يمكن أن تقودنا إلى مفاتيح وخواطر وثيقة الصلة بتطوير المفاهيم والنظرية فى البحث فيما بعد. وهنا أجدنى أدافع عن المدخل التعددى، والمرن، والمفتوح بدلا من الانحياز للمدخل التقليدى، والمنهج أو الاجراءات التى قد يتم تجربتها أو اختبارها، ولكنه يتسم إلى جانب ذلك بمحدوديته، وصرامته وانغلاقه بالنسبة للمداخل أو قواعد الاجراءات، أو القواعد المنهجية الأخرى. والتعددية التى أدافع عنها - فى هذه الحالة - ترتبط بكل من الأمور المنهجية والنظرية عند تطبيقها على الصياغة الأولية لموضوع ومشكلة البحث. إن عدم الزام الباحث نفسه بأى مجموعة بعينها من قواعد الاجراءات أو التصور الخاص لبنية النظرية، أو الاطار النظرى، أو المشكلة النظرية قد يقوده إلى أن يطرح أسئلة بسيطة تماما عن طبيعة موضوع ومشكلة البحث، التى يمكن أن تصب فى نهاية الأمر فى عملية توليد النظرية وتدقيقها.

فيمكن على سبيل المثال، أن نطرح أسئلة تتعلق بالكلمات المحورية والعبارات والمفاهيم الأساسية التي تخطر على ذهن عند التفكير في الموضوع قيد البحث قبل أي تجميع للمادة أو حتى قبل أن يبدأ مسح التراث حول هذا الموضوع. وتبدأ تنشيط لدى الباحث العمليات الابداعية اللازمة في توليد النظرية، بعد أن يكون قد وضع قوائم بمثل تلك الكلمات والعبارات والمفاهيم، وأجرى عليها التغييرات والتعديلات اللازمة. ومن الممكن أن يقودنا وضع الأفكار والمصطلحات بعضها بجوار بعض كيفما اتفق إلى خطوط مفيدة من التصدي أو البحث، بل حتى يقودنا إلى تفسيرات محتملة وخطوط تفسيرية مستقلة تمام الاستقلال عن نتائج البحوث السابقة أو البيانات الجديدة، أو النظريات القائمة (الراسخة) المرتبطة بالمجال موضوع البحث. أن الانخراط في ممارسة مثل هذه التجربة الخيالية التي تتضمن تمييط وإعادة ترتيب الأفكار والمفاهيم من شأنه أن يقي الباحث من أن يغرق نفسه تماما في الحكمة الراهنة في مجال أو موضوع البحث. ومن المؤكد أن ذلك لا يعد وصية بتجاهل التراث المعاصر ونتائج البحوث السابقة، والشواهد والأفكار النظرية التي قدمتها البحوث السابقة، ومحاولات بناء النظرية. إن حديثنا أبعد ما يكون عن ذلك. وإنما نستهدف التحذير من المبالغة في الالتزام بالأفكار السابقة المقبولة والمستقرة بشأن مجال أو موضوع معين، والوقوع في أسرها إلى الحد الذي يحول بيننا وبين مراجعتها والتفكير فيها من جديد.

ولو كان توليد النظرية هو الهدف الأساسي من البحث، فلا شك أن توافر مصادر جديدة ومستمرة من المداخل ووجهات النظر يعد مطلباً ضرورياً. وهكذا فإن مقترحاتي عن التعامل الأولى مع الأفكار الجديدة لا يتوافق مع وجهة النظر التي ترى استبعاد أو تجاهل الكم المتراكم من المعرفة في مجال بعينه، لو كان هذا الكم من المعرفة موجوداً. وإنما الأحرى، لو كان الأمر كذلك، أن تتم التجارب الخيالية الأولية على أرضية ذلك التراث الموجود من الشواهد والتراث النظري. فمن المهم في مثل هذا الموقف أن يتضافر تأثير النتائج الموجودة والحكمة التقليدية لمجال البحث، بينما يحتفظ الباحث في نفس الوقت - بالقدرة على إبقاء مسافة بينه وبين جملة المعرفة. (يتضمن ذلك

أن يكون راغبا في إضافة أفكار تخالف تلك الأفكار السائدة، انظر الفقرة التالية). وذلك أمر ضروري لاتاحة الفرصة لالتقاط الأنفاس، وهى الفرصة المطلوبة لخلق أفكار وخواطر، وتأملات جديدة يمكن أن تقود -فيما بعد- إلى تطوير المقولات النظرية وتدقيقها. تتميز مثل هذه الاستراتيجية بميزة خلق تآزر عقلى دينامى بين التفكير الجديد، والمعرفة المتركمة.

وإذا افترضنا على سبيل المثال أن باحثا قرر أن موضوع اهتمامه يتمركز حول العلاقات بين البغايا وعمالتهن، فإن الاسئلة العامة -مثل ماهى طبيعة هذه العلاقة (نوعية الاتصالات والتفاعلات بينهما)، وسبب الحالة التى عليها هذه العلاقة (وما هى أسباب أو محددات هذه الخصائص)- ربما تعد أحد الحوافز المباشرة لاجراء البحث. ولكن لنتصور أيضا أن الباحث مهتم بالبعد العاطفى أو الوجدانى فى هذه العلاقات (المقصود الطابع العاطفى سواء كان ايجابيا أم سلبيا). هنا يعد مفهوم "العمل العاطفى المأجور" مفهوما محوريا هاما، وبالنسبة لهذا المثال نفترض أن مجال القراءات الأولية فى التراث عن الدراسة الاجتماعية للعواطف سيقود الباحث إلى دراسة هوخشيلد (١٩٨٣) فى هذا المجال. تتأقش هوخشيلد فى كتابها مفهوم العمل العاطفى المأجور من خلال مفهومات عامة، ولكن عينة بحثها الأساسية (والمثال الرئيسى الذى استخدمته بصفة عامة) اختارتها من بين مضيفى الرحلات الجوية. ركزت هوخشيلد فى دراستها على الطريقة التى يتعامل بها المضيفون مع الركاب ويلبون طلباتهم الوجدانية (العاطفية)، كما حددتها لهم شركات الطيران التى يعملون بها.

وهكذا سيصبح مفهوم العمل العاطفى المأجور ذا أهمية أساسية للتفكير النظرى المرتبط بالموضوع والمشكلة محور البحث، لأنه يثير سؤالا حول كيف يتم التعبير عن العواطف الإنسانية بصور متباينة (بصدق، بتكلف، بزيف وما إلى ذلك) وكيف يتعامل معها (أو بمعنى آخر يتصرف) مختلف أنواع المسئولين فى بيئة هذا العمل. ولهذا فإن مجرد التركيز على هذا المفهوم، والتفكير (تخيل) فى كافة أنواع العمل العاطفى المأجور المطلوبة

فى سياقات مختلفة، سوف يمكن الباحث من التوصل إلى أفكار مؤقتة عن نطاق تطبيق المفهوم والطريقة أو الطرق التى يمكن من خلالها توسيع نطاق المفهوم أو تعديله حتى يتوافق مع الظروف المختلفة عن ظروف هؤلاء المضيفين الجوبين. كما أن ذلك سوف يسمح للباحث بأن يبدأ فى التفكير فى أنواع الفئات والرموز، والمؤشرات الإمبيريقية للمفاهيم التى ستلعب دورا فى المرحلة التالية التى سيجرى فيها جمع البيانات وتحليلها.

ونجد على سبيل المثال، أن أحد الأبعاد المهمة للعمل العاطفى المأجور هو مقدار "المسافة العاطفية" التى تفصل الأفراد عن أدوارهم التى يمارسونها، أو تفصلهم عن المتطلبات الوجدانية للأفراد الآخرين. ربما تنشأ الأفكار النظرية الأولية عند مقارنة أنماط مختلفة من بيئة العمل، وأنواع مختلفة من المتطلبات التى تتجم عن ممارسة الأفراد أدوارهم فى تلك البيئات. وبالنسبة للمثال المستخدم هنا: إلى أى مدى تحافظ البغايا على مسافة عاطفية بينهن وبين عاملنهن حتى يحافظن على أمانهن واستقامتهن النفسية الحقيقية فى مواجهة المطالب العاطفية التى يفرضها عليهن العملاء؟ وهل تحافظ البغايا على هذه المسافة بكل عناية بما لا يسمح للعلاقة أن تفقد طابعها الشخصى كلية (ومن ثم تشعر العميل بالاعترا ب)، وحينئذ يتعرض ما تحصل عليه البغى من مقابل ماذى للخطر، بمعنى رغبة العميل فى أن يدفع مقابل ما يحصل عليه من خدمات، وأن يستمر فى العودة للحصول على نفس الخدمات بعد ذلك؟ هل هذه القدرة على المحافظة على المسافة الاجتماعية (والجوانب المتصلة بالهدوء العاطفى، والقدرة على التمثيل ... وما إلى ذلك) تماثل ما هو مطلوب من المضيفين الجوبين، أو من مدرسى المدارس، أو من الممرضات؟

إن مثل هذه القضايا والأسئلة تشير عددا كبيرا من الأسئلة، كالتساؤل عن الفروق فى العمل العاطفى المأجور فى بيئات العمل المختلفة؟ هل يتطلب هذا أن نوسع (أو نفكك) مفهوم العمل العاطفى المأجور إلى فروع ثانوية مثل أساليب الإدارة العاطفية، أو أنماط المسافة العاطفية (الشخصية، والمهنية

والاقتصادية) ؟ ما هي الأبعاد الأساسية للاختلاف وما هي اسبابها؟ ما هو تأثير طبيعة الاتصالات الشخصية التي تتطلبها المهنة على هذه الأسئلة (مثل الاستجابة لمتطلبات العمل العصبى او الخيالى فى علاقة الدعارة، عند مقارنتها بغرس الاستجابة المناسبة والمهارات العاطفية الشخصية فى نفوس تلاميذ المدارس). وهنا نتساءل: هل توجد فى هذه الامثلة ضغوط أكبر نحو الاخلاص فى التعبير العاطفى لدى مدرسى المدارس أو لدى الممرضات أكثر مما هو موجود بين البغايا أو حتى بين المضيفات الجويات؟ ويرتبط بتلك القضايا أسئلة تدور حول الأساس الاقتصادى للعمل والمكانة المهنية. ثم تبدأ أعداد هذه الأسئلة تتضاعف، وقد يؤدي ذلك أو لا يؤدي إلى انتاج أفكار هامة ربما تكون لها قيمة دائمة أو لا تكون عند محاولة تفسير البيانات عن علاقات البغى والعمل. ومن الطبيعى أن يجذب البعد المقارن للأسئلة البحث نحو مناطق أخرى ذات صلة بالموضوع، من المحتمل أن تغذى بؤرة اهتمام البحث الأساسية نفسها، ولكن الأمر الهام أن مثل هذه الأسئلة يمكن أن تتجه بسرعة نحو التعاون مع مجالات أخرى مماثلة، وهكذا يتزايد المجال التراكمى، ونطاق التفكير والتتظير. إن فكرة الطرح التصورى لمدى واسع من الاسئلة والملاحظات والحقائق المترابطة، ثم التحاور مع الأفكار والشواهد والمفاهيم المتاحة يسهل التفكير النظرى التمهيدى عن موضوع البحث قبل جمع البيانات.

إن مثل هذا النوع من العمل التمهيدى ربما يتم بصورة مستقلة عن المعرفة المتوفرة (خاصة فى الحالات التى لا يتوافر فيها سوى دراسات سابقة نادرة، أو لا يتوافر على الاطلاق فى مجال أو موضوع الدراسة)، أو ربما يطرح وسيلة للتفكير من جديد فى مجال تناولته بعض الأعمال، أو تتوفر عنه أفكار أو مفاهيم محورية (كما فى حالة العمل العاطفى المأجور). وفى كلا الحالتين يسير العمل التمهيدى فى سياق الاستفادة من شتى جزئيات المعرفة المتاحة (إذا كانت تصلح) والتى تغذى المواقف والقرارات الأولية المتعلقة بصياغة أهداف البحث، كما تشكل أيضا مشكلة البحث المحورية.

الأطر المرجعية والمواقف النظرية المختارة

إذا كانت فكرة وجود مرحلة منفصلة للبحث مرتبطة بالمسائل النظرية تمثل بمعنى ما موضوعا للخلاف، إلا أنني أريد هنا أن أدعم هذه المقولة بطرح اقتراح مؤداه أن التنظير -بأوسع معانيه الممكنة- يجب أن يكون سمة مستمرة لعملية البحث. وإن كان من الملاحظ عادة، على أى حال، أنه عند ممارسة البحث أو مناقشته فى الكتب المدرسية، فإننا نجدتها تعرض لثلاث مداخل نموذجية فيما يتصل بالمسألة النظرية. المدخل الأول يركز على الأهمية المطلقة لجمع البيانات الإمبريقية. وقد أوضحت فى الفصل الأول أن ذلك الاتجاه يصحبه أحيانا المجاهرة بموقف مضاد للتنظير ينكر أو يرفض أهمية النظرية، وبالتالي يقلل من أهمية النظرية والتنظير وينال من شأنهما. وإن كانت بعض البحوث التى تؤكد على أهمية النتائج الإمبريقية لا تتخذ الموقف المناوئ للتنظير بصورة عمدية، ولكنها تبدى اهتماما أكبر بالحصول على المعلومات سواء بهدف سد النقص فى بعض جوانب المعرفة، و/أو لارتباطها ببعض الأولويات الأهم مثل السياسة الاجتماعية أو المشكلات الاجتماعية.

ويذهب المدخل الثانى فى مسألة النظرية إلى أن الأمر يتعلق باختيار وتطبيق مجموعة من المفاهيم والأفكار التى يمكن أن تشكل الإطار النظرى المرجعى للبحث. وهناك ثلاث صور متباينة لهذا الموقف. تتضمن الصورة الأولى إما استخدام نظرية عامة (أو أجزاء منها) كالنظرية الماركسية أو نظرية الصياغة البنائية، أو نظرية ما بعد الحداثة، وما إلى ذلك من النظريات، كإطار واسع الرؤية يتم من خلاله صياغة المناقشة النظرية للبيانات الإمبريقية التى تم جمعها أثناء البحث. وتتضمن الصورة الثانية تطبيق أو اختبار مفاهيم بعينها مثل "المؤسسة الشاملة"، أو "ثقافة الأسرة"، فى سياق تصميم بحث خاص. ومن المحتمل أن يشتق هذا المفهوم المحدد من شبكة مفاهيم تتسم بالشمول (كالنظرية العامة)، أو من مصدر أو خطاب آخر أكثر انتشارا. وتهتم الصورة الثالثة باستخدام فروض على درجة عالية من

دقة الصياغة، أو مجموعة من المقدمات أو الافتراضات منذ بداية البحث، بحيث يكون تجميع البيانات فيما بعد شكل من أشكال اختبارها على ضوء الشواهد التي سيتم توفيرها.

وتشترك هذه الصور الثلاثة في نزوعها إلى اتخاذ موقف التحقق من إثبات صحة الشيء، وإن كان صحيحا أيضا أنه لا يتم تطبيق بعض أشكال النظرية العامة، واستخدام مفاهيم بعينها بنفس الدرجة من الإحكام تماما. وسوف أتناول هذه الاستثناءات سريعا، ولكن الدافع وراء ضم هذه الصور في مجموعات محتملة معا حقيقة كونها تمثل طرقا لتنظيم البيانات تتحدد بصورة نظرية سلفا. وبهذا الفهم يتم تطبيقها على البيانات التي يتم جمعها أثناء البحث، ومن هنا جاء ميلها إلى الاهتمام بتدعيم أو تفنيد النظريات أو المفاهيم أو الفروض القائمة أكثر من اهتمامها بتشييد نظرية جديدة. فالأمر مجرد اتجاه (أو ميل) وليس قانونا صارما وحاسما، إذ يمكن القول أنه حتى بالنسبة لأكثر أشكال الاختبار النظري صرامة والتزاما بالقواعد والتي تنتهي إلى تفنيد النظرية، سوف تقودنا بطبيعة الحال إلى بعض الصياغات النظرية الجديدة.

ذلك هو ما يحدث أحيانا، ولكن أكثر الاستجابات شيوعا أن يتم إعادة صياغة أو تشكيل بنية نظرية موجودة بالفعل، أكثر من اكتشاف أو تشييد نظريات جديدة بالفعل. ومما لا شك فيه أن هناك دورا مهما يمكن أن تؤديه اتجاهات الاختبار النظري والمداخل التي تستهدف التحقق عموما. ويحدث ذلك على وجه الخصوص في حالة توفر قدر كبير من النظريات القائمة، والنتائج الإمبريقية التي تأكدت بالفعل من خلال بحوث سابقة. ونلاحظ في هذا الصدد أن الميل إلى التحقق من هذه المداخل النظرية يعزز أهمية الاستمرارية، والحوار بين البحث الراهن والجهود السابقة. كما أنه يقيم رابطة قوية مع فكرة الطبيعة التراكمية في تطوير كل من النظرية والبحث الامبيريقي.

لقد سبق أن أشرت، إلى أن بعض النظريات العامة، واستخدام مفاهيم معينة لا توظف دائما وبصورة حتمية لخدمة عملية التحقق وإثبات الحقائق، وإن كان من المؤكد أن استخدام بعض النظريات العامة في تفسير البيانات الإمبريقية، بإخضاع البيانات لمفاهيم ومقولات محددة سلفا، وبدون اهتمام كاف بمدى ملاءمتها لها، يعد من قبيل الالتزام بهذا النموذج الساعي إلى التحقق. وفي بعض الأحيان تستخدم النظريات العامة (أو المفاهيم المشتقة منها) بشكل فضفاض كموجة نظري عام في مجال إمبريقي، أو مجموعة من البيانات، وليس كمقولة تفسيرية جامدة تغربل البيانات، وتصنفها في مفاهيم أو فئات ملائمة تطرحها النظرية. وبهذا المعنى تصبح وظيفة النظرية أكثر من مجرد كونها موجهة لطرح الاحتمالات الممكنة، وليست أداة للتنظيم والتفسير تفرض نفسها على البيانات فرضا.

في مقابل هذا يمكن أن تستخدم بعض جوانب النظرية العامة (والمفاهيم المشتقة من اتجاهات أخرى) كمفاهيم مدققة ذات علاقة مؤقتة بالبيانات الإمبريقية. فإذا عدنا مرة أخرى إلى مثال بحث البغاء السابق الإشارة إليه، فسوف نجد أن مفهوم هوشيلد العام عن العمل العاطفي المأجور يمكن أن يمثل في بداية البحث وسيلة مفيدة لتحديد وتصنيف البيانات المتعلقة بالموضوع إلى أن يجد الباحث ما يحتاج إليه لتطوير مزيد من التصنيفات، أو الفروق لطرح تفسيرات وتحليلات أكثر ملاءمة لنتائج البحث. وهكذا، يفترض كما في المثال السابق أن التحليل المقارن للمهن الأخرى التي تتطلب عملا عاطفيا مأجورا إلى جانب إجراء مقابلات مستمرة مع البغايا وعمالتهن يمكن أن يقودنا إلى مفاهيم أكثر دقة وإحكاما يكون بوسعنا استخدامها، مثلا، لوصف أساليب مختلفة من الإدارة العاطفية. وبهذا المعنى تكون وظيفة مفهوم العمل العاطفي المأجور أن يعمل بمثابة أداة موجهة تطرح خطوطا ممكنة للبحث أكثر من كونه مجرد مؤشر جامد لما تحدده البيانات (انظر الفصل الثالث). ومن الصحيح أيضا بطبيعة الحال أن مفاهيم معينة يمكن استخدامها بصورة دقيقة بهدف الاختبار، مثلما يحدث عندما يتم استخدام مفهوم بعينه للوقوف على مدى فائدته في فهم البيانات الإمبريقية.

و على الرغم من أنه قد لايجرى استخدام نظرية عامة ومفاهيم معينة بصورة جامدة تهدف إلى اختبار صدق النظريات والمفاهيم، فإن طبيعتها المؤقتة لا تمنعها من الاحتفاظ برابطة مباشرة مع الاتجاه الذى يسعى للتحقق من صحة الأشياء. إن الشكل المتصور سلفا للنظرية العامة والمفاهيم وحقيقة أنها تقترح -ولكن لا تفرض بالضرورة- أنماطا بعينها من التفسير، والمفاهيم، والأفكار يعنى أنها تميل ميلا طبيعيا إلى تدعيم النظرية التى تكون جميعا جزءا متما لها. وهذا يعنى أنها ليست موجهة بصورة طبيعية أو روتينية لاكتشاف المفاهيم والأفكار ضعيفة الصلة -أو عديمة الصلة- بالنظريات والمفاهيم التى تحتويها. وفى رأى أن كلا من الاتجاهات المباشرة (اختبار الفروض) وغير المباشرة التى تستهدف التحقق من صحة الأشياء لايمكن أن تؤدي إلا إلى إعاقة طويلة الأمد أو إلى إفساد محاولات تطوير النظرية فى نهاية المطاف، كما ذهب جلاسر وشتراوس (١٩٦٧). وهكذا أذهب إلى القول بأن مثل هذه المداخل يجب (وهى تستطيع) أن تكون أكثر قربا وارتباطا بمهمة تشييد النظرية واكتشاف النظريات (وهو ما سوف أتأوله فيما يلى).

وهكذا تضعنا تلك النقطة المتعلقة بالاعاقة طويلة الامد لعملية تشييد النظرية (وتراكم المعرفة بصفة عامة) أمام التفكير فى المدخل الثالث المتصل بقضية النظرية فى سياق البحث. يمكن القول أن مدخل النظرية المؤقتة يقدر بصفة عامة قيمة النظرية حق قدرها -مثله فى ذلك مثل سائر النظريات التى تمت مناقشتها - ولكنه يرفض صراحة الانواع الثلاثة التى ناقشناها سلفا، على أساس أنها وثيقة الارتباط بالتوجه الذى يسعى إلى التحقق من صحة الأشياء. وهناك كما ذكرت توا قدر معين من الصدق فى هذا التأكيد، ويؤكد جلاسر وشتراوس -بدون شك- على أهمية عمليات اكتشاف أو تشييد نظرية جديدة من خلال التأكد من أن البيانات موثقة، وأن ذلك أمر يستحق الإطراء (على الرغم من اعتراضى على منهج توثيق النظرية الذى تبناه كل من جلاسر و شتراوس). والملاحظ على أى حال، أن رفض أصحاب النظرية المؤقتة للأشكال الأخرى من التنظير فى البحث يعد عبثا لا طائل منه، فضلا

عن أنه يستند على بعض الافتراضات الخاطئة عن طبيعة النظرية والتتظير في البحث الاجتماعي، وعن طبيعة الحياة الاجتماعية والتنظيم الاجتماعي.

وهو عبث بلا طائل بمعنى أنه برفض الأشكال الأخرى من التتظير، تصبح النظرية الموثقة مجرد ادعاء أيديولوجي قطعي (دوجما طيقي) ومطلق لا سند له فيما يتصل بمفهوم الحقيقة، يعوق المحاولات الأخرى المشروعة للإحاطة بالعلاقة بين التتظير والبحث. وبهذا المعنى يفقد أصحاب النظرية الموثقة بعض مصادر الدعم القيمة التي يمكن أن تقود إلى مجموعة من استراتيجيات تشييد النظرية الشاملة والعظيمة الأثر. وإن كان الأكثر خطورة من ذلك هو افتراضات أصحاب النظرية الموثقة أن المداخل الأخرى لا تستطيع أن تطرح سوى نظريات تأملية وغير موثقة، ذات علاقة واهية - أو لاعلاقة لها على الإطلاق - بالعالم الإمبيريقى.

و يمثل هذا الموقف أى نقاط سوء الفهم العميقة من جانب الاتجاه نحو التحقق للعلاقة بين النظرية والبيانات الإمبيريقية. ونلاحظ فى هذا الصدد أن مفكرى النظرية الموثقة يعجزون عن فهم أن هناك أشكالا متعددة يمكن من خلالها فهم علاقة النظرية بالبحث، وأن أشكال النظرية التي تسعى إلى التحقق تتطوى على نوع مختلف من العلاقة مع العالم الإمبيريقى (انظر: مؤلفى لايدر، ١٩٩٠، ١٩٩٣). كذلك يقوم رفض أصحاب النظرية الموثقة للأشكال الأخرى من التنظيم على سوء فهم للطريقة التي ينتظم من خلالها العالم الاجتماعى، وحقيقة أن المداخل الأخرى تركز على جوانب مختلفة من التنظيم الاجتماعى. (انظر: مؤلفات لايدر، ١٩٩٣، ١٩٩٤، ١٩٩٧). ونجد فى النهاية أنه بسبب أن موقف أصحاب النظرية الموثقة يحول دون أى اهتمام بالبناء الاجتماعى والظواهر الاجتماعية المنظمة (على أساس أن مثل هذه الظواهر لا وجود لها، ومن ثم لا تلعب أى دور فى الحياة اليومية للأفراد) فإننا نجدهم غير قادرين على التعامل مع هذه الظواهر الأساسية. وسوف أتناول بصورة مفصلة هذه القضايا والقضايا المرتبطة بها فى مواضع متعددة لاحقة من هذا الكتاب.

مدخل النظرية التكوينية

طورت في الفصلين السادس والسابع من هذا الكتاب الاتجاه الذي اسميته مدخل النظرية التكوينية. وهنا أود أن أصف بعض مقومات هذا المدخل في ضوء هذا الحوار الذي أجريناه فيما سبق مع المداخل التقليدية أو المداخل المستقرة بالفعل. والرأى عندي أن كل المداخل التي عرضت لها تستطيع أن تقدم شيئاً مفيداً، ولكنى أرى أنه من المهم تطوير مدخل أكثر شمولاً وتكاملاً. وبالرغم من أن أصحاب النظرية الموثقة قد أخطأوا في فهم طبيعة التنظيم الاجتماعي، وفي الفروض التي تبنيوها عن المداخل التي تسعى إلى التحقق من صحة الأشياء، (مع الوضع في الاعتبار تحفظي بأن تلك المداخل ليست متساوية في درجة اهتمامها بموضوع التحقق)، إلا أن تأكيدهم على تشييد نظرية جديدة يعد أمراً فائق الأهمية. وتمثل هذه النقطة إحدى سمات مدخل النظرية التكوينية، ولكن بدون أوجه القصور المصاحبة لها والكامنة في النظرية الموثقة.

ويعنى هذا أن مدخل النظرية التكوينية يوجه اهتمامه إلى النظرية التي تظهر من ثنايا مشروعات البحث المحددة، بنفس القدر الذي يهتم به بالنظرية التي يعد وجودها سابقاً على مشروعات بحث محددة مثل النظريات العامة، والفروض التي تحتاج إلى الاختبار، أو مجموعة الافتراضات التي أيدتها بحوث سابقة، والبداهيات المتعلقة بجانب معين من جوانب الحياة الاجتماعية. وبهذا المعنى فالنظرية التكوينية تعتمد على كافة مداخل التنظير للبحث (وكذلك طائفة عريضة من الأساليب والتقاليد المنهجية) وتستفيد بها كموارد تنهل منها ويمكن أن يقوم نوع من الحوار مع بعضها البعض الآخر. ويعنى المقطع "تكويني" من المصطلح أن النظرية تتكيف مع -أو تتشكل من خلال- الشواهد التي تستجد أثناء البحث، في نفس الوقت الذي يجرى فيه تنقية البيانات ذاتها (أو مواءمتها) مع العناصر والمكونات النظرية الموجودة المتصلة بها والمتاحة. وسوف تنصب الفصول التالية على تناول الطبيعة الدقيقة لهذا المدخل، ولكنى سوف أقصر هنا على عرض بعض الشروط التي يتعين

توافرها لكي يستطيع المدخل التكيفي الاعتماد على تنوع العناصر النظرية والإفادة منها.

وأجد أن لدى في الوقت الراهن تعليقات أكثر تفصيلا عن النظريات العامة، لأن من أكثر الموضوعات تحديدا ووضوحا عن المدخل التكيفي هو محاولة صياغة علاقة أكثر قوة وارتباطا بين مصادر النظرية العامة وبين المحاولات والاعتبارات المنهجية للبحث الإمبريقي الاجتماعي. فحتى الآن، ما تزال هناك هوة واسعة إلى حد ما بين هؤلاء الذين يعتبرون أنفسهم من مفكرى النظرية العامة، وهؤلاء الذين انخرطوا في صميم موضوع جمع البيانات الأساسية في البحث الإمبريقي. ورغم أنه من النادر أن تجد أى عالم اجتماع -سواء كان منظرا أو باحثا إمبريقيا من أى اتجاه- ينكر أهمية وجود أو تعزيز وجود صلات قوية بين النظرية والبحث، إلا أننا نصادف في الواقع قلة قليلة فقط، هذا إذا صادفنا أحدا على الإطلاق، هم الذين يحاولون أن يتغلبوا على الفروق التخصصية بين هذه المجالات وعلى تعددية المواقف المعرفية المتنافسة، التي تعوق هذا النمط من الحوار. ولذلك كان من الضروري - من وجهة نظر النظرية التكيفية - أن يتم تحديد بعض المتطلبات الضرورية اللازمة لتوفير قدر أكبر من الحوار بين مداخل التنظير في البحث الاجتماعي التي حددتها وناقشتها من قبل.

ومن المهم في ضوء وجهة النظر التي ترى أن استخدام النظرية التكيفية كأداة تنظيمية يمكن أن تدير حوارا بين مداخل التنظير الأخرى، من المهم تحديد الشروط الأساسية التي تنص على ما يتم تناوله، وما يتم استبعاده من عناصر المداخل الأخرى، وطريقة الاستخدام، وما إلى ذلك. وأهم تلك الشروط، ذلك الشرط الذي ينطبق على كافة المداخل الأربعة العامة في التنظير (استخدام النظريات العامة، والمفاهيم المعينة، واختبار الفروض، والنظرية الموثقة) والذي يصر على أن تكون هذه المداخل -كأنواع من الخطاب- ذات اتجاهات معرفية مفتوحة. ومعنى ذلك التصدي لميل أى من تلك الاتجاهات نحو وضع حدود يتم من خلالها استبعاد المداخل الأخرى، إذ

من شأن ذلك أن يجعلها منفتحة للعديد من المؤثرات الأخرى. وفي رأيي أن أنواع الخطاب المتداولة حول علاقة النظرية بالبحث تعمل كعوامل منخلية، إذ أنها مع كونها متسقة مع ذاتها بالضرورة، إلا أنها تميل أيضا إلى أن تستمد البرهان على صحتها من داخلها هي. ومن ثم يميل كل اتجاه إلى استبعاد المداخل الأخرى التي تتنافس معها بالضرورة على نفس النطاق المعرفي (وهو في هذه الحالة التفسير الخاص لعلاقة النظرية بالبحث).

ومعنى الانفتاح، أن لا تعد أنواع الخطاب هذه نفسها أنواعا متنافسة دوما أو بالضرورة، وإنما ترى أنها مداخل مكملة لبعضها البعض الآخر داخل نفس المجال. ولا يعني ذلك القول بعدم وجود نقاط يمكن أن تشير تناقضات خطيرة قد لا يمكن عندها التغلب على التناقضات ذات الطبيعة المعرفية. ولعل ذلك يحتم إجراء بعض التعديلات على الأسس المعرفية والأنطولوجية لمختلف أنواع الخطابات، أي الاتجاهات. وربما كان الشرط الأساسي هنا أنه يجب أن تتوقف هذه الاتجاهات من اعتبار نفسها شيئا مقدسا وكيانا لا يحل انتهاكه، وأن الاتجاه صادق من واقع الشواهد المستمدة من خطابه ذاته. وبدلا من ذلك يتعين على كل منها أن ينظر إلى نفسه كمورد من الموارد التي يتم العمل استنادا إليها (أي موقوفة بهدف) وأنه مجرد واحد من بين اتجاهات أخرى في سياق إطار مرجعي أشمل. وبهذا المعنى يمارس مدخل النظرية التكوينية وظيفته كأداة لتوزيع وتنسيق المؤثرات المختلفة للمداخل الأخرى. يتضمن ذلك مستوى معين من الاتساق الداخلي بين عناصره، خاصة فيما يتعلق بالأسس المعرفية التي يلتزم بها. ولكن نظرا لأن هذه الأسس فائقة الاتساع والشمول (اذ تتضمن على سبيل المثال صورة معتدلة من الموضوعية والذاتية، انظر: لايدر، ١٩٩٧) فهي لا يمكن أن تصبح محددة، أو صارمة، أو قطعية (دوجماتيقية) بشكل مطلق، ومن ثم تظل عرضة لتأثير الابتداعات، ومحاولات التطوير التي تتجاوز شروطها الأساسية الراهنة.

ولو تم تطبيق هذا الشرط على كافة المداخل التي تتناول علاقة النظرية بالبحث - والتي عرضت لها فيما سبق - فإن ضرورة الانفتاح لا تقل أهمية

عندما نتصدى لبعض التمايزات الداخلية فى هذه الأنواع من الخطاب. وأود هنا أن أركز، وبصفة خاصة، على الاسهام الذى يمكن أن تقدمه النظريات العامة لمدخل النظرية التكيفية. وأعنى بالنظرية العامة الإشارة إلى المدارس الفكرية، والأنساق الفكرية التى ترتبط بمفكرين معينين، والتى سبق أن تحدثت فى إطار العلم الاجتماعى بصفة عامة، وعلم الاجتماع على وجه الخصوص. وهناك العديد من هذه المدارس النظرية، أذكر منها على سبيل المثال لا الحصر: المدرسة الوظيفية (والوظيفة الجديدة)، والماركسية (وتنوعاتها المختلفة)، والتفاعلية الرمزية، والاثنوميثودولوجيا (بما فى ذلك: الفينومينولوجيا، والمذهب الانسانى، والمذهب الوجودى)، والبنوية، وما بعد البنوية، وما بعد الحداثة. وهناك بالمثل العديد من النظريات العامة التى ترتبط بمفكرين معينين، منها على سبيل المثال تحليل فوكو للعلاقة بين الخطاب والقوة، ونظرية هابرماس فى "الفعل الاتصالي"، ونظرية جيدنز عن "الصياغة البنائية"، ونظرية أرشر عن "التكون التشكلى"، ونظرية بارسونز عن "النسق الاجتماعى"، وهذه مجرد نماذج، دون أى محاولة للحصر. وتميل هذه النظريات إلى أن تكون على درجة عالية من التجريد، وتتناول السمات العامة للحياة الاجتماعية، كطبيعة الروابط بين القوة والممارسات الاجتماعية، أو الصلات بين الفعل الاجتماعى والأبنية الاجتماعية (أو الانساق). والرأى عندى، على أى حال، أن مثل هذه النظريات تستطيع أن تلعب دورا مفيدا فى صياغة نظرية (تكيفية) جديدة، من خلال ما تقدمه من حافز عام يتجلى فى صورة المفاهيم، وخطوات التفسير العلى المرتبطة بمجموعات مفاهيم أكبر و أشمل. فنظرية جيدنز عن "الصياغة البنائية" -مثلا- تتكون من مجموعة متكاملة من المفاهيم مثل "ازدواجية البناء" و "وجدلية الضبط" و "الوعى بالخطاب" وغيرها. ومن الممكن ان تدخل مثل هذه الروافد الفكرية فى علاقة حوار مع روافد أخرى، كاليانينات الإمبريقية التى يتم جمعها حديثا، والنظريات الموثقة الأكثر حقيقة، والأساليب المنهجية المختلفة (مثل كتابة تقرير البحث، وأشكال الترميز.....إلى آخره) بطريقة يمكن أن تثمر نظريات جديدة عن المجال الذى يمثل موضوع نشاط البحث الراهن. وحتى تتمكن المفاهيم من القيام بوظيفتها كروافد للبحث بهذه الطريقة، فإنه من

الأهمية بمكان أن تفتتح كل مدرسة نظرية، أو يفتح صاحب أى نظرية محددة من الناحية المعرفية للمؤثرات التى تحدثها الاتجاهات الأخرى، والتطورات والتعديلات النظرية التى تتطلبها صياغة نظرية (تكيفية) جديدة.

ويتطلب تحقيق ذلك التخلي عن الافتراضات الضمنية التى ترى أن هذه النظريات منتجات مكتملة تامة الصنع فى ذاتها، ومن ثم تدعى لنفسها احتكار الحقيقة فى مجالات معينة. ويعنى ذلك أنه لا يجب استخدام هذه النظريات بطريقة قطعية (دوجماتيقية) كإطار مرجعى شامل يحجب الأشكال الأخرى من التفسير، كما هو الوضع فى الغالب مع التطبيقات القطعية الصارمة، التى تعد أطرا مرجعية شاملة للتفكير (كبعض أشكال الماركسية، والحركة النسوية، وما بعد البنيوية، وما بعد الحداثة). ربما يعد ذلك أسلوبا مريحا لتنظيم البيانات فى شكل من أشكال التفسير المسبق، كما قد يكون أسلوبا شديد الفاعلية فى تأكيد وتعزيز (وليس مجرد توضيح) القوى التفسيرية للنظرية محل البحث، ولكن لا يؤدي ولا يستطيع أن يؤدي إلى تطوير جديد وهى النقطة الأساسية فى المدخل التكيفي. علينا بالطبع أن نكون على وعى بنواحي القصور المحتملة الناجمة عن الانفتاح المبالغ فيه الذى يتخذ شكل الاستعارة بدون تدبر من اتجاهات متباينة عن بعضها تباينا جذريا، أو التعاون غير الواعى مع مثل هذه الاتجاهات. لهذا يجب أن تؤخذ صور التباين وعدم الاتساق بين أنواع الخطاب المختلفة فى الاعتبار، وكذلك ما يترتب على تبنيتها من آثار.

وبصرف النظر عن روح الانفتاح المعرفي، يتعين على النظريات العامة أيضا أن تتوافق مع مسألة الاكتشاف النظري، ويتضمن ذلك الابتعاد عن نزوعها الطبيعي نحو تبني اتجاه التحقق (وينطبق ذلك على مدخل اختبار الفروض). ويتضمن ذلك خطوة أبعد من مجرد الانفتاح على تأثير النظريات وأنواع الخطاب الأخرى، والاستعداد الإيجابي لأن تتحول أو تمتص داخل أشكال نظرية جديدة تصبح خدمة لهدف توليد النظريات الجديدة. كما يتعين أن تصبح النظريات العامة مهيأة بصورة طبيعية لتوليد النظرية، ومهيأة

بنفس القدر لاختبار النظريات القائمة أو التحقق منها. أى أن عليها -بكلمات أخرى- أن تلتزم و تتبنى توجهين متزامنين أحدهما نحو التحقق النظرى، والآخر نحو الاكتشاف النظرى. وعلى العكس من ذلك يجب أن تتحول النظرية الموثقة تحولا جذريا بحيث تتسع لتشمل توجهات التحقق التى تتسم بها كل من النظريات العامة ومداخل اختبار النظرية. وهكذا يتعين على النظرية الموثقة بدلا من تبني مدخل أحادى البعد يستهدف بشكل صارم توليد نظريات جديدة من البيانات بشكل مستمر -أن تكتسب توجهها ثانيا يتيح الفرصة لظهور تأثير النظريات المسبقة أو المتاحة، أو القائمة بالفعل.

كما يتطلب مثل هذا المدخل التخلي عن وهم فكرة أن النظرية العامة معزولة ولا صلة لها بالعالم الحقيقى. ويجب أن يحل محل وجهة النظر هذه الاعتراف بأن النظريات العامة غالبا ما تكون ذات صلة بالعالم الإمبريقي بطرق تختلف اختلافا بعيدا عما يسمى: النظرية الموثقة. وأنا أقول "ما يسمى" لأننى أرى أن النظريات العامة تتجذر فى العالم الإمبريقي الحقيقى، شأنها شأن النظريات الموثقة تماما. ولكن الاختلاف الأساسى بينهما يتمثل فى نمط الارتباط بالعالم الإمبريقي. فالنظريات العامة يتم التعبير عنها بطريقة أكثر تجريدا، وبالتالي فهى تشير إلى جوانب الحياة الاجتماعية والبيانات الإمبريكية بصورة أكثر ابتعادا عن المباشرة. ثم إن السماح للنظريات السابقة أن تؤدي دورا، يعنى كذلك التخلي عن ادعاء أن النظرية يجب أن تقتصر على تصوير حياة الأفراد اليومية (صور الفهم المتبادل بين الذوات، ومعانى وحقيقة التفاوض على أساليب التعامل بين الأشخاص). يجب أن يحل محل ذلك الاعتراف بأن النظرية يجب أن تعبر فى نفس الوقت عن تصوير و/أو وصف السياقات الاجتماعية (عناصر النسق) الذى تمثل البيئة الاجتماعية لحياة الأفراد (أو عوالم الحياة الخاصة بهم). ويرتبط بذلك فكرة أن كلا من عالم الحياة وعناصر النسق تربطهما علاقة تبادلية لا فكاك منها، فى نفس الوقت الذى يتمتع فيه كل منهما باستقلالية ذاتية جزئية عن بعضهما البعض.

ويمكن فى ضوء التحفظات والتعديلات الضرورية التى سبق ذكرها، القول بأن كل مداخل التنظير يمكن توظيفها والافادة منها فى اطار برنامج للإكتشاف النظرى، وبناء النظرية فى اطار البحث المستمر، وذلك على أساس المؤشرات التى ينهض عليها مدخل النظرية التكيفية. وكما أوضحت فى فقرة سابقة، فالتنظير بهذا المعنى لا يقتصر على مرحلة معينة من مراحل عملية البحث. إذ يصبح مهمة متصلة وممارسة مستمرة، وذلك لأن النظرية التكيفية تنشأ فى ثلثا عملية التدقيق النظرى (أى علاقتها الداخلية مع النظرية القائمة ومجموعة المفاهيم، وأساليب التفسير المرتبطة بها)، بنفس القدر الذى تتولد فيه من خلال الحوار مع البيانات المستجدة. وهكذا تشكل النظرية التكيفية البيانات الجديدة، فى نفس الوقت الذى تتشكل فيه هى نفسها من خلال هذه البيانات. ولذلك لا يمكن أن يعد التنظير عملية مكتملة بمعنى أنه يقودنا نحو الوصول إلى نتيجة تامة تتخذ شكل الصياغة النظرية. وكل ما يسعنا هو أن نعد التنظير أفضل اقتراب من مثل هذه النظرية فى ضوء قابليتها للتعديل والمراجعة فى أى مرحلة من مراحل عمليات البحث (بما فى ذلك فترة ما قبل بداية البحث، وصولاً إلى ما بعد الانتهاء منه)

مناهج وأساليب جمع البيانات

يتسع نطاق مناهج وأساليب جمع المادة أمام الباحث على نحو يشمل استخدام البيانات الكيفية والكمية، أو شكل من أشكال المزاوجة بينهما أحياناً، كما يتضمن أيضاً استخدام المسوح والاستبيان المحدد الاختبارات (المقنن)^(*)،

(*) يكاد يكون من المستحيل فى حالة مجتمع البحث الكبير العدد الحصول على نتائج مرضية من الأسئلة المفتوحة فى الاستبيان التى تتطلب من المبحوث تكوين اجاباته (أى تأليفها فى صياغة خاصة به) وليس مجرد الاختيار بين فئات أو بدائل. ولذلك يضطر الباحث إلى الاقتصار على استخدام الأسئلة المقفلة التى تتمثل الاجابة عليها فى اختيار أحد البدائل المطروحة أمام السؤال. (انظر: تيودور كابلو، البحث الاجتماعى، ترجمة محمد الجوهري، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، ١٩٩٣، ص: ١١٢-١١٣).

ودراسات الحالة، وأساليب الملاحظة، بما فيها التسجيل بالفيديو، وأشكال الملاحظة المشاركة، والمقابلة المتعمقة، وجماعات العينة الدائمة، والبحوث الوثائقية بكافة أنواعها. ولا يوجد سبب لافتراض أن كل الاعتبارات التي تمت مناقشتها في الجزء السابق لا تنطبق على اختيار وتوظيف المناهج والأساليب المستخدمة في جمع البيانات أثناء البحث لأنها تناولت أموراً نظرية بحتة. ويشجع مدخل النظرية التكيفية استراتيجية متعددة الركائز (انظر: لايدر، ١٩٩٣) فيما يتعلق بتوظيف المناهج والأساليب وذلك من أجل تحقيق الحد الأقصى من امكانيات توليد النظرية. وهنا نؤكد مرة أخرى أن مبدأ الانفتاح يحظى بأهمية كبرى في ضوء وجهة النظر هذه، لأن الجوانب الفنية لعمليات جمع البيانات غالباً ما تتأثر بقواعد الاجراءات، والافتراضات المعرفية، والانتماءات النظرية المرتبطة باستخدام أساليب ومناهج معينة. وهكذا، وقبل أى التزام حقيقى باجراء حوار بين أساليب ومناهج مختلفة، فإنه من الأهمية بمكان أن نضع في الاعتبار الافتراضات القائمة، والالتزامات التي قد تعوق -أو تعمل ضد- تحقيق هذا الهدف.

تتطلب فكرة الاستراتيجية أو المدخل المتعدد الركائز تحطيم أى عوائق مصطنعة قائمة، ومن هنا ينحاز مدخل النظرية التكيفية إلى جانب المؤلفين (انظر: برايمان، ١٩٨٨، وسيلفرمان في مؤلفيه: ١٩٨٥، ١٩٩٣) الذين يدعون إلى هدم مثل هذه الحواجز التي كثيراً ما فصلت بين استخدام البيانات الكمية والبيانات الكيفية في البحث الاجتماعي. ومن الواضح أن كلا النوعين من البيانات (الكمية والكيفية) ربما يستفيد و/أو يثمر أفكاراً نظرية (انظر: لايدر، ١٩٩٣)، ولكنى أعتقد أن الظروف التي يصل فيها توليد النظرية إلى أقصى امكانياته، لا يمكن أن تتحقق إلا إذا صاحبها استخدام أنواع من الاستراتيجيات والموارد التي أوضحتها خلال حديثي عن النظرية التكيفية. أى أنه يتعين أن يوجد شكل من الحوار مع كافة أنواع المصادر المتاحة مثل: النظرية العامة والحقيقية، وأنماط اختبار النظرية، والمفاهيم المدققة، والنظرية المنبثقة من البيانات الإمبريقية. وإذا لم يتم حشد هذه المصادر بصورة كاملة، فهناك احتمال كبير ألا يصل تشييد النظرية إلى حده الأقصى.

ومن المشكلات المحتملة التي يمكن أن تواجه البيانات الكمية من هذه الناحية تلك التي تتبع من ارتباطها القوى بالمسوح، والاستبيانات المقننة، ومداخل اختبار النظرية بصفة عامة (على الرغم من أن هذا الارتباط ليس قاصرا على ما سبق فقط). ولا يعنى هذا الارتباط الوثيق أن هذا النمط من البيانات أو أساليب جمعها -السابق ذكرها- عاجز بطبيعته عن توليد النظرية. ولكن ذلك لا يعنى على أى حال أنه لو كان سياق البحث يخلب عليه الاهتمام بالبيانات الكمية، واستخدام أساليب لجمع هذه البيانات الكمية، فإنه يكون من المحتمل أن يتخلل العملية برمتها انحياز إلى اتجاه التحقق، وميل إلى العمل بفروض مسبقة تحظى بالاستقرار. ومن شأن ذلك، فضلا عن هذا، أن يعزز الميل إلى النظر إلى عملية البحث باعتبارها تلك العملية التي تبرز من داخلها أى وجهات نظر أو أفكار نظرية جديدة من واقع الفروض المستخدمة أساسا، أو من مجموعة الافتراضات المشتقة من الكيان الفكرى المرتبط بها.

ومن الواضح فى ظل مثل تلك الظروف، أن مقدار الاهتمام الموجه لالتماس النظرية سيكون فى أدنى حد له. ومن المشكلات الأخرى المتصلة بذلك تلك التي تنجم عن الاعتقاد بأن الاختصار على الأساليب التي تؤدي إلى الحصول على بيانات كمية كالمسوح والاستبيانات المقننة، يعنى أنه من المفترض أن يقوم الباحث بصورة مسبقة وتفصيلية - بوضع قائمة بالمعالم الفكرية (أى بمفاهيمات البحث). ويحدد ذلك نوع الأسئلة التي ستوجه للمبحوثين، ونوع البيانات التي يجرى جمعها، وطبيعة العينة المستخدمة (أى عدد وأنماط الأفراد الذين ستجرى مقابلتهم)، ومن شأن ذلك أن يجعل من الصعب التخلي عن تلك الأفكار بسرعة استجابة لتغير الأفكار النظرية، والبيانات الجديدة التي قد تؤدي إلى وضع الاطار المرجعي الأساسي موضع التساؤل والمراجعة. كما أن الارتباط التقليدي بين البيانات الكمية (وأساليب جمع البيانات) ومداخل اختبار النظرية كان له تأثير على صرف الانتباه عن النظريات العامة المعقدة والمجردة -التي تركز عليها النظرية التكيفية- ومساعدتها على أن تستجيب بمرونة لتغير ظروف البحث.

ولقد كان استخدام عينات بمثل هذا الحجم الكبير من خلال هذه الأساليب عملاً مكلفاً مالياً. ومن شأن هذه العوامل أن تجعل من الصعب على مثل هذا المدخل أن يستجيب بسرعة ومرونة لحالات تغيير الإطار المرجعي للمفاهيم في ضوء ما يستجد من بيانات، وما يطرأ على الأفكار من تغييرات. من هنا تمثل القدرة على التكيف مع التغيرات الروتينية لظروف البحث حجر الأساس في المدخل التكيفي، وتمثل الظروف التي يمكن أن تنمو وتزدهر في ظلها. ونلاحظ أن الصعوبات الناتجة عن الافتقار إلى المرونة بصفة عامة تتفاقم إذا لم يحدث توازن بين سيطرة البيانات الكمية وتفوقها، وبين الاهتمامات الكيفية. وفي هذا الصدد، يتطلب المدخل التكيفي أن يحاول -من خلال معايير نظرية- تسجيل العمليات الاجتماعية الدينامية الموجودة في عوالم الحياة الذاتية التي تنمو بين الأفراد موضع الدراسة، وهو الأمر الذي يتطلب -بالضرورة- قدراً واضحاً من التناول الكيفي من جانب الباحث للأفراد موضوع بحثه. ويقترن بذلك حقيقة أن المعاني والفهم الذاتي الداخلي للأفراد ليس مما يسهل رصده من خلال البيانات الكمية، الأمر الذي يعنى أن الاقتصار على المدخل الكمي سيعانى من قصور مزدوج في هذه الحالة.

وهناك -في مقابل ذلك- مشكلات عديدة يمكن أن تكتنف البحث الذي لا يستخدم سوى المناهج والأساليب الكيفية في جمع البيانات. أولاً، المشكلات التي تتعلق بميل هذه البحوث إلى الاستغراق في الجوانب الوصفية أكثر من الأهداف والاهتمامات النظرية. ومن الواضح أن ذلك لا يعد مشكلة بالنسبة للبحوث التي تضع في اعتبارها -وبوعي- مثل هذه الأهداف (على الرغم من أن البعض قد ينتقد قصر الاهتمام على مثل هذه الأهداف وحدها). وإن كان مثل هذا البحث يمكن أن يستهدف -كما أشرنا في الفصل الأول- تحقيق غاية مشروعة من وجهة نظره هي سد الفجوات في المعرفة، أو تقديم معلومات حول سياسة اجتماعية، أو بشأن مشكلة معينة، كما أنه يمكن أن يستخدم في النهاية كمصدر تبنى عليه جهود نظرية في المستقبل. ولكن الاقتصار على استخدام البيانات الكيفية قد يعطى دفعة للبحوث المضادة للنظرية، لمجرد أن هذه البحوث الكيفية لا تتبنى أى التزامات نظرية. إن مثل تلك البحوث سوف

تنتهى إلى نتائج وصفية أكثر منها تفسيرية، ربما بشكل غير متعمد بل أن التوجه النظرى غالبا ما يرتبط بموقف لا نظرى، ينكر المشروع النظرى عن عمد.

ويلاحظ أن هذا النمط من الاتجاه مشترك بين عديد من المدارس الفكرية التى تفضل استخدام المناهج الكيفية أو تمنحها أولوية على سائر المناهج. فالكثير من علماء التفاعلية الرمزية (أنظر: مؤلف بلومر، ١٩٦٩، ومقال بيكر، المنشور فى كتاب روك ١٩٧٩)، والاثنوميثولوجيا، والفينومينولوجيا، ومفكرو ما بعد البنيوية وما بعد الحداثة (أنظر: بلومر، ١٩٦٩، ومقال بيكر فى كتاب روك ١٩٧٩، ودينزن، ١٩٩٠، وزوينو ١٩٩٢) من المؤمنين بهذا الرأى، ويذهبون بقوة إلى أن خلق النظرية ليس هدفا ملائما أو صائبا من أهداف التحليل الاجتماعى. والملاحظ أن هؤلاء الكتاب يخلطون بين عدد من الأشياء. فهم - فى البداية - يخلطون بين فكرة خلق النظرية وبين الرأى القائل بالابتعاد عن التسجيل الوصفى الأمين للمعانى التى تلعب دورا مباشرا فى حياة الافراد (التفاعل الرمزى، والفينومينولوجيا). أما مفكرو ما بعد الحداثة فيركزون على فكرة أن النظرية تعنى فى رأيهم الابتعاد عن الاهتمام بما يريده الأفراد، الأصوات المحلية، وخاصة أصوات الجماعات المضطهدة. ولا شك أن نظرة سريعة على دراستى جلاسر وشتراوس (١٩٦٧، ١٩٧١)، ودراسة شتراوس (١٩٨٧)، ودراسة شتراوس وكورين (١٩٩٠) حول النظرية الموثقة سوف تبدد هذه البلبلة فى الحال، وتكشف حقيقة أن الاهتمام بالتنظير يتفق تمام الاتفاق مع الاهتمام بظواهر عالم الحياة.

نلاحظ فى المقابل أنه عندما يسعى الباحث - الذى يعطى الأولوية للبيانات الكيفية - نحو تشييد النظرية (وخاصة النظرية الموثقة) فإنه كثيرا جدا ما يكون مبدعا على مستوى المفاهيم، ويميل إلى صك كميات لانهاية لها من المفاهيم الجديدة باستمرار. وفى مثل هذه الحالات، لا يبدو واضحا كيف يرى البعض قصر عملية الابداع فى المفاهيم على مرحلة معينة من مراحل

البحث، أو يربطون الدور المستقل للنظرية بالحوار بين طريقة جمع البيانات وتحليلها. ولا شك أن ذلك لا يساعد بالضرورة- على تشييد النظرية الذي يرتبط بأشكال أخرى من التنظير، والذي يعد بطبيعته تراكميا بشكل منظم. فضلا عن ذلك، فإن هذا الوضع يعزز بكل قوة الاتجاه الإمبيريقى، الذي تقوم فيه البيانات - وبصورة متواصلة- بتشكيل الطريقة التى تصاغ بها تلك البيانات نظريا. وهكذا لا يوجد ثمة مجال للحديث عن وجود نظريات سابقة (العامة والحقيقية)، بل أنها ترفض بقوة، كما أنه لا مجال أيضا للحديث عن الطريقة التى يتم من خلالها استخدام النظريات السابقة لصياغة وتحليل البيانات وتفسيرها.

ينطوى رفض منظرى النظرية الموثقة للتنظير المسبق على رفض صريح لمداخل اختبار النظرية بصفة عامة. وإذا كان ذلك قد ساعد فى الماضى على إعادة تركيز الاهتمام على قضايا تشييد النظرية التى كانت مهمة فى السابق، فإن الرفض المستمر لمداخل التحقق والمتضمنة كلا من المداخل الاستنباطية (اختبار النظرية)، والمداخل النظرية العامة، يعد بمثابة خلل وظيفى. ذلك أنه يدل على الاخفاق فى استغلال الفرص لبناء مداخل أكثر شمولاً فى مناهج البحث، والنمو المتراكم للمعرفة النظرية، وكذلك فى تحقيق فهم أكثر عمومية للتنظيم الاجتماعى. وهنا يبدو بوضوح أن المطلوب من وجهة نظر النظرية التكيفية القيام بمحاولة واسعة النطاق تركز فقط على الاستفادة من المناهج والأساليب المتنوعة فى جمع البيانات بأسلوب منظم وموحد. كما يتعين على مثل هذا المدخل أن يوجه اهتمامه إلى المشكلات التى تتبع من الالتزامات المعرفية والانطولوجية المختلفة، التى قد تعوق دون عمد تحقيق الاستفادة القصوى من المصادر المتاحة.

سحب عينة البيانات، والترميز، وكتابة التقرير

يعد اختيار عينة من الناس لاجراء المقابلات معهم، أو اختيار مجموعة من الوقائع لملاحظاتها هو العنصر الأساسي لأي مشروع بحث. ولست أنوى أن أتطرق في هذا الجزء إلى مناقشة سحب العينة بطريقة منظمة (أنظر: مناقشة تفصيلية في مؤلف أوكونل دافيدسون و لايدر، ١٩٩٤)، لذلك سوف اقتصر على إيضاح بعض الخطوط العريضة، ثم أركز بعدها على بعض السمات المختارة والمحددة من واقع المناقشة السابقة، ثم أتناول دلالة ذلك بالنسبة للاهتمامات التي حددتها في هذا الكتاب فيما بعد. ويلاحظ في هذا الصدد أن البحث الاجتماعي يركز على شكلين أساسيين من أشكال سحب العينة. الأول هو العينة الاحتمالية أو العشوائية، ويتم سحبها كعينة ممثلة إحصائيا من الجمهور العام الأكبر، بما يسمح للباحث أن يعمم بثقة النتائج التي حصل عليها من دراسته لهذه العينة على المجتمع الأكبر المسحوبة منه، على أساس أنه كانت هناك فرصة متساوية أمام كل مفردة من الجمهور الكلي لكي تختار في العينة. وبعد هذا النوع من العينة أكثر استخداما في البحوث المسحية، و/أو تلك التي تستخدم الاستبيان بالمقابلة، بالإضافة إلى الأساليب الكمية في تحليل البيانات. وتكون هذه الأساليب أكثر ما تكون ملائمة في حالات توفر قدر كبير من المعلومات عن طبيعة السكان موضع الدراسة، بالقدر الذي ييسر سحب عينة عشوائية فعلا من بين جمهور البحث.

الشكل الثاني من أساليب سحب العينة هو العينة غير الاحتمالية، والذي يستخدم حينما لا تتوافر أي وسيلة لتقدير احتمال أن تتاح أمام كافة مفردات الجمهور فرص متكافئة لأن تختار ضمن عينة الدراسة. أي أنه لا يوجد في الحقيقة ما يضمن لكل مفردة فرصة أن تختار للدراسة. وهذا النوع من العينة غالبا ما يشار إليه بالعينة العمدية، ويكمن منطق العينة العمدية وقوتها في اختيار حالات غنية بالمعلومات للتركيز عليها في الدراسات المتعمقة. وفي هذا لاحظ باتون (١٩٩٠) أن الحالات الغنية بالمعلومات هي تلك المفردات التي يمكن أن نقف من خلالها على قدر وافر من المعلومات عن القضايا

الفائدة الأهمية لأهداف البحث. وغالبا ما ترتبط مثل هذه العينات بالبيانات الكيفية المستخلصة من المقابلات المتعمقة، أو من خلال أنواع مختلفة من الملاحظة (خاصة المشاركة). ولا توجد أي شروط مسبقة تحدد حجم مثل هذه العينات، فالأساس هو ما تنقسم به من مرونة.

ويمكن القول - بصفة عامة- أن الباحث يظل يجمع المعلومات أو البيانات من هذه العينة حتى يصل إلى الحد الذي يستطيع عنده أن يحصل على إجابات كافية للأسئلة التي كانت الدافع الأساسي وراء الدراسة، أو يكون قد جمع ما يكفي لاختبار أو تشييد النظرية، أو لتفسير البيانات. كذلك يتوقف الباحث عن جمع المعلومات (عند اتساع نطاق حجم العينة) عند النقطة التي لا يتوافر بعدها معلومات جديدة، أو أفكار نظرية من خلال البيانات (سواء المتحصلة من خلال المقابلات أو الملاحظات أو التحليل الوثائقي). ولا شك أن الصدق، والمغزى، والأفكار المتحصلة من البحوث الكيفية التي تستخدم العينات العمدية تتوقف إلى حد بعيد على ثراء الحالات المختارة بالمعلومات (سواء كانت تلك الحالات المختارة فترات زمنية، أو أفراد، أو وقائع)، كما تعتمد على قدرات الباحث على الملاحظة والتحليل، أكثر مما تعتمد على حجم العينة في حد ذاته.

هناك أنواع فرعية عديدة من العينة العمدية (كما أن هناك أنواعا فرعية عديدة من العينة الاحتمالية أو العشوائية)، ولكن النوع الذي يهتما هنا بشكل مباشر هو سحب العينة في ضوء نظرية، أو على أساس من النظرية. وقد طور هذا الأسلوب في سحب العينة في البداية وتبناه كل من جلاسر وشتراوس (١٩٦٧)، ومع أن هذا الأسلوب يمكن في الأساس - أن يستخدم مستقلا عن مدخلهما في النظرية الموثقة، إلا أنه قد صمم خصيصا للتعامل مع قضايا و أفكار هذا المدخل. والأساس الذي يقوم عليه سحب العينة في ضوء النظرية هو اختيار وقائع ومجموعات من الأفراد، وفترات زمنية ذات علاقة بطبيعة النظرية والبحث الجديد. وهنا يتعين على الباحث أن يجمع ويحلل البيانات في نفس الوقت بحيث تتوفر تغذية مرتدة مباشرة من جمع

البيانات، وهي التي توحى بدورها بدلالات متنوعة لتوليد النظرية. وعلى أساس هذه الطبيعة المنبثقة للنظرية يحدد الباحث ما هي البيانات التي ينبغي أن يجمعها في المراحل التالية (والأفراد الذين سيقابلهم، والوقائع والمواقف التي سيلاحظها، والفترات الزمنية التي سيختارها لأجراء تلك الملاحظة) حتى يتمكن من تأسيس نظرية أو أفكار نظرية على أفضل نحو ممكن.

يتطلب مدخل النظرية التكيفية لسحب العينة في ضوء النظرية إدخال بعض التعديلات والإضافات على أفكار جلاسر وشتراوس حتى تكون أكثر ملائمة مع نظريتها التي تقوم على شمول الرؤية وأجراء الحوار. ونلاحظ من حيث المبدأ، أن فكرة أن تكون العينة (من حيث الحجم والتنوعية معا) ملائمة للطبيعة المتجددة للأفكار النظرية فكرة صائبة، ومن شأنها أن تمكنا من التغلب على المشكلة الواضحة المتعلقة بالافتقار إلى المرونة في حالة استخدام عينات احتمالية. وهذا شرط ضروري ضرورة مطلقة إذا أردنا تشييد نظرية على أساس «ن (تكيفي)». كما أن صياغة جلاسر وشتراوس تغفل على أي حال دور النظريات السابقة (العامة والحقيقية، ونظريات اختبار الفروض وغيرها) في عملية البحث، وهو ما تسعى النظرية التكيفية إلى أخذه في الاعتبار واحتوائه داخل إطارها المرجعي.

ونتبين في هذا الصدد أن مدخل جلاسر وشتراوس ينطلق بلا هوادة من مقدمات إمبيريقية (واستقرائية) مؤداها أن البيانات هي صاحبة الفضل في نشأة النظرية، ومن ثم يجب جمع مزيد من البيانات، وهكذا تتلاءم العينة وفقا لكيفية تشكيل البيانات السابقة النظرية. ويرى المدخل التكيفي أن هذا الموقف يقلل إلى حد خطير من أهمية النظرية السابقة بالنسبة للبحث، فيما يتعلق بدورها الإنتاجي والبنائي. في تشكيل البيانات وفقا لنماذج التفسير الموجودة من قبل (أو المخططات النظرية، أو حتى المفاهيم المتفردة)، وكذلك وفقا للطريقة التي يمكن بها أن تستجيب وتتكيف مع البيانات المستجدة. ويمكن القول بصورة عامة بأنه بقدر ما يتجاهل مدخل النظرية الموثقة النظريات القائمة بقدر ما يضيع فرصة الوصول إلى نظرية سليمة.

ويعبر المدخل التكيفي على أن ما يطلق عليه سحب العينة في ضوء النظرية يجب أن يكون نظريا حقيقة من كافة الجوانب، وليس قاصرا فقط على سحب عينة من الأفراد، أو الوقائع، أو المواقف وغيرها، على أساس نظرية انبثقت من البيانات. وهكذا يضاف إلى العينة المزيد من الأفراد، أو الجماعات أو الوقائع ليس فقط انطلاقا من أسس وموجهات إمبريقية صرفة، وبالتالي يتم تحديدها من خلال البيانات الواردة، وإنما يجب ضم المزيد من الأفراد والوقائع إلى العينة باستمرار من واقع عاملين مترامين هما الأفكار أو النماذج النظرية السابقة، أو جمع وتحليل البيانات المتربطة بها. وهكذا فإن علاقة الحوار بين النظرية السابقة، وجمع وتحليل البيانات والنظرية التكيفية التي تتحقق نتيجة لذلك، والتي تمثل العامل الحاسم. إن أكثر العوامل أهمية في الحث على الابتعاد عن مثل هذه المواقف الإمبريقية هو ذلك الذي يسمح بالتسجيل النظري للعناصر الأساسية للحياة الاجتماعية (مواضع وسياقات الأنشطة الإنسانية)، وليس فقط تلك العناصر المتصلة بعالم الحياة (الهوية الشخصية، والنشاط القائم).

وذلك أمر ضروري، لأن بؤرة الاهتمام الإمبريقية للمدخل التفاعلي تركز على العلاقات بين عالم الحياة والنسق، وهي التي تسم بناء الواقع الاجتماعي عموما، وتعد بصفة عامة السمات الأساسية المميزة لمجال الحياة الاجتماعية الذي يمثل محور اهتمام البحث الراهن. ولهذا يجب أن يتم سحب العينة في ضوء النظرية على أساس الاهتمام النظري الأساسي للنظرية التكيفية، أي الصلات والروابط المتبادلة بين الفعل الاجتماعي وعناصر النسق التي تقع في مكانة القلب من الحياة الاجتماعية. إن تقبل كل من عالم الحياة وملامح النسق كجزء من الأنطولوجيا الاجتماعية الشاملة والمترابطة داخليا والمرتبة ترتيبا متدرجا من شأنه أن يؤدي أيضا إلى المعالجة الصحيحة لمقولات القوة، والضبط، والسيطرة، والموارد التي تقوم عليها (والتي تتضمن تحليل الأيديولوجيا، وأنواع الخطاب الثقافي الأخرى). وسبب ذلك أنه من المستحيل أن نتوصل إلى فهم كامل لطبيعة التفاعل الاجتماعي في غياب الاهتمام بعوامل النسق، والطريقة التي يرتبط من خلالها الملمحان

الأساسيان للحياة الاجتماعية ببعضهما البعض. إن التأثير الشامل للقوة (والضبط) والطريقة التي يتجلى من خلالها في مختلف مجالات الحياة الاجتماعية لا يمكن فهمه فهما صحيحا، إذا كانت جوانبه النسقية (أو البنائية) لم يتم التعرف عليها أو تسجيلها أصلا. (أنظر: مؤلفي لايدر ١٩٨٥، ١٩٩٧).

وما ينطبق على مسألة سحب العينة في ضوء النظرية، ينطبق أيضا على مسائل الترميز، وكتابة التقرير النظرى للبحث. وسأحاول في الفصول التالية أن أتناول هذه المسائل بشئ من التفصيل، وفي سياق الأمثلة الإمبريقية للبحث. أما الآن فسوف أكتفى ببيان أهميتها بالنسبة للبحث بصفة عامة، وأوضح مؤقتا مدى اتساقها مع الاطار المرجعي الشامل لمدخل النظرية التكيفية. يعد الترميز ذا أهمية أساسية في تحليل البيانات (سواء بالنسبة للتحليل الكمي أو الكيفي)، بالنسبة لاختيار الرموز التي تلخص معنى أو مضامين وحدات البيانات. وينصب حديثي عن الترميز في الفصول التالية، ويتعلق في المقام الأول بتحليل البيانات الكيفية لأنه (كما هو الحال عند استخدام أسلوب سحب العينة في ضوء النظرية) يمكن أن يستخدم بطريقة أكثر مرونة من تلك المرتبطة بالبيانات الكمية والعينات العشوائية. ونلاحظ فيما يتعلق بالعينات العشوائية، أن الصرامة النسبية للعينات ترتبط أيضا بالثبات النسبي لنظم الترميز أو أطر الترميز. وتتيح البيانات الكيفية ونظم سحب العينة العمدية امكانية تعديل وتغيير أطر الترميز على الطبيعة أثناء العمل. وهكذا يمكن أن تصبح مصدر قوة لتوليد الأفكار النظرية. وهو بذلك يمكن أن يشكل سمة متواصلة للبحث تتلاحم باتساق مع طبيعة التنظير العضوية والمتجددة في سياق المدخل التكيفي.

وقد استخدم جلاسر وشتراوس كتابة تقرير البحث باعتباره جزءا من مدخل نظريتهم الموثقة، وكان لهم -مرة أخرى- فضل كبير في التركيز على العملية الهامة في تشييد النظريات كما حدث في تناولهم لموضوع سحب العينة في ضوء النظرية. ولا شك أنه في ضوء ما أشرت إليه سلفا من نواحي القصور الحاسمة في النظرية الموثقة، فلا عجب أن نطرح فكرة

تعديل أسلوب كتابة التقرير النظرى بصورة ملائمة، بحيث يمكن استخدامه فى إطار مدخل النظرية التكوينية. وتقوم عملية كتابة تقرير البحث فى الأساس على التعليق المفصل على أهمية البيانات ودلالاتها النظرية. ومن شأن تقارير البحث أن تعمل على إثارة الخيال النظرى، فضلا عن أنها فى ذاتها تلعب دورا حاسما فى أى مشروع بحثى يجعل من بناء النظرية هدفه الأساسى.

يجب أن يكون واضحا فى الذهن -على أى حال- أن المدخل التكوينى يركز على أهمية تضمين عناصر النظريات العامة والحقيقية باعتبارها منبع نماذج أو أنماط التفسير بالنسبة لعملية جمع وتحليل البيانات الراهنة. وهكذا يجب أن تتسع فكرة كتابة تقرير البحث -فى هذا السياق- بحيث تتضمن مثل هذه العناصر النظرية. كذلك يجب أن تهتم كتابة تقرير البحث بالسّمات الداخلية للاتجاهات أو الأطر المرجعية النظرية مثل درجة تماسكها أو اندماجها فى عمليات التبرير ونماذج التفسير. وهنا تصبح عملية كتابة التقرير مرتبطة ارتباطا مباشرا بما أسميته التدقيق النظرى (والذى حددت عدة أشكال منه)، والإمكانات التى يتيحها ذلك لتطوير النظريات، وتراكم المعرفة العلمية الاجتماعية على نحو منسق ومتكامل بصفة عامة.

خاتمة

قمت بتنظيم هذا الفصل على نحو يسهل حديثا فى الفصول التالية. وكانت النقطة الأساسية التى حاولت طرحها بشكل مباشر: أنه فى سياق مداخل التنظير فى البحث الاجتماعى -الذى أحاول الدفاع عنه- من الضرورى أن ننظر إلى عناصر عملية البحث باعتبارها عناصر مرنة وسائلة إلى حد ما، سواء من حيث تتابعها أو من ناحية توظيفها فى العملية العامة للتنظير. وقد حاولت أن أكون واضحا فيما ذهبت إليه من أن فكرة التنظير ذاتها يجب أن تفهم باعتبارها جزءا متما لعملية البحث الكلية، وأنها ترتبط ارتباطا عضويا بالتراث العلمى الأكبر، وبنتائج البحوث والدراسات السابقة. وعلى الرغم من أن مدخل النظرية التكوينية -بحكم طبيعته- تركيبى وانتقائى، إلا أنه يمارس هذا التركيب وهذه الانتقائية بطريقة نسقية ومنظمة، ومن هنا

فهو ليس بالاتجاه الذى يقبل كل شئ أو لا شئ. وهو -مع ذلك- يبدى قدرا كبيرا من التسامح مع تشكيلة وفيرة متنوعة من وجهات النظر والمصادر أكثر مما هو مسموح به لدى المداخل التقليدية للتنظير فى البحث. وبهذا المعنى تمثل النظرية التكيفية دعوة لفهم أكثر شمولاً للقواعد المنهجية والإجرائية (واستخدامها) عند تطبيقها فى تشييد النظرية فى البحث الاجتماعى.

الفصل الثالث

تحليل البيانات فى ضوء النظرية

يتناول هذا الفصل بعض المشكلات العملية التى تواجه تطوير النظرية انطلاقاً من عملية تحليل البيانات التى تستمر خلال القيام بالبحث. (فى مقابل هذا يركز الفصل الخامس اهتمامه على تطبيق المواد النظرية على عملية البحث الاجتماعى كأداة لوضع وتدقيق نظريات جديدة). ويجب التأكيد على حقيقة أن المسألة هنا مسألة درجة الاهتمام، لأن كلا من البحث الاجتماعى والتنظير - كما أتمنى أن أوضح فيما بعد - ينطويان على عنصرى: الاستنباط (البيانات التى تقود النظرية)، والاستدلال (النظرية التى تنبثق من البيانات). كذلك نجد أن القضايا المرتبطة باختبار النظرية (التحقق من صحة النظرية) وتوليد النظرية (الاكتشاف، وبناء النظرية) يرتبطان ببعضهما البعض بقوة وبصورة متساوية فى البحث على الرغم من أن الأهمية النسبية تختلف من حالة إلى أخرى. وهكذا، فعلى الرغم من اهتمام هذا الفصل بمشكلة توليد النظرية من خلال البيانات، فإنه سيبدو واضحاً أننا أؤمن بأن كل عمليات الملاحظة، وأشكال جمع البيانات تتأثر بالنظرية والافتراضات النظرية المسبقة بطريقة أو بأخرى. (انظر: لايدر، ١٩٩٠).

ينقسم هذا الفصل إلى ثلاثة أجزاء تركز على القضايا المتصلة بتحليل البيانات والترميز، وكتابة التقرير النظرى، والبحث المتعدد الاستراتيجيات. وسأقوم فى الجزأين الأول والثانى بعرض أمثلة توضيحية مستمدة فى الأساس من الدراسة التى أجريتها عن مهنة التمثيل فى إنجلترا. ومن شأن ذلك أن يسمح لى أن أتناول بالتفصيل بعض المشكلات العملية والقضايا التى تثار عند محاولة توليد نظريات من واقع البيانات. وفى هذه الحالة، سوف أتعامل مع النصوص المدونة للمقابلات المتعمقة التى أجريت مع بعض أعضاء مهنة التمثيل. على الرغم من أن الاهتمام الحالى منصب على النصوص المدونة للمقابلات، فإنه سيبدو جلياً أن هناك أيضاً أنواعاً أخرى من البيانات -

كالوثائق، والمسوح، والبيانات الكمية- تدخل فى عملية توليد النظرية بالشكل الذى أعرض له هنا.

تلك هى أهم ملامح مدخلى، وليس من المحتم أن يتبنى نهجى كل الباحثين، وإن كان من الأفضل اتباع إطار مرجعى متعدد الاستراتيجيات، يمكن أن يسمح لنا بتناول الطبيعة المعقدة للحياة الاجتماعية التى تتكون من راقات فوق بعضها. والقضية العامة فى هذا الفصل أننا لايمكن أن نبدأ البحث أبداً بذهن خال من أفكار وافتراضات نظرية. والحقيقة أن جزءاً من الرأى الذى سأعرض له أن الإدراك المنتظم للإفتراضات النظرية لدى الباحث (بما فى ذلك صور التعصب التى يؤمن بها) ومحاولة إخضاعها لأهداف البحث تسهل بالفعل التوصل إلى تفسيرات أكثر قوة وملاءمة للبيانات الإمبريقية.

ترميز وتحليل بيانات المقابلة

بيانات المقابلة التى أشير إليها هنا هى حصيلة المقابلات التى أجريت مع بعض المشتغلين بمهنة التمثيل. (أنظر : مؤلف لايدر، ١٩٨٦). وبالرغم من أن اهتمامى الأساسى كان منصبا على الممثلين وحياتهم المهنية -طبقاً لاهتمام البحث- إلا أنه اتضح فيما بعد أن المهنة تضم أفراداً آخرين (يمارسون تقديم العروض الفنية، والأعمال الترويجية بأنواعها) يحظون بأهمية بالغة فى هذا المجال. ولهذا قمت بمقابلة وكلاء الفنانين، والأشخاص المنوط بهم اختيار الممثلين العاملين فى الفيلم (الريجيسير)، والمنتجين، فى مراحل مختلفة من البحث. (وبعد ذلك مثالا لطريقة سحب العينة فى ضوء النظرية، وهو ما سوف أناقشه فى موضع لاحق من هذا الفصل. وهو يعنى فى هذه الحالة مقابلة بعض الأفراد فى ضوء مدى أهميتهم من واقع الأفكار النظرية الجديدة التى تظهر خلال عملية البحث). وكانت كافة المقابلات التى أجريتها من النوع المتعمق، وبالرغم من وجود عدد من التساؤلات والقضايا والموضوعات التى كنت حريصاً على أن يتحدث الناس عنها (وتتنوع هذه الأسئلة والقضايا والموضوعات بالطبع تبعاً لاختلاف الوظائف التى يشغلها هؤلاء الناس)، إلا أنني لم أجر تلك المقابلات معهم بصورة جامدة. فعندما

كنت أجد أفرادا بعينهم قريبين من قضية أو سؤال معين، كنت أتركهم يتحدثون بأسهاب (طالما ظل الحديث في نطاق البحث). كما أنني لم أتمسك بتسلسل صارم أو صياغات جامدة نمطية للأسئلة. وكانت تلك الأمور تتوقف إلى حد كبير على جو العلاقات الإنسانية ودرجة التوافق التي أشعر بها مع الشخص الذي أجرى معه المقابلة، حتى ولو كان كل هدف المقابلة المتعمقة هو التوصل إلى وجهة نظر الفرد الذاتية عن العالم، والوقوف على تجارب وخبرات الأفراد المعاشة والمعاني التي يشيدون من خلالها عوالمهم اليومية. ومن شأن التزام الباحث بدليل المقابلة شبه المقننة، والاستقصاء المتعمق أن يحول بين الباحث وبين أن يفرض على المبحوثين افتراضاته المسبقة عن الموضوع.

والمشكلة الأساسية التي أود التركيز عليها في هذا الجزء من الفصل هي كيفية التعامل مع هذا الكم الضخم من البيانات التي تتراكم عند تدوين المقابلات. إذا تتحول خمس أو ست مقابلات -تستغرق كل منها حوالي ساعة أو ما يقارب ذلك- إلى قدر هائل من المعلومات بمجرد تدوينها. وبعد الانتهاء من تدوين حوالي ٢٠ إلى ٢٥ مقابلة نجد أنفسنا نواجه بصورة حادة مشكلة القدرة على تنظيم البيانات. ولهذا أتساءل: كيف يبدأ الباحث باختيار أجزاء المعلومات ذات الصلة بموضوع البحث وإلقاء الضوء عليها، وذلك بدلا من التنقل بمشقة جيئة وذهابا وسط ذلك الكم الهائل من المعلومات؟ جرت العادة على أن يتم حل هذه المشكلة عن طريق عملية ترميز البيانات، أي باطلاق مسميات على مقتطفات معينة من المقابلات حتى يمكن تمييزها من خلال تصنيفها إلى فئات وصفية أو تحليلية معينة. المشكلة هنا ما هو نظام أو إطار الترميز الذي يتعين استخدامه؟ أريد أن ألفت الانتباه إلى حقيقة أن قضية الترميز تتعلق بصورة مباشرة بقضية تحليل وتفسير البيانات، كما تتعلق بالمثل بتطوير النظرية والمفاهيم من واقع البيانات. كذلك فإن ما يعرف بمشكلة الصلات بين المفهوم والمؤشر (انظر: روز، ١٩٨٤، ودي فو، ١٩٩٦) (أي إلى حد يمكن استخدام مفهومات معينة للإشارة إلى أو لإيضاح جوانب معينة في البيانات الإمبيريقية، أو العكس بالعكس) تمثل جزءا من صميم قضية الترميز، وقضية توليد النظرية من البحث الإمبيريقى.

وسأعرض فيما يلي لكيفية تعاملتي مع هذه المشكلات في ضوء تدوين المقابلات التي أجريتها مع أعضاء مهنة التمثيل. ومن المهم أن أوضح أنني قد دونت النصوص الكاملة لعدد من المقابلات التي كنت قد أجريتها في مرحلة مبكرة مع فئات مختلفة من الأشخاص. (كان هناك عدد من المبحوثين الذين لم يسمحوا لي بتسجيل المقابلات، وفي هذه الحالات، كانت البيانات هي ما وعته ذاكرتي، وكنت أقوم بتدوين المحادثات بمجرد انتهاء المقابلات على قدر الامكان). وكانت تلك الخبرات عظيمة الأهمية، لأنني عمدت خلال المراحل اللاحقة إلى اختيار - بصورة انتقائية - بعض المقتطفات من أشرطة التسجيل، تاركا في النهاية كما كبيرا من كل مقابلة بدون تدوين، ولكنه كان محفوظا على الشريط في حالة ما إذا احتجت إليه فيما بعد. ولا يمكن أن تتحقق هذه العملية الانتقائية إلا عندما يتوصل الباحث إلى نظام لترميز بيانات المقابلة سواء من خلال التصنيف أو وضع بطاقات. ويتم وضع مثل هذا النظام من الترميز في المراحل المبكرة من جمع وتحليل البيانات. وبعد أن يحدد الباحث فئات الترميز الرئيسية والتصنيفات يصبح بوسعها أن يبدأ في البحث عن مؤشرات المفاهيم التي تتضمنها البيانات ذاتها. معنى ذلك أنه يمكن - بصورة انتقائية - تلمس البيانات الدالة بالنسبة للرموز، كما تظهر خلال المراحل المبكرة من التحليل.

الترميز الأولي والترميز المؤقت:

كيف يمكن التوصل إلى نظام ترميز ملائم؟ سوف أعرض فيما يلي لطريقتي الخاصة التي استخلصت من خلالها المسميات التي استخدمتها في ترميز نصوص مقابلاتي المدونة، وإن كان يتعين على أن أقول إن غرضي ألا أوحى بأن هذه الطريقة هي الطريقة الأفضل، أو أنها الطريقة الوحيدة لإتمام ذلك. وإنما أقصد أن اكشف بوضوح الطبيعة الحقيقية للإجراءات التي استخدمتها في التوصل إلى المفاهيم والأفكار النظرية المرتبطة بالحياة المهنية للممثلين. استخدمت في كثير من النصوص المدونة لمقابلاتي شكلا أوليا وبسيطا من الترميز، مثل وضع خط أسفل بعض أجزاء من النص، أو وضع نجمة (علامة) على أجزاء معينة من النص لتوضيح أهميتها أو صلتها بالموضوع. والحقيقة أن عدم استخدام مسميات معينة (أو ترميز رسمي) في

هذه الحالات، يوحى بأنها كانت مجرد اجابات على بعض الأسئلة المهمة. وهكذا فإنها تدل على وجود ترميز أولى يستهدف إبراز بعض أجزاء من البيانات، لأنها كانت تبدو ذات أهمية ودلالة، ولكن دون إدراك واضح لماذا هي كذلك. وفي حالات أخرى استخدمت مسميات للترميز المؤقت أو عناوين (أسماء) لتوضيح ارتباط بعض أجزاء النص المدون بمفهوم أو فئة أو فكرة معينة.

والخلاصة أن الترميز المؤقت كان بمثابة محاولة تجريبية لتنظيم وتصنيف البيانات بطريقة يمكن تفقيحها أو تعزيزها فيما بعد. ويشبه الترميز الأولى أو الترميز المؤقت - بصورة جزئية - ما يعرف في كتب المناهج بالترميز المفتوح. غير أن موقفي يختلف تماما عن أولئك (بما فيهم أصحاب النظرية الموثقة) الذين يركزون على استخدام الترميز المفتوح كطريقة تمهيدية وأولية في تحليل البيانات. ووجه الشبه بين الاثنين يتمثل ببساطة في أن الصورة التي أطرحها هنا مفتوحة لاكتشاف رموز جديدة ومؤقتة، وبصفة خاصة خلال هذه المرحلة المبكرة في البحث. ولكن فيما عدا هذا فهناك اختلافات ملحوظة بينهما. من هذا مثلا أن فكرة الترميز المفتوح التي دافع عنها جلاسر وشتراوس (١٩٦٧) وأمثالهما تفترض أمرين غير واردين بعملى. الأمر الأول أن منهج النظرية الموثقة يصر على أن الترميز المفتوح يتعلق بتوليد أكبر عدد من الرموز تسمح به البيانات حتى يتسنى -حينئذ- تقليل عددها، إذ أن بعضها يتعزز من خلال المزيد من التوسع في جمع البيانات وتحليلها. وبهذا المعنى يكون الانفتاح هو الموقف الذى لا يكون لدى الباحث فيه افتراضات مسبقة بشأن طبيعة الرموز الملائمة في مرحلة سابقة على جمع وتحليل البيانات. ففكرة التعامل مع صفحة بيضاء تمثل مطالبا ضروريا لتأكيد النظرية الجديدة من واقع البيانات.

العنصر الجوهرى الثانى فى مدخل النظرية الموثقة هو فكرة أن الترميز المفتوح الأولى يجب أن يخلى السبيل فيما بعد لنمط أكثر انغلاقا وتحديدا كلما تقدم البحث. ان الاتجاه نحو ما أطلق عليه شتراوس (١٩٨٧) الترميز المحورى يحدث لأنه كلما تعرض الترميز الأولى، والمؤشرات، والمفاهيم للمزيد من البيانات، يصبح من الممكن تحديد أيا هي الرموز الأساسية

والفئات المركزية بالنسبة للبحث الذى يجرى العمل فيه دون سواه. وهكذا نرى -مرة أخرى- أنه كلما خضعت تلك العناصر للاختبار من واقع البيانات، كلما كان الباحث أكثر يقينا من مدى صدق وكفاءة المفاهيم والرموز، لان البيانات تضمن أنها موثقة تماما. بهذا المعنى ينتقل الباحث من موقف الترميز المفتوح كلية، إلى شكل نهائى تفرضه عليه إلى حد كبير البيانات الإمبيريقية ذاتها.

إن وجهة نظرى فيما يتعلق بالترميز الأولى والترميز المؤقت مناقضة تماما للأراء التى ذكرتها آنفا. أولا، على الرغم من وجود انفتاح لاكتشاف رموز جديدة، (ومفاهيم وأفكار جديدة أيضا)، فإن الأمر ليس مجرد التوصل إلى الحد الأقصى منها فى مثل هذه المرحلة المبكرة، ولا التوصل إليها من عدم. إذ أنه من المعترف به بصفة عامة أن كل الملاحظات والتفسيرات تحمل توجهها نظريا بدرجة أو بأخرى. ومن ثم يكون من المستحيل أن نبدأ البحث بصفحة بيضاء بالمعنى الدقيق للكلمة. ويرتبط بذلك -و بصورة متميزة- (وكما سوف أوضح حالا) أن الهدف من توليد النظرية يتعزز ويتدعم إذا بدأ الباحث بحثه ببعض الأفكار النظرية المسبقة (التى تتسم بقدر معين من التنظيم) لأنها تساعد فى عمليتى تنظيم البيانات واستثارة التفكير النظرى. فهذه الفكرة أكثر واقعية من وجهة النظر العملية، ولها ما يبررها من وجهة النظر المعرفية فى نفس الوقت، بقدر ما ترفض الالتزام بالامبيريقية الساذجة، والتى تعتقد أن البيانات تتحدث عنها نفسها، وأنها هى التى تقترح رموزا وفئات (كما هو الحال عند أصحاب النظرية الموثقة). وهكذا فإن البحث عن رموز ومفاهيم جديدة يستمر جنبا إلى جنب مع استخدام الافتراضات والدلالات النظرية السابقة. أى أن الانفتاح النظرى يرتبط من خلال الحوار مع الافتراضات المتصلة بدلالة المادة المتوفرة (كالمفاهيم، وفئات الأطر المرجعية) لخدمة عملية توليد المزيد من النظريات. ثانيا، أن وجهة نظرى فى الترميز المؤقت والأولى -على خلاف ما هو موجود فى النظرية الموثقة- لا تفسح المجال كلية لنمط أكثر صرامة للتوصل إلى مفاهيم وفئات أساسية. والحقيقة أن الترميز الأولى (بشكل يبرز النص ويحدد معالمه) قد يتيح الفرصة لظهور بعض الرموز المؤقتة، التى تتأكد فيما بعد

وتترسخ من خلال الجمع والتحليل المستمر للبيانات، وربما يتم اعتبارها في نهاية الأمر هي الرموز والفئات الأساسية. ولكن ذلك لا يعنى على أى حال أن يتم التخلي عن الترميز المفتوح من أجل هذه المواد الأساسية. وبهذا المعنى فإن ما أطلق عليه اصطلاحيا الترميز الأولي أو الترميز المؤقت يجب الإبقاء عليه خلال التحليل بالتوازي، والدخول في حوار مع كل من المفاهيم الجوهرية الجديدة، والمواد النظرية الموجودة.

وأعتقد أن وجهة النظر هذه تتميز بميزتين بالمقارنة بالتسلسل الإجرائي الذي تنصح به النظرية المؤقتة. أولاً، إن تقبل البحث المتواصل للرموز الجديدة (وبالتالي تقبل أفكار نظرية جديدة) يعنى أن انحصار النظرية الجديدة داخل الفئات الأساسية التي تتولد في حينها وحولها يحول دون وجود أى فاقد. ويلاحظ أن ذلك الانحصار يؤدي وظيفته بصورة آلية كأداة للاستبعاد بمجرد استقرار وترسخ المفاهيم المحورية الجوهرية، والأفكار النظرية. إن الاقتصار الصارم من هذا النوع يقع قبل الأوان دائماً، لأنه يعنى أن الجهد التحليلي برمته لم يعد متاحاً للتعديل في ضوء الأفكار أو الرؤى النظرية الجديدة. وهكذا، طالما أن الترميز الأولي كعملية مستمرة (لا تكتمل أبداً) تظل مصاحبة لمسار البحث كلية، فإن الاكتشاف بالمصادفة في مجال الأفكار النظرية لن تتحقق له الأولوية على الإطلاق. ثانياً، إن فكرة أن الترميز الأولي والترميز المؤقت عادة ما يتم في سياق التحاور مع النظريات الجديدة والنظريات القائمة (بما فيها النظرية العامة) يؤكد أن النظريات الجديدة ليست مقطوعة الصلة أو معزولة عن كيان المفاهيم والأفكار النظرية المستقرة الجارية (بما فيها التقليدية والمعاصرة). ومعنى ذلك أن الترميز الأولي والترميز المؤقت تعد بمثابة قنوات توصيل محتملة بين الأفكار النظرية القائمة فعلاً والتي يمكن أن تؤثر على النظريات الجديدة، وهي بهذا المعنى تكمل المواد المتاحة القائمة فعلاً. والترميز المؤقت على أى حال مفتوح النهاية بحكم طبيعته، على عكس النظريات القائمة التي تحوى معلومات محددة، ومن ثم يعد مقياساً حساساً باستمرار للتغيرات في الاتجاه النظري سواء بسبب النتائج غير المتوقعة، أو الآراء النظرية الجديدة، أو بسبب الاثنين معاً. وتضمن الطرق الثلاثة للتفاعل بين هذه المصادر للأفكار النظرية حدوث

تراكم حقيقى شامل للمعرفة النظرية، أو على الأقل النتيجة المحتملة لهذا النوع من الاستراتيجية. أما عند استخدام مدخل النظرية الموثقة فلا يسمح إلا بقدر محدود جدا من التراكم لأنها واقعة تماما فى شرك محددات النظريات الجديدة، أو ما يطلق عليه النظريات الشكلية التى تم توثيقها من خلال نفس الطريقة

الرموز الأساسية والثانوية

تنصب الاعتبارات السابقة المتعلقة بالترميز الأولى والتميز المؤقت، واللذان يتميزان بالنهاية المفتوحة والتى تعكسها حقيقة أنهما عبارة عن تمييز أو إلقاء الضوء على النص المدون للمقابلة، سواء بواسطة علامة نجمية أو ببعض الأسماء والعناوين المؤقتة. وتشير مثل هذه الملاحظات والعلاقات إلى الاحتمالات والامكانيات لا إلى بلورة أو استخلاص بعض الأفكار أو المفاهيم المكتملة الصياغة التى تدعمها البيانات. ولكنى اعتدت على أى حال، استخدام منهاج آخر لتوضيح وجه الأهمية فى البيانات، وهو يرتبط بالمعنى التقليدى للترميز، أى استخدام مسميات أو أسماء معينة لتصنيف أقسام النص المدون. والتميز بهذا المعنى يساعد على التركيز بشكل أدق على البيانات الجديدة، ويوجه الاهتمام نحو التحليل بإلقاء الضوء على الأسئلة ذات الصلة التى ينبغى طرحها بشأن البيانات. كما أن إطلاق أسماء على النقاط الأساسية يساعد الباحث أيضا على أن يصبح أكثر ألفة بما تتضمنه النتائج أو محتوياته، ومن ثم يبدأ فى تحديد الأمور التى ماتزال ناقصة، والتى يتعين جمعها إذا أتاحت الفرصة أو أن يصبح موضوعا للبحث. فالترميز بهذا المعنى يساعد بوجه عام على الإجابة عن أسئلة مثل: ما هى الموضوعات والأنماط التى تضيف على هذه البيانات شكلها المميز؟ لقد كنت استخدم أسماء رمزية أساسية وثانوية على النحو التالى: التقدير، اختيار فريق العمل الفنى، روتين العمل، معايير التقدير، تصورات الممثلين، حراك المكانة، الوكلاء، التحكيم، شبكات الاتصال، المنازعات بشأن المكان والمساحة التى يشغلها اسم الممثل فى أفشيات الاعلان.

وأنا اتفق مع جليسن وبيشكين (١٩٩٢) على أن مثل هذه الرموز ذات طابع شخصي تماما، أو يمكن أن تكون كذلك، لأنها تعنى الوفاء بمستلزمات الباحث المباشرة المحددة، ولا يتطلب ذلك بالضرورة أن تكون مفيدة أو واضحة لأي شخص آخر. ويصدق ذلك بصفة خاصة في الحالات التي يعمل فيها الباحث منفردا. أما عندما يوجد فريق بحث فلا بد أن يؤخذ ذلك في الاعتبار، ويتحتم التنسيق في عمليات استخلاص النتائج والتحليل، ويصبح من المتطلبات الضرورية أن يتوفر الوضوح والقدرة على الفهم. ومن المهم توفر القدرة على تحديد انتماء قطاع من بيانات المقابلة إلى مفهوم معين أو فئة معينة. على أنني لن أذهب بعيدا في هذا الطريق لأن الرموز تحتاج أيضا أن تكون في شكل يثمر في النهاية بعض الأفكار النظرية: من هنا يجب أن تكون تلك الرموز قابلة للتحويل بسهولة إلى مفاهيم عامة دقيقة، الأمر الذي يعنى أن الفرد ليس في مقدوره أن يكون شاذا تماما في تفكيره في الأساس. والرأى عندي أن الرموز يمكن أن تكون ذات طابع شخصي بمعنى أنها ربما تعد تلخيصا أو إيجازا، وليس من الضروري أن يتعرف عليها الغريب، ولكن هذا الشكل من التلخيص يجب أن يكون قابلا للتدقيق بسرعة وبسهولة، واتخاذ شكل بديل يرتبط بشكل جيد بالأفكار النظرية والممارسات المستقرة.

وترتبط هذه النقطة بقضية دور الأفكار النظرية القائمة في وضع أسماء الرموز (ومن ثم تحدد في النهاية المقولات الأساسية). ويرتبط هذا بدوره بالمناقشة السابقة حول الترميز المفتوح (أي الترميز الأولى والترميز المؤقت وفقا لمصطلحاتي). وفي ضوء أسلوب استخدام الرموز الذي شرحته آنفا، أجدني أختلف اختلافا بعيدا مع ما نصح به كل من جلاسر وشتراوس في أمرين. الأول، نظرا لأنني غير متأكد -كما ذكرت توا- من الصلات بين المفهوم والمؤشر، والرموز التي تعكسها، فقد استخدمت الترميز المؤقت أو الأولى بدلا من توليد أكبر قدر ممكن من الرموز الجديدة في المراحل الأولى. بل أن شتراوس (١٩٨٧) ينصح في الحقيقة بأن يتم ترميز المقابلات الأولية بقدر كبير من التفصيل، وسطرا بسطر، لتوليد أكبر عدد ممكن من الرموز التي يمكن الوصول إليها. ومن شأن هذا الاجراء أن يخلق عددا هائلا من الرموز التي سوف يتضح في النهاية أنه لاصلة لها على الإطلاق بهدف

البحث. ولا شك أن المهم أن نكون قادرين على الوصول إلى وثيقة الصلة النظرية للبيانات بأسرع ما يمكن، وهو أمر يتطلب من الباحث التزام الحذر، والوضوح والتأنى في السعي إلى الوصول للنتائج. ولقد ثبت أن ذلك النوع من الترميز المفصل شديد الأرهاق، ومضیعة للجهد الذي يمكن توجيهه إلى شأن آخر.

الثاني، هناك اختلاف واضح عن مدخل النظرية الموثقة يتمثل في أن استخدامي للترميز لا يقوم على فكرة أن يبدأ البحث بصفحة بيضاء. هذا على الرغم من أن استخدامي لبعض الرموز الأساسية والثانوية كان نابعا بصورة مباشرة من نتائج الفحص الذي قمت به لنصوص المقابلات المدونة (مثل المنازعات بشأن الاعلان عن الاسم) وتصورات الممثلين، والتفاوض على الأجور، وما إلى ذلك)، هذا فضلا عن عدد كبير من الرموز التي تمت صياغتها وتم اشتقاقها من واقع التراث النظري الذي تحصلت عليه من خلال القراءات السابقة، ومن الاستعانة بالأعمال النظرية المناظرة. وهكذا توصلت منذ البداية إلى بعض فئات الترميز مثل: نظام التقدير، ومعايير التقدير، ونسق المكانة، وحراك المكانة، والتنظيم المهني. ثم بدأت البحث عن الصلات بينها وبين بيانات المقابلة (الصلات بين المفهوم والمؤشر). لقد اشتقت فئات الترميز تلك من الأفكار النظرية التي كانت مستقلة عن مشروع بحثي، وعن خصائصه الداخلية المميزة. وشكلت عددا من العناصر التي سوف أصفها بالتفصيل فيما بعد في ثنايا المناقشة. وسوف اقتصر فيما يلي على الإشارة إلى خطوطها العريضة على النحو التالي:

* **النظريات العامة والشكلية - جواز المرور للمكانة، نظرية التنظيم، التكامل الاجتماعي، القوة، الضبط والسلطة، أسواق العمل.**

* **الأفكار الحقيقية (الجوهرية) - أنواع السلك المهني، طبيعة التمثيل، تنظيم السلك المهني، الممثلون كأنماط معينة من الشخصية.**

* بناء التتميط - أنماط السلك المهني الأساسية، أنماط الأداء البيروقراطي، والعلاقة مع الزملاء، والأسواق، وضعية التمثيل في سياق مقارن.

ونلاحظ أن الموضوعين الأول والثاني يمثلان -وبوضوح- الافتراضات والأفكار الأساسية النظرية السابقة في هذا المجال (أو مجالات قريبة الصلة) محل الدراسة، وقد اشتقت من تراث البحث أو من خلال الافادة من جوانب مختلفة من النظرية العامة. فوجودها بهذا المعنى كمصادر يعد سابقا ومستقلا بصورة ما- عن مشروع هذا البحث ذاته. والمصدر الثالث للمادة النظرية -والذي يشير إليه بناء التتميط- يختلف بعض الشيء عن المصدرين الأول والثاني في أن وجوده يسبق جزئيا دراسة السلك المهني للممثلين، ولكنه يشكل إحدى سمات المشروع البحثي الجاري. ومعنى هذا أن تتميط الحياة المهنية قد تم إلى حد ما على أساس الدراسة النظرية للمصادر الوثائقية (مسح التراث وتحليله)، ولكنه كان إلى حد كبير سمة جديدة ترتبط ارتباطا عضويا بالمشروع البحثي نفسه.

وكما ذكرت، سوف أتناول هذه العناصر بالتفصيل فيما بعد في ثنايا المناقشة، لأنني أود التركيز هنا على الخصائص المميزة للترميز وتحليل بيانات المقابلة. ولكي نفهم عملية التحليل فهما كاملا لابد أن نضع في الاعتبار الإطار الشامل للفروض النظرية التي تؤثر على إجراءات البحث. إذ أن دلالة وجود افتراضات مسبقة، وعمل نظري مستمر (مستقلا إلى حد ما)، أنني لم أتناول المقابلات (ولم يكن لي أن أفعل) بصورة مفتوحة كل الانفتاح، غير متأثر بالقراءات السابقة، والأفكار التحليلية المهمة، والمفاهيم النابعة منها، كما ينصح بذلك أصحاب اتجاه النظريات الموثقة. لقد شرعت في عمل متسلحا بمفاهيم، وأفكار نظرية، ومقولات. وعلى الجانب الآخر، لم أنظر إليها في البداية على أنها أمر مقدس لا يحل انتهاكه، بل نظرت إليها على أنها مؤقتة، بمعنى أنه يمكن تعديلها أو التخلي عنها أو تعزيزها أو التمسك بها عندما يتطلب الأمر ذلك من خلال ظهور بيانات جديدة أو تغير الأولويات والدلالات النظرية.

الترميز وكتابة التقرير النظرى

هناك تساؤل حاسم هو كيف يتسنى للترميز أو تسمية البيانات أن يصنف شيئاً أكثر من كونه كذلك؟ كيف يصبح ترميز البيانات نظرية؟ إن الإجابة المختصرة هي أن ابتكار الرموز وتطبيقها لا يعنى -فى حد ذاته- إضافة للنظرية. ويحدث ذلك حين تكون كتابة التقرير جزءاً من المعادلة. فكتابة التقرير عبارة عن تدوين ملاحظات، يضعها الشخص لنفسه بالدرجة الأولى، تطرح أسئلة، أو تعرض مشكلات، أو توحى بوجود علاقات، وغير ذلك من الأمور التى تتعلق بكيفية الكشف عن خصائص المفاهيم والمقولات، وعرض نماذج لها وبيان مدى تضاربها -على نحو ما- مع البيانات التى تم جمعها ومع عملية الترميز. ولهذا فإن كتابة التقرير تستهدف توليد المناقشة، وأجراء نوع من الحوار الذاتى يحدد الرابطة بين التأمل النظرى والقضايا العملية المرتبطة بجمع وتحليل البيانات. وتعد الصلات بين المفهوم والمؤشر قضية أساسية فى هذا السياق. ويقدم التقرير أداة لاستكشاف وفحص ما إذا كانت البيانات تدل فعلاً على المفاهيم والرموز والمقولات المعنية، وبأى معنى يمكن تبين ذلك، وفى هذه الحالة من المقابلات، وفى مجال الصلات بين المفهوم والمؤشر تكمن ديناميات توليد النظرية.

طبيعة كتابة التقرير

من الملامح الأساسية للتقرير النظرى طبيعته التراكمية، من حيث أنه يتتبع تطور تفكير الباحث حول قضايا معينة عبر فترة زمنية هي مدة العمل فى البحث. وهكذا، فإن النتاج الكلى لوظائف كتابة التقرير يشبه إلى حد ما الصحيفة (أو الدورية) بوصفها تسجيلًا لكيفية تفكير الباحث فى مختلف مراحل البحث، والأشياء التى كان يفكر فيها. وإن كان الشكل الحقيقى والبناء الذى يمكن أن تتخذه التقارير أمر يتغير بتغير الظروف. سوف أتناول عدداً قليلاً من أكثرها إفادة وانتشاراً بين الباحثين.

التقارير النظرية - أو الملاحظات التى يكتبها المرء لنفسه - وقد تأخذ شكل المداخلات فى دراسة ملاحظات، أو شكل نظام للتخزين يتم تنظيمه فى

ضوء المسميات، والمقولات، والمفاهيم، يمكن أن يرتب ترتيباً أبجدياً. وهكذا
فى كل مرة يضع المرء ملاحظة عن مفهوم أو مقولة معينة، يتم تصنيفها
آلياً تحت رأس الموضوع الملائم. وفى مثل هذا النظام التصنيفى يمكن إضافة
رموز ومقولات جديدة، أو حذف بعضها فى أى وقت. والوجه الآخر لذلك
هو فكرة السجل المتتابع زمنياً والذي يدون فيه الباحث ملاحظاته المنتظمة
عن مسيرة البحث، والذي ينتظم فى تسلسل زمنى صارم يتبع خطوات البحث
وملامحه بكل دقة.

كما أن التقارير النظرية قد تأخذ أيضاً شكل الملاحظات الهامشية على
النصوص المدونة الفعلية للوثائق (سواء كانت كمية أو كمية) التى يجرى
تحليلها. إن عيب ذلك (إذا تم انجازه يدوياً) أن الملاحظات تميل إلى أن تظل
مبعثرة، ويصبح من الصعب العثور عليها إذا لم تكن هناك إشارة دائمة إلى
وثيقة معينة. وإذا تم تخزين النصوص المدونة فى الحاسب الآلى، يصبح من
الممكن تجنب هذه المشكلة من خلال حزم البرامج التى تسمح للمرء بالدخول
بسهولة إلى الأجزاء المطلوبة من النصوص. وهكذا يمكن كتابة التقارير
النظرية بالاستعانة بحزم البرامج المختلفة التى تختص بتحليل البيانات الكمية.

وقد استخدمت فى ممارستى البحثية مجموعة من الطرق معاً. وفى
المراحل المبكرة من جمع وتحليل البيانات استخدمت طريقة الملاحظات
الهامشية، ثم أصبحت هذه الطريقة أقل إرضاء لى باضطراب، لأنه كلما تقدم
البحث اتجهت الملاحظات النظرية إلى أن تكون أكثر تدقيقاً وتحليلاً ومنطقية.
ومن شأن ذلك أن يخلق الحاجة إلى مساحة أكبر لتطوير النقاط والحجج
وترتيبها بصورة منظمة. وكان حل تلك المشكلة عندى هو كتابة الملاحظات
كوثائق منفصلة، أو تعليقات تركز على نص واحد بعينه فى كل مرة. فكنت
أقرأ النص المدون، الذى تم بالفعل ترميزه شكلياً، أو ترميزه ترميزاً آلياً
(تميزه بصورة بسيطة، أو إبراز بعض مواضعه بطريقة ما)، ثم أحاول
اختزاله إلى عناصره الضرورية فقط. ويعنى ذلك، أننى كنت ألقى الضوء
على المقطعات المهمة التى تتضمن الرموز الأساسية، أو المفاهيم أو
المعلومات الأساسية، وأوضح تفصيلاً أمامها لماذا هى مقطعات أساسية.
وسوف اعطى مثلاً لذلك فى موضع لاحق، ولكن بعد أن أعلق أولاً على

الطريقة التي يساعد بها هذا الشكل من كتابة التقرير (مقترنا بالترميز) في التعامل مع البيانات وتنظيمها.

وقد أوضحت من قبل عند مناقشة موضوع الترميز، أن إحدى المشكلات الأساسية للبحث الميداني تتعلق بتجميع قدر هائل من البيانات، بحيث تصبح المشكلة هي كيفية تقليل هذه البيانات بالقدر الذي يسمح بالتعامل معها بصورة عملية، وهنا نتبين أن علينا أن نتخلص من جانب كبير من البيانات التي تم جمعها، (أو على الأقل تخزينها بعيدا عن متناول اليد) من وجهة نظر أهداف البحث في المرحلة الراهنة. فالمزاوجة بين الترميز وكتابة الملاحظات - بالتركيز على كافة النصوص المدونة - يوفر لنا وسيلة لتخفيض البيانات إلى أقسام حتى يمكن التعامل معها بسهولة، من خلال تحديد الاجزاء ذات الصلة بالموضوع وفصلها عن سواها. وقد يكون ذلك عملا أكثر سهولة في المراحل المتأخرة من البحث عندما يكون معظم العمل المتصل بالمقابلات قد اكتمل (كالملاحظة، وقراءة الوثائق وتحليلها)، على الرغم من أن ذلك لا يعوق الترميز وكتابة الملاحظات باعتبارها من الجوانب المستمرة في عملية البحث. وعندما يتسع نطاق التدوين، يمكن للملاحظات المركزة أن تزود المرء برؤية عامة للبيانات، وتفكير تحليلي لتلك البيانات. ونتيجة لذلك، يسمح هذا النمط من الاجراء للباحث أن يتعرف على أي ثغرات (لو أن هناك مثل تلك الثغرات) في البيانات. ذلك أنها توضح له أين يحتاج إلى مزيد من المعلومات سواء بهدف تأكيد الأفكار النظرية المستقرة نسبيا، أو لمزيد من توضيح وتدقيق وترتيب بعض الأفكار التي ما تزال غامضة، أو غير محددة أو غير ملائمة على نحو أو آخر.

التقارير وتوليد النظرية

اعتمدت على تلك التقارير المفصلة في مناقشة عديد من المفاهيم والأفكار المهمة، منها على سبيل المثال "الضبط المشترك"، "أنماط نظم التقدير"، "سوق العمل المنظم" (داخليا)، "روتين العمل في مجال اختيار طاقم الممثلين" وما إلى ذلك. وقد تم ذلك من خلال المناقشات المستمرة، أو التعليق على البيانات الواردة في النصوص المدونة للمقابلات، وقد تضمن ذلك

عنصرين أساسيين. أولاً، أنه كان يتطلب إعادة تشكيل باستمرار أو إعادة التفكير في مدلول تلك البيانات (أسئلة حول كيف، وماذا، ولماذا) حتى يتم التوصل إلى زوايا نظر جديدة، وافكار وتفسيرات جديدة. ثانياً، أنها كانت تتضمن اختباراً للمفاهيم والأفكار (تطوير، توسيع، تعديل) التي تلعب بالفعل دوراً بارزاً في تحليل وتفسير البيانات.

ولكى أوضح المقصود بذلك في ضوء كتابة التقارير، سوف أعطي مثالا عن الطريقة التي صغت بها مفهوم "أسلوب اختيار فريق العمل" وعلاقته بمجموعة من المفاهيم المرتبطة به مثل "الاختيار النمطي للممثلين"، "مقياس التقدير"، "روتين العمل في مجال اختيار طاقم الممثلين". ويشير مفهوم "أسلوب اختيار فريق العمل" إلى الطريقة التي يفكر بها القائمون على اختيار طاقم الممثلين في العمل من حيث مدى ملاءمتهم لأنواع الأدوار المسرحية عندما يتخذون قراراتهم المعتادة بشأن أى من الممثلين سيلعب أدواراً بعينها في أعمال معينة. وكان يتم تناول هذه الاعتبارات في سياق التقارير النظرية المفصلة، كتعليق على أحد نصوص المقابلات المدونة. وقد تصادف أن وصل حجم أحد التقارير حوالى ٤٠٠٠ كلمة، وبالتالي ستصبح رؤيتى مختصرة وانتقائية بالتأكيد.

سأطرح أطارا عاماً لتطور كتابة التقرير من خلال عدد من الموضوعات (والتنقل بينها) بحيث يبلغ ذروته في مناقشة مفهوم "أسلوب اختيار فريق العمل" وتعريفه تعريفاً دقيقاً، وما يعنيه ضمناً بالحياة المهنية للممثلين ولتنظيم المهنة ككل. يبدأ التقرير ببساطة من خلال وضع ملاحظات عارضة عن أول خمس صفحات من النص المدون. ولكن عند الصفحة الخامسة بدأت تعليقاتى حول ما قاله المنتج بشأن صعوبات التنبؤ بالعروض المسرحية التي ستصادف نجاحاً ساحقاً تتطرق في طريقها بقوة. وأشير فيما يلى إلى سلسلة الموضوعات والتنقلات:-

١- يبدأ التقرير بمناقشة مشكلة إمكانية التنبؤ بالعروض الناجحة، أى احتمالات نجاح الاعمال المسرحية.

- ٢- ينتقل التقرير إلى مناقشة ظروف سوق الانتاج المسرحى.
- ٣- يقود ذلك إلى مقارنة نظم الإدارة فى الصناعات التى تتسم بظروف مختلفة لتسويق منتجاتها (انظر: بيرنز وستوكر ١٩٦١ حيث ميزا بين النظم العضوية، والنظم الميكانيكية).
- ٤- ترتب على ذلك، انتقال التقرير إلى مقارنة الأشكال المختلفة من الابداع والتجديد التى يتطلبها الانتاج الصناعى فى مقابل الانتاج الفنى (مثل المسرح).
- ٥- يؤدى ما سبق إلى طريق مسدود فى النهاية فيما يتصل بمتابعة الإجابة على سؤال عن كيفية تعريف الأفكار. وينتهى هذا الجزء من التقرير إلى نوع من البلبلة، وتتوقف المناقشة عند هذه النقطة.
- ٦- يبدأ التعليق أو التفسير مرة ثانية بتناول سؤال عن أهمية "الجدة" فى ضمان نجاح المسرحيات، والعروض، والأفلام، وكذلك بالنسبة للمسار المهنى للممثلين.
- ٧- يقود ذلك إلى مناقشة مشاكل القائمين باختيار فريق الممثلين فيما يتصل بانتاج أفكار جديدة عند الاختيار. وينتهى ذلك بالتمييز اصطلاحيا بين نوعين من نمط اختيار فريق الممثلين.
- ٨- تخلت عن فكرة وجود شكلين مختلفين من نمط اختيار فريق العاملين، وبدلا من ذلك طورت فكرة "أسلوب اختيار فريق العمل" للممثلين بواسطة المنوط بهم الاختيار، باعتبارها جانبا من روتين العمل، وكنقيض للاختيار النمطى للممثلين.
- ٩- يؤدى ذلك إلى أسئلة عن حراك المكانة خلال السلك المهنى، وكيف يساعد "أسلوب اختيار فريق العمل" على تعزيز وإعادة انتاج تجزئ سوق العمل الداخلى للممثلين.

قبل التعليق على منطق تسلسل التقارير النظرية ككل، سوف اتناول بعض الأفكار التي تضمنتها القائمة السابقة، نظرا لأن المعنى الدقيق ودلالة بعض ما ورد بها قد يراه البعض غامضا إلى حد ما. هناك ضغط على القائمين باختيار فريق الممثلين للأخذ ببعض الأفكار الجديدة عند اختيار القائمين بالأعمال المختلفة، وذلك لأن مستقبلهم المهني لا يتوقف فقط على اختيار الممثلين الملائمين لأداء الأدوار الملائمة، ولكنه يعتمد أيضا على القيام باختيارات ذكية غير متوقعة في هذا الشأن (غالبًا ما تشير التعليق "ياله من اختيار رائع للممثلين"). يميل القائمون بالاختيار إلى حل مشكلة "الجدة" ليس فقط من خلال العثور على ممثلين جدد، ولكن أيضا من خلال منح الممثلين الذين تعاملوا معهم بالفعل أدوارا جديدة عليهم، وغير مألوف قيامهم بها. كانت محاولتي الأولى لصياغة هذا الموضوع نظريا هي التفكير في ضوء نوعين من الاختيار النمطي، لأن المصطلح كان شائع الاستخدام، والظاهرة التي يشير إليها موجودة دون شك.

يحدث الاختيار النمطي عندما ينحصر اختيار الممثل بصورة دائمة في نمط واحد من الأدوار (الأشقر المغفل، البطل الرومانسي، معتاد الاجرام، عتاة المجرمين) بسبب تحقيقه نجاحا من قبل، وارتباط الممثل جماهيريا بهذا الدور. يؤدي ذلك إلى عدم رغبة القائمين بالاختيار في استخدام الممثل في أداء أى نمط آخر من الأدوار. ونتيجة ذلك فإن السلك المهني للممثل يعاني سواء من قلة عدد الأدوار المتاحة، أو من ناحية تنمية مهارات التمثيل، وأن يصبح منتشرًا فنيا. كل هذه الأشياء تحظى بأعلى تقدير لدى الممثلين، والنقاد، والجمهور أيضا. من هنا تكون مشكلة القائمين على اختيار فريق العاملين، هي مشكلة الحلم بأفكار جديدة للمسرحيات، والانتاج والتي يواجهونها باللاجوء الى ممارسة هي العكس تماما من الاتجاه نحو وضع الممثلين في أدوار نمطية ثابتة.

وهكذا، يؤدي تفكيرهم الروتيني في الممثلين المعروف عنهم ارتباطهم بأنماط معينة من الادوار، إلى أن يبسر عليهم اتخاذ قرارات اختيار جديدة، وتوسيع نطاق عمل الممثل. ولا شك أن ذلك لا يوسع فقط من فرص العمل المحتملة (في المهنة التي تعاني من بطالة مزمنة) ولكن يساعد أيضا على صعود العاملين في حياتهم المهنية من خلال تطوير المهارات الفنية

(الابداعية) والتكنيكية (التكنولوجية). ويتعارض ذلك بصورة ملحوظة مع نتائج الاختيار النمطى التى تقود غالبا إلى حياة مهنية تنسم بالجمود (تكون ناجحة أحيانا، وفاشلة تماما فى أحيان أخرى). وهكذا، قدمت صياغة أصلية لمفهومين يعبران عن ذلك هى "الاختيار النمطى المانع"، فى مقابل "الاختيار النمطى المانع" (أوالميسر).

واستقر الأمر فى النهاية على مصطلح "أسلوب اختيار فريق العمل" ليس فقط بسبب أناقته، ولكن أيضا لأنه كان من المثير للבלبلة التفكير فيه على أنه شكل من الاختيار النمطى. لذا قررت أن أتخلى عن صياغة المفاهيم التى تعتمد على مفهوم (يبتكره الأفراد الذين يستخدمونه فى حياتهم اليومية) الاختيار النمطى مفضلا عليه ما أصطلح على تعريفه سوسيولوجيا "أسلوب اختيار فريق العمل" الذى يستخدمه علماء الاجتماع بمعنى فنى محدد. ومع أن صياغة المفاهيم النهائية كانت صياغة سوسيولوجية من حيث الشكل، إلا أنها ارتبطت ارتباطا واضحا بمناقشاتي مع الممثلين، ووكلاء الفنانين، و القائمين باختيار الممثلين، والمنتجين. وهكذا، وفى هذه الحالة فإن مفهوم "أسلوب اختيار فريق العمل" قد تولد كنتيجة مباشرة للحديث مع العاملين فى هذا الميدان.

ويلاحظ أن بعض المبحوثين على وجه الخصوص - قد أشاروا إلى مقولة الاختيار عكس النمط. وبالرغم من أن ذلك كان استخداما عاما بطبيعته، ومن ثم لم يؤد مباشرة إلى أى تأمل يتعلق بالمفهوم أو النظرية، إلا اننى أدركت فى نهاية الأمر أن الاختيار عكس النمط (أى استخدام الممثلين فى أنماط من الادوار على العكس تماما من الادوار التى يلعبونها فى العادة) لايمكن أن يحدث الا قبل الموقف الذى يحدث فيه الاختيار النمطى، حيث يعتقد أن ذلك الممثل لا يصلح إلا لنمط معين من الادوار. ولهذا، فإن مذكرته من أن الاختيار النمطى الميسر لاصلة له فى الواقع بالاختيار النمطى، طالما أن الاختيار عكس النمط لا يحدث الا داخل العملية التى ترى أن الممثل لا يصلح إلا لأداء نمط واحد من الادوار. تعد فكرة "أسلوب اختيار فريق العمل" بالنسبة لى تعبيرا عن الطريقة التى يفكر بها القائمون بالاختيار عادة فى الممثلين الذين يعرفونهم فى ضوء مستوى أو حجم الأدوار المحتملة.

وأخيرا ، فإن فكرة "أسلوب اختيار فريق العمل" ترتبط بالقضية العامة عن حراك المكانة لدى الممثلين خلال حياتهم المهنية ككل . وهذا بدوره يلقي ضوءا أكبر على اتجاه آخر من التحاليل يركز على تنظيم سوق العمل الداخلى للممثلين. فمن خلال مقابلات أخرى ، عن فرص العمل والدخول في المهنة (انظر : لايدر ، ١٩٨٥) عرفت أن سوق العمل يتسم بالتجزؤ (*) . فهناك صفوة من الممثلين النجوم يشكلون حوالى ٥٪ من مجموع الممثلين، ويليههم شريحة تشكل حوالى ١٥٪ من الممثلين الذين يقومون بالنشاط الرئيسى فى مجال العمل. هؤلاء هم الممثلون المعروفون داخل دوائر مهنة التمثيل، على الرغم من أنهم ليسوا من أصحاب الأسماء المشهورة. وهنا أمر هام فهم معروفون ويتم اختيارهم بصورة منتظمة ضمن فريق العمل. ويأتى بعد هؤلاء الغالبية العظمى من الممثلين (٨٠٪) الذين يقضون معظم أوقاتهم متعطلين، أو يمارسون أعمالا أخرى خلاف التمثيل.

إن التساؤل الذى يثيره ذلك هو كيف حدث هذا التجزؤ فى سوق العمل؟ وكيف استمر واستقرت أوضاعه كما تدلنا على ذلك المسوح التى أجريت ؟ هناك جملة من العوامل المرتبطة بذلك ولكنها لا تعطينا كثيرا فى الوقت الراهن. وأن فكرة "أسلوب اختيار فريق العمل" تمثل جزءا من الاجابة، طالما أن القائمين بالاختيار يستخدمون باستمرار الممثلين المعروفين لهم (ويقصد بهم العشرون بالمائة الذين يضطلعون بالفعل بالنشاط الرئيسى فى سوق

(*) تجزؤ سوق العمل Segmentation of labour market، هناك صياغتان أساسيتان لهذه النظرية، الصياغة الأولى : نظرية سوق العمل الثنائى (أو الجزأ)، والصياغة الثانية هى نظرية سوق العمل الداخلى. وقد طور هاتين الصياغتين داخل الولايات المتحدة بيتر دورنجير و مابكل بيور فى كتابهما أسواق العمل الداخلية وتحليل القوى العاملة (١٩٧١). كما أسهمت البحوث الإمبيريقية فى دعم وتطوير هاتين الصياغتين. أما فى أوروبا فقد تطور اطار نظرى واحد يجمع بين هاتين الصياغتين داخل نموذج واحد. أنظر مزيدا من التفاصيل عند جوردون مارشال، موسوعة علم الاجتماع، مادة : تجزؤ سوق العمل، ترجمة مجموعة من الأساتذة باشراف محمد الجوهري، المشروع القومى للترجمة ، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٠.

العمل) مما يضمن أن نفس الممثلين سوف يعملون المرة تلو الأخرى. ومن شأن ذلك أن يحجب فرص الحراك عن جمهور الممثلين في المراتب الدنيا من بناء المكانة، والذي يمثل أساس سوق العمل. ولهذا فإن التأثير غير المقصود "لأسلوب اختيار فريق العمل" كوسيلة منتظمة لتنسيق وتوزيع أعمال التمثيل سوف يتمثل في تثبيت وإعادة إنتاج البناء المجزأ لسوق العمل. ويتعين أنؤكد هنا أن تلك النقطة لا تمثل إلا عنصرا واحدا من العناصر المتضمنة هنا. وما تزال هناك حاجة إلى المزيد من التحليل التفصيلي للتنظيم المهني للتمثيل بما في ذلك العلاقات المتبادلة بين الوكلاء، ومديرى الأعمال الشخصيين، والقائمين باختيار أطقم الممثلين، وغيرها من العناصر حتى يمكن تقديم إجابة وافيه على هذا السؤال .

المنطق الداخلى لتوليد النظرية

لو أمعنا النظر فى التسلسل أوالتتابع الذى انتهى بمفهوم "أسلوب اختيار فريق العمل" (بما فى ذلك خصائصه و سماته، ودلالاته بالنسبة للتنظيم الاجتماعى) فسوف نرى أنه كان ثمرة اتحاد مجموعة من العناصر مثل: المصادفات السعيدة، والأمور العارضة، والبحث الآلى والأدلة الزائفة مع علاقة منطقية منتظمة ، وتدقيق سليم للمنهج والأفكار . ويمكن القول باختصار - بصورة عامة - أن التقرير النظرى يمثل مزيجا غير منتظم تماما من تلك العناصر. وإلى جانب أن ذلك صحيح تماما ، فإنه يمثل أيضا نوعا من الدينامية التى يقوم عليها الأبداع النظرى. ولنختبر ذلك بصورة أكثر تدقيقا . تتطلق السلسلة بأكملها من مجموعة من الأفكار فيما يبدو إلى غاية غير مترابطة (فكرة أسلوب اختيار فريق العمل) مع انقطاع واضح فى التواصل بين النقطتين ٥ ، ٦ المذكورتين فى صفحة ١٣٢. وبغرينا ذلك أن نستنتج أن الأساس الذى غطته النقاط من ١ إلى ٥ قد قاد إلى تفكير تحليلى مخلق النهاية، أدى إلى جعله عديم الفائدة للنتيجة النهائية، وقد يكون ذلك على أى حال، نوعا من سوء تفسير دلالة الأجزاء الأولى من التقرير، وعلاقتها بظهور مفهوم "أسلوب اختيار فريق العمل" وخصائصه.

الخلل الأساسى فى القول بعدم فائدة الجزء الأول من التقرير للنتيجة النهائية هو أن مثل تلك الواجهة من النظر تسمى فهم أهمية وجود اتجاه وموضوع للتفكير النظرى .تبدأ العملية بأكملها من التفكير فى أهمية مشكلة التنبؤ بالجوانب التجارية للعروض الاستعراضية والمسرحية بصفة عامة، ومنها يتم الانتقال مباشرة إلى التفكير فى ظروف السوق بالنسبة لأنواع مختلفة من الانتاج الصناعى والفنى. وعلى الرغم من أن المناقشة تتجه - إلى حد ما - إلى تناول أمور فرعية فى ثنايا محاولة تعريف الابتكار فى ظل هذه الظروف المتغيرة، عندئذ تتخلق بالفعل وتبرز إلى حيز الوجود المقولات والقضايا ويؤثر الاهتمام النظرية الحاسمة . وتدور القضايا حول كيفية تأثير "الجنة" والابتكار، والابداع فى وسط يتأثر إلى حد كبير بالسوق، مثل المسرح التجارى (وكذلك التليفزيون، والسينما). ويؤدى ذلك بالتالى إلى سؤال عن موضوع اختيار فريق العمل فى الأعمال الانتاجية ، ومشكلات الاختيار النمطى، وأسلوب اختيار فريق العمل كجوانب لروتين العمل الذى يؤديه القائمون على اختيار فريق العمل.

وهكذا، على الرغم من الانقطاع الواضح فى التقرير فيما يتعلق بالطريق المسدود والخلط فى النقطة رقم ٥ ، إلا أننا نلاحظ نوعا من استمرار بعض القضايا وتدقيقها. ومن المعترف به، أن المنطق يواصل تقدمه بصورة يبدو واضحا أنها مرتعشة (أو عشوائية) - يكون أقرب إلى نوع من تداعى الكلمات أكثر منه شكلا من تداعى الأسباب منطقيا - ولكن هذا النمط وهذا التسلسل الفكرى ينطلق من التعليق على استجابة المبحوث، ويتم تدعيمه مباشرة بالأفكار السابقة، التى تركز على الاجزاء الأولى من التقرير وتعطيها قوة دفع. بل أنها فضلا عن ذلك توفر - عقب هذا - الدفعة الموضوعية المطلوبة لسد الفجوة بين النقطتين ٥، ٦ . والآن على الرغم من وجود منطق داخلى - دون شك - أو ترابط فى التقرير، فليست تلك هى العملية الوحيدة التى تتم لانتاج شكل متوال ومحدد من التطوير النظرى . ويعنى ذلك أنه على الرغم من أن الأفكار تنمو وينبثق بعضها من بعض، فإنه يوجد - على الجانب الآخر - العديد من المؤثرات الخارجية التى تلعب دورا فى التأثير على العملية المنطقية، وتيسر حدوثها أساسا.

وهناك مصدران أساسيان لهذه المؤثرات. الأول، هناك الافتراضات المسبقة، والمعرفة النظرية والحقيقة... وما إلى ذلك، التي يضعها الباحث في اعتباره عند قيامه بالبحث. الثاني، إذا كانت هناك أنواع أخرى من استراتيجيات البحث والأساليب المنهجية مستخدمة في نفس الوقت إلى جانب الاستراتيجيات المحورية (وهي في حالتنا هذه طريقة المقابلة) فإن توليد النظرية والتحليل النظري يجب أن يفهما في الأساس على أنهما ثمرة لهذا السياق العام للبحث. سوف أوضح فيما بعد أن البحث الذي يهدف إلى توليد النظرية يمكن أن يفيد من المدخل المتعدد الاستراتيجيات ولكنني سوف أعمد قبل ذلك إلى تناول بعض الافتراضات النظرية المسبقة التي أثرت على التطوير النظري، من واقع تتبعها في تحليل التقرير الذي حاولنا تحليله فيما سبق من حديث.

النظرية وتحليل البيانات

ذكرت فيما سبق أنه على الرغم من أن التنظير وتحليل البيانات يمثلان جانبين متميزين في التحليل الاجتماعي، ولا يمكن المساواة بينهما ببساطة، فإنه من المهم مع ذلك أن يتم فهمها على أنهما يعملان مقترنين أحدهما بالآخر. كما ذكرت في الفصل الثاني عددا من الفروض النظرية العامة التي يبدأ بها الباحث بحثه، والطريقة التي يمكن من خلالها أن تتسرب تلك الفروض إلى عملية البحث كسلسلة من المراحل. وأود هنا أن أتابع التحليل قديما من خلال دراسة بعض التوجهات النظرية الأكثر تحديدا التي تؤثر على تقدم مسار البحث وبناء النظرية. وهدفنا العام هنا (كما كان بالنسبة للمثال السابق عن التقرير النظري) هو تركيز ممارسات معينة باعتبارها مكونات أساسية لعملية تحليل البيانات، مع وضع هدف توليد النظرية في الاعتبار. وهكذا، يختلف موقفنا تماما عن عدد من المداخل الموجودة. فهو -أولا- يختلف عن مدخل أولئك الذين يصرون على المدخل الإمبيريقى والمضاد للنظرية في البحث الاجتماعى. كما أنه يختلف أيضا عن مدخل هؤلاء الذين يعتقدون أن توليد النظرية يجب أن يكون عملية استنباطية عقلانية تماما، أو

هؤلاء الذين تدل أعمالهم ضمناً على أن توليد النظرية يجب أن ينفصل إلى حد بعيد عن البحث الإمبريقي التطبيقي (وإنما يستخدم في تفسير الأفكار النظرية).

كما يختلف موقفي بشكل حاسم عما يفترضه أصحاب النظرية الموثقة الذين يصرون على أن النظرية يجب ألا تنشأ إلا في سياق البحث الجارى، وبطريقة داخلية على وجه الحصر. معنى هذا، أن الباحث يجب ألا يكون لديه أى افتراضات نظرية (مسبقة) تؤثر (ربما تنقل العدوى اتجاه هؤلاء الذين يؤمنون بصورة قطعية -دوجماتيقية- بتفوق النظرية الموثقة) على نقاء النظرية التى يجب أن تتولد مباشرة من عمليات جمع البيانات وتحليلها فقط. يرتبط مثل هذا المدخل ارتباطاً بالاتجاه المعرفى الإمبريقي، وبالتالى يعمل على تقليص نطاق النظرية الناتجة عنها ومرونتها وقوتها التفسيرية (انظر: لايدر، ١٩٩٠، ١٩٩٣). ولهذا فإن توصياتى هى: أولاً، أنه يجب الإقرار بأن كل البحوث تتأثر -إلى حد ما- بالفروض النظرية، ومن الأفضل التعامل معها بعقل مفتوح، وبصورة منظمة حتى لا تشوه دون وعى من عملية تحليل البيانات أو نتائج البحث. الأمر الثانى والأكثر أهمية أننا -كباحثين إمبريقيين- يجب أن نقيم إيجابياً الأفكار النظرية السابقة كوسيلة لتحديد لنا المحور الأساسى لعمليات جمع البيانات وتحليلها.

وفيما يتعلق بمثال "أسلوب اختيار فريق العمل" كتعبير عن سمة السلوك الروتينى للمسؤولين عن اختيار فريق الممثلين والعاملين وللجوانب الأخرى من التحليل السوسولوجى، هناك مصادر متعددة للفروض والأفكار النظرية المسبقة التى أثرت على تطورها من واقع عملية تحليل البيانات. الأول هو علم الاجتماع الفينومينولوجى كما نعرفه عن ألفريد شوتز^(١)، الذى

(١) ألفريد شوتز : يتركز اسهام شوتز فى استخلاص النتائج السوسولوجية والنفسية الاجتماعية من فينومينولوجيا هوسرل. وقد طور لنفسه نظرية فى العلاقات الانسانية والفعل الاجتماعى، أفاد فيها من آراء ماكس شيلر، ووليم جيمس، وهنرى برجسون، وجورج ميد. وقد أوضح فى هذه النظرية أسس تكوين التصورات الاجتماعية للأنماط الاجتماعية ودورها فى الحياة الاجتماعية وذلك انطلاقاً من الوقائع الفينومينولوجية للفهم بين اللوات، وللتأثيرات المتبادلة للتوجهات الاجتماعية. فضلاً عن ذلك طور =

استخدم مفهوم التصوير للإشارة إلى عملية عامة، حيث يصور الناس -من خلال استخدام اللغة- موضوعات وسمات يبنونها، ويتم امتصاصهم داخل مجالات حياتهم الروتينية المرتبطة بها. ومن شأن ذلك أن يؤدي إلى تقليص درجة تعقد البيئة، والبلبلية التي يحتمل أن تترتب على ذلك التعقد، بل جعلهم -من الناحية العملية- أكثر قدرة على التحكم فيها، وفهمها، والتنبؤ بها إلى حد ما. وفي رأي شوتر أن عملية التصوير تعمل كذلك على تسهيل التفاعل الاجتماعي من خلال تيسير تبادل الآراء بين الناس.

ومن الواضح أنه على الرغم من وجود بعض التداخل بين تصوري وتصور شوتر عن التصوير، فإن هناك اختلافات جديرة بالاعتبار، من بينها أن الاهتمام بتبادل الآراء ليس مهما في رؤيتي للتصوير. وهكذا لم أكن مهتما في استخدامي للمفهوم بفهم كيف يستطيع الناس أن يصلوا إلى آراء بعضهم البعض وبالتالي يتيسر تحقيق الفهم المشترك. ولكنني كنت مهتما بكيفية تعامل المسؤولين عن اختيار فريق العمل مع مشكلة العمل الروتيني، وكيف تساعد عملية التصوير -كعملية معرفية- في هذا الشأن. أما التداخل مع تصور شوتر فقد حدث فيما يتصل بالاهتمام المشترك بيننا بالطريقة التي تسمح بها الجوانب المصورة من البيئة الاجتماعية للفرد بتبسيط تلك البيئة، وأضافاء نوع من التتميط عليها.

ثانياً تأثر تصوري بكل من علم اجتماع العمل، وعلم اجتماع التنظيم. ففي هذا الصدد نلاحظ أن عملية التصوير ترتبط بصورة مباشرة مع فكرة العمليات الانتاجية، وتدفق العمل، كما ترتبط بالمشكلات المتعلقة بتنسيق العاملين واستناد الاعمال إليهم. وعلى الرغم من أن مهنة التمثيل تختلف كل

= شوتر اتجاه الفهم في علم الاجتماع عند فير ناقدا له ومضيفا اليه، بحيث قدم اسهاما مهما في تطوير مفهوم الفعل الاجتماعي. ومن أهم أعماله الفينومينولوجيا والعلوم الاجتماعية (١٩٤٠)، مفهوم وليم جيمس عن تيار الوعي من وجهة نظر التفسير الفينومينولوجي (١٩٤١)، نظرية شيلر عن التفاعل بين الذات (١٩٤٢)، الغريب (١٩٤٣)، المفهوم وبناء النظرية في العلوم الاجتماعية (١٩٥٤)، الرمز والواقع الاجتماعي (١٩٥٥)، المساواة ومفهوم البناء في العالم الاجتماعي (١٩٥٥).

الاختلاف عن التنظيمات النيروقراطية، فإن طبيعة القوة والسلطة، والطريقة التي ينتشر من خلالها كل منهما في أداء العمل الروتيني في مثل هذه التنظيمات يقودنا إلى ادراك الشبه الوثيق بأعباء العمل، والمشكلات التي يواجهها المسؤولون عن اختيار فريق العمل. ويشير مفهوم " أسلوب اختيار فريق العمل " (الممثلين) إلى العملية التي يضع بها القائمون بالاختيار (شأنهم شأن سائر الممارسين المهنيين) نظاما يسهل تنظيم وسيولة عملهم في تنسيق وإسناد الأدوار المتاحة إلى الممثلين. وهكذا، فإن العمل في التنظيم الرسمي، وأسواق العمل قد أثر بشكل مباشر في تفكيرى، وجعلنى أبحث عن الجوانب وثيقة الصلة بالبيانات. وسوف اتناول تفصيلا قضية فهم البيانات من خلال رؤية نظرية في الفصل الرابع من هذا الكتاب.

كما نجد أن دراسة دوركايم عن طبيعة التكامل الاجتماعى وأنماط الروابط الاجتماعية قد أثرت على تفكيرى فى جوانب التنظيم المهنى. كذلك أوليت اهتمامى لفكرتى القوة والضبط عموما. وهنا كانت دراسة كارل ماركس وماكس فيبر بمثابة خلفية مهمة لى. وبهذا المعنى، فإن مفهوم أسلوب اختيار فريق العمل لم يظهر فقط من فراغ، وإنما كانت هناك بالتأكيد مفاهيم سابقة، واتجاهات نظرية لفتت انتباهى إلى سمات متعددة فى البيانات، وأوحت إلى بأشكال معينة من بلورة المفاهيم على النحو الملائم.

بناء النظرية فى سياق البحث المتعدد الاستراتيجيات

ستحاول المناقشة التالية أن توضح أنه فى ضوء مدخل البحث المتعدد الاستراتيجيات لا توجد فى الغالب خطوط واضحة وفاصلة بين توليد النظرية الذى يعد ببساطة -وفى الأساس- ثمرة لتحليل البيانات (بمعنى أن النظرية تتبع من البيانات) وبين النظرية باعتبارها نتاجا للتأثير المتواصل للتأمل النظرى قبل البحث وأثناءه (أو عمليات التفكير المنطقى) التى تؤثر بفاعلية فى اتجاه البحث. إن النقطة الأساسية فيما يتعلق بالمدخل المتعدد الاستراتيجيات هى فكرة استخدام أكبر عدد ممكن من مصادر البيانات و/أو الخطط المنهجية

والتحليلية التي يكون من الممكن والملائم استخدامها في هذا المشروع البحثي، والتي تيسر إلى حد كبير عملية توليد النظرية.

وأود أن أوضح أن استخدام المدخل المتعدد الاستراتيجيات يزيد من قوة وشدة وصدق الأفكار والمفاهيم النظرية التي تتبع من تجميع وتحليل البيانات. ويرجع ذلك إلى سببين. الأول: أن استخدام أكبر عدد ممكن من المصادر والسياسات في حدود الممكن والملائم يضمن أن واحدا منها سوف ينفذ إلى البحث من أكبر عدد ممكن من الزوايا، وأنه سيقوم باختراق البيانات الأمبيريقية في أجزاء كثيرة على قدر الامكان. والميزة الطبيعية لمثل هذا المدخل أنه يسلم بصورة مباشرة إلى استخدام أكثر من طريقة للبحث^(٥) مما يضمن التحقق من مصداقية النتائج، وبالطبع، المفاهيم النابعة من تحليل البيانات. وكلما زاد اعتماد الباحث على مصدر أو استراتيجية أو منهج واحد معين كلما سيزداد تدريب انتباه الباحث إلى أبعاد معينة من المجال الأمبيريقى، أو المشكلة على حساب المجالات أو المشكلات الأخرى التي تعادلها في الأهمية. ومن شأن المدخل المتعدد الاستراتيجيات أن يؤدي إلى رؤية متعددة الزوايا تزيد من إمكانية وجود أفكار نظرية أكثر قوة باضطراد.

ونلاحظ أخيرا، أن اندماج عدد من المداخل في موضوع إمبيريقى، أو مشكلة إمبيريقية يؤدي إلى تأزر الفكر والفعل الذى يفضى إلى إعادة تنظيم وتفسير النتائج على نحو يمكن أن يقودنا إلى فتوحات نظرية جديدة. إن هذا التأزر بين الفكر والفعل يعطى قوة تشجع البحث، أو تحفز اكتشاف المزيد من

^(٥) استخدام أكثر من طريقة للبحث **Triangulation**، يقصد بذلك استخدام ثلاث دراسات على الأقل - ولكن الأفضل أكثر من ثلاث - وكذلك أطر نظرية، وباحثين، ومجموعات بيانات لبحث مشكلة أو موضوع معين. وربما يقصد بصفة خاصة استخدام دراسات المستوى المحدود (الميكرو) ودراسات المستوى الكبير (الماكرو) بحيث يكمل كلا منهما الآخر ويحققه، وذلك من أجل التوصل إلى نتائج مؤكدة. وقد درس هذا الأسلوب باستفاضة نورمان دنزين. أنظر: جوردون مارشال، موسوعة علم الاجتماع، مادة: استخدام أكثر من طريقة للبحث. ترجمة مجموعة من الأساتذة باشراف محمد الجوهري، المشروع القومى للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٠.

الأفكار وسوف أتناول فيما يلي خمسة أبعاد يمكن أن يتحرك في نطاقها البحث المتعدد الاستراتيجيات.

١ - المصادر المتعددة للبيانات وأساليب جمع البيانات.

من الأفكار الأساسية التي يؤمن بها المدخل المتعدد الاستراتيجيات أن استخدام أكبر عدد ممكن من المصادر والأساليب المختلفة لجمع البيانات والملائمة لمشكلة البحث موضع الدراسة سوف يثمر قدرا كبيرا من الأفكار والمفاهيم النظرية ذات الصلة بمشكلة الدراسة. وما يعنيه ذلك أن نتخلص تماما من مشاعر التفضيل أو التحيز فيما يتعلق باستخدام، أو حول كفاءة وفعالية أى من البيانات الكمية أو الكيفية. وعلى الرغم من أننا نستطيع توليد النظرية باستخدام شكل واحد فقط من البيانات، فإننى أود أن أشير إلى أن استخدام كليهما (خاصة بأن يستخدم الواحد منهما تلو الآخر) يخلق ظروفا خصبة وملائمة لإنتاج التنظير الجديد (انظر: لايدر، ١٩٩٣). كما أنه من الأمور المهمة فى هذا الشأن أن يكون الباحث نفسه راغبا فى استخدام كل من الأساليب الاثنوجرافية فى جمع البيانات (كالملاحظة المشاركة، والمقابلة المتعمقة، التفسير الوثائقي ... وما إلى ذلك) إلى جانب البيانات المسحية، والاحصاءات الرسمية، والمقابلات المقننة، وغيرها من الأساليب الكمية. ويتعين التأكيد بوجه خاص على أن استخدام توليفات من أنماط البيانات وأساليب التجميع يتيح تحقيق امكانية تحليلية أقوى للإرتباطات المتبادلة بين الخصائص العامة (الماكرو) والمحدودة (الميكرو) للعالم الاجتماعى.

ولا شك أن التوصية باستخدام أكبر عدد ممكن من المصادر والأساليب أمر يحكمه شرط مهم، ألا وهو أن يتوافق ذلك مع معايير إمكانية التنفيذ، والإمكانية العملية، ومدى الاتصال بالموضوع. فمن الواضح أنه قد يكون من غير الملائم أحيانا أو من غير الميسور استخدام مصادر معينة من البيانات، أو أساليب جمعها، ولكن النقطة المهمة أنه لا يصح استبعاد ذلك مسبقا بسبب ميول أو تحيزات شخصية من جانب الباحث. ومن الضرورى بنفس القدر أيضا عند استخدام المصادر والأساليب المختلفة عدم تبني مدخل تحكمى بصورة انتقائية وعلى غير أساس يبرر هذا الاختيار. إن النقطة

الحاسمة تتضمنها عبارات "اقتران نوعي البيانات والأساليب ببعضهما"، أو "استخدام الواحد تلو الآخر بالتراصف". فالنظرية والمفاهيم الجديدة سوف تكتسب في الغالب بنيانا قويا وملامح واضحة عندما يكون هناك تبادل وحوار حقيقي بين المناهج والاستراتيجيات، وبين المصادر والأساليب (انظر: لايدر، ١٩٩٣).

٢- التحليل التاريخي.

مع أنه ليس من الضروري أو العملي دائما تبني منظور تاريخي عند تناول مشكلة معينة، إلا أن ذلك يضيف عمقا إمبريقيا وتحليليا إلى موضوع البحث. فالأسئلة حول الطريقة التي ظهرت وتطورت بها جوانب معينة من الحياة الاجتماعية عبر فترات زمنية مختلفة تعد في طبيعتها تساؤلات عن السبب في جوهرها، لأن الماضي عادة ما يترك بصمات على الحاضر بطريقة ما، حتى ولو كان ذلك لا يبدو واضحا دائما. وعندما نمعن النظر في مثل تلك الأسئلة نجدها تتضمن قراءة التاريخ من وجهة نظر علم الاجتماع، بمعنى استخدام المواد التاريخية من أجل الوقوف على العوامل السوسيولوجية والمفاهيم ذات الصلة. وتشمل المواد التاريخية المصادر الأولية (الأصلية) مثل الوثائق بنوعها: الحكومية كالمستندات الحكومية، والسير الذاتية وما إلى ذلك، والخاصة كاليوميات، والجرائد. كما تشمل المصادر الثانوية كالسير الذاتية، وإعادة التصوير أو التفسير التاريخي لجهود تاريخية معينة. فتوفر كل هذه المصادر موارد هامة للتوصل إلى أفكار نظرية جديدة حول موضوع أو مشكلة ما من خلال التركيز على ظروف اجتماعية سابقة كانت منتشرة وسائدة، ومن ثم أثرت على نحو ما على الظروف الراهنة. ربما يستخدم التحليل التاريخي كجزء من المدخل العام المتعدد الاستراتيجيات للتحقق من صدق كل من العناصر الحقيقية، والعناصر الشكلية النظرية التي ظهرت أثناء البحث في الوضع الراهن.

٣- سحب العينة فى ضوء نظرية والمقابلات الأساسية.

يذهب جلاسر وشتراوس (١٩٦٧) إلى أن سحب العينة فى ضوء نظرية يستخدم فى الغالب مع البيانات الكيفية (وان كنت أرى أن ذلك يمكن أن ينطبق بنفس القدر على البحث الكمي). إن القاعدة الأساسية فى سحب العينة فى ضوء نظرية أنه يتعين على الباحث ألا يحدد سلفا وبصورة جامدة مواصفات العينة (من حيث حجمها أو تكوينها) قبل بداية البحث. وفى هذا الشأن فإن الأسئلة حول الأفراد أو الوقائع أو الأنشطة التى يجب أن تتضمنها العينة، أو عدد الأفراد أو الوقائع التى يجب دراستها، لا يمكن الإجابة عنها قبل البحث، خاصة إذا كان الباحث يريد التوصل إلى نظرية. إن مثل هذه الأسئلة سيتم تناولها بصورة مستمرة تبعا لظروف نشأة النظرية.

وهكذا فإن عدد الأفراد المفروض مقابلتهم، وكيفية اختيارهم تمثل استجابة مرنة مستمرة للأفكار النظرية والتحليلية بشأن البيانات من حيث ما تضيفه، أو ما تعنيه لعملية التفسير فى مجموعها. ومن الأهداف الأساسية لسحب العينة فى ضوء نظرية -تبعا لرأى جلاسر وشتراوس- المحافظة على الطبيعة الأصلية والموثقة للنظرية التى نشأت للمساعدة فى ضمان أن النظرية إنما انبثقت من البيانات حقيقة، وأنها لم تفرض على تلك البيانات فرضا. ورغم وجاهة هذه الحجة، فإننى أعتقد أنه لا يجب التخلّى عن فكرة أن الأفكار النظرية، أو المفاهيم أو النماذج أو القضايا السابقة يمكن أن تغيّنا أيضا فيما يتعلق بفكرة سحب العينة فى ضوء نظرية وتوليد النظرية.

والمثال الجيد الذى يمكن أن يلقى الضوء على بعض هذه القضايا يمكن أن أستمدّه -مرة أخرى- من الحياة المهنية للممثلين. فبعد أن قمت بإجراء عدة مقابلات مع الممثلين، اتضح لى أن أولئك الممثلين ربما لا يعدون من أفضل الاخباريين لتزويدى بمعلومات عن التنظيم الاجتماعى الأساسى للمهنة، وكيفية أداء سوق العمل لوظيفته بالنسبة للممثلين. ولهذا قررت أن أضم لعينتى بعض الوكلاء، ومديرى الاعمال الشخصية للممثلين. وكنت كلما تعلمت منهم أكثر، كلما أدركت ضرورة مقابلة المسئولين عن اختيار فريق

العمل أيضا. وقد أدى هذا بالطبع إلى ظهور مصطلح "أسلوب اختيار فريق العمل" الذي قمت بشرحه منذ قليل.

وفي نفس الوقت الذي كان فيه سحب عينتي في ضوء نظرية يضيف إلى قائمتي المزيد من المقابلات الممكنة، كنت أستفيد أيضا من عدد من مصادر بيانات أخرى، بما فيها دراستين مسحيتين عن التوظيف وعن الدخول أجرتهما نقابة الممثلين، والتشريعات المكملة، والمعلومات الوثائقية حول أنماط الملكية والتحكم في صناعة الترفيه بصفة عامة. وهكذا فإن سحب العينة في ضوء نظرية ظل مقترنا مع المدخل العام المتعدد الاستراتيجيات (الذي يتضمن أيضا التحليل المقارن للحياة المهنية، وتطور تمييط البناءات المهنية. انظر فيما يلي التعليقات المتعلقة باستخدامات تمييط عملية توليد النظرية). ولهذا فإن تحليل البيانات وتشبيد النظرية عموما يمكن فهمه بوصفه يحدث في سياق تتحد وتتقارب فيه كل هذه المصادر المختلفة للبيانات، وأساليب جمع البيانات، والسياسات التحليلية، (بما في ذلك سحب العينة في ضوء نظرية).

ويفسر ذلك وجهة النظر التي طرحتها من قبل. إن تأزر هذه العمليات هو الذي يحقق قفزات إلى الأمام في التفكير المتعلق بمعنى البيانات (متضمنا دلالاتها النظرية) والتي تؤدي إلى إعادة تفسير وإعادة تنظيم التحليل. ذلك أن ظهور المفاهيم والأفكار النظرية في مثل هذا السياق الكلي يضمن أنها سوف تكون موثقة أفضل توثيق، ليس فقط من واقع البيانات، ولكن كذلك من واقع ترابطها في سلسلة قوية من التفكير المنطقي والصور التحليلية. وكما اقترحت من قبل، فإن تعدد خطوط الهجوم يؤدي إلى شمول وكثافة تغطية للمجال والاتجاهات داخله. فمن شأن هذه الأحوال أن تخلق ظروفا ملائمة تزدهر في ظلها القفزات إلى الأمام في الأفكار والرؤى المختلفة.

ومع ان ذلك قد يبدو متناقضا قليلا، بمعنى أن المدخل المتعدد الاستراتيجيات يشجع على اكتشاف الجديد عن طريق المصادفة السعيدة، وهناك دليل على ذلك من دراستي يتعلق بظهور بعض الاخباريين الأساسيين، وما أسفر عنه - في ضوء السياق الكلي - من مقابلات أساسية بالنسبة للبحث.

ويقصد بالمقابلة الأساسية في هذا المعنى، تلك المقابلة التي تبرز أثناءها فجأة بعض الأفكار من خلال استخلاص بعض المعلومات من المبحوث. كما تلقى مثل هذه المقابلات الهامة الضوء على أهمية المقاطعات الصغيرة أو الجمل المستخلصة من مقابلات أخرى، والتي قد تحفز الفكر نحو ادراك الارتباطات بين الجوانب المختلفة للبيانات.

وفي دراستي قابلت احد المبحوثين وكان يعمل مديرا بالوكالة المركزية لاختيار فرق العمل، وقد جاء في ثانيا حديثه معي عبارة "القائمين بالنشاط الرئيسي في المهنة" وهو يتحدث عن جماعة معينة من الممثلين. وعندما فكرت في تلك العبارة في ضوء المواد الأخرى التي كنت أقوم بتحليلها في ذلك الوقت، وخاصة الدراستين المسحيتين للتوظيف والدخول، ومقابلات أخرى مع القائمين باختيار فرق العمل، والمنتجين، تحولت تلك العبارة (بل والمقابلة ككل) إلى عنصر أساسي ترتب عليه عدد من المقولات، والخواطر، والأفكار وما إلى ذلك. فقد أفادتني تلك العبارة في بلورة أفكارى عن تجزؤ سوق عمل التمثيل، وكيف تؤدي العلاقات المتبادلة بين مديري اختيار فريق العمل، والمديرين الشخصيين للممثلين، والمنتجين وأساليبهم المتبعة في ممارسة العمل إلى إعادة انتاج وإلى تعزيز البناء الهرمى لسوق العمل. ولكنه ليس صحيحا أن المقابلة- أو العبارة نفسها- قد برزت من تلقاء نفسها، وأوحت بكل هذه الأفكار والعلاقات كما لو كانت مصادفة سعيدة بالمعنى الحقيقى، أو كانت مجرد صدفة عرضت عفوا كلية. ذلك أن شعورى بأننى "وجدتها" عندما سمعت عبارة: "القائمين بالنشاط الرئيسى في المهنة" لم تصبح ذات دلالة وأهمية إلا بفصل كافة الجوانب الأخرى للغز التي كانت أفكر فيها في ذات الوقت والتي أصابت الهدف تماما. ومن هذه الناحية يمكن القول أن ذلك الاكتشاف بالصدفة لم يكن فى حقيقته إلا ثمرة للتفاعل والتداخل بين عديد من المؤثرات المختلفة، ونتف المعلومات التي كانت تتبلور بشكل مستقل نسبيا منذ فترة من الوقت، وأن هذا التفاعل والتداخل كان يجرى بشكل متزامن مع اجرائى للمقابلة.

ويمكن القول بوجه عام أن فكرة سحب العينة في ضوء نظرية التي أدعو إليها هنا تختلف -من جوانب حاسمة- تمام الاختلاف عن تلك التي

طرحها جلاسر وشتراوس (١٩٦٧)، فرويتى لسحب العينة فى ضوء نظرية باختصار - تشجع بشدة استخدام المصادر النظرية القائمة (بما فى ذلك استخدام النظرية العامة) كوسيلة لتيسير تطوير النظرية من خلال البحث المستمر. وبهذا المعنى لا أرى أن هناك تناقضا حادا بين انبثاق النظرية (من البيانات) وبين الادعاء بإجبار البيانات على أن تتدرج فى اطار المفاهيم والفئات الموجودة سلفا. إن تصورى لمكانة النظريات القائمة يسمح بوجود بديل وسيط يمكن من خلاله أن تتولى النظرية الموجودة سلفا إرشاد وتوجيه جمع البيانات، إلى جانب ما تفضى إليه المعلومات والتفكير التحليلي الجارى. وهكذا فإن سحب العينة فى ضوء النظرية لا يتبع ولا يتعقب البيانات بصورة بسيطة أو عمياء، ولكنه يكون مستعدا دائما لاحتمال تلقى أية معلومات من خلال المفاهيم القائمة (المستقرة)، والأشكال العقلانية من التفكير المنطقي النابعة من أطر نظرية، أو مداخل أكثر تطورا.

٤ - الترميز والتقارير والصلات بين المفهوم والمؤشر.

سبق أن تناولت القضايا الأساسية التي أود أثارها بشأن الترميز والتقارير النظرية فى فقرات سابقة من هذا الفصل، ولكنى أود هنا أن أؤكد على أهميتها فى هذا السياق. وأقصد بذلك أن تلك القضايا تشكل فى ذاتها جانبا مكملا للمدخل المتعدد الاستراتيجيات، الذى يصب فى التضافر القوى بين المؤثرات، وما يترتب على ذلك من تآزر. إن ترميز البيانات والتقارير النظرية التي تتحقق من التحليل المستمر للبيانات، ثم تعود فتصب فيه لا توجد كعناصر مستقلة فى البحث، ومنفصلة تمام الانفصال عن المؤثرات الأخرى، بل العكس هو الصحيح تماما، فإن وجهة نظر الاتجاه المتعدد الاستراتيجيات تتمثل فى مجملها فى تحقيق تأثير تراكمي ومتطور فى التفكير النظري، وفى انتاج الأفكار.

٥- عمليات التتميط، وتوليد النظرية، وعملية البحث.

لاشك أن تطوير عمليات التتميط (أو بناء نماذج التتميط) إلى جانب تحليل البيانات يمثلان أداة عظيمة الفائدة لاشعال الخيال النظرى واطلاقه أثناء عملية البحث نفسها. وعمليات التتميط عبارة عن عمليات تصنيف منتظمة لأنماط الظواهر الاجتماعية التى تنتمى إلى فئة معينة. وهكذا يمكن أن نقوم بعملية تتميط للأحزاب السياسية أو السلطة أو علاقات الضبط، أو أنماط التنظيمات، أو أنماط الحركات الدينية، أو أنماط نزلاء السجون، أو السواح من أجل الجنس، أو أنماط التعامل بين الموظف والعميل (انظر: كليج وآخرون، ١٩٩٦)، أو أساليب مقاومة العميل (أنظر: بلور وماكينتوش، ١٩٩٠). ومن شأن تحديد الهدف من بناء التتميط (المحور الرئيسى للبحث أيا كان) فى بداية البحث أن يسهم فى توجيه التفكير النظرى، وحفره لعدد من الأسباب.

السبب الاساسى الأول أنه يجبر الباحث على أن يبدأ فى طرح أسئلة حول البيانات أو الظواهر الاجتماعية التى تشير إليها البيانات. ومن الأمور اللازمة كل اللزوم أن تدور الأسئلة حول التحليل المقارن، الذى يستهدف الوقوف على أسباب تشابه أو اختلاف بعض الظواهر (كجماعة معينة، أو علاقة، أو نمط من المشاركة) عن غيرها من الظواهر. إن اختيار المقارنات التى تلقى الضوء على أوجه التباين الكبيرة من شأنه أن يفضى إلى استثارة الأفكار والمفاهيم والفئات التى تتشكل فى ضوء أسئلة تدور حول أسباب هذا الاختلاف وكيفيته. كما نلاحظ من ناحية أخرى، أن مقارنة جانب معين من الحياة الاجتماعية بجانب آخر وثيق الشبه به يثير أسئلة حول أسباب هذا التشابه وكيفيته، ومن ثم يحفز إلى توليد أفكار ومفاهيم وفئات حول هذه الأسئلة. إن طرح أسئلة مقارنة تستهدف تطوير عملية تتميط تساعد على تنظيم ملاحظات الباحث وتحليلاته بصورة منظمة بدلا من الاكتفاء بعقد المقارنات على مستوى الخبرات الفكرية وحدها.

أما السبب الثانى، فإن بناء التتميط يسمح للباحث بالاتخراط فى عمليات التدقيق النظرى، وبالتالي بالتفكير فى ضوء سلسلة من التفكير المنطقى بدلا

من مجرد التفكير فى التوافق الدقيق بين المفاهيم والبيانات (الصلات بين المفهوم والمؤشر). ويتم ذلك أولا من خلال افتراض صلات بين المفاهيم والأفكار الجديدة، والتي لم تكن واضحة من قبل، بينما تعزز فى نفس الوقت صلات أكثر وضوحا أو بروزا. ثانيا، من شأن التزام الباحث بالمنظور المقارن أن يقوده إلى تفضيل النظريات القائمة بشأن المجال الذى يدرسه، أو المجالات القريبة منه، ومن ثم يواجه احتمال وجود طائفة من الارتباطات والمدخلات النظرية الأخرى. وبهذا المعنى تتناغم اهتمامات الباحث مع الحشد الكبير من المواد النظرية التى تضيف فى النهاية أو تكمل النمو العضوى للتفكير النظرى المتعلق بمشروع البحث الراهن. (سوف أناقش موضوع التدقيق النظرى بمزيد من التفصيل فى الفصل الخامس من هذا الكتاب).

ويمكن القول على وجه الاجمال أن تطوير عمليات التتميط يؤدي - وبصورة كلية- إلى تجلية التفكير، ويوحى بخطوط جديدة للتفسير، ويوجه الخيال النظرى. وطالما أن التدقيق النظرى يمثل سمة أساسية من سمات البحث، فإن تشييد التتميط جسرا لبلوغ النظرية العامة (المداخل والمدارس الفكرية المختلفة) والافادة منها فى نفس الوقت. إن ملاحقة الرابطة العضوية بموضوع تدقيق النظرية، وإقامة الصلات المتبادلة مع النظريات العامة لا تعد -بالطبع- ملامح أساسية لكافة عمليات التتميط. ذلك أن تطوير عملية التتميط يمكن أن يتم كنشاط مستقل إلى حد ما، وينظر إليه باعتباره استراتيجية تحليلية مكتملة ومكتفية بذاتها. ويمكن القول على أى حال، أن هدف تطوير النظرية يعد فى سياق المدخل المتعدد الاستراتيجيات -الذى أدعو إليه- الهدف الأسمى والأجل.

وغالبا ما يفقد هذه المميزات النظرية لبناء التتميط أولئك الذين ينظرون إليها على أنها استراتيجية مكتفية بذاتها، ومجردة من أى علاقة بالنظرية الشكلية أو العامة. ونجد على سبيل المثال كتب المناهج تدافع أحيانا عن بناء التتميط، ولكنها تقصر حديثها هذا على التتميط الذى يعتمد على المادة الإمبريقية المتوفرة من البحوث المتصلة بمختلف أبعاد السلوك أو النشاط. ومن أمثلة ذلك ما طرحه جلاسر وشتراوس (١٩٦٥) عن "سياقات الوعى المحيطة بالمرضى المحتضرين"، وتتميط لوفلاند (١٩٦٦) "لأساليب الدخول"

فى المؤسسات الحكومية، أو تتميط ريتشى وسبنسر (١٩٩٤) "الاتجاهات والسلوكيات الجنسية". ان قصر التتميط داخل فئات وأنماط مختلفة من الاتجاهات والسلوكيات والدوافع (انظر: مؤلف ريتشى وسبنسر، ١٩٩٤، صفحة ١٧٤) يصاحبه على الدوام نقص الاهتمام بالتمييز بين ما أسميته تتميطات الفعل، أو التتميطات السلوكية وبين التتميطات النسقية أو البنائية (لايدر، ١٩٩٣).

وقد سبق أن أوضحت أن التتميطات السلوكية أو تتميطات الفعل تقتصر إلى حد كبير على وصف عناصر عالم الحياة فى المجتمع، والاهتمام بالمعنى الذاتى، والخبرات المعاشة، والدوافع والاتجاهات وما إلى ذلك. وترجع أهمية التتميطات النسقية أو البنائية إلى أنها تهتم بوصف أوضاع وسياقات السلوك، وبذلك تقدم المتطلبات اللازمة لتفسيرات أكثر شمولية وقوة للحياة الاجتماعية. إن وصف شامل للعالم الاجتماعى سوف يعتمد آليا إلى الافادة من المفاهيم المرتبطة بكل من الجوانب النسقية والسلوكية، لأن الممارسات الاجتماعية ليست سوى مزيج من التأثيرات المتبادلة بين الخبرات المعاشة والجوانب النسقية للحياة الاجتماعية (انظر الفصل التالى حيث تجد مناقشة تفصيلية لهذه الأنماط من الصلة بين المفهوم والمؤشر). من المهم على أى حال أن نهتم فى المحل الأول بمثل هذا التمييز، لاننا إن لم نفعل، فإن التأثير النسبى للمؤثرات المختلفة - ولكن المتصلة ببعضها البعض - للجوانب المختلفة للحياة الاجتماعية سوف يتعرض للإهمال أو الطمس.

ان مداخل البحث التى تؤكد على تتميطات الفعل أو التتميطات السلوكية إنما تفعل ذلك على حساب اهمال التتميطات البنائية أو النسقية وكنتيجة له. ولهذا فلا بد من الاعتراف بأن أشكال السلوك، أو الاتجاهات، أو الدوافع، أو أنماط الناس توجد دوما فى إطار وضع أو سياق من نوع ما (أو سلسلة متصلة منها)، ولهذا يكون من الضرورى للتوصل إلى تحليل يتميز بالعمق والقوة الانتباه إلى تسجيل تأثير مثل هذه الأوضاع والسياقات وفهمه. كما أنه من الأمور الحاسمة أيضا التأكيد على الدور الهام الذى يمكن أن تلعبه التتميطات النسقية أو البنائية فى البحث، والا فإن تأثيرها على السلوك أو على الأفراد محل الدراسة سوف يكون غامضا وجزئيا، أو يتم التعامل معه

باعتباره خلفية أولية وضمنية لعملية التحليل، ويؤثر استخدام التتميطات النسقية على توسيع نطاق التحليل من خلال الالتفات إلى الجوانب الأشمل للتنظيم الاجتماعي والعلاقات الاجتماعية. ومن شأن هذا أن يؤدي بشكل فعال إلى جعل التحليل أكثر تعقيدا، بمعنى أن يصبح أكثر عمقا وإحاطة وشمولا.

ويعد تطوير النسق أو التنظيمات البنائية مفيدا على وجه الخصوص في رسم خريطة للإرتباطات المتبادلة بين عناصر النسق والسلوكيات والأنشطة الموجودة داخل هذه البيئة (النسقية) الأوسع. ومن شأن هذا أن يعمل بدوره على استثارة التفكير النظري، وذلك بفضل وجود عدد كبير من المتغيرات أو العوامل أو العناصر التي يتعين أخذها في الاعتبار، ويؤدي هذا إلى إثارة أسئلة نظرية حول الطريقة التي تربطهم ببعضهم البعض. إن تأثيرات تطوير النسق، أو التتميط البنائي لا تسير في اتجاه واحد فقط نحو النظرية، ولكنها تصب أيضا في عملية البحث بطريقة عملية تماما من خلال تحديد الثغرات في المعلومات، وهو الأمر الذي يمكن أن يؤدي إلى إدخال تعديلات على عملية سحب العينة. وعلى ذلك فإن مثل هذه المراجعة للتفكير أو مراجعة الحسابات يمكن أن تسفر عن مزيد من القدرة على بلورة اتجاه ككل. ومن ثم فإن الميزة الكبرى من وراء تطوير مثل هذه التتميطات في سياق البحث المستمر هي أنها تلقى الضوء على الصلات الداخلية الأساسية في النظرية والبحث وتحليل البيانات، كما أنها تشجع بقوة التأثيرات المتبادلة بينها داخل عملية البحث ذاتها.

وسأحاول أن أوضح ذلك باختصار من خلال مثال من دراستي عن مهنة التمثيل. فقد كان اهتمامي الأساسي منصبا -في بادئ الأمر- على الممثلين أنفسهم وعلى مستقبلهم المهني بصفة خاصة -ثم اتضح لي فيما بعد- وكما أشرت من قبل- أن مقابلة الممثلين وحدهم لم تستطع أن تزودني بالمعلومات المطلوبة عن سوق العمل في التمثيل، ولذلك كنت في حاجة إلى مقابلة آخرين ممن يعملون في نفس المجال (كالقائمين باختيار فرق العمل، والمديرين الشخصيين للممثلين) و إلى استخدام مصادر أخرى للمعلومات (كالدراسات المسحية التي أجريت عن التوظيف وعن الدخول، ودراسات حول الملكية والتحكم في وسائل الاعلام). وقد زودني ذلك بمعلومات عن بعض الجوانب

النسقية فى المهنة، والأوضاع والسياقات المحيطة بممارسة الممثلين لمهنتهم بالمعنى الواسع. كذلك اتضح أنه من الضرورى للوقوف على صورة كاملة لطبيعة السياق المهني الكبير أن يتم تحديد وضع مهنة التمثيل فى ضوء علاقاتها ببعض الأعمال والمسارات المهنية الأخرى. وهكذا أمكننى من خلال طرح أسئلة حول كيف ولماذا يتشابه أو يختلف المسار المهني للتمثيل عن المسار المهني للحرف الأخرى (كالوظائف الحكومية المدنية، والجيش، والطب، والرياضة، والموسيقى وما إلى ذلك) أن أبدأ فى تطوير تخطيط للأبنية المهنية .

ومن خلال دراسة وتحليل التراث الموجود، والبحث فى المسارات المهنية، وقعت على مادة هائلة الوفرة عن المسارات المهنية الإدارية (كالمديرين فى الصناعة، أو الموظفين الحكوميين)، ولكننى تبينت الضالة النسبية للمادة المتوفرة عن المهن الحرفية مثل مهنة التمثيل، حيث تلعب قوى السوق المكشوفة دورا فائقا، كما لم أتوقع فى واقع الأمر -على أى حال- معلومات عن التمثيل ذاته. ولكننى استطعت من خلال تحليل المادة المنشورة أن أبدأ فى تطوير تخطيط مؤقت للأبنية المهنية. وقد أثمر ذلك ثلاثة أنماط رئيسية هى: بيروقراطية، وجامعية، وسوق المهنة. وقادنى تحليلى الأولى إلى أن مفاهيم القوة والضبط والقضايا النابعة منهما، من قبيل ما هى الجماعة المهنية القادرة على التحكم فى الحركات المؤثرة على المسار المهني (سواء صادفت نجاحا داخل المهنة أم لم تصادف)؛ أنها هامة فى تمييز أنماط البناء المهني عن بعضها البعض. وظللت إلى أن بدأت البحث فى المسارات المهنية فى التمثيل، عاجزا عن الوصول إلى فهم حقيقى لأشكال الضبط فى هذه المهنة. ومن خلال مقابلة المديرين القائمين باختيار فرق العمل، والمديرين الشخصيين للممثلين، واستخدام الدراسات المسحية السابقة توصلت إلى مفهوم "الضبط المشترك". ويشير ذلك إلى حقيقة أن الحراك المهني يخضع لمجموعة من الآثار الجماعية المشتركة (كأصحاب العمل، والقائمين باختيار فرق العمل، والوكلاء، والنقاد واستجابات جمهور المشاهدين).

ويفسر ذلك النمط المتعرج لعملية البحث والتأثيرات المتبادلة فى بنية التمثيل، والطبيعة المتغيرة والمتجددة لعملية جمع البيانات وتحليلها. لقد أثار

التميط المؤقت - الذي تم في أول الأمر - قضايا القوة والضبط المؤثر على الحراك المهني، ومن ثم نبهتني إلى أهميتها. وفي نفس الوقت فإن غياب المعلومات عن نمط السلوك المهني المرتبط بالسوق ألقى الضوء على الفجوة في المعلومات وساعد على إعادة الاهتمام والتركيز على التحليل الحقيقي للتمثيل من خلال قضايا التحكم في الحراك في السلك المهني. وقد أثمر ذلك مفهوم "الضبط المشترك"، مع أن هذا المفهوم لم يشتق من جمع البيانات فقط عن مهنة التمثيل، وإنما ظهرت أهميته ودلالته للموضوع فيما يتعلق بأشكال الضبط في النمطين الآخرين من البناء المهني. ففي النمط البيروقراطي، يكون التحكم في المسار المهني (القرارات المتعلقة بالترقيات، وتطوير المهنة، وأنماط التقدم من خلال الشركات) بأيدي أصحاب العمل - وكذلك الأعضاء ذوي المكانة العليا في تنظيم الممثلين والذين يمثلون أصحاب العمل - ومن هنا كان مفهوم "تحكم أو سيطرة صاحب العمل" ذا صلة بموضوع الدراسة. وفي السلك المهني الجامعي لبعض المهنيين مثل الأطباء، والمحامين ومن إليهم، نجد أن مفهوم نمط السيطرة الجامعية كان ذا صلة بالموضوع، وأوضح الطريقة التي يمارس بها بعض الجامعيين المهنيين قدرا من السيطرة على حراك المكانة اعتمادا كذلك أيضا على نوع بيئة العمل محل البحث (مكان الممارسة الخاصة للمهنة، موظفو التنظيم، ومن إليهم).

ويمكن القول باختصار أن تطوير تميط يسير جنباً إلى جانب التحليل الجوهري ييسر عملية التأثير المتبادل بين الأفكار والمفاهيم النظرية من ناحية، وبين جمع وتحليل البيانات المستمر من ناحية أخرى. وهكذا نرى أن بناء التميط هو فرع من المدخل المتعدد الاستراتيجيات، يصب في عملية تطوير النظرية وتدقيقها بالمعنى التراكمي. فهو يشجع بشكل فعال التفاعل الجدلي بين التنظير الناشئ المعتمد على اكتشاف البيانات والمعلومات واستخدام المواد النظرية السابقة النابعة من مصادر مختلفة. ويعمل كل مؤثر من تلك المؤثرات على تلطيف المؤثرات الأخرى والتحكم فيها. ويؤكد مثل هذا المدخل في البحث أن البحث ليس عملية خطية ذات مسار ثابت، يقوم فيه الباحث بالاكشاف التدريجي للمادة، ومنها يطور الأفكار بأسلوب على درجة عالية من الانتظام. ولكنه يوحى إلينا بدلا من ذلك بمسار متعرج يتراوح إلى

الامام والخلف تارة وراء الأفكار النظرية، وتارة وراء جمع وتحليل البيانات، ويدله كل مسار على الفجوات ونواحي القصور في كل من هذين الاتجاهين، الأمر الذي يحفزهم إلى الاستجابات الابداعية والبحثية التي تقوده في النهاية إلى نتيجة تتسم بالتماسك العضوي والتراكم.

خاتمة

هل نسعى إلى استخلاص نظرية من البيانات؟

رغم أنى تناولت قضية التنظير بوضوح من وجهة نظر الشخص المنغمس مباشرة في البحث، فقد كان ذلك لمجرد التأكيد، لأتنبأ أردت أن أوضح أيضا الرأي الذي يعتبر تطوير النظرية أو إقامتها ليس سوى "انبثاق من البيانات" كما يذهب إلى ذلك أنصار النظرية الموثقة. ففي رأبي أن كلا النظريتين تتسم بالضعف وعدم الدقة. فهي وجهة نظر ضعيفة بمعنى أنها تحاول أن تقصر التنظير "المشروع" على المفاهيم والأفكار التي تطرحها البيانات نفسها بصورة مباشرة. فهذه النظرة تستريح إلى أن تسقط من اعتبارها أن هناك دائما مسلمات "مستوردة" في بناء النظرية، لأن الباحث يجلب معه كما وفيرا من الفروض العامة (وقد تكون أحيانا فروضا محددة) عن البيانات، وعن الأشكال المشروعة الملائمة من التفسير والتحليل. كما أن وجهة النظر هذه تلغى دور وامكانيات المواد النظرية القائمة (بما فيها النظرية العامة) في التأثير على عملية توليد النظرية. إن مثل هذا الفصل التعسفي لن يؤدي إلا إلى إضعاف التحليل الاجتماعي خاصة في تلك اللحظة التي يفترض فيها القيام بمحاولة إقامة صلات بين الفروع المختلفة من التنظير سعيا وراء بلوغ الهدف وهو المعرفة التراكمية.

وفي سياق هذه الاعتبارات الشاملة، قمت بتحديد بعض الاجراءات والاستراتيجيات العملية التي تستهدف خدمة الأهداف السابق ذكرها. وبدأت بمشكلة كيف يتم تصنيف واختيار وتنظيم البيانات الإمبيريقية عن طريق

استخدام أنواع مختلفة من الترميز. وكان النموذج الأساسي الذي عرضت له في حديثي هو النصوص المدونة للمقابلات المتعمقة، وإن كان يمكن -من حيث المبدأ- تطبيق نفس الاجراءات والأساليب على مواد إمبيريقية أخرى كالمصادر الوثائقية أو حتى البحوث المسحية. و أوضحت أنه من المفيد التمييز بين الترميز الأولي والترميز المؤقت، وترميز المفاهيم الرئيسية والثانوية. وتتوقف الفائدة المترتبة على اجراءات الترميز هذه على مدى قدرتها على استيعاب جوانب النظرية العامة الشكلية السابقة والاندماج معها، كما يتوقف في نفس الوقت على حساسيتها تجاه ظهور الرموز والمفاهيم، لأنها تتأثر بالبيانات الجديدة المتحصلة من البحث المستمر. ثم انتقلت بعد ذلك إلى التساؤل حول كيف يمكن تشييد نظرية بالاقتران مع تحليل وامعان النظر في البيانات بصفة عامة. وهنا أوضحت بالاستعانة مرة أخرى بالنصوص المدونة للمقابلات المتعمقة- أن عملية كتابة التقرير يمكن أن تسخر لخدمة الهدف من توليد النظرية. ولاحظت في هذا الصدد أن كتابة التقارير النظرية تقوم على تنوع المصادر والمهارات فيما نقوم به من جهد لبناء النظريات الجديدة. وتتبع بهذه المناسبة- تطور مفهوم "اسلوب اختيار فريق العمل" خلال الحديث عن التقارير النظرية المفصلة. وقد فسر ذلك الطريقة التي يمكن من خلالها تطوير المفاهيم، والأفكار النظرية بفضل الجمع بين الانشغال المباشر بالبيانات الإمبيريقية، وتطبيق الخيال النظري على النحو الذي تطرحه القراءات السابقة، والاطلاع على المواد النظرية.

وعرضت أخيرا سهولة وفاعلية استخدام المدخل المتعدد الاستراتيجيات لتسهيل عملية توليد النظرية. وذهبت إلى أن استخدام العديد من المصادر، والمناهج، والاستراتيجيات، وأنواع البيانات يخلق نوعا من التآزر الدينامي الذي يحقق الحد الأقصى من فعالية استخدام المصادر، ويشجع بقوة على التوصل لنظرية. ومن شأن ذلك أن يعمل في نفس الوقت على زيادة امكانيات الكشف بالمصادفة عن بعض الحقائق الهامة، ومن ثم التوصل إلى نظريات جديدة. لقد ركزت في ثنايا حديثي على مميزات إدماج المصادر المتعددة للبيانات، وأساليب جمع البيانات، والتحليل التاريخي، وسحب العينة في ضوء نظرية، وكذلك على أهمية المقابلات الأساسية، والترميز، والتقارير،

والصلات بين المفهوم والمؤشر. وذهبت في النهاية إلى أن تراث المناهج يتميز في التركيز على ترميطات الفعل، والترميطات السلوكية، وهذا يحتاج إلى أن يتوازن من خلال التأكيد على الترميطات البنائية أو النسقية.

الفصل الرابع

البحث الاجتماعي والصلات

بين المفهوم والمؤشر

يعد هذا الفصل بمثابة مرحلة انتقال على أساس الموضوعات المثارة في الفصلين الرابع والخامس. إذ يمكن القول -بتعبير بسيط- أن الفصل الثالث يركز على عملية الانتقال من البيانات إلى النظرية، بينما يأخذ الفصل الخامس الاتجاه المعاكس ويركز على التحول من النظرية إلى البيانات. ويأخذ الفصل الرابع موقفا وسطا حيث يركز على الصلات بين المفهوم والمؤشر (ومن ثم الصلات بين النظرية والبيانات)، وذلك من خلال وجهة نظر التقاطع الشكلي بينهما. والمشكلة -على أى حال- ليست مجرد مشكلة شكلية، إذ إن لها دلالات عملية بعيدة بالنسبة لصياغة مشكلات البحث، وجمع البيانات وتحليلها. إن تفهم طبيعة الصلات بين المفهوم والمؤشر تعنى وجود فهم راسخ للصلات بين الأفكار النظرية (المفاهيم، والاطر المرجعية، والتميمات) وبين المواد الإمبريقية (البيانات، والمعلومات) التي تعبر عنها. يضاف إلى ذلك، أن الوضوح فيما يتعلق بدلالات هذه الروابط يعد أمرا ضروريا لتفهم عملية البحث ذاتها فهما شاملا، وتفهم الصلات الأكثر تحديدا بين التنظير والبحث.

ولكى نفهم أهمية هذه المسألة، فمن الضروري أن ندرك أولا أن الصلات بين المفهوم والمؤشر تتم على مستويين، المستوى الداخلى (العميق) والمستوى الظاهري (السطحي) لجوانب عملية البحث. ويرتبط المستويان ببعضهما البعض بقوة، ولا يوجد أحدهما بمعزل عن الآخر. الغالب أن تحظى الجوانب الظاهرة باهتمام أكبر من كتب المناهج، والمناقشات المنهجية بصفة عامة. وهكذا، نجد على سبيل المثال، أن إقامة صلات بين مفهوم "العمل العاطفى المأجور"، وبين مؤشرات إمبريقية معينة للظاهرة -مثل سلوك الابتسام عند مضيئى الرحلات الجوية- يعد أمرا هاما فى ضمان نجاح مشروع البحث الذى يدور حول هذا الموضوع. وعلى كل، فإن الوقوف على

أن ذلك مؤشر إمبريقي يمكن الاعتماد عليه، وصادق ودقيق للمفهوم، يعد أمراً ضرورياً لإنجاز البحث على أفضل وجه. ومن المهم بنفس القدر على أي حال، فهم الكثير عن الجوانب الداخلية الكامنة لمشكلة الصلات بين المفهوم والمؤشر.

مشكلة الصلات بين المفهوم والمؤشر

تثير الجوانب العميقة لمشكلة الصلات بين المفهوم والمؤشر قضايا عامة عن طبيعة المجتمع والواقع الاجتماعي، وهي تثير بدورها أسئلة تتعلق بمدى صدق أو كفاءة المفاهيم المستخدمة في طرح أو وصف مختلف جوانب الواقع الاجتماعي. ويربطنا طرح الأسئلة المتعمقة بالقضايا النظرية العامة التي تعد هدف المناقشة الراهنة، مثل مشكلة العلاقة بين الفعل والبناء، أو العلاقة بين مستويات تحليل الوحدات الكبرى وتحليل الوحدات الصغرى لأشكال الحياة الاجتماعية. إن الفهم والتعمق في هذه القضايا ييسر التوصل إلى استخلاصات وتفسيرات أكثر قوة وشمولاً، وهو الأمر الذي يساعدنا - فضلاً عن ذلك - على التغلب على الفجوة الزائفة بين النظرية العامة والبحث.

وبهذا المعنى يتصدى هذا الفصل لمناقشة إحدى القضايا التي أثيرت في نهاية الفصل الثالث تتعلق بالفرقة بين التتميطات السلوكية (الفعل) والنسقية (البناء). ولقد أوضحت في ذلك المكان أنه كان يوجد للأسف اختلال في الاهتمام الموجه للتتميطات السلوكية (الفعل)، الأمر الذي أدى إلى إهمال أو تجاهل تتميطات النسق. وأود هنا أن أثير تلك القضايا في سياق مناقشة أوسع لطبيعة الواقع الاجتماعي، وأنواع المفاهيم التي نستخدمها في وصفها أو تناولها. وأرى أنه من الأهمية القصوى أن يتم فهم الواقع الاجتماعي على أنه متعدد الشرائح أو متعدد الأبعاد، وبالتالي فإن مصداقية أو كفاءة مفاهيمنا يجب أن يتم الحكم عليها في ضوء طبيعتها المتلونة. ويمكن أن أحدد - على سبيل الحصر - أربعة أنماط من الصلات بين المفهوم والمؤشر، التي تتصل مباشرة بالجوانب الروتينية للبحث الاجتماعي والتي يندر أن يناقشها الباحثون في كتب مناهج البحث.

وسوف أبدأ بالتركيز على مفهوم "أسلوب اختيار فريق العمل" الذى ناقشته بصورة أولية فى الفصل الثالث من هذا الكتاب. فبفضل دراسة معنى هذا المفهوم من حيث مؤشرات الإمبريقية فى الحياة الاجتماعية، أستطيع القول أنه يمثل نمطا محددا من الصلة بين المفهوم والمؤشر. وفى هذه الحالة يعد مفهوم "أسلوب اختيار فريق العمل" نموذجا لما أطلق عليه اصطلاحيا "المفهوم الوسيط" (أو المفهوم الجسر)، ويمكن تمييزه عن النمطين الآخرين الأساسيين اللذين أطلقت عليهما المفهوم السلوكى أو النسقى. ثم أحاول فى الخاتمة أن أركز على النمط النهائى من العلاقة بين المفهوم والمؤشر بمناقشة المفاهيم التنظيرية، وهى تلك المفاهيم المستمدة من النظرية العامة أو الاطار المرجعى النظرى، وهنا أرى أن دورها فى التحليل الاجتماعى لم يلق حقه من التقدير، وأنها ذات دلالات مباشرة لاجراء البحث الاجتماعى. ثم اختتم الفصل ببعض النصائح العملية المتعلقة بالطريقة التى يتم من خلالها إدراك كيف أن هذه القضايا تضيف إلى نوعية القوة التفسيرية، والممكنة لكل من التنظير والبحث الاجتماعى.

المفاهيم والبيانات والقضايا المعرفية

من المهم أن ندرك وأن نقيم إيجابيا ذلك الكم النظرى السابق الذى نستدعيه لى نستخدمه فى تحليل البيانات، وذلك بقدر ما يسعنا استخدامه بطريقة منظمة كدليل لتشييد النظرية. وان كان من المهم بنفس القدر أن ندرك المكانة المعرفية للمفاهيم التى نستخدمها (مصادقيتها، وكفاءتها) وكيف ترتبط بالبيانات أو بطبيعة الواقع الاجتماعى محل التحليل (أى امكانتها الأنطولوجية). وفيما يتعلق بذلك أود التركيز على أمور تتصل بمشكلتين من أهم مشكلات التحليل السوسيولوجى وهى: العلاقات المتبادلة بين الفعل والبناء، ومستويات التحليل الماكرو والميكرو (الواسعة والمحدودة النطاق). إن ما سبق أن ذكرته عن مفهوم "أسلوب اختيار فريق العمل"، والطريقة التى تولد من خلالها يعد مقدمة مفيدة لهذه المشكلات، وكذلك لمسألة كيفية ارتباط تحليل البيانات بتلك المشكلات ارتباطا قويا وعميقا. ولهذا سوف أبدأ بمناقشة المكانة المعرفية والأنطولوجية لمفهوم "أسلوب اختيار فريق العمل"، واستخدمه كوسيلة للتمييز بين ثلاثة أنماط من المفهوم التحليلى. بعد

هذه النقطة سوف تصبح المناقشة أكثر عمومية، كما ستعتمد على كم كبير من البيانات والأمثلة المستمدة من البحث الإمبريقي.

إذا افترضنا أن مصطلح "أسلوب اختيار فريق العمل" -على نحو ما حددت عملية ظهوره من قبل -، مستمد من مصطلحين آخرين محددين، هما بالتحديد اختيار فريق العمل على نحو متوافق مع النمط، والاختيار المخالف للنمط، عندئذ نستطيع أن ندرك أنه نتاج عملية تحول معرفي. ومعنى ذلك أنه بمجرد أن يتشكل مصطلح "أسلوب اختيار فريق العمل" فإنه يصبح مصطلحا تحليليا (شكليا - وسوسيولوجيا) يختلف تمام الاختلاف عن التوظيف اليومي بواسطة الفاعلين (الاجتماعيين) -على المسرح الاجتماعي- إذا استخدمنا تعبير شوتر (١٩٧٢). وقد أدى تعريف السوسيولوجي واستخدامي لمفهوم "أسلوب اختيار فريق العمل" إلى إضافة وحذف بعض المعاني والإشارات الموجودة في الاستخدام الواقعي والفعلي لمفهوم اختيار فريق العمل وفقا للنمط، والاختيار المخالف للنمط. وتتمثل الإضافة في الإشارة - إلى أساليب المسؤولين عن اختيار فريق العمل، وعملية تسهيل توزيع وتنسيق الممثلين في سوق العمل قد أثر في التمييز إلى حد كبير (بالرغم من أنه لم يكن كليا) بين المفهوم وبين معاني وتعريفات الفهم البدهي، اليومي، والذاتي التي يستخدمها أبناء المهنة. كما فصلها المفهوم (وإن لم يكن كليا أيضا) عن الروايات المحلية التي تميز الخبرات المعاشة للمنتمين إلى هذه المهنة.

وهكذا نرى أن مفهوم "أسلوب اختيار فريق العمل" لا يمكن تعريفه بالاعتماد فقط على ممارسات الأعضاء الفجة والضحلة (على عكس مفهومي الاختيار المتوافق مع النمط، والاختيار غير المتوافق مع النمط). فمفهوم "أسلوب اختيار فريق العمل" ذاته -باختصار- قد لا يدركه الممثلون أو القائمون باختيار فريق العمل إلا إذا تم شرح معناه السوسيولوجي لهم أولا. ومن شأن ذلك -كما أشرت من قبل- أن يميز المدخل الذي أدافع عنه عن مداخل أنصار التفاعلية الرمزية، والفينومينولوجيين، والاثنوميثودولوجيين، ممن يقصرون اهتماماتهم بصورة قطعية (دوجماتيقية) على المعنى والفهم الذاتي الداخلي والممارسات المحلية الماهرة (هليبرت، ١٩٩١)، أو الروايات المحلية (دنزين، ١٩٩٠). إذ أن مثل هؤلاء المؤلفين لم يتعرضوا لأهمية

السمات الموضوعية البنائية والاجتماعية (أو النسقية) للعالم الاجتماعي، ورفضوا المفاهيم التي تصور هذه الجوانب بطريقة ما، والتي ليست نتيجة لذلك - مفهومة أو ذات مغزى بالضرورة للمبشرين. على الرغم من أن مفهوم "أسلوب اختيار فريق العمل" (ومفاهيم أخرى مثله) لا يتفق بالضرورة مع تعريفات ومعاني وروايات أبناء المهنة، إلا أنه مع ذلك يصف ويحلل العوالم السلوكية اليومية للناس المرتبطين بها (وهم في هذه الحالة أساسا القائمون باختيار فرق العمل، وكذلك الممثلين أيضا).

وأود أن أطرح هنا أمرين أساسيين. الأول، أن مفهوم "أسلوب اختيار فريق العمل" مفهوم تركيبى يمزج ما بين خبرة المبحرين الذاتية للعالم، وبين ميول واتجاهات الباحث التحليلية والمتعلقة بالمفاهيم. ثانيا، بعد اجتياز مثل هذا التحول لم يعد المصطلح مجرد مفهوم سلوكى يتحدد ذاتيا (من وجهة نظر سلوك هؤلاء الذين يطبق عليهم). ولكنه سيظل بالضرورة مفهوما سلوكيا لدلالاته الذاتية، ولكنه الآن يصبح ذا مكونات تحليلية عقلانية وشكلية استوعبت وتجاوزت الخبرات المعاشة لهؤلاء الذين يطبق عليهم. ولا أعنى بذلك أن المفاهيم العامة عن الاختيار المتوافق مع النمط، والاختيار المخالف للنمط قد أصبحت غير ذات جدوى نتيجة استتباط هذا المصطلح الجديد. بل العكس هو الصحيح تماما، لأنها تشير إلى أشياء مختلفة كل الاختلاف. بل أنا أذهب إلى أن مفهوم "أسلوب اختيار فريق العمل" يملأ فراغا في المفاهيم يتعلق بالدلالات السلوكية غير الممثلة أو غير الموجودة في الفهم البدهي العام، أو في فهم الحياة اليومية. ولهذا يجب النظر إلى هذه المفاهيم على أنها موجودة جنبا إلى جنب المفاهيم التي يحددها المبحرون، لأنهما ليسا في موقف تنافسى حول نفس المجال الواقعى أو حول نفس المجال الدلالى.

والمهم على أى حال، أن تضيف مثل هذه المفاهيم إلى ما لدينا من معرفة عن ممارسات الحياة اليومية، لأنها موجودة (موثقة) في بيانات الحياة اليومية، على أساس أن هناك ما يطلق عليه "المفاهيم الحية". ويكمن الاختلاف في أن المفاهيم المركبة ليست موثقة - فقط - في البيانات المتعلقة بالخبرات المعاشة، أو الروايات المحلية، ولكنها تعتمد - كذلك - على سلسلة من التفكير المنطقى، وأفضلية في التحليل تمنح تصورهما للسلوك محل البحث أساسا

مختلفا إلى حد ما (انظر: لايدر، ١٩٩٠). وبهذا المعنى تمثل هذه المفاهيم مزيجا متفردا من عناصر يحددها الباحث، وعناصر محددة شكليا تجعلها متميزة من الناحية المعرفية (الانطولوجية).

ونلاحظ أن التفرقة بين هذه الأنواع من المفاهيم قد اتسع نطاقها طالما أنها تمثل فضلا عن ذلك- مزيجا من عناصر الجوانب المختلفة للواقع الاجتماعي. فهي على سبيل التحديد تهتم أساسا بالتأليف بين بعض جوانب الفعل الاجتماعي الفردي بما فيها العالم الذاتى الداخلى للتفاعل الاجتماعي- والجوانب غير النشطة لإعادة انتاج العلاقات والممارسات الاجتماعية التى تؤسس الأوضاع والسياقات التى يتم من خلالها ممارسة الأنشطة الاجتماعية (انظر: لايدر، ١٩٩٧). وللإختصار -سوف أشير- متبعا فى ذلك هابرماس (١٩٨٤، ١٩٨٧) إلى الجانب الأخير على أنه النسق الاجتماعي (أو البنائى). ولذلك فإن نمط المفهوم الذى يعد "أسلوب اختيار فريق العمل" مثالا له يمزج بين الفعل والانساق فيما يتصل بجوانب كل منهما التى ترتبط ببعضها البعض بقدر متساو. وبهذا المعنى أرى أنها مفاهيم وسيطة تمثل الصلات أو الروابط بين هذه الجوانب الأساسية من الواقع الاجتماعي.

وينعكس ذلك فى مفهوم "أسلوب اختيار فريق العمل" بقدر ما يمثل مزيجا من كل من بعض الترتيبات السلوكية الحقيقية، والقرارات، والأفعال المتصلة باختيار فريق العمل، وكذلك يمثل جزءا من نسق القوة والتحكم والتوزيع الذى يدعم البناء الهرمى المنظم لسوق العمل. ان قوة وسيطرة القائمين على اختيار فرق العمل ليست مستمدة من قدراتهم الشخصية (على الرغم من أنهم يمتلكون -ولاشك- قوى شخصية أيضا. انظر: لايدر، ١٩٩٧). ولكنها مستمدة من أساليب العمل فى سوق العمل، والممارسات المنظمة (التي يعاد انتاجها) التى تترتب على نظام توزيع العمل فى سوق عمل التمثيل. وتتسم هذه القوة بحكم كونها كذلك- بأنها مترسخة فى جزء كبير منها (ولكن ليس بشكل كلى) بصورة منتظمة، ومتولدة تاريخيا عن ممارسات أجيال سابقة أو جماعات من الناس الذين سبق أن مارسوا اختيار فرق العمل والانتاج المسرحى بصفة عامة.

وهكذا، فإن سلوك (أو ممارسات) القائمين على اختيار فرق العمل لا بد أن يفهم على أنه ليس مجرد نتاج لقدراتهم التفسيرية، وعمليات التفاعل الشخصى التى ينخرطون فيها. وإنما الجانب الأكبر من سلوكهم ليس سوى نتيجة للقوة والسلطة التى يمارسونها نتيجة لأوضاعهم فى سلسلة من العلاقات الاجتماعية التى يعاد انتاجها والكامنة فى داخل سوق العمل المنظم. ويعد الوضع الاجتماعى للقائمين على اختيار فرق العمل كوسطاء بين تأثير قوى السوق، والنتائج المترتبة عليها بالنسبة للمستقبل المهنى للممثل بصفة عامة (والنجاح المهنى للممثل الفرد بصفة خاصة)، يعد هذا الوضع علامة مميزة لدورهم البارز فى التنظيم المهنى. كما يحدد أيضا ثنائية الدلالة التى يوضحها مفهوم "أسلوب اختيار فريق العمل".

أنماط الصلة بين المفهوم والمؤشر

حاولت فى الفقرة السابقة أن أصف نوعا من المفاهيم، من واقع نموذج معين هو مفهوم "أسلوب اختيار فريق العمل" الذى يمكن القول بأنه يحتل مكانا متميزا ووسيطا بين تعريفات المبحوثين (أو تعريفات الجمهور غير المتخصص) من ناحية وتعريفات القائمين بالتحليل الاجتماعى من ناحية أخرى، كما يمثل صلات حاسمة بين جوانب كل من السمات النسقية، والشخصية للحياة الاجتماعية. واستنادا إلى هذا التوضيح أود أن أوضح هنا أن مثل هذه المفاهيم الوسيطة تمثل فى الواقع أرضية وسطا (مشتركة) بين نوعين آخرين من المفاهيم ومؤشراتهما الإمبريقية التى سوف أطلق عليها المفاهيم السلوكية والمفاهيم النسقية (أو البنائية). وأمل بذلك أن أوضح أنه على الرغم من أن التفرقة بينهما هى فى الأساس لمجرد التأكيد - وأنهما لا يظهران انفصالا تاما أو مطلقا - بل هما على العكس يتسمان بوجود حقيقى فائق من حيث أنهما يلقيان الضوء على فروق مهمة فى الواقع الاجتماعى. كما أنهما يوضحان اختلافات مهمة فى الأساس المعرفى لمفاهيم معينة عند ربطها بالعالم الإمبريقى (الصلات بين المفهوم والمؤشر)، ومن ثم تكون لهما دلالات بعيدة بالنسبة للطريقة التى يمكن خلالها استخلاص النظرية من البحث الاجتماعى.

ومسألة التأكيد مهمة، لأننى لا أريد أن أخلق انطبعا بأنها المفاهيم الوسيطة هي وحدها التي تمزج بين الجوانب النسقية والجوانب الشخصية في الحياة الاجتماعية. وقد يعد البعض ذلك حقيقة تحولا واضحا عن موقفى السابق الخاص بتميز بعض المفاهيم مثل "أسلوب اختيار فريق العمل". المهم أن وجهه نظرى لا تذهب إلى القول بأن المفاهيم الوسيطة هي الوحيدة التي تربط بين الجوانب النسقية والشخصية. فالحقيقة أن كل المفاهيم عن العالم الاجتماعى تتضمن قدرا من الإشارة إلى كل من هذين العنصرين. ومع ذلك، فإن السمة المميزة لهذه الأنماط الثلاثة من المفاهيم - التي أود أن ألفت الانتباه إليها هنا- أنها تتصل بكل عناصر الحياة الاجتماعية بدرجات متفاوتة وبطرق مختلفة في جوهرها. وأرى أن كل المفاهيم عن العالم الاجتماعى تتضمن إشارة إلى كل من الفعل والانساق (البناءات)، لأن هذين الجانبين من جوانب الحياة الاجتماعية مرتبطان ببعضهما البعض بصورة لا سبيل للخلاص منها، أو كلاهما واقع في حباتل الآخر بعمق كما يقول جيدنز (١٩٨٤). ويعنى ذلك أن تأثيرات كل منهما لا يمكن أن تكون منفصلة تماما عن بعضها البعض، لأنهما مترابطان معا، وبالتالي يؤثران في بعضهما البعض بصورة مستمرة. وإن كان التباين الحاسم بين موقف جيدنز وموقفى هي أننى أعتقد أن تأثيرات الفعل والانساق على الأنشطة والممارسة الاجتماعية تتسم بالتنوع وتتوقف على التأثير النسبى للجوانب المختلفة للحياة الاجتماعية (أو المجالات كما أسميها) (انظر: لايدر، ١٩٩٧) في محطات مختلفة عبر الزمان والمكان الاجتماعى. هذه العوامل المتغيرة تنعكس في أربعة أنماط من المفاهيم موضحة في جدول رقم (٤-١).

جدول (٤-١)

الصلات بين المفهوم والمؤشر

نمط المفهوم	جانب الواقع الاجتماعى
المفهوم السلوكى	أنماط المشارك (السائح للجنس، السجين، صاحب السلك المهنى)، الوقائع التى تدور بين الأشخاص، السلوك والاتصالات، الهوية الذاتية، الاتصال المباشر (تفاعل الوجه للوجه)
المفهوم النسقى أو البنائى	العلاقات الاجتماعية المعاد انتاجها، الممارسات، المراكز، أوضاع وسياقات السلوك: البيروقراطية، الاسواق، أنماط التنظيم. علاقات قوة الأساس فى ذلك
المفهوم الوسيط (أو المفهوم الجسر)	أ- المرجعية المزدوجة: الموضوعية - الذاتية، السلك المهنى، العمل العاطفى المأجور. ب- سلوك الفاعلين الاجتماعيين الذين يمارسون مهمة التحكم والوساطة: أسلوب اختيار فريق العمل. ج- العلاقات الاجتماعية المتأثرة بالنسق تأثرا فائقا: الاغترابية، والمحسوبية.
المفاهيم العامة أو النظرية	أى جانب من الجوانب السابقة.

١ - المفاهيم السلوكية.

تتميز ما أسميته اصطلاحيا المفاهيم السلوكية بنطاق واسع إلى حد ما من التطبيق أو الصلاحية للاستخدام، وربما تعد أكثر المفاهيم شيوعا في الاستخدام في البحث الاجتماعي. ويتم التمييز بين الأنماط المختلفة للمشاركين في انواع معينة من الأنشطة الاجتماعية-على سبيل المثال السائح للجنس (أوكونيل دافيدسون، ١٩٩٥) أو الظروف الاجتماعية كما في دراسة جيومباردو (١٩٦٦) عن تصنيف السجينات. كما أن هذا المفهوم يمكن أن يشير أيضا إلى طبيعة و/أو نوعية العلاقات بين الأشخاص في مواقف معينة والمعاني والتفسيرات التي يخلعها الناس عليها. من ذلك دراسة كليجي وستاندن وجونز (١٩٩٦) التي قدموا فيها وصفا للتفاعلات بين الموظفين والعملاء مع البالغين الذين يعانون قصورا بالغا في القدرات التعليمية (انتج تصنيفات المانح، صانع المعنى، تبادلي، رفيق) وجميعها تركز على الاشباع العاطفي والمعرفي الذي تحققه أنواع مختلفة من العلاقات و التفاعل. وتطرح دراسة بريور (١٩٩٠) عن أساليب الاتصال المميزة لأعضاء شرطة أولستر الملكية (وهو الذي يثمر مفردات المهارات، والإيمان بالقضاء والقدر، والروتينية) التي تساعد على التعامل مع المواقف الخطيرة والضاغطة من خلال جعلها أمورا طبيعية تطرح شكلا آخر من المفهوم السلوكي. وفي هذا المثال تمثل مفردات الكلام أشكالا متميزة من الاستجابة للبيئة الخطرة تفرضها الممارسة المهنية.

والمهم في المفاهيم السلوكية أنها تصف لنا بصورة مباشرة بعض جوانب سلوك المشارك واتجاهاته، وتتضمن إشارة إلى هويته وإلى نوعية ومعنى العلاقات التي يدخل فيها المشارك. وعلى الرغم من أن هذه المفاهيم يمكن أن يتم تحديدها من جانب المبحوث أو من جانب القائم بالملاحظة، فهي في كل الحالات يجب أن تتوافق بقدر معين مع معيار "الملاءمة الذاتية" (انظر: بريون، ١٩٦٦). ويلاحظ أن بعض المعايير التي ذكرها بريون تتناول بعض القضايا المنهجية، مثل طول الفترة الزمنية التي استغرقتها دراسة الجماعة، ودرجة الألفة التي تحققت، وعدد نقاط التمييز المختلفة التي غطتها الدراسة. كل هذا له علاقة بالمساعدة في ضمان ملاءمة أو صدق المفاهيم التي يتوصل

إليها الباحث كنتيجة لبحثه. وهناك معايير أخرى تركز على الملاءمة الذاتية المتصلة بمدى ألفة الباحث بلغة الجماعة وقدرته على التواصل مع أعضاء الجماعة. فمثل هذه العوامل تؤثر على قدرة الباحث على أن يصور بكفاءة وبدقة الخبرات المعاشة لهؤلاء الذين يدرسونهم، كما تنعكس في المفاهيم الأساسية التي يستخدمها لوصفهم ووصف سلوكهم.

وهذه المعايير قريبة من تلك التي أكد عليها جلاسر وشتراوس (١٩٦٧) حينما أصرا على أن المفاهيم والنظرية يجب أن تتلاءم مع بيانات الأفراد موضع الدراسة وتتصل بحياتهم. كما يتعين إلى جانب ذلك أن تكون المفاهيم قريبة للفهم، وذات معنى، ومفهومة لأولئك الأفراد موضوع الدراسة (حتى وإن لم يكونوا يستخدمونها بصورة متكررة). من ذلك مثلا تصنيف جلاسر وشتراوس (١٩٦٥) لسياقات الوعي المحيط بالمرضى المحتضرين (المخلق، المفتوح، التظاهر المتبادل، والاحساس بالشك) ليست من نوع المسميات أو الأوصاف التي تستخدمها عائلات المرضى أو أعضاء الفريق الطبي أنفسهم. وقد أكد جلاسر وشتراوس -على أي حال- أن صدق مثل هذه المفاهيم يتوقف بصورة أساسية على إجماع الناس على معناها ودلالاتها بالنسبة لخبراتهم ومعانيهم وسلوكياتهم، وقدرتها على التعبير عنهم. ولكن فكرة جلاسر وشتراوس أن المفاهيم الشكلية (كتلك التي تصف سياقات الوعي) لا يتعين أن يحددها أو يستخدمها بالضرورة أولئك الذين تشير إليهم بعد خطوة مهمة إلى الأمام حققها هؤلاء الذين يرون بقوة (أمثال: بريون، ١٩٦٦) ودراسة بيكر في كتاب روك، ١٩٧٩) أن هذه المفاهيم لا تبتعد بشكل ملحوظ عن المفردات العامة للمشاركين. وإن كانوا يتمسكون بقصر توصياتهم على المفاهيم الموثقة التي يجب أن تكون مفهومة وذات دلالة ومعنى بالنسبة للأفراد موضع الدراسة.

وعلى حين تلعب كل من معايير الملاءمة الذاتية تلك دورا مهما في تحديد صدق أو كفاءة المفاهيم السلوكية، فإنه من المهم أن أميز هنا بين موقفى الذى أعرض له هنا، وبين الموقف العام لكل من جلاسر وشتراوس وغيرهما ممن يؤمنون بنفس الفكرة. والفرق الحاسم هو أن الموقف الأخير يقصر كل مفاهيم البحث على تلك التي تتوافق مع معايير الكفاءة الذاتية، على

حين أرى أن الكفاءة الذاتية تقتصر في التطبيق إلى حد كبير على المفاهيم السلوكية. كما أرى فضلا عن هذا أن الباحثين يستطيعون -بل ينبغي عليهم- أن يستفيدوا بالمثل من أنواع أخرى من المفاهيم (النوع النسقي والنوع الوسيط)، أو إلى جانب المفاهيم السلوكية، ليس فقط لتعظيم القدرة النظرية، وإنما لكي نضمن كذلك أن كل جوانب الحياة الاجتماعية قد أخذت في الاعتبار. والرأى عندى أن نطاق الاهتمامات البحثية المشروعة يجب أن يكون أكثر شمولاً من تلك التي طرحها جلاسر وشتراوس (١٩٦٥) أو برون (١٩٦٦) أو بيكر (فى كتاب روك ١٩٧٩)، والذين يلتزمون بتصوير تفسيرى (انسانى أو فينومينولوجى) لطبيعة التحليل والبحث الاجتماعى.

إن الموقف الذى أدافع عنه هنا واقعى إلى حد كبير (لايدر: ١٩٩٠، ١٩٩٣)، بمعنى أنه يذهب إلى أن الواقع الاجتماعى لا يتكون فقط من معانى الفاعلين، أو صور الفهم الذاتى، وإنما هناك عوامل نسقية (أو بنائية) تمارس تأثيراً فعالاً على طبيعة الخبرات المعاشة للناس. كما يلاحظ أن تأثير الجوانب السلوكية والنسقية للحياة الاجتماعية على بعضها البعض تأثير متبادل، وتتسم آلياته ومؤثراته بأنها متداخلة تداخلاً عميقاً. فمن ناحية، تعتمد العوامل النسقية على إعادة إنتاج أنشطة الناس لضمان استمراريتها فى الزمان والمكان، بينما الخبرات الذاتية والنشاط الاجتماعى تتأثر إلى حد كبير بل وتتشكل وتتصاغ بواسطة نفس العوامل النسقية، التى تساعد هى نفسها على إعادة إنتاجها باستمرار من خلال التفاعل والروتين الاجتماعى الذى يشتركون فيه. ولهذا يجب على البحث الاجتماعى أن يحاول تتبع الكيفيات التى تأتلف فيها العوامل الذاتية والموضوعية معاً، ويؤثر كل منهما فى الآخر بصورة تبادلية.

وبهذا المعنى فإن كل المفاهيم النظرية الوثيقة الصلة بمحتوى البحث تشير إلى كل من الفعل وجوانب الأنساق، ولكنها تختلف فى مدى الصلة بالجوانب المتميزة - ولكن المتداخلة - للحياة الاجتماعية. وهكذا، فإن المفاهيم السلوكية تعد -بمعنى نسبى- أكثر اهتماماً بجانب الفعل فى المعادلة، حيث أنها تركز على وصف العوالم السلوكية والخبرات الذاتية المعاشة للأفراد موضع الدراسة. ولهذا نجد أن أهمية الفهم الذاتى والكفاءة الذاتية تلعب بصورة أوتوماتيكية دوراً كبيراً فى الحكم على مصداقية مثل هذه المفاهيم.

وان كان يلاحظ من وجهة موقفي الواقعي الذي أحاول أن أعرضه هنا، أن البحث الاجتماعي والمفاهيم التي تنبثق منه من الضروري أيضا أن تكون متضمنة في المفاهيم التي تسجل تأثيرات العوامل النسقية. وذلك لأن النشاط الاجتماعي والخبرات الذاتية أو المعاشة لا يمكن أن تتحرر تماما من تأثير الظروف الاجتماعية، والعوامل البيئية التي تشكل عناصر النسق الاجتماعي. وهكذا نجد - وخاصة بالنظر إلى المفاهيم الأخرى - أن معايير الكفاءة الذاتية لا يمكن أن تكون معايير حاسمة أو تكون المعايير الوحيدة التي يمكن وضعها في الاعتبار.

وحتى فيما يتعلق بالمفاهيم السلوكية، فإن الصدق لا يمكن أن يخضع ببساطة لمعايير الكفاءة الذاتية وحدها، حتى وإن كان الأمر كذلك بالفعل إلى حد كبير، إذ يتعين أن يكون هناك دائما نوع من التقارب مع المعايير التحليلية الشكلية المتصلة بصدق المفاهيم النسقية أو الوسيطة. ذلك هو المفهوم الذي يبدو أنه يصور بأمانة عوالم موضوع البحث (الحكايات المحلية، وأحداث الجماعات المقهورة)، ولكن ذلك لا يضمن بالضرورة صدق أو كفاءة هذه المفاهيم، خاصة إذا تعارضت بصورة واضحة وصريحة عند دراسة الجوانب الأعم والأشمل للوضع والسياق الاجتماعي. ربما كانت النقطة المهمة التي يتعين أن يعيها الباحث الذي يريد أن يولد نظرية من البيانات هي أن المؤشرات الإمبريقية للمفاهيم السلوكية يجب أن توضح - في المقام الأول - عوالم الناس الذاتية، ولكن من وجهة نظر عين من الداخل إلى حد كبير. ولا شك أن ذلك يتطلب محاولة رسم أو وصف الخبرات الاجتماعية للمبحوثين من وجهة نظر ذاتية، وأنه يجب أن تسجل المفاهيم ذاتها النسيج الداخلي لهذه الخبرة المعاشة بطريقة تسمح لمن يستخدموها أن يفهموها. وإن كان يتعين كذلك أن تتسجم هذه المصطلحات مع المعرفة بالظروف الاجتماعية الأعم التي تتحقق في إطارها الخبرة الاجتماعية.

٢- المفاهيم النسقية أو البنائية.

لكي نوفر للمفاهيم النسقية سمة الوضوح (أو بعبارة أكثر تطرفاً لكي نضمن الاعتراف بها) ربما يتعين النظر إليها باعتبارها نوعاً من مفهوم غير سلوكي. بمعنى أن تلك المفاهيم تشير بالدرجة الأولى إلى العلاقات الاجتماعية المعاد إنتاجها التي تمثل الظروف التاريخية الجديدة في مجتمع مستمر. إن القول بأنها ظروف قائمة لا يعني أنها ساكنة أو غير متغيرة، أو أنها تقع على نحو ما خارج نطاق وخارج تأثير البشر الفاعلين. ومن أمثلة ذلك التنظيمات، واللغة، والثقافة، ومختلف أشكال المعرفة التي تخضع جميعها لقوى التغيير الصادرة عن الأفراد والجماعات الاجتماعية، ولكنها مع ذلك تواجه أفراداً أو جماعات معينة بوصفها نتاجاً لأجيال سابقة (أنظر: مؤلف ماركس وإنجلز، ١٩٦٨). وبهذا المعنى، فإنها تواجه الناس في حياتهم اليومية بوصفها ظروفًا اجتماعية تشكلت بالفعل. وهي حسب تعبير بوبر (١٩٧٢) لها وجودها الموضوعي (أو تمثل عالماً ثالثاً) المستقل عن المبحوثين العارفين (أو المشاركين). وفي رأيي، أنها تتميز بوجود مستقل نسبيًا عن الممارسات الاجتماعية الروتينية، التي ينخرط فيها الناس بصورة منتظمة (لايدر، ١٩٩٧).

وبرغم هذه الخصائص الأنطولوجية العميقة التي تتسم بها، فإن هذه الظروف القائمة ليست ظروفًا ساكنة (استاتيكية). فهي توجد بشكل تكاملي داخل العمليات الاجتماعية. فهذه الظروف -أولاً- تمارس تأثيرها في الحقيقة بوصفها نتيجة لعمليات تاريخية طويلة المدى للتغير الاجتماعي، سواء على المستويات الكبرى (الماكرو) أو المتوسطة النطاق للواقع الاجتماعي. ومن المهم أن الجوانب المختلفة لأوضاع وسياقات (الظروف القائمة) للنشاط الاجتماعي متباينة في مقاومتها وفي تأثيرها بالتغير من خلال أنشطة الأفراد والجماعات المؤدية إلى التحول أو التغير. ويرجع ذلك إلى أنها تختلف فيما يتعلق بدرجة الرسوخ عبر الزمان (التمسك بالتاريخ والتقاليد)، ومدى القابلية للانتشار في مجتمعات معينة، وإلى أي مدى تتعرض لأشكال القوة والسيطرة الموجودة والمستقرة.

ثانياً، على مستوى النشاط القائم، هناك دائماً عدد من العمليات الانتاجية يقوم من خلالها الأفراد بخلق معان وأشكال من الفهم محددة (وخاصة بهم) والتي توجد بعمق داخل عملية إعادة انتاج الأشكال الاجتماعية الأكبر (المواقف والسياقات) التي تشمل ضمن ما تشمل الظروف القائمة. كما أنه من المهم أن نذكر أن الغالبية العظمى من هذه الجوانب الإبداعية للسلوك تظل محدودة النطاق فيما يتعلق بقدرتها على التغيير، بينما يكون مستوى الإبداع في عملية إعادة انتاج النسق في حده الأدنى من حيث القدرة على تغيير العناصر الراسخة للحياة الاجتماعية (انظر: لايدر، ١٩٩٧، الفصل الخامس)

ووفقاً لهذه الملاحظات الأخيرة، يتضح أن هناك عدداً من المعاني التي من خلالها ترتبط الجوانب النسقية للحياة الاجتماعية بالنشاط الاجتماعي والخبرة الذاتية. فهي أولاً، توفر المصادر والتسهيلات التي يعتمد عليها الناس في سلوكهم، كما يحدث في بعض مواقف التفاعل المباشر، التي ينخرطون فيها بصورة متكررة. وعلى العكس من ذلك تقدم الأنشطة الاجتماعية الروتينية "دم الحياة" لعناصر النسق باعتبار أنها تساهم في (ومن ثم تضمن) استمراريتها عبر الزمان والمكان، بينما تقوم -في نفس الوقت- بإعادة انتاج هذه الأشكال النسقية. والخلاصة أنه على الرغم من أن عوامل النسق (ومن ثم المفاهيم التي تعبر عنها أو توضحها) تقف بصورة ضئيلة -بمعزل عن الأنشطة الاجتماعية، والأفراد، والجماعات في المجتمع، فإن استقلالها عنهم أمر نسبي إذ أن جوانب النسق -كما سنرى- ترتبط بقوة بالأنشطة الاجتماعية والخبرة الذاتية. ولكن مع أن هذا الاستقلال النسبي ذا أهمية حاسمة، إلا أنه يخلق عالماً مختلفاً من ناحية مكانة المفاهيم التي نستخدمها لتحليل ملامح المجتمع تلك.

وهكذا، فإن عوامل النسق المسيطرة هي التي تدل على جوانب العلاقات الاجتماعية المعاد انتاجها، والتي استطاعت أن تمتد عبر الزمان والمكان، وبعيداً عن أنشطة التفاعل المباشر (التي تغذى في النهاية استمراريتها وإعادة انتاجها). وبهذا المعنى لا يمكن فهمها على أساس الدوافع، أو الأسباب، أو خبرات الناس الذاتية المعاشة، وإنما يتعين بدلاً من ذلك النظر إليها على أنها

جزء من الظروف التي تشكل البيئة الاجتماعية الأكبر للحياة والنشاط الاجتماعي. وتختلف وجهة النظر هذه عن مداخل مثل الفينومينولوجيا، والتفاعلية الرمزية، والنظرية الموثقة التي لا ترى أن هناك أى دور لجوانب الحياة الاجتماعية، بل هي تنكر في الواقع وجودها تماما، ولهذا ترفض فعالية المفاهيم التي تحاول أن تضع في اعتبارها هذه الملامح عن الحياة الاجتماعية. وفيما يتعلق بذلك، فإن مثل هذه النظريات والمداخل بالغت في ردود فعلها تجاه مفاهيم النسق، خشية أن تتضمن نوعا ما من تجسيد الحياة الاجتماعية، لأن ذلك يتجاوز قدرات الأفراد على إحداث التغيير ويفوقها. والملاحظ على أى حال، أن الرابطة الجوهرية بالنشاط الاجتماعي والخبرة الذاتية تجعل هذا الاحتمال خارج نطاق الوصف الراهن.

ومن السمات المهمة للجوانب النسقية للحياة الاجتماعية التأثير الطبيعي بعلاقات القوة والضبط والتحكم. فكل مجموعات العلاقات الاجتماعية المعاد انتاجها -كما تنعكس في أوضاع وسياقات النشاط الاجتماعي- تتشابه بصورة فائقة القوة مع القوى والممارسات التي تدعمها بطرق مختلفة، ولهذا ترتبط بنماذج مختلفة من القوة، وعلاقات القوة. وتدلنا نماذج المفاهيم النسقية -نفسها- بأنها تتباين عن بعضها تباينا بعيدا. إذ يشير بعضها إلى ظواهر (ماكرو) تشمل المجتمع في جملته كأنماط المجتمع الرأسمالية، والاقطاعية، أو حتى بعض أنماط مجتمع ما بعد الحداثة. ويشير البعض الآخر إلى نماذج متوسطة من التنظيم الاجتماعي، كالتضامن العضوى أو التضامن الآلى، والذي يرى دوركايم (١٩٦٤) أنه يشير إلى الطرق المختلفة التي يتماسك من خلالها المجتمع، أو بعض قطاعاته معا. ففي ظل التضامن العضوى يتحقق التكامل بين الناس بسبب عدم التماثل (الفردية)، وتكامل الأدوار والوظائف التي يقومون بها، بينما في ظل التضامن الآلى يؤدي التماثل أو التشابه إلى وجود روابط مستديمة (تكاملية).

وقد استخدم عديد من الكتاب هذه التفرقة -فيما بعد- لوصف وتفسير جوانب معينة في المجتمع. فعلى سبيل المثال استخدم برنشتاين (١٩٧٣) هذه التفرقة في وصف الاختلافات بين رموز الكلام السائدة بين طبقات اجتماعية وعائلات معينة. من ناحية أخرى يتحدث بيرنز وستوكر (١٩٦١) عن نظم

الإدارة الآلية والعضوية عند وصف صور التباين في مرونة التنظيم في شركات صناعية مختلفة، وفي ظروف السوق (على سبيل المثال، الشركات الإلكترونية في مقابل شركات التصنيع). فكل هذه الاستخدامات تشير إلى أنواع مختلفة من علاقات اجتماعية أعيد انتاجها، وكيف توفر الأوضاع والسياقات التي تتحقق في إطارها أنواع عديدة من السلوك والأنشطة الاجتماعية، ويتم الرقابة عليها وضبطها.

وقد أكد هابرماس (١٩٨٤، ١٩٨٧) مرارا أن موضوعات البيروقراطية والأسواق والقوة ربما تعد من أهم المحاور النسقية الرئيسية، وينعكس ذلك في أمثلة المفاهيم التي عرضنا لها آنفا. ومن النماذج الكلاسيكية الأخرى لمثل هذه المفاهيم - التي ترتبط بالتنظيم البيروقراطي - والتي تطالعنا في دراسة إيتزيوني (١٩٦١) التي ميز فيها بين أنماط القوة القسرية، والمكافئة، والطبيعية في التنظيمات، بينما يشير جولدنر (١٩٥٤) إلى ما يطلق عليه اصطلاحيا البيروقراطيات الصورية، والممثلة، والعقابية. وي طرح إدواردز (١٩٧٩) مثالا يتتبع فيه الظهور التاريخي للأشكال الحديثة للضبط البنائي (وهو ما أطلق عليه الضبط الفني والضبط البيروقراطي) في التنظيمات الصناعية، كما حدد أنماط الضبط التي كانت موجودة من قبل (الضبط الشخصي، والضبط الهرمي). ويصف لنا فوكو (١٩٧٧، ١٩٨٠) الأشكال الحديثة من القوة، بأنها قوة نظامية وقوة حيوية، وهي تمثل كذلك أمثلة لما اعتبره مفاهيم نسقية (على الرغم مما يقال عن وجود شك فيما إذا كان فوكو نفسه سيوافق على مسمى "نسقي").

إن المعاني والمؤشرات الإمبريقية التفصيلية لهذه المفاهيم ليست موضع اهتمامنا في اللحظة الراهنة. وإنما يهمننا بالأحرى الأساس المعرفي للمفاهيم وطبيعة الواقع الاجتماعي الذي تشير إليه، لأنه يمثل فصل الخطاب. إذ مع أنه يوجد دائما - كما ذكرت - ثمة رابطة بين الظواهر النسقية وسلوكيات الأفراد الذين يخضعون لتأثيرات تلك الظواهر (أي أن المفاهيم تدل على نفسها هكذا ببساطة) فإن النقطة المرجعية الأساسية لهذه المفاهيم ليست هي السلوك الاجتماعي في حد ذاته وحسب، وإنما العلاقات الاجتماعية المعاد انتاجها (والقوى والممارسات التي تعتمد عليها) هي التي تشكل الأوضاع

والسياقات الاجتماعية التي تتفاعل داخل السلوكيات الاجتماعية. ولهذا، فإن معايير الكفاءة الذاتية لا تستطيع أن تؤثر تأثيراً كبيراً في تأسيس هذه المفاهيم، وفي تحديد المعاني التي تنقلها. وهكذا، فإن قابلية مثل هذه المفاهيم لأن يدركها المشاركون أو مستخدموها لا تستطيع أن تحدد مصداقيتها.

هناك معايير أخرى مهمة تتعلق بالروابط المنطقية أو العقلانية (الرشيدة) بين هذه المفاهيم والمفاهيم الأخرى ذات الصلة بها، أو القدرة على استنباط قضايا إمبريقية منها، مثل سلوك الناس، أو وظيفة أنواع معينة من التنظيم الاجتماعي مثل أسواق العمل، أو المنظمات البيروقراطية. معنى هذا أن هذه المفاهيم لا تشير فقط إلى جوانب العالم الإمبريقي، ولكنها تنظم أيضاً في سلاسل من التفكير المنطقي التي ترتبط ببناء نظري أشمل، أو ببعض القضايا النظرية (ارجع في الفصل الأول إلى مناقشة أفكار ميرتون حول هذا الموضوع).

والنقطة الحاسمة فيما يتعلق بهذه السلسلة من التفكير المنطقي تتصل في الأساس بجهود الباحث القائم بالتحليل لوضع الظاهرة الإمبريقية في سياق فكري أشمل وأكثر عمومية وتجريداً. وهكذا، نجد على سبيل المثال، أنه على الرغم من أن عامة الناس يستخدمون مصطلح: البيروقراطية، فإن ما يقصده عالم الاجتماع بالبيروقراطية أكثر تحديداً، وهو في هذه الحالة يختلف تماماً عن الاستخدام العامي للمصطلح. ولذلك لا يمكن الاعتماد على استخدام العامة (غير المتخصصين) في الحصول على تعريف فني دقيق. فهذه المفاهيم يتحدد مدلولها من وجهة نظر الملاحظ في الأساس - وليس من وجهة نظر المشارك فيها.

يضاف إلى ذلك أن قضية الدلالة أو الصلة بالناس أو المشاركين تختلف عن المفاهيم السلوكية. فصدق المفاهيم النسقية أو البنائية ليس ولا يمكن أن يعتمد على المعايير المرتبطة بما إذا كانت ذات مدلول ذاتي للمشاركين، أو حتى ما إذا كان المشاركون يعتقدون أن هذه المفاهيم تشير إلى وقائع حقيقية في العالم الاجتماعي. من هذا مثلاً ما يذهب إليه بعض الكتاب من ذوي الميول الفينومينولوجية من أن المفاهيم لن تكون صادقة إلا إذا دخلت إلى

الحياة اليومية للناس، أو ترسخت فى الممارسات اليومية المحدودة والمحسوسة للناس (هيلبرت، ١٩٩٠). ولكن هذه الوجهات من النظر تقيد النطاق الإمبيريقى للظواهر التى يتناولها الباحثون بحق، كما تحد من نطاق تحليل وتفسير الظواهر الاجتماعية.

وسواء آمن الناس فعلا بالواقع الذى يشير إليه القائم بالتحليل (أو الملاحظ)، فانه لا يمكن الحكم على مدى صدق هذه المفاهيم. من هذا مثلا إذا كان الناس الذين يعملون داخل تنظيمات بيروقراطية يعتقدون أنهم يشاركون فى نظم القوة القسرية أو النظامية لا وجود لها هنا أو هناك فى ضوء معنى هذه المصطلحات يتعلق، أو فيما يتعلق بفائدتها فى تحليل أو تفسير قطاعات الحياة الاجتماعية التى تدل عليها. ويلاحظ فى هذا الشأن أن صدق مثل هذه المفاهيم يتحدد بدقة من خلال هذه المفاهيم، أى قدرتها على تفسير وتحليل الواقع الاجتماعى، وليس بالنظر إلى توظيفها فى الحياة اليومية، أو قدرتها على استثارة فهم يعتمد على حسن الاستخدام.

٣- المفاهيم الوسيطة.

نستطيع الآن فى ضوء تعريفات المفاهيم السلوكية والنسقية أن نفهم بمزيد من الوضوح دور المفاهيم الوسيطة. ويتم التمييز بين المفهومين السابقين (السلوكى والبنائى) فى ضوء الأهمية النسبية لمعايير الكفاءة الذاتية التى تتعارض مع معايير الكفاءة الموضوعية أو التحليلية، ووضوح الإشارة إلى الجوانب السلوكية فى مقابل الجوانب النسقية فى الحياة الاجتماعية. فى مقابل ذلك تطرح المفاهيم الوسيطة مزيجا متوازنا ومتآزرا - بصورة عادلة - من المفهومين. بمعنى أن مثل تلك المفاهيم (مثل مفهوم أسلوب اختيار فريق العمل) تركز على المؤثرات المشتركة للعناصر السلوكية والنسقية (أو البنائية) للحياة الاجتماعية بقدر متساو. ومن ثم تعكس هذه المفاهيم تأكيدا مزدوجا على تأثير الجوانب الموضوعية والذاتية للحياة الاجتماعية. وهناك ثلاثة أنواع كبيرة من الظواهر التى تشير إليها مثل هذه المفاهيم، أو التى تركز عليها الاهتمام.

أولاً، يتم التركيز عادة على الروابط المحددة بين الظواهر الموضوعية والذاتية. فمفاهيم مثل السلك المهني (انظر: هيوز، ١٩٩٧، وستينز، ١٩٧٠)، أو العمل العاطفي المأجور (هوخشيلد، ١٩٨٣) تندرج تحت هذه النوعية، فهي ثنائية الإشارة لكل من السلوك الذاتى، والظروف الاجتماعية الموضوعية التى تتم فى إطارها.

ثانياً، هناك بعض المفاهيم التى تشير إلى حقيقة أن أنواعاً معينة من الفاعلين الاجتماعيين أو الأفراد العاملين تحتل أوضاعاً استراتيجية فى مجال ضبط الحياة الاجتماعية، حيث أنهم يمثلون وسيطاً فى نقل تأثيرات الجوانب النسقية للحياة الاجتماعية. فأولئك الذين يشغلون مراكز السلطة أو التأثير فى مختلف التنظيمات والأوضاع ينخرطون -عادة- فى هذه الأنواع من المواقف، نذكر منهم -على سبيل المثال- مديرى الشركات، والوسطاء بأنواعهم، مثل النقاد، والوكلاء، ومديرى الأعمال الشخصيين، وأصحاب الأعمال، والمتخصصين من كل الأنواع. ويعد مفهوم "أسلوب اختيار فريق العمل" الذى يعبر عن الدور الوسيط للمسئولين عن اختيار فرق العمل فى مهنة التمثيل من هذه النوعية من المفاهيم تماماً، كما يتم تطبيق فكرة فوكو عن المراقبة على علاقات الضبط والمقاومة بين الاختصاصيين الاجتماعيين المتخصصين وعمالهم (انظر: بلور وماكينتوش، ١٩٩٠).

ثالثاً، هناك أخيراً مفاهيم تصف طبيعة العلاقات الاجتماعية التى تتأثر بدرجة كبيرة بالسّمات النسقية، ولكنها تعبر أيضاً عن طبيعة تفاعلات الناس ودوافعهم. وتعد تفرقة اتزيونى بين أشكال تفاعل المشاركين الاغترابية، المحسوبة، والأخلاقية فى التنظيمات أمثلة جيدة لهذه الأنواع من المفاهيم الوسيطة. ويمكن بصفة عامة، أن نفهم أن مثل هذه المفاهيم تمثل -بطرق مختلفة اختلافاً طفيفاً- كلا من الظروف الاجتماعية النسقية (الأوضاع والسياقات) الكائنة فى حياة الناس والأنشطة، كما تستطيع فى نفس الوقت أن تنفذ إلى جوانب معينة من سلوكهم وتصفها، كالتفاعلات، والاتجاهات، والدوافع، والعلاقات التى تعكس هذه الظروف بشكل بارز. ومن المهم فى هذا الشأن - أن نلاحظ أن كلا من معايير الكفاءة الذاتية والتحليلية (أو الموضوعية) تلعب دوراً فى تحديد مصداقيتها وفائدتها كأدوات تحليلية. بهذا

المعنى يتم الحكم على الصدق فى ضوء إشارات مزدوجة للمفهوم، أى المؤثرات المترابطة للكفاءة الذاتية والموضوعية.

٤- المفاهيم العامة أو التنظيرية.

وحتى يتم استكمال الصورة العامة سوف أتناول النمط الرابع من الصلة بين المفهوم والمؤشر الذى غالبا ما يهمله الباحثون التطبيقيون، حيث يعتقد أنه ميدان يخص المتخصصين فى النظرية الاجتماعية العامة. وهناك سبب آخر لذلك الإهمال، أنه عادة ما يتسرب دون وعى كجزء من المسلمات المسبقة التى يضعها الباحثون فى اعتبارهم قبل إجراء بحوثهم. وهكذا، يدعى بعض الباحثين أنهم ليسوا ملتزمين نظريا، أو أنهم يهتمون فقط بسلوك الأفراد الواقعى المحسوس، فى نفس الوقت الذى يعتمدون فيه على أفكار نظرية عامة لتأسيس فروضهم عن السلوك موضوع الدراسة. ربما تعد المفاهيم المستخدمة بهذا المعنى الأخير تحظى بأدنى اهتمام من وجهة نظر الاعتبارات الحالية، حيث يسود الاهتمام بالدرجة الأولى بالامكانيات النظرية النابعة من تحليل البيانات وان ظلت مهمة بالمعنى العام على أى حال. فأنماط المفاهيم التنظيرية الرئيسية هى تلك المشتقة من صلب نظريات، أو مداخل، أو مدارس فكرية.

فنظرية جينز (١٩٨٤) مثلا عن "الصياغة البنائية" مليئة بمفاهيم مثل "ازدواجية البناء"، و "الوعى المنطقى"، و "جدلية الضبط" وما إلى ذلك. وتتضمن نظرية هابرماس (١٩٨٤، ١٩٨٧) عن "الفعل الاتصالى" مفاهيم مثل "توطن عالم الحياة"، و "نظام ادارة وسائل الاتصال الجماهيرى"، و "الفعل الاستراتيجى". وتعتمد دراسة فوكو إلى حد كبير على مفاهيم مثل "الخطاب"، و "الممارسة" و "القوة/ المعرفة" ومفاهيم أخرى. أما نظريتي عن "المجالات الاجتماعية" (لايدر، ١٩٩٧) فتتضمن مفاهيم مثل "ثنائية العلاقات الاجتماعية"، و "جدلية الانفصال والترابط"، و "الوعى الأولى" وما إلى ذلك. وسوف أوضح فى الفصل الخامس من هذا الكتاب أنه يجب على الباحثين الاجتماعيين أن يعتمدوا بسهولة على الافادة من مثل هذه الفروض فى حساباتهم البحثية طالما أنها تعظم قدراتهم على احراز تقدم نظرى وتوليد

نظريات جديدة. وهنا أريد أن أركز على مكانة هذه المفاهيم باعتبارها تصويراً للواقع الاجتماعي، وتوضح -على نحو مؤقت- الطريقة التي يمكن بها الاستفادة منها في التوصل إلى مفاهيم وأفكار نظرية من واقع تحليل البيانات.

تتعلق النقطة الأولى في موضوع المفاهيم التنظيرية بأنها غالباً ما تهمل بسبب الاعتقاد بأنها غير ذات علاقة بالعالم الإمبريقي، عالم الوقائع الحقيقية والبيانات. وفي إطار هذه الوجهة الخاطئة من النظر تختلط حقيقة أن مثل هذه النظرية تأخذ شكلاً مجرداً بفكرة أنها منفصلة ومستقلة عن العالم الواقعي، وأنها تسمو في عالم أثري من الفكر الخالص. ليست تلك وجهة النظر الوحيدة التي يمكن أن تنسب إلى أولئك الذين ينظرون إلى أنفسهم على أنهم باحثون تطبيقيون ليس لديهم وقت لمثل هذه الحكايات الخيالية غير المؤكدة التي ليست لها أي علاقة واقعية بالعالم الاجتماعي المحسوس، ولكن المؤسف أنها كذلك وجهة النظر التي يؤيدها بعض المفكرين النظريين الذين يقللون عن غير قصد من قدر الصورة الخاطئة عن طبيعة ووظائف التفكير المنطقي النظري المجرد، عندما يصفونه بأنه "ما بعد النظرية" هذا رغم إقرارهم بقيمة النظرية العامة. إنني أعتقد أنه مصطلح عديم الفائدة ومضلل، وأنه لا يؤدي إلا إلى دعم موقف أولئك الذين يجهلون طبيعة النظرية العامة، ويرغبون في التقليل من قيمتها. فهذا المصطلح يعطي انطباعاً زائفاً بأن النظرية المجردة - على نحو ما- في النهاية لأشئ سوى نظرية عن نظرية أو نظرية تتعلق بنظرية أخرى، ومن ثم فهي منفصلة عن جوهر العالم الحقيقي الإمبريقي. ولا يوجد شيء أبعد عن الحقيقة من ذلك، وهو انطباع يتحتم التصدي له ومواجهته في كل فرصة. ففي رأيي أنه لا يوجد شيء اسمه "ما بعد النظرية"، ولا يمكن أن يكون هناك مجرد نظرية عن نظرية، طالما أن كل النظريات ترتبط بالعالم الإمبريقي (على الرغم من تباين مستوى التجريد بين النظريات) وإلا فإنها لن تكون مؤهلة كنظرية اجتماعية في الأساس. إن الخطأ هنا -كما أوضحت- أساسه الخلط بين مستوى التجريد المرتفع وبين فكرة الافتقار إلى المحتوى أو الأساس الإمبريقي. وفيما يتعلق بذلك، لا بد أن ندرك أن هناك أنواعاً مختلفة من النظريات، ومن مستويات التنظير التي

تتنوع صلتها بالعالم الإمبيريقى للبيانات (الوقائع) وما إلى ذلك. إن النقطة المهمة فيما يتعلق بالنظرية العامة (والمناقشات حول طبيعتها) ليس هو انفصالها عن العالم الإمبيريقى الحقيقي، وإنما صياغتها على مستوى عال تماما من التجريد، ومن ثم فإن علاقتها بعالم البيانات الإمبيريقى تكون ملتوية و/أو غير مباشرة.

يتلزم ذلك مع فكرة أنه على الرغم من وجود الرغبة في مناقشة طبيعة التنظير - وهو ما يعنى ببساطة انخراط الفرد في الحديث عن التنظير - فإن ذلك يتجاهل حقيقة أن مثل هذا الحديث لن يكون إلا لغوا إذا لم يتضمن إشارة إلى تلك الجوانب من العالم الإمبيريقى التى تحددها المفاهيم النظرية. ولا يتضمن ذلك بالطبع الادعاء بأن مثل هذه النظرية أو الخطاب النظرى يرتبط مباشرة، أو ينهض على أساس عمل ميدانى. ومع ذلك، فإن هذا لايعنى فى ذاته عدم وجود تأثير مباشر على مثل هذا العمل الإمبيريقى على نحو ما توضحه عديد من قضايا هذا الكتاب. وأرى أن هذه القضية منفصلة تماما عن تلك (التى تعد فى الواقع جزءا من الخلط العام) التى يتضمنها التمييز بين التنظير الجيد والسيئ. والحقيقة أن المعيار الأساسى الذى نستطيع على أساسه الحكم على قيمة النظرية العامة المجردة هو مدى ما تلقينه من ضوء على العالم الواقعى. إن أى نظرية (أو بالنسبة لموضوعنا: الحديث عن نظرية) تفشل فى القيام بذلك، ستكون بالتأكيد نظرية معيبة وسيئة وعديمة الدلالة.

ولا شك أن ذلك هو غاية هدفى من تضمين هذه الأنواع الثلاثة من المفاهيم فى هذه المناقشة حول تحليل البيانات وامكانيات التوصل إلى بناء نظرى نابع من تحليل البيانات. والرأى عندى أن كل النظريات العامة ترتبط بالعالم الإمبيريقى بصورة ما. ومع ذلك - وهذا هو بيت القصيد - تختلف النظريات العامة فيما يتعلق بدرجة تجريدها (وبالتالى فى بعدها أو قربها الظاهر من الأمور الإمبيريقىة) وكذلك فيما يتعلق بكيفية اختيارها أو الحكم عليها. والأغلب أن النظريات العامة لا يمكن اختبارها من خلال طريقة بسيطة أو مباشرة، لأنها تتعامل مع موضوعات لايمكن قياسها إمبيريقيا بنفس السهولة التى نقيس بها متغيرات مثل الدخل، والمهنة، والوضع الاجتماعى وما إلى ذلك. فنظرية جينز مثلا عن "الصياغة البنائية"، ونظرية هابرماس

عن "الفعل الاتصال"، وكذلك نظريتي عن "المجالات الاجتماعية" تهتم بتشخيص طبيعة النشاط الاجتماعي والنظم الاجتماعية بصفة عامة، كما تركز أيضا على اختبار بعض العلاقات المتبادلة بين مختلف العناصر للحياة الاجتماعية. وهذه النظريات -بحكم طبيعتها- لا تقوم بشكل مباشر باختبار كفاءة أو صدق المسلمات والقضايا التي تنهض عليها هذه النظريات، لأن مثل هذه الظواهر لا تكون دائما منفصلة إمبيريقيا، وقابلة للقياس، أو قادرة على أن تزودنا بشواهد واضحة لا لبس فيها. ولا يعنى ذلك القول أنه لا توجد هناك طرق مضمونة لاختبار كفاءة أو صدق مثل هذه المفاهيم أو النظريات، ولكنها تدلنا على بعض التعقيدات والأفكار الدقيقة التي تتضمنها.

ومن القضايا الأخرى الخاصة بالمفاهيم النظرية تلك التي تتعلق بمعايير الكفاءة أو الصدق المستخدم في التأثير عليها، ويؤدي ذلك إلى مقارنات مهمة مع أنماط أخرى من العلاقة بين المفهوم والمؤشر التي حددتها من قبل. ومن الواضح أن جوانب عديدة من فكرة الكفاءة الذاتية تعد ضعيفة الصلة بالموضوع الذي نعرض له هنا. من هذا مثلا قضية ما إذا كان الأشخاص العاديون (غير المتخصصين) أو المشاركون يستخدمون أو يفهمون مثل هذه المفاهيم بالفعل، فهي قضية ضعيفة الصلة بموضوعنا أو منبئة الصلة به تماما، لأنها ليست في الحقيقة مفاهيم المشاركين (وليس مقصودا بها ذلك). إنما هي في المقام الأول مفاهيم القائمين بالتحليل (من الباحثين والملاحظين) أساسا، ولكونها كذلك فإن أهم معيارين يمكن من خلالهما التحقق من الصدق هما: أولا، السياق العام للتفكير المنطقي الذي تنهض عليه. ثانيا، علاقتها مع المفاهيم أو النظريات المتصارعة أو المتضافرة. وقبل الاستطراد في عرض هذين المعيارين، أود أن أضيف بعض الملاحظات إلى نقطة الكفاءة الذاتية.

لقد حرصت فيما كتبت أنه أقتصر على القول بأن هناك جوانب عديدة لفكرة الكفاءة الذاتية منبئة الصلة بالمفاهيم النظرية. وإن هناك جوانب أخرى من الكفاءة الذاتية قد تكون لها صلة وقد لا تكون تبعا لهدفها المضمّر، وحسب أنواع الظواهر الإمبيريقية التي تسعى لتوضيحها. وفي هذا الشأن يمكن تصنيف المفاهيم النظرية في ضوء الأنواع الثلاثة التي حددتها بالفعل فيما سبق (السلوكية والنسقية والوسيطية) تبعا للظواهر التي تستهدف تناولها

بالوصف. ففكرة "الوعي العملي" على سبيل المثال تعد مفهوما سلوكيا بمعنى معين، طالما أنها تنقل لنا شيئا من خبرة الناس المعاشة. إن السمة المميزة عادة للمفاهيم السلوكية التنظيرية هي أنها دائما ما تكون عالية التجريد في طبيعتها، إذ تحاول وصف الطبيعة العامة لجوانب الخبرة المعاشة وليس الجوانب المباشرة المحدودة. وهناك مفاهيم أخرى يمكن أن تكون من النمط الوسيط أو النمط النسقي، ومن ثم ترتبط في هذه الحالة بفكرة الكفاءة الذاتية بالطريقة التي أوضحناها سلفا. ويعنى ذلك أنه سيكون هناك دائما نوع من الاتصال بالكفاءة الذاتية حتى لو تضمنت المفاهيم النسقية الخالصة إشارات ضعيفة لسلوك أفراد يعيشون حياتهم داخل أوضاع أو سياقات تدل عليها تلك المفاهيم. انها مسألة تأكيد، كما بينت من قبل.

وعلى الرغم من ان الكفاءة الذاتية تلعب دورا متنوعا، فإن هناك جانبين من المفاهيم التنظيرية غالبا ما تفصلها بصورة حادة تماما عن الصلات الأخرى بين المفهوم والمؤشر. وفي بعض الأحيان يتم اما تجاهل هذه الاختلافات، أو التجاوز عنها واغفالها. القضية الأولى تتعلق بمسألة إلى أى مدى يمكن القول بأن المفاهيم الاجتماعية العلمية قد تم استيعابها من جانب مجتمع العامة (غير المتخصصين). ويذهب جينز (١٩٨٤) بصفة خاصة إلى أن السمة المميزة للمفاهيم الاجتماعية العلمية عموما (عند مقارنتها بمفاهيم العلوم الطبيعية) أنه يتم دائما تبنيها واستخدامها من قبل فى الاستخدام البدهى العام لسائر الناس. وأعتقد أن ذلك مغالاة خطيرة على أقل تقدير، وخطأ صريح على أقصى تقدير. ويكفى أن نلقى نظرة على بعض مفاهيم نظرية "الصياغة البنائية" نفسها مثل الطبيعية التكرارية للحياة الاجتماعية، وجدلية الضبط، وازدواجية البناء، والوعي المنطقى -لندرك أن عديدا من المفاهيم - إن لم يكن معظمها- المشتق من الأنساق النظرية العامة ذات فرصة ضئيلة - إن لم تكن معدومة- فى أن تدخل ضمن رصيد مصطلحات الفهم البدهى العام. ومع استثناءات ضئيلة للغاية، فإنه من الأدق كثيرا القول بأن المفاهيم التنظيرية نادرا ما تتدمج فى الحياة اليومية، حتى على الرغم من أن كثيرا من هذه المفاهيم التنظيرية تشير إلى خبرات معاشة.

يعود بنا ذلك إلى المعايير التي تلعب دورا مميزا وحاسما في تقرير صدق مثل هذه المفاهيم. وقد أوجزت القول فيما سبق أن ذلك يتعلق بالسياق الأرحب للنظرية، الذي يتم من خلاله استخلاص مفاهيم معينة، وتحديد علاقتها بالمفاهيم أو النظريات الأخرى المنافسة أو المتضادة. إن كلا من هذين المعيارين يوجهان الانتباه التي تميز المفاهيم النظرية من حيث أن مثل هذه المفاهيم يستحيل تقويمها (التحقق منها) إذا ظلت هكذا مستقلة بنفسها وبقيت مفاهيم مفردة منفصلة. إذ القاعدة أن ترتبط بعلاقات مع مفاهيم أخرى من خلال سلاسل من التفكير المنطقي سواء داخل النظرية الأم (أو المدخل أو المدرسة الفكرية) أو من خلال مقارنتها مع مفاهيم أخرى موازية لها مستمدة من نظريات أخرى (أو مداخل أو مدارس فكرية أخرى). إن الطبيعة المنطقية لسلاسل التفكير المنطقي والسياقات العامة التي اشتقت منها تحدد الشروط التي يتم من خلالها التحقق من الصدق. ولا بد أن يتضمن ذلك تقدير الصلات بين المفاهيم (ترابط المعاني) ونطاق الأسئلة/ المشكلات المطروحة والحلول داخل نطاق المجموعات المختلفة من المفاهيم. إذ نجد على سبيل المثال أن مفهوم "جدلية الضبط" يعد مجرد جانب واحد من نظرية جيدنز عن "الصياغة البنائية"، وبالتالي فإن "معناه" يرتبط جزئيا بالنظرية ككل. وعلى الرغم من أن المفهوم يمكن -من حيث المبدأ- فصله واستخدامه كما لو كان مفهوما مجردا، إلا أنه من قبيل الوهم الاعتقاد بوجود مصطلح قائم بذاته. لذلك يتعين على الباحثين أن يكونوا حريصين على ألا يغفلوا الخدمة الإضافية من الافتراضات المستمدة (من نظرية الصياغة البنائية) من خلال الاستخدام الفردي للمفهوم. وعلى العكس فإن ضررا خطيرا يمكن أن يقع للمفهوم لو أن علاقاته الأرحب وإشاراته لم توضع في الاعتبار بصورة صحيحة. ولا يعد ذلك عودة إلى تقييد استخدام مثل هذه المفاهيم. وإنما العكس هو الصحيح تماما. بل هو دعوة إلى أن نأخذ مأخذ الجد الطبيعة المتشابكة لأنواع الخطاب النظرى العام.

خاتمة

بعض الدلالات العملية

من المهم -كما أوضحت في مقدمة هذا الفصل- أن نضع في اعتبارنا المستويات المختلفة مثل "الهابيتوس" (*) أو "العمل العاطفي المأجور" مع بيانات محددة أو معلومات أو ظواهر يمكن ملاحظتها في العالم الإمبريقي. إن التأكد من وجود مستوى عال من التلاؤم بين مفاهيم بعينها وبين المؤشرات الإمبريقية يعد أمر ضروريا للتوصل إلى بحث متميز. وقد حاولت أن أركز في هذا الفصل -على أي حال- على أكثر الجوانب عمقا للصلات بين المفهوم والمؤشر، وذلك لسببين أولهما أنها كانت الأكثر تعرضا للإهمال، ولأن التركيز عليها يضيف أبعادا أخرى للتحليل، ومن ثم يجعلها أكثر ثراء وأكثر قيمة.

تهتم الجوانب العميقة بمكانة المفاهيم بالنظر إلى مختلف سمات الواقع الاجتماعي الكامنة وراء العلاقات الظاهرة المتاحة إمبريقيا. كما أوضحت أيضا أهمية أن تكون الأمور واضحة فيما يتعلق بكون الظاهرة المشار إليها من خلال مفهوم معين سلوكية، أو نسقية، أو وسيطة. ويتضمن ذلك أيضا الحكم على صدق أو كفاءة المفاهيم المستخدمة من خلال معايير أكثر اختلافا وتعقيدا من المعتاد. والعادة أن تنتظر كتب المناهج إلى صدق وكفاءة المفاهيم من خلال التركيز على المدى الذي يعد به وصف الباحث للمفهوم، أو

(*) الهابيتوس Habitus طرح بورديو هذا المفهوم لأول مرة في كتابه "نظرية الممارسة" باعتباره بنية عقلية تتشكل في ضوء ظروف وجود معينة، وتقوم بإعادة إنتاج هذه الظروف مرة أخرى. يتكون الهابيتوس من الميول والتصورات والادراكات ورؤية العالم أو مبادئ التصنيف. كما أن الهابيتوس هو المبدأ الذي يولد وينتج الممارسات التي تميل لإعادة إنتاج الشروط الموضوعية، التي كانت ملازمة لإنتاج الهابيتوس نفسه (انظر: خالد عبد الفتاح عبد الله، المعلمون القرويون خصائصهم الاجتماعية ورؤاهم للعالم: دراسة في قرية مصرية"، رسالة ماجستير، قسم الاجتماع، كلية الآداب، جامعة حلوان، ١٩٩٩، ص ٧٣-٢٧٦).

للتفسير، أو لمجموعة من النتائج - يعبر بدقة عن الظاهرة موضع الملاحظة (سيلفرمان، ١٩٩٣، ص ص ١٥٥-١٥٦). ومن الواضح أن هذا الأمر يفترض مسبقاً أمرين اثنين: أولاً، أن الظاهرة سلوكية فقط، وثانياً، أنها قابلة للملاحظة شأنها في ذلك شأن كافة أنواع السلوك الانساني القابل للملاحظة. وذلك لأن معظم كتب المناهج تنظر إلى منهج البحث من وجهة نظر انسانية(*) (تتضمن التفاعلية، والنظرية الموثقة، والفينومينولوجيا، والإثنوميثودولوجيا) التي لا تعترف بالاستقلال الجزئي للظواهر البنائية أو النسقية. وهكذا، تعجز هذه التوجهات النظرية عن صياغة مفاهيم لمثل هذه الظواهر أو تلك التي تقيم جسوراً بينها وبين الظواهر السلوكية، أي تعد ظواهر وسيطة. وبالمثل، فإن كثيراً من المدارس النظرية (ما بعد البنيوية، وما بعد الحداثة، ونظرية الصياغة البنائية) تتكرر وجود أي تباينات حقيقية بين الظواهر السلوكية والظواهر البنائية (أو النسقية) وإن اختلفت مبرراتها أحياناً اختلافات بعيدة (لايدر، ١٩٩٤، ١٩٩٧). وهكذا، فإن هذه المدارس النظرية تعجز أيضاً عن تناول الجوانب الشديدة التباين للواقع الاجتماعي (الصلات بين الفعل والبناء، والصلات بين مستوى الماكرو ومستوى الميكرو) التي تكمن وراء المعلومات والبيانات الإمبريقية التي يقوم الباحثون بتحليلها.

علاوة على ذلك، فإن كثيراً من هذه النظريات (تعد نظرية الصياغة البنائية استثناء بارزاً منها) تتكرر أو تقلل من أهمية النظرية الشكلية أو العامة.

(*) النزعة الإنسانية Humanism، تتمركز حول الاعتقاد بأن مصلحة الانسان وكرامته يجب أن يحظيا بالمرتبة الأولى من الأهمية، في أي شأن، بحثاً كان أو سياسة. ويقوم موقفها على أن "الانسان هو مقياس كل الأشياء"، وأن "الدراسة الحقة للإنسانية هي الانسان"، وأن طبيعة العالم تكمن في أن المقصد الإنساني والنشاط الإنساني يمكن أن يلعبا دوراً حاسماً في التأثير على السياق الاجتماعي. وتظهر النزعة الإنسانية بصور عديدة في العلوم الاجتماعية المعاصرة جميعاً تقريباً، في الماركسية (الإنسانية) وفي علم النفس، وفي علم الاجتماع بطبيعة الحال. وتتجسد النزعة الإنسانية في علم الاجتماع في تلك الكتابات التي تعارض التوجهات الميكانيكية، والاتجاهات ذات التقنيات المنهجية التي تجنح إلى المغالاة، وكذلك الاتجاهات المغرقة في التجريد، وأخيراً التوجهات الحرفية.

فهذه النظريات لا تستطيع أن تتقبل شروط مكانة وصدق المفاهيم التنظيرية، ودورها الهام في توليد النظريات في سياق البحث الإمبريقي. ومن المهم أن يعي الباحثون الواقع الاجتماعي (الحياة الاجتماعية) بصورة أكبر وأعمق من مجرد كونه موضوعاً أو مجالاً وسيطاً. فمن شأن ذلك أن يضمن لنا دقة التحليل على المستويين النظري والإمبريقي. إن الاهتمام بالسّمات الأنطولوجية العميقة للحياة الاجتماعية يعنى تجاوز الاهتمامات الحقيقية (الجوهرية) المباشرة لكي نزيد فهمنا لها. وهكذا، فإن إدراك جوانب الصلات بين المفهوم والمؤشر تخدم عمليات توليد النظريات من واقع تحليل البيانات، وكذلك استخدام النظريات في توجيه جمع وتحليل البيانات من خلال الطرق الآتية:-

١- أنها تسهل توليد الرموز والمفاهيم (المؤقتة، والأساسية، والثانوية)، ومنها على سبيل المثال، مفهوم "أسلوب اختيار فريق العمل" كمفهوم بسيط، أو "الاحترق العاطفي" كمفهوم سلوكي.

٢- أن المزاوجة بين هذا الإدراك واستخدام التقارير النظرية يثرى المصادر التي يتم من خلالها ازدهار عملية ابتكار المفاهيم.

٣- تسهم حساسية وإدراك الصلات بين المفهوم والمؤشر في وجود مدخل متعدد الاستراتيجيات. وهكذا، فإنها تعزز الصياغات النظرية عند تحليل البيانات.

٤- أن الحساسية تجاه الصلات بين المفهوم والمؤشر تشكل استخدام المفاهيم الموجهة، وبالتالي اختيار المفاهيم الأساسية والثانوية (وسوف نتناول ذلك بالتفصيل في الفصل الخامس).

٥- يساعد ذلك على التوصل إلى إحساس بالأنماط المختلفة من الارتباط بين المفاهيم والظواهر الاجتماعية، الأمر الذي من شأنه أن يغذى الخيال النظري.

٦- أن ذلك يسمح للباحث أن يتوصل إلى فهم عميق للعلاقات بين الفعل والبناء، ويبين مستوى الميكرو ومستوى الماكرو فيما يتعلق بمجالات أو موضوعات أو مشكلات جوهرية معينة.

٧- من شأن ذلك أن يتيح للباحث إقامة روابط بين النظرية الناشئة وبين النظرية القائمة أو السابقة.

٨- أنها تسهم في التآزر بين مختلف العناصر الضرورية للنظرية التكيفية (انظر الفصل السادس). وهي تحديدا تؤدي في نفس الوقت إلى التوصل إلى نماذج نظرية مؤقتة يمكن أن توجه وتشكل تحليل البيانات، كما تتيح فرصة ظهور البيانات والأفكار النظرية التي يمكن أن تؤدي إلى إعادة صياغة هذه النماذج المؤقتة (بالتكيف أو بالتخيير).

الفصل الخامس

من النظرية إلى البيانات: بداية التنظير

قبل أن أطرح بعض الاستراتيجيات والأساليب التي تستهدف مساعدة الباحثين على التوصل إلى نظرية، سوف أعطى فى البداية نبذة مؤقتة عن طبيعة النظرية والتنظير.

أولاً، تتضمن عملية التنظير القدرة على التفكير النظرى والتحليلى الذى يمكن الباحث من الحصول على إجابات تتناول أسئلة حول كيف ولماذا بشأن الظواهر الاجتماعية (يتضمن ذلك الوقائع، والبيانات، والمعلومات). وبهذا المعنى يطرح التنظير تفسيرات للظواهر الاجتماعية، وتطرح هذه التفسيرات إجابات حول أسباب وجود هذه الظواهر، والطريقة التى تتفاعل بها مع بعضها البعض، والشكل الذى تتبدى من خلاله فى الحياة الاجتماعية. وهذا التأكيد على التفسير هو الذى يميز النظرية وعملية التنظير عما سواهما من أنماط المحاولات الأخرى فى التحليل الاجتماعى، مثل اكتشاف أو جمع المعلومات عن اتجاهات الناس، أو تفسير أو وصف السلوك الاجتماعى. ولاشك أن هذه التفرقة بين التنظير وهذه الأنشطة الأخرى ليست تفرقة قاطعة دائماً. وغالباً، ما يتطلب تقديم تفسيرات عن طريق استخدام المفاهيم والافكار، وعرض الشواهد، وعناصر الوصف، وما إلى ذلك مما يمكن أن يسهم فى إقامة الدليل على التفسير. وعلى العكس من ذلك يتطلب الاهتمام بالوصف استخدام مفاهيم مجردة نسبياً، كما يتطلب استخدام عناصر أخرى من التفسير.

ثانياً، يتطلب ذلك التنظير -الذى يتضمن التفكير النظرى والتحليلى - تطبيق المنطق والعلاقة السببية لاختبار العلاقات بين المفاهيم والمتغيرات الإمبريقية التى تتناولها. كما يتطلب ذلك النمط من التنظير أن يتناول التفكير العلاقات بين المفاهيم وأبعادها ومكوناتها (ومن ذلك على سبيل المثال العلاقات المنطقية بين القوة والسلطة، والأشكال المختلفة التى يتبديان بها).

ثالثاً، تتضمن عملية التنظير القدرة على الانتقال مما هو محسوس وخاص (الملاحظات التفصيلية، أو المعلومات الواقعية) إلى اهتمامات وأفكار أكثر عمومية وتجريداً، أى التحول إلى التركيز على الخصائص العامة للأشياء موضع الملاحظة. ويتضمن هذا بدوره عملية التعميم التى تتطلب تطبيق نفس الأسس والمستويات والمعايير على نطاق عريض من المواقف والأمثلة، وألا يقتصر ذلك على وصف تفاصيل مواقف أو وقائع أو أمثلة معينة.

وأخيراً، يتضمن التفكير النظرى المروحة بين مستويات مختلفة من : الواقع والتحليل، العام والمجرد، والمحسوس والخاص. فعلى المستوى التجريدى- على سبيل المثال- يشير مفهوم القوة إلى قدرة شخص أو جماعة على تحقيق أهداف معينة، وإرغام الآخرين على أداء أشياء بالرغم من مقاومتهم أو معارضتهم لذلك. على أى حال، يتطلب التنظير القدرة على الاحاطة بالصلة (وبالتالى التنقل) بين ذلك التعريف الرسمى وحالات أو أمثلة معينة للقوة كما تتبدى فى الحياة الاجتماعية، مثل سرقة بنك، أو القدرة على شراء السلع النادرة، أو القاء الأوامر.

استخدام المفاهيم الموجهة

أشرت فى كتاب سابق لى (لايدر، ١٩٩٣) إلى استخدام المفاهيم العامة الناتجة عن خبرة سابقة كوسيلة مفيدة فى تطوير النظريات، على الرغم من أننى أفضل هنا استخدام مصطلح المفاهيم الموجهة. ومن أمثلة تلك المفاهيم التى يتضمنها تراث علم الاجتماع: "العمل العاطفى المأجور"، "العوالم الموسيقية"، "جدلية الضبط"، "السلك المهني"، "القوة والمراقبة"، "آداب السلوك الاخلاقية التنظيمية". تتميز المفاهيم الموجهة بسمتين هما: أنها ذات طبيعة مزدوجة، والاستناد إلى العمليات الاجتماعية بالرجوع إليها دائماً. تهتم الطبيعة المزدوجة للمفاهيم الموجهة بالإشارة الثنائية للجوانب الموضوعية والذاتية معاً للحياة الاجتماعية. ويركز الاهتمام بالعمليات الاجتماعية على قدرتها على تتبع النشاط الاجتماعى والاحداث عبر الزمان والمكان. سوف أوضح هاتين النقطتين تفصيلاً فيما بعد خلال المناقشة. وأريد هنا أن أركز

على حقيقة أن استخدام مثل هذه المفاهيم يمكن أن يمثل بداية للإنطلاق فى عملية تشييد النظرية فى البحث.

أولاً، فلنحدد ما هى المصادر التى تستمد منها المفاهيم الموجهة بالمعنى الواسع (نوع السياق الذى تتبع منه)، ثم نطرح بعض النصائح العملية حول كيفية اختيار مفهوم موجه (أو عدة مفاهيم) يمكن أن يساعد فى تحليل وتنظيم البيانات التى تم تجميعها خلال البحث. تعد النظرية القائمة أول المصادر التى تشتق منها المفاهيم الموجهة - سواء كانت إطاراً نظرياً مرجعياً، أو اتجاهها نظرياً عاماً - مثل النظرية الماركسية، أو التفاعلية الرمزية، أو النسوية، أو الصياغة البنائية. ويتداخل ذلك مع مصدر آخر يتمثل فى أعمال كتاب معينين، قد ترتبط أعمالهم باستخدام مفاهيم معينة (مثل مفهوم بورديو عن الطابع الاجتماعى الثقافى) أو معان خاصة للمفاهيم (مثل استخدام فوكو لمفهوم القوة). ومن الواضح أن هذه المفاهيم قد ترتبط أو لا ترتبط ببناء نظرى أكبر. وفى كلا الحالتين، فإن النقطة المهمة هى أن مفاهيم معينة مشتقة من عمل قائم و مستخدمة باعتبارها مفاهيم عامة من خبرة سابقة تساعد على تحديد الاتجاه وتوجيه البحث الجديد فى مراحله الأولى.

وأخيراً، يمكن أن تشتق المفاهيم الموجهة من مجالات حقيقية معينة أو إمبريقية من التحليل الاجتماعى، كالانتحار، والطب، والتعليم، والمهن، والطبقة وما إلى ذلك، حيث يتم فى موضوعات معينة استخدام بعض المفاهيم بصورة متكررة. يعد مفهوم السلك المهني (أو المسار المهني) نموذجاً لذلك. فالسلك المهني يرتبط عادة بنوع المهنة، ولكن قد يكون من المفيد - وكما أوضح العديد من الكتاب - تطبيق المفهوم على نطاق واسع من الظواهر الإمبريقية. إن التفرقة المفيدة التى يجب أن ننتبه إليها فى هذا الشأن هى التفرقة بين مفاهيم يحددها أبناء المهنة، ومفاهيم يحددها علماء الاجتماع. إذ نجد النوع الأول يهتم بأنواع المسميات والأفكار التى يستخدمها هؤلاء محل البحث لتحديد وتعريف الجوانب المختلفة لأنشطتهم. من هذا مثلاً تتميط جيومباردو (١٩٦٦) عن نزيلات السجون. أما المفاهيم التى يحددها علم الاجتماع فهى تلك التى يضعها الباحث الحالى، أو باحث سابق، لفهم وتنظيم

البيانات التي تم جمعها عن جماعة معينة، مثال ذلك مفهوم الانحراف الأولى والانحراف الثانوي، أو مفهوم تضخيم الانحراف (ليمبرت، ١٩٦٢، وشيف، ١٩٦٦). وبحكم ذلك، فإن هذه المفاهيم الأخيرة مفاهيم محددة فنياً، ويتم اختيارها بسبب وضوحها، وبسبب قدراتها الوصفية والتفسيرية.

اختيار المفاهيم الموجهة

هناك عدد من الاستراتيجيات التي يمكن أن يساعد استخدامها على اختيار المفاهيم الموجهة الملائمة للمجال أو المشكلة محل الدراسة والاهتمام.

١- البحث الواعي عن المفاهيم .

يلحظ بصفة عامة، أنه عند البحث عن مفهوم ملائم، يجب على الباحث فحص التراث المتعلق بالموضوع بدقة وعناية، وقراءته وهو واع بهدف البحث عن مثل هذه المفاهيم. تلك هي أفضل الطرق فاعلية لقراءة التراث بهدف البحث عن شيء ما، بالرغم من أن القارئ لا يعرف - حتى تلك اللحظة - تمام المعرفة ما الذي يبحث عنه. ويتعارض ذلك مع نموذج القراءة الطبيعية التي تتضمن الاستيعاب السلبي للمعلومات. ولا أعني بذلك أن القراءة تثير عموماً الإبداع عند القارئ. ومن هنا فإن التفرقة بين القراءة الإيجابية والسلبية لا تغطي تماماً وجهة النظر التي أعرض لها هنا. إن القضية الأساسية هي أن البحث عن المفهوم الموجه يتضمن انفتاحاً على الاحتمالات غير المتوقعة بشأن البحث الموضوعي عن المفهوم المناسب.

وتتضمن هذه العملية -فضلاً عن ذلك- القدرة على التحاور مع المعاني المسلم بها من خلال تبنيها أو الإضافة إليها، أو من خلال طرق أخرى لزيادة قدرتها التطبيقية لتتعدى نطاق الظواهر الإمبيريقية التي ترتبط بها بصورة طبيعية. يتطلب ذلك عملاً خلاقاً واستثارة الطاقات الإبداعية لاكتشاف الامكانيات السابقة على الاستخدام الحقيقي لمفاهيم محددة كمفاهيم موجهة. ويتعارض ذلك مباشرة مع نموذج القراءة الذي يفترض أن المادة التي يقرأها الباحث هي نتاج نهائي ومكتمل، وأنه غير قابل لإعادة التفسير، أو النقل في إطار سياقات مختلفة للبحث أو مجالات أخرى. وقد يبدو هذا الكلام مجرداً

بعض الشئ فى الوقت الحاضر، ولكنه يمثل جزءا ضروريا من عملية التنظير، والتفكير النظرى، والقدرة التى يمكن اكتسابها حتى ولو لم تكن جزءا طبيعيا من مهارات الباحث. سوف أحاول خلال هذا الفصل أن أحدد بصورة أكثر تفصيلا وتحديدًا، ما الذى تتضمنه هذه المهارات، وكيف يتسنى لنا أن نتبع عمليات اكتسابها.

٢- التركيز على موضوعات محددة .

من السبل التى يمكن أن نسلکها لتحديد المجال الذى يمكن أن يقدم لنا مفاهيم عامة مستمدة من خبرات سابقة هو التركيز على موضوع محدد مثل رعاية المرضى، أو التنشئة العنصرية، أو المرض العقلى، أو الانحراف. فالكثير من هذه المجالات مطروح للبحث بالفعل، وأجريت على كل منها بحوث كثيرة، ولهذا فإنها ستضم حشدا هائلا من المفاهيم الشكلية والجوهرية التى تتصل بالأشكال المقبولة للنظرية والتفسير، كما تضم كما وفيرا من الشواهد المتصلة بالموضوع أو الجماعة أو السياق موضع الدراسة. ففى مجال علم اجتماع المرض العقلى -على سبيل المثال- هناك عدد من المفاهيم النظرية والمداخل مثل نظرية الوصم، وبقايا الانحراف، والانحراف الأولى، والانحراف الثانوى، وتضخيم الانحراف، وجميعها مفاهيم استخدمت لتفسير أشكال مختلفة من المرض العقلى (كالشيزوفرينا، البارانويا، والاكتئاب).

وحدث فعلا أن استخدمت نفس المفاهيم والمداخل، وتم تطبيقها على مجالات أخرى فى تحليل الانحراف، مثل الممارسات الجنسية غير المشروعة، والسلوك الإجرامى، كما أن هناك قاعدة معلومات كبيرة عن انتشار المرض العقلى بين جماعات مختلفة (كالرجال، والنساء من طبقات اجتماعية اقتصادية مختلفة) وعن استخدامهم للخدمات الطبية والخدمات الأخرى المتعلقة بهذا المرض.

والرأى عندى أن كل مجال موضوعى مستقر (مثل علم اجتماع المرض العقلى) لديه نسق خاص به من المفاهيم، والمداخل، والمعلومات المتصلة به. وإن كان، يجب أن نتذكر أن المجال الذى يهتم به الباحث قد لا يكون محددا بشكل مباشر بوصفه أحد مجالات علم الاجتماع المحددة تحديدا

دقيقاً. إن مجالات البحث في المجال الاجتماعي تنقسم في الغالب بعدم التحدد، وبتعدد الأوجه والمظاهر، وقد يتم تعريفها من خلال عدد من الاهتمامات المتقاطعة أو المتضافرة التي تنتمي إلى فروع علمية متعددة والتي يكمل بعضها البعض، ولكل منها تراثه من الكتابات العلمية الخاصة به. فبالنسبة للمثال السابق، نجد أن موضوعاً محدداً يمكن أن تتناوله فروع متعددة، وربما يوجد التراث المرتبط به تحت علوم طب المجتمع المحلي، والطب النفسي وما إلى ذلك. ومن خلال قيام الباحث بمسح التراث المتصل بمجال البحث، فإنه سوف يعرض نفسه للأسس التنظيمية الأساسية، والأفكار والمفاهيم التي تضيء على مجال أو موضوع بحثه هويته المتفردة، وتماسكه كبناء متميز من المعرفة.

ولتحديد المفاهيم الموجهة المحتملة فمن الأفضل محاولة تحديد المفاهيم الأساسية إلى تحدد المجال موضوع الدراسة. ويقصد بذلك، المفاهيم المستخدمة بصورة متكررة في التراث باعتبارها أدوات تنظيمية أساسية، وعلى اعتبار أنها تفسيرات مجربة ومؤكدة عن السلوك والوقائع والبيانات التي تقع داخل نطاق مجال أو موضوع الدراسة. وبتحديد هذه المفاهيم يصبح لدى الباحث نقطة ارتكاز مؤقتة للبحث عن المفهوم الموجه المفيد. ربما يكون المفهوم الأساسي ذاته (مثل بقايا الانحراف) هو الذي تنطلق منه عملية التنظير، ولكن من المحتمل أيضاً أن يكون -بالمثل- الحافز الذي يشتق منه الباحث مفاهيم وأفكار أكثر تحديداً.

وسأحاول فيما بعد أن أقدم بعض الأمثلة لصياغة مفاهيم ثانوية ذات علاقة عضوية بالمفاهيم الموجهة. ويبت القصيد هنا أن المفاهيم الأساسية في أي مجال بعينه ليس من الضروري أن يتم تحديدها أو تعريفها تعريفاً شكلياً، أو في شكل نظري بالفعل. فمن الممكن -على سبيل المثال- أن تكون مجرد كلمات أو جملاً تستخدم عادة لوصف جوانب معينة من البيانات. ويعني ذلك، أن المفهوم العام المستمد من خبرة سابقة قد لا يكون فكرة محددة شكلياً وجاهزة لأهداف محددة. والخلاصة أن المصدر الأساسي المحتمل لاختيار المفهوم الموجه الملائم سيتكون من ذخيرة ضخمة من الكلمات والأفكار

والأوصاف والأطر المرجعية، والعبارات وما إلى ذلك، التي تمثل طرق الحديث المستقرة والمتكررة عن المجال موضع البحث. فهي بهذا المعنى تعد الاسس التنظيمية الأساسية لذلك المجال الموضوعي.

٣- استعارة مفاهيم من مجالات بينية (قريبة) .

تتطبق الملاحظات السابقة بصفة خاصة على تلك المجالات التي خضعت بالفعل للبحث والدراسة المنظمة إلى حد ما. أما إذا كان المجال أو الموضوع موضع الدراسة لم يخضع للبحث من قبل، فمن الممكن ان يتم التقيب في التراث عن المفاهيم الموجهة التي يحتمل وجودها. ويرجع ذلك إلى انه سيظل هناك دائما تراث متخصص بيني / قريب (سواء داخل فرع معين من المعرفة مثل علم الاجتماع، أو من داخل فرع مقارب في سياق بحث متعدد التخصصات) يستطيع الباحث أن يستعير منه بعض الأفكار والمفاهيم الموجهة.

وعلى الرغم من أن الباحث قد يبدأ بحثا في موضوع تتوافر عنه معلومات ضئيلة أو لا تتوافر عنه أية معلومات، فإنه يتعين النظر إلى موضوع البحث في اطار رؤية مقارنة أو منظور مقارن. وبهذه الطريقة يصبح من الممكن فهم كيف أن أى موضوع، أو كل موضوع محاط بمجالات بينية قريبة (داخل بعض فروع المعرفة أو فيما بينها، في حالة الدراسة المتعددة التخصصات) ترتبط بصورة جوهرية بمجال أساسى أو محورى من مجالات البحث الراهن. وهكذا، فإن الوقوف على الأفكار الأولية عن مشروع البحث على أساس المنظور المقارن يعد عنصرا جوهريا وضروريا في عملية التنظير بصفة عامة.

ويلقى المثال التالى الضوء على بعض القضايا المتصلة بموضوعنا هنا. عندما بدأت فى دراستى عن السلك المهني للممثلين، واجهتني حقيقة أن كم الدراسات فى مجال التمثيل فى علم الاجتماع كانت ضئيلة للغاية، ولكن من خلال رؤية مقارنة للموضوع، استطعت أن أثبت أن كان محل اهتمام عدد من المجالات المختلفة، ولكنها متصلة ببعضها البعض، يتضمن كل مجال

منها تراثه المرتبط بالموضوع. فقد اتضح لي -على سبيل المثال- أن هناك كما هائلا من التراث حول انواع أخرى من السلك المهني لعدد من المهن، منها بصفة خاصة بعض أنماط المهن البيروقراطية والادارية. كما أن هناك أيضا مقداراً وفيراً من التراث في ميدان علم الاجتماع المهني بصفة عامة يمكن اختيار أفكار مفيدة منه عن التنظيم المهني، في مقابل مهنة التمثيل. كما تبين فضلًا عن ذلك أن فكرة "السلك المهني" ترتبط بقضايا الدراسة السوسيولوجية لأسواق العمل التي تزخر بقدر كبير من التراث والأفكار النظرية. كما وجدت أيضا أن الدراسات في مجال التنظيم الرسمي كانت وفيرة بما يسمح باستعارة أفكار، ومفاهيم موجهة. وتصدق نفس الملاحظة بالنسبة لميداني دراسات القوة والسلطة. ومن الواضح أن تلك المجالات تتداخل في بعضها البعض (بعض منها أكثر تداخلا من سواها)، ولكن الأمر الفائق الأهمية بالنسبة لمشروعي البحث، أنها كانت بمثابة مجالات ثانوية من البحوث والدراسات المستقرة التي تحيط بمجال اهتمامي، الذي لم يتعرض ذاته لبحوث غزيرة، ومن ثم ظل مفتقرا بشكل واضح إلى التراث التحليلي الذي يمكن استلهاه عند اجراء بحوث جديدة.

وبهذا المعنى يمكن أن أقول انني كنت محظوظا ان يتوافر تحت يدي مثل هذا العدد الكبير من المجالات اليبينية القريبة التي يمكنني أن أنهل منها، ولكن نفس المبدأ يمكن أن يصدق تقريبا على أي من المجالات التي لم تخضع للبحث. من هذا مثلا أنه على الرغم من أنه قد تكون هناك بعض أشكال الانحراف (الجنسي، أو الاجرامي، أو أيا كان) التي لم تخضع للدراسة حتى الآن، فإن هناك مجالات من الانحراف التي استطاعت أن تثمر عددا من المداخل والمفاهيم النظرية. كما أنه من المهم ألا يقتصر المنظور المقارن للباحث على نماذج أخرى مماثلة. ففي حالة الانحراف من المهم مقارنة الموضوع الأساسي ليس فقط بآخر يماثله، فمثلا لا يجب أن تقتصر مقارنة السلوك الجنسي الشاذ بأنماط أخرى من الانحراف الجنسي، وانما كذلك بأنماط مختلفة تمام الاختلاف. فمقارنة الانحراف الجنسي بالمرض العقلي (باعتباره شكلا من السلوك المنحرف) على سبيل المثال سوف يوسع من نطاق المفاهيم ويزيد من مرونتها وجدواها، وكذلك أشكال الوصف الأساسية المتعلقة بمثل

معين. ومعنى ذلك أنه كلما زادت درجة تباين نقاط المقارنة، كلما زاد احتمال أن يقوم الباحث بتعديل وخلق طرق جديدة من التفكير النظرى بصدد مجال دراسته.

٤- البحث فى التراث اللانظرى واللا متخصص.

من الأمور المهمة -كما أوضحت الأمثلة السابقة- ألا يحصر الباحث نفسه بصورة مطلقة فى مفاهيم وأفكار تنتسب إلى المجال النظرى. فقد حاولت أن أؤكد أن مصادر التفكير النظرى لا تقتصر فقط على الأشياء التى تبدو مفيدة لمجرد أنها ذات صبغة أو مظهر نظرى. ربما تعد الكلمات والجمل والحقائق الإمبيريقية الواضحة أو المعلومات مصادر مهمة للمفاهيم الموجهة. وهنا يكون من المهم أيضا مراجعة التراث اللانظرى واللامتخصص لعلم الاجتماع باعتباره مصدرا محتملا للمفاهيم الموجهة. من عناصر هذا التراث: كل أنواع الكتب (الخيالية والواقعية) والمجلات، والوثائق، وشرائط الفيديو..... الخ، فهى تزودنا بمواد عامة حول موضوعات معينة، وربما تكون مصادر للرؤية المتعمقة التى يمكن أن تكون ذات دلالة نظرية. ومن المهم ألا نسقط مثل هذه المصادر من اعتبارنا لمجرد أنها قد تكون غير ذات علاقة واضحة ورسمية بتراث علم الاجتماع.

ولا شك أن التراث الذى أشير إليه هنا سيرتبط بمجال الدراسة ارتباطا مباشرا، وسيتم اختياره بسبب ذلك، حتى على الرغم من أنه قد يبدو عدم وجود صلات واضحة بالبحث الاجتماعى. علاوة على ذلك، فإن تمحيص ذلك النوع من التراث يجب أن يتم فى ضوء إجراءات منظمة ومخططة، وليس مجرد تأمل تحكمه المصادفة والأمور العارضة، والاضاع على الباحث الكثير من الوقت والجهد هباء. و إن كان من المهم على أى حال عدم التقليل من أهمية دور المصادفة والعوامل العرضية فى هذا النوع من البحث. إن مبدا النجاح فى كشف الأشياء المهمة دون السعى إليها، يمكن أن يلعب دورا ضروريا فى إتاحة الفرصة لاكتشاف المفاهيم والأفكار، ولهذا فإن المحلل الطموح يجب أن ينتبه باستمرار إلى امكانيات واحتمالات مثل هذه الاكتشافات فى التراث (أو حتى الاحاديث) من كل نوع وفى أى وقت ومكان.

٥ - الحدس والادراك الحسى والحساسية.

أشرت من قبل إلى أن السبيل الوحيد لتحديد المفاهيم الموجهة هو الاختيار العمدى من خلال القراءة الايجابية (الفعالة) وتمحيص المعلومات الموجودة فى التراث المتصل بالموضوع. ولكى تفرض مثل هذه المفاهيم نفسها- وتترك انطبعا على تفكير الباحث - يتطلب ذلك ثلاثة أشياء هى : الحدس، والادراك الحسى، والحساسية أو المبادرة. وتمثل هذه الأشياء معا موقفا مسبقا لانتقاء الأفكار والمفاهيم المقترحة. ويعد الحدس وسيلة مهمة لأنه من خلاله يتم اكتشاف الأفكار النظرية والمفاهيم. والغالب أن تواجه مثل هذه القدرات معارضة ونفور هؤلاء الذين يعتقدون أن التحليل الاجتماعى والتقدم فى مجال النظرية يعتمد كلية على أساليب التفكير العلى. ويصاحب ذلك عادة وجهة النظر التى ترى أن أساليب التفكير الرشيد هى الوحيدة العلمية بحق. والحقيقة أن مثل هذه الوجهة من النظر لا أساس لها من الصحة. فالتحليلات العلمية تعتمد على كل من أساليب التفكير العلى والحدسى، ويجب أن تدرج هذه الرؤية فى المداخل العامة للتتظير. إذ يتعاون الحدس مع القدرة على ادراك الأفكار والمفاهيم الموجهة المفيدة، وهذه المهارة تحتاج إلى أن تنمو، وأن تصقل، وليست شيئا يمتلكه الباحثون بصورة آليه، حتى ولو كانوا على درجة عالية من الخبرة. يتضمن الادراك الحسى إدراكا ووعيا بعلامح معينة من العالم واستبعاد ملامح أخرى، فهو يتضمن تحديد أنماط أو أشكال معينة من العناصر، وهكذا ينظر إلى العالم من خلال طرق معينة. وعند تحديد المفاهيم الموجهة يرى الباحث دلالة أشكال معينة من الوصف أو التفسير لفهم البيانات أو السلوك أو مشكلات البحث.

تنم الآثار المشتركة من الحدس والادراك الحسى نوعا من الحساسية العامة، أو القدرة على "رؤية" المفاهيم، وبالتالي تحديدها أو اكتشافها من خلال القراءة. ولا يستطيع أن أبالغ فى تأكيد أن ذلك يعد عملا إبداعيا بالضرورة يمتلك الفرد من خلاله احساسا ذاتيا بتقدير الاحتمالات. فالمفاهيم لا توجد ببساطة فى التراث تنتظر من يكتشفها، ولكنها بمعنى معين- يشيدها

الشخص الذى يبحث عنها، فرغبة الباحث وقدرته على اكتشافها هى التى تؤدي إلى اكتشافها فى واقع الأمر.

ويقود ذلك إلى نقطة لا تتصل فقط بالبحث عن المفاهيم الموجهة، ولكنها ترتبط كذلك بأكثر جوانب التنظير عمومية، وبصفة خاصة إنشاء وتطوير واستكمال وصقل المفاهيم، والأطر المرجعية للمفاهيم، التى ساشير إليها بمزيد من التفصيل فيما بعد. يربطنا ذلك بنقطة تتعلق بالحدس والابداع باعتبارهما ملمحين طبيعيين لعملية التنظير، والتى تركز على مقولة عدم الاستمرارية أو المرور بفترات جذب وعدم ابداع. فمن الطبيعي أنه ستكون هناك فترات لا يحدث فيها الكثير بشأن طرح أفكار جديدة أو اكتشاف وسائل أو أدوات جديدة لصياغة المفاهيم. وقد لا تستمر فترات الجذب هذه سوى فترة قصيرة، وإن كانت هذه الفجوة يمكن فى أحيان أخرى- أن تستمر و تؤدي إلى الاحباط. ولكن أيا كان طول فترة الجذب هذه، فإنه من المهم أن نتذكر أن فترات التوقف هذه وانقطاع الاستمرارية تعد من الملامح الطبيعية لعملية التنظير. أى أن المرور بمثل هذه الفجوة لا يعنى أن القدرة على التنظير قد اختفت فجأة ولن تعود ثانية إلى الظهور، ولكنها لا تعنى سوى أن العملية بأكملها ستكون غير منتظمة ويصعب التنبؤ بها إلى حد ما. ويرجع ذلك -كما ألمحت من قبل- إلى أن عملية التنظير ليست مجرد عملية منطقية تركز على مهارات عقلية يمكن التحكم فيها عند الطلب، مثل فتح الصنبور أو اغلاقه.

وعلى الرغم من أن جانبا مهما من التنظير يتطلب تطبيق قواعد التفكير المنطقى الرسمية، فإن العملية تتطلب أيضا الكثير من المهارة الحدسية والإبداعية والتحليلية. وكما ذكرت فى موضع سابق من هذا الكتاب، فإن التنظير يتضمن القدرة على التنقل ما بين العام (المجرد) والخاص (المحسوس)، وهو أمر يتطلب مهارة ابداعية. ومعنى هذا أنه لكى تكون قادرا على أن تمزج بين التحليل الشكلى والتعامل مع المادة الإمبريقية من خلال طرق من المحتمل أن تثمر أشكالا جديدة من التفسير، فإن ذلك يرتبط إلى حد كبير بالخيال الإبداعى. وفى ضوء هذا المعنى ترتبط القدرة على التنظير

بالنشاط الإبداعي والفنى أكثر من ارتباطها بمدخل علمى رسمى عقلى منطقى.

وقد تكون المماثلة بين هذا الموقف والإلهام الفنى وسيلة مفيدة لفهم المهارات والعناصر التى تتضمنها عملية التنظير. وعلى غرار الرسامين والكتاب، فإن الحاجة إلى الإلهام تعد جزءا أساسيا من عملية التنظير فى البحث العلمى الاجتماعى. ولكن الإلهام -بحكم طبيعته- ليس مجرد شئ يمكن أن يستمر أو يستدعى عند الطلب. فأحيانا ما يتوقف الإلهام ولا يمكن ببساطة استعادته مرة ثانية. وفى مثل هذه الأوقات يحتاج الباحث إلى الصبر والمجاهدة ليتخطى فترات الجذب هذه. وإن كان من شأن تنمية حساسية الفرد وقدراته أن تضمن لنا أن فترات الجذب هذه لن يطول أمدها.

دور المفاهيم الموجهة فى عملية البحث

تعد المفاهيم الموجهة عزيمة الفائدة كوسيلة مؤقتة لتنظيم البيانات. فمن خلال استخدام المفاهيم الموجهة يصبح الباحث قادرا على التعامل مع مشكلة وضع نظام مؤقت لترتيب وتنظيم ذلك الكم الهائل من البيانات والمعلومات. وقد تثار مثل هذه المشكلة فى مراحل معينة فى مختلف أنواع البحوث. من هذا على سبيل المثال، أن البحث الكيفى فى مجال ما، والذى يعانى من قلة الأعمال السابقة، ويهدف إلى التوصل لاكتشاف نظرى (أكثر مما يهدف إلى تطوير نظرية ما) قد يعانى فيه الباحث من مشكلة جمع بيانات هائلة وكثيرة، من خلال المقابلات المتعمقة مثلا. لذلك يجب أن يكون الباحث على بينة بالأفراد الذين يجب أن يتحدث معهم، والموضوعات التى يجب أن يغطيها فى حديثه. ولكن لأن مثل هذا النوع التفسيري من البحث لا يستند على بناء نظرى محكم التشييد، أو على قدر وفير من البيانات، فإنه قد يكون من الصعب الوقوف مسبقا على المفاهيم ذات الصلة بالموضوع، والتى يمكن أن تساعد على تشكيل وطرح إطار يتم فى ضوئه تنظيم البيانات، نجد أن تراكم البيانات المستمر ربما يؤدي إلى عدم الدقة والتشوش، حيث يظهر التنافس أو التعارض بين جزئيات المعلومات المختلفة. وهكذا نجد أن المفهوم الموجه يمكن الباحث من طرح أنماط ذات دلالة، وإن كان بشكل مؤقت. ومن شأن

هذا التنظيم الأولي للمفاهيم أن يسمح للباحث أن يبدأ في ترميز النصوص المدونة، الأمر الذي ييسر عملية تفسير البيانات، وتقليل حجمها في نفس الوقت. وسوف نرى أن المفهوم الموجه - كما سادل على ذلك فيما بعد - ربما يتحول ليصبح وسيلة مؤقتة لتنظيم البيانات، وقد يتم الاستغناء عنه أو تعديله في مرحلة لاحقة. ومع ذلك فإن استخدام المفهوم الموجه سوف يحدد للباحث البيانات ذات الصلة. بموضوع البحث، وتلك التي لا دلالة لها بالنسبة للبحث.

وإذا تم التخلي أو الاستغناء عن مفهوم - سواء كان مقولة أو فكرة - فإنه من الضروري الرجوع إلى البيانات، وإعادة ترميز المفهوم في ضوء مقولات مختلفة. ففي دراستي تخلت عن مفهوم الاختيار الإيجابي المتوافق مع النمط من أجل مفهوم "أسلوب اختيار فريق العمل". ومن الأمور التي يجب منحها حقها من التقدير، أنه في هذا النوع من سيناريو البحث ترتبط فائدة المفاهيم الموجهة بالطبيعة المستمرة للبحث منذ اللحظة التي يبدأ فيها جمع البيانات بصورة جديّة. وفي المجالات التي خضعت للدارسة والبحث المستفيض، تبدأ عملية البحث من بناء للمعرفة والمعلومات والأفكار النظرية المعتمدة. وفي هذه الحالة (التي كثيرا ما تتطلب في بعض الأحيان - توفير بيانات كمية كشكل من أشكال توفير الشواهد المطلوبة) يتم استخدام المفاهيم الموجهة، أو الأطر النظرية للمفاهيم بصورة تسبق مرحلة جمع البيانات، لأن الجانب الأكبر من عملية جمع البيانات سوف يتشكل حول القضايا النظرية التي يطرحها البحث.

عند هذه النقطة قد يكون من المفيد لقاء الضوء على أوجه الشبه والاختلاف بين ما أطلق عليه المفاهيم الموجهة وبين ما يعرف بالمفاهيم المدققة في تراث مناهج البحث الاجتماعي. وقد أدخل بلومر (١٩٥٤) مصطلح المفاهيم المدققة ليوضح التناقض بينها وبين المفاهيم القاطعة. مثل هذه المفاهيم ليست محددة بدقة مثل المفهوم القاطع، ولا ترتبط بمداخل علمية موضوعية صارمة (كالنزعة الوضعية) تهتم بصياغة واختبار قوانين السلوك. بدلا من ذلك تكون المفاهيم المدققة أكثر مرونة وتتلون مع القابلية للتغير، وعدم القابلية للتنبؤ النابعة من طبيعة السلوك الانساني الذي يجري تناوله،

والذى لا يتفق -نتيجة لذلك- مع القوانين العامة. وهكذا فإن فكرة المفاهيم المدققة ترتبط بحكم طبيعتها بوجهة النظر التى ترى أن التحليل الاجتماعى هو جهد انسانى تفسيرى (أنظر: أيضا جيدنز، ١٩٨٤).

إن مرونة المفاهيم المدققة هى التى تكشف عن صلتها بالمفاهيم الموجهة، وإن كانت المرونة - على أية حال- أكثر وضوحا فى حالة المفاهيم المدققة، لأن المفاهيم الموجهة لا ترتبط بفكرة أن التحليل الاجتماعى قاصر على تحليل أو تفسير معانى الفاعلين. إن فكرة أن المفهوم الموجه يملك امكانيات للتطبيق تفوق ما يتسم به فعلا ترتبط -بقدر ما- برؤية التحليل الاجتماعى عن كل من الظواهر الاجتماعية النظرية كالانساق الاجتماعية والأبنية الاجتماعية، والمعرفة الثقافية، وما إلى ذلك، وكذلك الأفعال البشرية الملموسة، والعمدية، والمنعكسة.

وفى بعض الأحيان يوصف هذا الموقف بالواقعية الاجتماعية العلمية، (أنظر: مؤلفى لايدر، ١٩٩٠، ١٩٩٣). ولا مجال الآن للأسهاب فى وصف هذه الرؤية للتحليل الاجتماعى، وإن كانت تلقى الضوء على الطريقة التى لا يستطيع العلم الاجتماعى فيما بعد الوضعية (أو بعد الامبيريقية) أن يقنع بمجرد تبني الموقف التأويلى أو التفسيرى، كما هو الحال فى نظر كثير من المدارس النظرية الحديثة بما فيها اتجاهات ما بعد الحداثة، ونظرية الصياغة البنائية. إن الأمر البالغ الأهمية لهذا الموقف الواقعى هو الحاجة إلى فصل الخصائص والآثار المختلفة - ولكن المتصلة - للفعل والبناء (انظر : أرنتشر ١٩٩٥، ولايدر: ١٩٩٣، ١٩٩٧).

معنى هذا، أن، أن فكرة المفاهيم الموجهة يمكن أن تشير إلى جوانب السلوك الانسانى (عالم الحياة بمصطلحات هابرماس فى مؤلفيه ١٩٨٤، ١٩٨٧) أو جوانب الأبنية الاجتماعية (أو الأنساق كما يسميها هابرماس) أو إلى كليهما، كما تناولت توا مثالا أطلقت عليه المفاهيم الوسيطة. وهناك فارق ذو دلالة بين المفاهيم الموجهة، والمفاهيم المدققة، يتمثل فى الحقيقة التى مؤداها أن المفاهيم الموجهة ذات دور أكبر فى اقتراح أو الإشارة (وإن كانت غير ملزمة) لأنماط من البيانات كوسيلة للتعامل مع المشاكل التى تواجه

باستمرار عمليات جمع وتفسير البيانات. أما المفاهيم المدققة فهي ضعيفة الصلة بالبيانات، بمعنى أنها إما أن تتلاءم مع البيانات أو لا تتلاءم. فالهدف من المفهوم الموجه هو هدف ارشادي في المقام الأول، يقترح خطوطاً أكثر من البحث حتى ولو تم الاستغناء عنها فيما بعد. كما أنه، بمجرد أن يصمد المفهوم الموجه لاختبار التحدي أمام المزيد والمزيد من الشواهد، فإن هدفه يصبح حينئذ طرح ركيزه لتوسيع نطاق المفهوم، والتطوير النظري. (انظر مزيد من التعليقات فيما بعد). وعلى العكس من ذلك، فإن المفاهيم المدققة تميل إلى الاستقلال بمضمونها، وبالتالي فإن علاقتها ببناء نظرية منظمة تكون أقل رسوخاً وثباتاً.

من هنا تعد المفاهيم الموجهة -بمعنى معين- مفاهيم موجهة للبحث النظري أكثر من كونها دالة على التلاؤم بين مفاهيم معينة وبين البيانات. وترتبط هذه الوظيفة التوجيهية بما اسميته الإحياء بنمط لتصنيف أو تنظيم بيانات البحث على نحو معين سواء قبل جمع البيانات كإطار مرجعي مسبق للمفاهيم، أو كسمة مستمرة ومتجددة لجمع وتحليل البيانات. على أن ذلك يجب ألا يعنى بالضرورة -كما أوضحت من قبل- إخضاع البيانات عنوة لمفاهيم موجودة سلفاً (انظر: مؤلف جلاس، ١٩٩٤، للوقوف على تعليقات نقدية لعملية الإخضاع عنوة) ولا يعنى استخراج النمط عدم الالتزام بطرح وجهة نظر حول المفاهيم بصرف النظر عن التغذية المرتدة من جانب البيانات. وفي ضوء ذلك فليس ثمة إخضاع البيانات عنوة لمفاهيم غريبة على نحو لا ضرورة له. ومع ذلك، فما تزال هناك حاجة إلى أن يبدأ الخيال النظري من خلال تجربة بعض الأطر المفاهيمية المؤقتة. إذ أن ذلك يعد عيباً أساسياً في النظرية المؤقتة، وذلك من وجهة نظر تعنى ضمناً أنه من الممكن أن يبدأ التنظير من منطلق غير نظري للمرة (انظر: جلاس وشتراوس في مؤلفهما، ١٩٦٧، وشتراوس ١٩٨٧، وجلاس ١٩٩٤).

إنه من الأفضل أن ندرك بوعى وتأمل افتراضات الفرد النظرية وأحكامه المسبقة، بدلاً من تخيل أن الباحث يبدأ من جديد في كل مرة يبدأ فيها بحثه. علاوة على ذلك فمن المؤكد أنه من الصواب القول بأن التنظير يمثل

بالضرورة ثمرة لكل من التصنيف المفاهيمي للمفاهيم (الاستنباط)، والاستقراء المفاهيمي للبيانات. وليس القول بأن هذه البيانات تزودنا وحدها بالفئات النظرية على نحو مستقل عن الأحكام التفسيرية (النظرية) التي يصدرها الباحثون. وسوف أقيم الدليل فيما بعد على أن رفض النظريات القائمة على أساس أنها نظريات مسبقة، وبالتالي غير ذات صلة بالبحث، وللاستقرار، وتأسيس النظرية على أساس من الواقع الأميريقي يعد مضیعة للأفكار النظرية والمفاهيم الموجودة التي ثبت أنها ذات قيمة دائمة.

من هنا، فإن بعض المفاهيم الموجهة توجه نحو فرض نظام معين على البيانات، ونستطيع أن نتبين ذلك فيما أثمره من اقتراح أفكار معينة. أولاً، تطرح المفاهيم الموجهة أشكالاً من تفسير البيانات من خلال تقديم وصفات محددة، وانحرافات عن الشواهد التي تم اكتشافها. فالمفهوم أو الفكرة سوف يوحى باختصار - بأن السلوك أو الأحداث أو الأبنية الاجتماعية - التي يتناولها البحث - تحدث لأسباب محددة. ثانياً، تقترح مثل هذه المفاهيم خطوطاً من البحث الميداني التي لم يتم تجربتها بعد. وقد ينطبق ذلك في بداية مشروع البحث من خلال تحديد مجموعة محددة من الأهداف أو خطة البحث قبل البدء في أي بحث. كما أن ذلك قد ينطبق في بعض المراحل المستمرة من البحث، حيث يؤدي استخدام المفهوم الموجه إلى اقتراح خطوط بديلة من البحث عوضاً عن تلك التي يتم انتهاجها. والأمر الأكثر شيوعاً أن استخدام المفاهيم الموجهة في البحث المستمر من شأنه أن يوضح أي الموضوعات والمجالات والأفراد يتعين دراستها فيما بعد.

وأخيراً، فمن المأمول أن تطرح المفاهيم الموجهة مفاهيم أخرى تغذي النظرية الناشئة كنتيجة لأساليب متباينة من المزج بين الاستنباط والاستقراء. ويتضمن الاستقراء -ضمنياً- أن النظرية الناشئة قد تكون في المحل الأول ثمرة للبحث الميداني (ومن شأن ذلك أن يؤدي إلى تشييد النظرية الموثقة بالصورة التي كان قد اقترحها كل من جلاسر وشتراوس في مؤلفهما الصادر عام ١٩٦٧). وعلى العكس من ذلك، فإنها قد تستمد من قوة الدفع المبدئية من التركيز على دلالات خطوط أخرى من البحث النظري. يجب أن نتذكر

أنه لا يجب - من وجهة نظر هذه المناقشة - فهم كل من هذه الخيارات من خلال مفاهيم بحثية. بمعنى أنه لا يوجد هناك شئ اسمه استنباط أو استقراء بحث. وإنما هناك - فقط - أنواع مختلفة من المزج أو المزاوجة بين الاثنين، ولو أنه أحيانا يميل نحو جانب أو آخر من المعادلة الامبيريقية والنظرية. وفي رأي أن الموضوع لا يعدو أن يكون مسألة تأكيد، لأن كل الدراسات الامبيريقية متخمة بالافتراضات والتوجهات النظرية. وعلى العكس من ذلك، نجد أن كل نظرية تعد في الواقع نظرية مؤقتة بمعنى ما، وإلا فإنها لن تكون نظرية بحق. إن ما يميز الأنواع المختلفة من النظرية المؤقتة هو مستواها من حيث المحتوى الإمبريقي، ودرجة التجريد، وقدرتها التفسيرية.

وعلى الرغم من أن المفاهيم الموجهة تطرح خطوطا للبحث والتفكير النظري، فإنه لا يجب التفكير فيها بوصفها مؤقتة تماما بطبيعتها، وكل ما تقدمه هو طرح الطريق الملائم لتفسير وتحليل البيانات في مرحلة مبكرة نسبيا من البحث. إن الميزة الكبرى لطبيعتها المؤقتة، أنه كلما زاد كم البيانات المتجمعة، فإن المفهوم الأساسي قد تتراجع أهميته، أو يتم التخلي عنه كلية، خاصة إذا تم التوصل إلى مفهوم آخر أكثر ملاءمة. وما أن تبدأ أهمية المفهوم الأساسي في التراجع، فإن ذلك قد يرجع إلى تطور وتحول المفهوم الأساسي - على نحو ما - كنتيجة لما تسفر عنه الشواهد الجديدة. وقد لا يكون مثل هذا التحول ايجابيا، بمعنى أن جدوى المفهوم يمكن أن تتراجع بمرور الوقت، ومن ثم يتم التخلي عنه على المدى الطويل. وعلى الجانب الآخر، فإن التحول قد يكون ايجابيا كلية، حيث يثمر في نهاية الأمر أفكارا ومفاهيم جديدة، ذات قدرات تفسيرية ووصفية أفضل وأكثر ملاءمة للبحث الجارى.

كما أنه من المحتمل - بالطبع - أن ينمو المفهوم الموجه الأصلي بقوة، ويحظى بالأهمية كلما تقدم البحث. ولهذا فإنه من المهم التأكيد على أن المرونة تعنى أنه يجب أن تتاح لها مساحة لتنمو داخليا - من خلال تحديد مكوناتها وخصائصها، وعضويا - مع البحث ككل. وهكذا، فإن الطبيعة المؤقتة للمفاهيم الموجهة يجب فهمها من خلال معنيين. الأول، أنه من المحتمل أن يتم الاستغناء عنه في المدى الطويل. والثاني أنه غير ذى شكل

مسبق محدد وثابت في المدى القصير. ويشير المعنى الثاني إلى المرونة الحقيقية للمفهوم. ونلاحظ من ناحية أخرى، أنه على الرغم من أن مثل هذه المفاهيم ذات قابلية -حقيقية- للتحويل أو إعادة الصياغة للتلاؤم مع الظروف المتغيرة، ولكن ذلك لا يعنى أن ذلك سوف يتحقق بالضرورة. كما أن تزايد أهمية المفهوم أثناء مراحل البحث الأولى ربما يدلنا على أن جانباً كبيراً من الشكل الأصلي، والقدرة التفسيرية للمفهوم تتأكد وتترسخ تدريجياً. وهكذا فإن تنامي قوة المفهوم سوف ترجع إلى تزايد الاحساس بمصداقية المفهوم القائم في سياق البحث.

وأياً كان السبب في استمرار أهمية المفهوم الموجه، فإنه من الأهمية القصوى ألا يسيطر المفهوم الموجه (أو مجموعة المفاهيم الموجهة) على التحليل بطريقة ديكتاتورية. ويجب أن يتميز -دائماً- استخدام المفاهيم الموجهة بالمرونة، مع ضرورة أن نضع في اعتبارنا في نفس الوقت عملية جمع البيانات المستمرة، والأفكار النظرية الناشئة، وألا تصبح المفاهيم الموجهة أمراً مقدساً لا يحل انتهاكه، أو جزءاً من عقيدة تحليلية تحول دون ظهور أى أفكار أو مفاهيم أو خطوط جديدة للبحث. وهكذا فإن المفهوم الموجه سيؤدي دوره كمفهوم محوري بشكل مؤقت، وكوحدة تحليلية تتمحور حولها عملية ترميز البيانات وتحليلها. ولكنى لا أقصد -مع ذلك- المعنى الذي حدده جلاسر وشتراوس للمفهوم المحوري، فأنا لا أقصد به أن يصبح بصورة آلية الفكرة الأساسية (المفهوم أو المقولة) التي تدور حولها باقى التحليلات والمفاهيم الأخرى. ففي رأى جلاسر وشتراوس أن المفهوم المحوري لا يتحقق إلا بعد توافر قدر معقول من البيانات المتجمعة وبعد الترميز المؤقت، والتحليل. ففي رأيهما أن جوهر الفئات ينبثق من عملية جمع وتحليل البيانات المستمرة، ويتسق هذا التابع الاجرائى (المنهجى) مع فكرتهما عن أن النظرية الموثقة يجب أن تتجنب استخدام نظرية (أو مفاهيم) متصورة سلفاً، لأن ذلك سيؤدي -بصورة آلية- إلى افتراض دلالات معينة للبيانات في المرحلة السابقة على جمع البيانات نفسها.

والحقيقة أن محور الارتكاز في الاتجاه -الذي ادافع عنه هنا- يتمثل في تشجيع هذا النمط من الدلالات المتوقعة مسبقا للبيانات باعتبارها وسيلة محورية لبدء عملية التنظير. إن السبيل الوحيد المؤدى لأن يصبح مثل هذا الاجراء مشكلة فيما يتعلق باخضاع البيانات عنوة يحدث عندما يتم استخدام المفاهيم الموجهة بطريقة ديكتاتورية وغير مرنة. إن اصرار جلاسر وشتراوس على أن النظرية يجب أن تتبثق تحديدا من البيانات، حتى يمكن الادعاء بأنها نظرية موثقة بحق إنما هو شكل من أشكال التفكير القطعى (الدوجماتيقي) حيث أنه يعوق الطرق الأخرى عن الاستمرار بسبب اعتبارات مسبقة. فمثل هذا الرأي يرفض على وجه الخصوص مواجهة الحقيقة المزعجة، وهى أنه لن يتسنى البدء فى تحليل وتنظير وتفسير جوانب الحياة الاجتماعية، إلا إذا كان لدى الباحث بالفعل افتراضات وأفكار معينة عن العالم الاجتماعى. ومن شأن تجنب هذه الحقيقة أن يؤدى إلى استجلاب زائف للإفتراضات والقيم والأحكام المسبقة، والمواقف النظرية المسبقة من العالم الاجتماعى فى التحليل، حتى دون أن يعى الباحث ذلك. إن المدخل - الذى أدافع عنه- يأخذ مأخذ الجد المسلمة الفلسفية وهى أن الملاحظة دائما ما تكون مشبعة بأفكار نظرية، وأنه يمكن الاستفادة من تلك الحقيقة بالتعامل معها بطريقة منتظمة.

إن اتجأهى هنا يناقض اتجاه كل من جلاسر وشتراوس، لأنى أصر على أنه يمكن البدء بنظرية متصورة سلفا فى شكل مفاهيم موجهة، مع الادعاء بأن النظرية من الناحية الإمبيريقية قد استقرت. وأنا أقول "استقرت" بمعنى الادعاء بأن ذلك الاستقرار مستمد فعلا من البيانات. ثم أن هذا المصطلح يتميز عن مفهوم التوثيق (كما فى قولنا النظرية الموثقة)، حيث يبدو أنه يعنى ضمنا موقفا إمبيريقيا متميزا. فالانطلاق من نظرية متصورة سلفا لا يعنى أنها تفرض تفسيرا جامدا متصليا على البيانات. ويتوقف حدوث ذلك فى الواقع فعلا على كيفية استخدام النظرية أو المفاهيم، وما إذا كانت مخاطر استخدامها بصورة دوجماتيكية أو ديكتاتورية أصبحت تحدث بصورة متكررة كجزء من عملية البحث أو التحليل المستمرين. إن موقف جلاسر وشتراوس يشبه كثيرا موقف منظرين آخرين من أصحاب الاتجاهات

الإنسانية أو التفاعلية، أو الفينومينولوجية يصرون على أن النظرية المسبقة (فى شكل مفاهيم أو أطر مرجعية نظرية) يجب ألا تلعب دوراً رسمياً فى البحث والتحليل الاجتماعى (انظر: براين، ١٩٦٦، وبلومر، ١٩٦٩، ومقال بيكر وبوك المنشور فى مؤلف بوك ١٩٧٩).

ولكن هذا الاتجاه يتداخل -أيضاً- مع أعمال كل من كتاب الاتجاه النسوى، واتجاه ما بعد الحداثة، الذين يرفضون فكرة النظرية بسبب صلتها المزعومة بالاتجاه ذى النزعة الموضوعية، والمدخل العلمى اللذين ينكران الأصوات الحقيقية لهؤلاء الخاضعين للبحث والدراسة (انظر: ستانلى واير، ١٩٨٣، وروزينو، ١٩٩٢). وبالمثل فإن علماء ما بعد الحداثة (أمثال فوكو وليوتار و بودريار) يتجنبون النظرية كما فى نموذج الاستخدام غير المشروع للنظرية العامة، أو الأسلوب القصصى. وفى رأى أن هذه الانتقادات خاطئة وفى غير محلها وسابقة لأوانها، وغير وافية بالغرض كوسائل للتفاهم والتحاور مع العلم الاجتماعى فى مرحلة ما بعد الامبيريقية، وما بعد الوظيفية. ويرتكز موقفى على دفاع قوى عن أهمية وكفاءة النظرية الاجتماعية الحديثة لأنها مستمدة من خلال المشروع الكلاسيكى لعلم الاجتماع والتقاليد الامبيريقية والنظرية التى تؤيدها (انظر: لايدر، ١٩٩٧). وبهذا المعنى يلتحم موقفى مع مواقف النقاد الآخرين لاتجاهات ما بعد الحداثة، والنزعة النسبية (انظر: الكسندر ١٩٩٥، وأرتشر ١٩٩٥، وبريانت ١٩٩٥، وموزيليس ١٩٩٥).

إن الدفاع عن شكل معتدل من الموضوعية (انظر: الكسندر ١٩٩٥، ولايدر ١٩٩٧) كوسيلة للتفاهم مع الارتباطات المتبادلة بين عالم الحياة والملاحم النسقية للحياة الاجتماعية (بما فى ذلك الاسهامات المتضافرة للفعل والبناء) لا يستلزم الحط من قدر الفاعلين من العوام (غير المتخصصين) كما يدعى جيدنز (١٩٧٩). كما أن استخدام النظرية الشكلية والعامة يقيم أو ينكر الخبرات المعاشة، أو الروايات المحلية لموضوعات البحث كما يدعى علماء ما بعد الحداثة، والنسبية والنسوية. والواقع أن الالتزام بالموضوعية المعتدلة مقترنة بتوظيف النظرية العامة، من شأنه أن يفتح الآفاق لإمكانية التطبيق،

والقدرة على الوصول للمعرفة من خلال تبني إطار مرجعي عام. إن مثل هذا الاطار المرجعي قادر على استيعاب عوالم الناس الذاتية ذات الدلالة، في نفس الوقت الذى يسجل فيه الاشكال والابنية والنظم الاجتماعية، والثقافة والمعرفة، وما إلى ذلك، التى تمتد فيما وراء ذلك وتشكل خلفية لعناصر عالم الحياة (ويطلق عليها بوبر فى مؤلفه الصادر عام ١٩٧٢ ظواهر العالم رقم ثلاثة).

إن اسقاط المفاهيم الشكلية والنظرية العامة يمثل خسارة كبيرة لأفكار نظرية جيدة موجودة، كما يصير جلاسر وشتراوس على أن النمط الوحيد الهام والفعال للنظرية هو النظرية الموثقة والمنبثقة من داخل مشروعات بحثية محددة (ومن ثم تقتصر على تسجيل عوالم الأفراد الفريدة). إن مثل هذه المواقف تؤدي إلى خسارة مدمرة لكم هائل من المواد النظرية لأنها تغفل، أو تتجاهل ببساطة المفاهيم والأفكار النظرية التى ثبتت فى الماضى - أنها أدوات تفسيرية مفيدة. ومن شأن ذلك أن يؤدي بنا إلى التخلي عن القابلية المحتملة لتطبيق هذه المفاهيم والأفكار فى البحث والتحليل المعاصر كوسيلة لفهم أو لتفسير أو لتنظيم البيانات الإمبريقية الجديدة المتجمعة. كما أن تحريم استخدام مثل هذه المواد النظرية القائمة يعنى أن إمكانياتها كتغذية مثمرة، وسبل أو موصلات لتأسيس وتطوير مداخل وأفكار نظرية جديدة قد تم تجاهلها.

ولننظر مليا - على سبيل المثال - فى الأفكار النظرية التالية المأخوذة - عشوائيا - من أعمال ماركس ودوركايم وفيبر.

فيبر : البيروقراطية، الضبط البيروقراطي، تدرج، المكانات والسلوك المهني المحدودة إداريا، القواعد المنظمة واللوائح، الترشيح.

ماركس : علاقات الانتاج، نمط الانتاج، البناء التحتي الإقتصادي، السيطرة الطبقيّة، الصراع الطبقي، الأيديولوجيا، الاستغلال.

دوركاييم: التضامن العضوى، التضامن الآلى، درجة التكامل، الأنومى، أنماط الانتحار وأسبابه، الوعى الجمعى، التحول إلى الفردية، تقسيم العمل.

لقد أشرت إلى هذه الأفكار النظرية لأنها نماذج ملائمة، ولكنه بوسعنا من حيث المبدأ كتابة قائمة طويلة من المفاهيم والأفكار المناظرة مستخلصة من أعمال كتاب أكثر حداثة مثل بارسونز، وميرتون، وجولدنر، وفوكو، وجوفمان، و هابرماس، وجيدنز وآخرين. وفى رأى، أنه يجب أن يكون استخدامنا لمثل هذه المفاهيم والأطر المرجعية والأفكار النظرية استخداما ابداعيا فى شكل مفاهيم موجهة، لنتبين ما يمكن أن تسفر عنه فيما يتعلق بما سوف أطلق عليه "المجال التفسيري النوعى الشامل". ومن خلال استخدام هذه المفاهيم والأطر المرجعية والأفكار النظرية كمفاهيم موجهة يمكن ضمنا اكتشاف مدى المساعدة التى يمكن أن تقدمها هذه المفاهيم فى تفسير مشكلات البحث التى لم تكن مصممة من أجلها أساسا. ويعنى ذلك أن يتم التأكد مما إذا كانت تلك المفاهيم ملائمة أو مناسبة لتحليل مشكلات البحث الجديدة، أو المجالات الإمبريقية، مثل المجالات البيئية التى ذكرتها من قبل. وفى هذه الحالة، فإننا نسأل ما إذا كانت هذه الأفكار أو المداخل أو المفاهيم يمكن إعادة صياغتها أو توسيع نطاقها أو تنقيحها، وتتسع لتتضمن بيانات إمبريقية جديدة، أو موضوعات جديدة للبحث. كما أن قيام الباحث القائم بالتحليل بإعادة تشكيل المفاهيم تبعا للظروف الإمبريقية المتغيرة، فإن النظرية الناشئة يمكن أن تتعرض لعملية مسخ أو تحول، وتتبدى فى شكل بديل تبعا لما تمليه ظروف البحث المختلفة. على أننا لن نستطيع أن نتعرف على هذه الأشكال المتحولة، إلا إذا حاولنا أن نختبر أو نطبق المفاهيم والأفكار الأساسية أولا وقبل كل شئ. وما لم يتم اختبار مرونة الأفكار النظرية المسبقة، فلن نستطيع أن نتعرف على مدى جدوى هذه التحولات، وخطوط البحث النظرية والامبريقية المتولدة نتيجة لذلك.

وتستهدف مناقشتى هنا فى مجموعها إثراء الطبيعة التراكمية للمعرفة السوسيولوجية بصفة عامة. لقد ذهبت إلى أنه لن يمكن أن تتضافر كل الجهود

بطريقة تراكمية إلا من خلال ربط الأفكار النظرية معا في سياق البحث (الأمر الذى يشجع التشعب والتطوير). وهكذا، فإننى ضد التوجهات اللانظرية أو المضادة للنظرية التى نصادفها فى نظريات ما بعد الحداثة، والنسوية، والنسبية. كما أننى ضد التوجهات المناوئة للنزعة الصورية فى النظرية الموثقة، على أساس أن هذه التوجهات لا تقدم شيئا من شأنه أن يساعد على تراكم المعرفة السوسيولوجية. ويرجع ذلك فى الأساس إلى أنهم يفصمون أى تحليل اجتماعى عن أى أساس مستمد من التراث والتقاليد، أو استمرارية مترتبة عليه فى شكل بناء قائم من النظريات والمفاهيم وأطر العمل المستقرة. إن هذه الاتجاهات المضادة للنظرية التى تتجنب النظرية العامة، تشكل قطيعة حادة مع عناصر الآراء السوسيولوجية والتراث، ومن ثم تتسبب فى مشاكل صعبة لاعادة بناء المعرفة السوسيولوجية من العدم.

من المهم تجنب السير فى هذا الطريق المسدود الذى لا يلوح له أى مخرج، وذلك من خلال تحقيق الاستمرارية مع التفكير السوسيولوجى بأكمله. فالباحثون الذين يقطعون كل صلة لهم بكل من المفكرين المحدثين والكلاسيكيين، وبالنظريات القائمة التى أسهمت فى تشكيل الوعي السوسيولوجى، يلعبون دورا إيجابيا فى تفتيت المعرفة السوسيولوجية. ومن شأن مثل هذا الاتجاه -وكما أشار ميرتون منذ فترة (١٩٦٧) - أن يخلق جزرا صغيرة ذات قيمة من المعرفة، ولا يساعد على التراكم الكلى للنظريات والبحوث. وعلى الرغم من وعى كل من جلاسر وشتراوس بهذه المشكلة، وتأكيدهم للحاجة إلى التحول من النظرية الخاصة بموضوع معين إلى ما يطلق عليه النظرية الشكلية، فإن اتجاههما فى عمومهما يرفض كافة أشكال النظرية العامة، واستخدام النظرية القائمة من قبل. فمن شأن مثل هذا الموقف أن يعزز عملية تفتيت المعرفة السوسيولوجية من خلال منح الأولوية لشكل معين من علاقة النظرية بالبحث.

تدقيق النظرية

انتقل فيما يلي إلى التساؤل حول كيفية توليد النظرية والمفاهيم، من خلال التطوير النظرى للمفاهيم الموجهة. يقودنا ذلك إلى تطوير أطر عامة للمفاهيم، وأفكار نظرية أكثر شمولاً، لأن معظم الآراء التفسيرية أو الوصفية المناسبة تتطلب استخدام مجموعات من المفاهيم المترابطة، أكثر من استخدام مفاهيم منفصلة أو تربط بينهما علاقة ضعيفة. إن التدقيق النظرى انطلاقاً من المفاهيم والمقولات الأساسية من شأنه أن يحقق الحد الأقصى من القوة للروابط بين المفاهيم الأصلية، وتلك التى تنشأ عنها فيما بعد. إن فكرة المفهوم "المحورى" تساعدنا على التفكير على أساس مجموعة المفاهيم المترابطة التى تنشعب نحو خارج هذا المحور، كما فى الشبكة أو الخلية.

وبيت القصيد هنا هو تطوير إطار عمل مفاهيمى أولى يعتمد إلى حد ما على جمع البيانات وتحليلها. إن بعض المفاهيم الأخرى تم اقتراحها أو استخدامها بالفعل فى نطاق التراث الموجود على نحو ما، مثل مفهوم فيبر عن التنظيم البيروقراطى، الذى ارتبط بعدد من المفاهيم القريبة منه مثل التدرج، والسلك المهنى، والتحديد الرسمى للمكانات، وما إلى ذلك. وبالرغم من أن ذلك يمكن أن يكون عوناً نافعاً، فإن هناك خطورة أنه قد يشجع الباحث على إخضاع البيانات عنوة لكى تتوافق مع مقولات موجودة من قبل، لمجرد أنها متاحة، وبالتالي لا تتطلب جهداً نظرياً إضافياً. وفى ضوء ذلك يجب استخدامها فى شكلها الحالى وبحذر.

ومن الأمور الأكثر أهمية لتأسيس النظرية، والخطوط النظرية للتفكير حقيقة مؤداها أن المفاهيم المتقاربة يمكن توليدها من المفاهيم المحورية من خلال ثلاث طرق أساسية. الطريقة الأولى يمكن اشتقاقها منطقياً واستنباطياً من المفاهيم المحورية (أو المفاهيم فقط). الطريقة الثانية يمكن اشتقاق المفاهيم المتقاربة أو الدقيقة من العمل الامبيريقى - أى البيانات أو المعلومات التى تم الكشف عنها - وهكذا سوف تستند بالدرجة الأولى على إجراء استدلالى. وهنا يتعين التأكيد على أن أياً من هذه العمليات لا يجب فهمها على

أنها عمليات استدلالية أو استنباطية خالصة، فهناك دائما عناصر من كل منهما في أى إجراء تحليلي. وما يقصدونه حينئذ (باستدلالية أو استنباطية) هو موقف يكون مركز الثقل فيه أو محور الاهتمام أحد هذين النوعين من العمليات لا أكثر. وهكذا فإن الطريقة الثالثة، التي قد تكون أكثر الاحتمالات شيوعا تتمثل في حالات الارتباط المتساوي نسبيا بين المنهجين.

التدقيق الأولى

ذكرت من قبل أنه من الأفضل أن ننظر إلى المفهوم المحوري باعتباره المركز المحتمل لشبكة المفاهيم التي تمتد خارجه ومنطلقه منه. ولا يهم في البداية كيفية ارتباط هذه المفاهيم الأخرى بالمفهوم المحوري، وذلك عندما يدخل في المعادلة الجانب الإبداعي في تشييد النظرية. فالشيء الحاسم والمهم في بداية هذه الأمور هو بلورة عدد من المفاهيم التي تبدو مرتبطة بالمفهوم المحوري، وهي المفاهيم التي يمكن وصفها بأنها مفاهيم تابعة تدور في فلك المفهوم المحوري. ومن الناحية العملية يعنى ذلك ببساطة وضع قائمة بالمفاهيم الممكنة من خلال التفكير في تفرعات ودلالات المفهوم المحوري بطريقة منطقية. وأفضل منهج يمكن استخدامه هو التفكير فيها باعتبارها أبعادا وخصائص وسمات إضافية متضمنة في المفهوم المحوري. فلو تصورنا - على سبيل المثال - أن الباحث تأثر بدراسة هوخشيلد (١٩٨٣) عن "العمل العاطفي المأجور" (خاصة كما يتحدد في مهن بعينها مثل مضيفي شركات الطيران)، وبالتالي قرر اتخاذ مفهوم العمل العاطفي المأجور كسمة تحليلية محورية في مشروع بحث معين. ومن خلال قراءة متأنية لدراسة هوخشيلد عن المضيفين الجويين، ومن خلال التفكير في دلالات هذا المفهوم بصورة عامة، يصبح بوسع الباحث أن يتوصل إلى قائمة مثل التي سترد بعد قليل. ويمكن في البداية سرد الأبعاد العامة للعمل العاطفي المأجور التي أطلقت عليها مسمى "مصادر"، "ونتائج" و "جوانب بنائية" للعمل العاطفي المأجور، ثم انتقلت بعد ذلك إلى سرد الفئات والمفاهيم المرتبطة بكل بعد من هذه الأبعاد العامة.

*المصادر: مطالب الشركة (للعمل العاطفي المأجور)، المتطلبات التفاعلية (من جانب المسافرين)، الضغط الاجتماعي النفسي.

* النتائج: الارهاق العاطفي، الاحتراق العاطفي، العواطف الحقيقية والزائفة، النفوس الحقيقية والزائفة، الاسقاط الذاتى، تصوير الذات.

* الجوانب البنائية: المهنة، العمل (الذى يتطلبه العمل العاطفي المأجور)، تقسيم الوظائف على أساس النوع.

ولا ادعى أن تلك القائمة تتسم بالشمول، أو أنه يتعين على الباحثين الآخرين التعامل معها، ولهذا فإن هذه الأبعاد تعكس إلى حد ما اهتماماتى وشغلى الشاغل. وإنما المقصود بها على أى حال هو توضيح مقولة التدقيق النظرى. ويمكن إعطاء مثال آخر، فإذا كان المفهوم المحورى هو المهنة يصبح بوسعنا طرح القائمة التالية:-

* علامات التقدم: المراحل الحاسمة ذات الدلالة، نظام تتابع المكانات (نقطة البداية ونقطة النهاية)، طبيعة التقدم (المحددة بوضوح أو الغامضة أو الهلامية)، النتائج المؤكدة وغير المؤكدة، إيقاع التقدم (زمانيا ومكانيا).

* الأمور العرضية: المناسبات المهمة، اللحظات المصيرية، فترات الأزمات، فترات التحول، التغيرات فى الهوية الذاتية.

* الضبط: من الذى يتحكم فى السلك المهني (تحكم الأطباء فى المسار المرضى للمرضى، وتحكم الوكالات فى الممثلين)، أنماط الضبط، توازن القوة (مسار الزواج أو الصداقة).

* السياق: السياق الموضوعى والذاتى للمسار المهني، السياق الرسمى/ وغير الرسمى، تحديد السياق من وجهة نظر السوق أو وجهة نظر صاحب العمل أو التنظيم (الممثلون فى مقابل الموظفين المدنيين)، الاستمرارية/ وعدم الاستمرارية، السلك المهني المتعدد (العمل - المرض، وقت الفراغ، نمط الحياة، الصداقة) تداخل السياقات (عددها)، طبيعة الارتباط المتبادل.

من خلال وضع الأشياء فى قائمة بهذه الطريقة يمكن اختبار وفرز المفاهيم التابعة الضمنية، التى ترتبط بالمفهوم المحورى للسلك المهنى. يتضمن هذا المثال مستويين. البعد الأساسى لتحليل السلك المهنى الذى ضمنته القائمة هى علامات التقدم، والأمور العرضية، والضبط، والسياق. ولا شك أن فكرة السلك المهنى -كما تضمنت القائمة- هنا ذات قابلية للتطبيق واسعة النطاق، ومتصلة بكل من السلك المهنى (أو العمل) وعدد من أنواع الأنشطة الاجتماعية الأخرى وأشكال الاندماج، كالمسار الإجرامى أو الانحرافى، والمسار المرضى، ومسار العلاقات وما إلى ذلك. ويطبق المفهوم على أى نشاط اجتماعى يتضمن تغييرات متتابعة فى المكانة عبر الزمن، وصولاً إلى نقطة نهاية محددة (أو مكانة نهائية). ولهذا فإن القائمة يمكن توظيفها كدليل ابتدائى يساعد فى تحديد المجالات العامة التى يجب أن توضع فى الاعتبار عند تحليل المسار المهنى كمفهوم موجه. وكلما كانت القوائم أكثر دقة فى تحديد المفاهيم المتصلة بكل مقولة من المقولات الأساسية كلما كانت أكثر عوناً فى تحديد السمات والخصائص التفصيلية لهذه الأبعاد الأساسية.

لقد تبينت بعضاً من هذه الأبعاد والخصائص من دراسة جلاسر وشتراوس (١٩٧١) وذلك برغم شكوكى القوية فى اتجاههم المنهجى والنظري ككل (انظر: لايدر ١٩٩٠، ١٩٩٣، ١٩٩٧). ونظراً لأن هذا المجال خضع لدراسات متعمقة، فإن كثيراً من الأبعاد والخصائص قد استخدمت من قبل بصورة أو بأخرى يمكن تحديدها والتعرف عليها من خلال مسح التراث. إلا أنه يمكن من خلال تجميع هذه الأبعاد والخصائص معاً بوسائل معينة، وفى إطار علاقتها بسياقات بحثية، ومشكلات وأهداف معينة يستطيع الباحث أن يبدأ فى التوصل إلى منظورات جديدة بشأن مشكلات معينة. ولا شك أن مجرد تدوين هذه الأبعاد والخصائص فى قائمة يحفز الخيال النظرى، كما ينشط عملية انشاء شبكة من المفاهيم ذات العلاقات المتبادلة.

إن إنشاء مثل هذه الشبكات يسمح للباحث بتناول القضايا ذات الطابع النظرى أساسا. ويعنى ذلك، أن نقطة البداية هذه تسمح لنا أن نطرح أسئلة بشأن كيف ولماذا عن المجال موضع الدراسة، كما أنها تقدم اجابات مؤقتة لمثل هذه الأسئلة. ويمكن القول على أى حال، وكما اوضحت تواء، أن الدينامية الكلية للعملية يتم تغذيتها من خلال تطبيق التفكير النظرى على المشكلة الإمبيريقية، أو على مجال الدراسة، وهى بمثابة التأثير المتبادل بين الاثنين الذى يسمح بتدقيق النظرية القائمة إمبيريقيا. فأبعاد وخصائص العمل العاطفى المأجور مثلا -كما أوردتها فى قائمة من قبل- ترتبط بالدرجة الأولى بدراسة هوخشيلد عن مضيفى الطيران (وبصفة أساسية المضيفات). ولكن يمكن أن يكون لمصطلح العمل العاطفى المأجور دلالاته بالنسبة لعدد من المجالات البحثية الأخرى. فالتدريس فى المدارس، والتمريض فى المستشفيات يتطلب عملا عاطفيا مأجورا فى سياق مهنى مختلف تمام الاختلاف، بينما هناك جوانب أخرى من الحياة الاجتماعية تتطلب أنماطا أخرى من الاهتمامات العاطفية مثل الزمالة، والزواج، والصداقة، بل إن تلك العلاقات بين المعارف العرضيين أو الغرباء تتطلب مستويات متغيرة من الالتزام العاطفى (أو - عكسه - وهو التبعاد والجفاء).

وبعد التحديد الدقيق للمشكلة الإمبيريقية أو المجال موضع اهتمام الباحث، يمكن البدء فى جمع وتصنيف المفاهيم التى تتعلق بالمشكلة الإمبيريقية المحددة موضع الدراسة. فلو كان التدريس فى المدارس مثلا - هو موضع الاهتمام، فإن الباحث يطرح أسئلة عن طبيعة العمل العاطفى المأجور المتضمن فى أداء هذا العمل، مثل إلى أى مدى يماثل أو يختلف عما هو مطلوب من المضيفين الجويين؟ إلى أى مدى يوجد ما يقابل طلبات الشركة فى مهنة التدريس؟ بمعنى هل يهتم رؤساء المدرسين فى العمل اهتماما خاصا بتوفير مهارات العمل العاطفى مع الأولاد كما هو الحال مع المسافرين على الرحلات الجوية؟ إلى أى مدى تلعب الاعتبارات التجارية دورا فى مستويات وأنماط العمل العاطفى المأجور التى تؤدى داخل الفصل الدراسى؟ هل يرتبط ذلك بقضية العواطف الحقيقية أو الزائفة، والمشكلات المرتبطة بالمشاعر تجاه الذات وتصوير الذات؟ ومن شأن ذلك أن يؤدى إلى

تطوير فروض مهمه فى البحث، بمعنى أنه يجب على الباحث أن يضمن أن هناك عددا أقل من المشكلات يتعلق بمصداقية التعبير العاطفى، وما يترتب على ذلك من مشاعر خاطئة تجاه المدرسين بالمقارنة بالمضيفين الجويين. وقد يرتبط ذلك بمدى الضغط التجارى، وبطبيعة جماعة العملاء (بالخون مقابل أطفال)، وبطبيعة الاعمال التى تؤدى (توفير الاحتياجات المادية للمسافرين، مقابل تلبية الاحتياجات التعليمية والأخلاقية والنفسية والعاطفية للأطفال).

ويمكن -حينئذ- أن تتقاطع الأسئلة مع أسئلة أخرى، مثل إلى أى حد يمكن تطبيق مصطلحات التحمل العاطفى الزائد، والاحتراق العاطفى على المدرسين، وإذا كان الأمر كذلك فعلا، فهل نحن نتعامل تماما مع نفس الظاهرة عند مقارنتها بمهن أخرى مثل الضيافة الجوية، أو المديرين التنفيذيين فى الشركات؟ ونعود إلى القول مرة أخرى، أن الباحث قد يرغب -مثلا- فى دراسة الفرض القائل بأن التحمل العاطفى الزائد، والاحتراق العاطفى يعدان نتيجة من نتائج ضغوط العمل، والمسئوليات الأخلاقية للمدرسين، أكثر من كونهما نتيجة للضغوط التى تدفع الفرد لأن يكون زائفا فى مشاعره وغير ودود، والتى تبدو أكثر ارتباطا واتصالا بمجالات العمل التجارية. وهكذا نرى أن الظروف الإمبيريقية الخاصة المحددة تؤثر فى أنواع الأسئلة التى تطرحها حول الموضوع، وبالتالي فإن ذلك من شأنه أن يؤثر فى الطريقة التى تتشكل بها مجموعة المفاهيم. ويتم تصنيف المفاهيم والأبعاد، والخصائص فى مجموعات إلى جوار بعضها البعض بطرق مختلفة تبعا للظروف الإمبيريقية التى تتجلى فى ظلها، ولكن طريقة التصنيف ذاتها هى التى تحدد كيفية التساؤل عن كيف ولماذا، وتحدد كذلك الاجابات، أو على الأقل تقترح خطوط البحث التى يمكن أن تقود إلى وضع فروض تتطلب الاختبار والدراسة.

إذا كان المفهوم الأصلى عن "المسار المهنى"، فإن الباحث يبدأ فى طرح أسئلة تركز على الطريقة التى ترتبط بها السيطرة على تحركات المكانة فى داخل المسار المهنى بمعدل تقدم الأفراد أو الجماعات خلال المهن موضع

الدراسة. يتضمن ذلك قوة نظرية أو تفسيرية، عندما نضع في الاعتبار بعض الدلالات الإمبيريقية، مثل معدل التقدم في المسار المرضى، وتأثيرات الضبط المشتركة للمرضى وأعضاء الفريق الطبي المختلفين. ونستطيع أن نفهم بسهولة أكبر المدلول النظرى لذلك، لو تمت مقارنته بمسارات أخرى تكون المكانات داخلها محددة بوضوح أكبر، والتقدم واضحاً ويمكن تمييزه من خلال قطاعات مختلفة، كما هو الأمر في المسار المهني للمديرين.

ترتبط قضايا الضبط هذه بمسائل تتعلق بوضوح بعلاقات التقدم، ومن الذي يضمن عليها الشرعية (الأطباء مقابل المرضى عبر معدلات الشفاء من أمراض مختلفة). كما ترتبط أيضاً بقضايا تهتم بمستويات عدم الأمان والاستقرار الموجودة في الترقى والتدرج البيروقراطي مقابل الأساس السوقى لبعض المسارات المهنية (كما هو الحال في الفنون والألعاب الرياضية) حيث يعتمد الحراك إلى أعلى سلم المسار المهني على رسوخ قيم السوق، التي تعتمد بدورها على السمعة (انظر: كاتنر، ١٩٨٩، ص ٥١٢). وبالمثل، يمكن طرح أسئلة حول كيف ترتبط أبعاد أو خصائص المسار المهني ببعضها البعض، وكيف تؤثر الخبرة العرضية على التقدم المهني واتجاه الحراك على السلم المهني، وقرار الفرد بالتخلي عن مهنته أو تغييرها؟. فالزواج على سبيل المثال يمكن أن ينهار بسبب المشاحنات الخطيرة (أو نتيجة سلسلة من الخلافات)، ومن ثم يؤدي إلى تخلى أحد الزوجين عن الآخر. إن مثل هذه العوامل النفسية أو العرضية - مثل الإدراك المفاجئ أو التدريجي لشخص ما بحقيقة رغبته الجنسية - ربما يتضمن تغيير سلوكه الجنسي، أو ربما أيضاً تغيير شريكه.

التدقيق الثانوى

سوف أوضح كيف أن هذا النمط من التدقيق النظرى ينطلق من التركيز على واحد أو أكثر من المفاهيم التابعة التي يمكن توليدها من خلال هذا النمط من التصنيف. ولهذا الغرض سوف أتابع التطبيق على مثال المسار المهني. فمن حيث المبدأ يمكن معالجة كل بعد أو خاصية بنفس الطريقة التي تم بها معالجة المفهوم الأصلي الموجه، باعتباره الأساس لتوليد مجموعات

أخرى من المفاهيم، والخصائص، والسمات. وهناك ما يسوغ النظر إليه في بعض الأحوال على أنه تقسيم فرعى للمجموعة الأساسية. ولكن المجموعة الثانية يمكن أن تحظى بأهمية كبيرة وتصبح المحور الأساسى للاهتمام النظرى، تبعا لاتجاه وميول مجموعة البحث. فالمثال الإمبيريقى مثلا- قد يدلنا على أن قضية التحكم فى حراك المكانة داخل المسار المهني ذات أهمية خاصة، ومن ثم يستطيع الباحث أن يختبر هذه الفكرة بصورة أكثر عمقا، من خلال توليد مجموعات اضافية من الأبعاد، والأسئلة، والمفاهيم، والخصائص على النحو التالى:

* طبيعة التحكم: ما الذى يتطلبه التحكم؟ ضبط النفس، التحكم فى الآخرين، التحكم فى مصير انسان (أو مستقبله المهني)، التحكم فى الموارد (الملكية، الأموال، رأس المال).

* أشكال التحكم: التحكم من خلال قوة الشخصية (التحكم الكاريزمى)، التحكم من خلال الثواب (دافع) والعقاب (الاكراه)، التحكم من خلال امتلاك القوة أو التأثير أو السلطة (كيف تتباين؟ وهل هى متصلة ببعضها البعض)، التحكم المباشر وغير المباشر (الوسيط).

وبعد البداية بالتركيز العام على المفهوم الموجه للمسار المهني، ربما يكون من الواضح ارتباط مشكلة البحث بمقولة التحكم نفسها. وهكذا فإن التحكم -أو بعض فروعها- ربما يحل محل الاهتمام الأساسى بالمسار المهني. وقد يحدث بهذه المناسبة أن يتم اسقاط فكرة المسار المهني كلية، وذلك عندما يدرك الباحث الأفكار والمفاهيم التى تبرز أمامه. وسنلاحظ على أى حال أن المفهوم الموجه المحورى سوف يخدم الهدف منه من خلال قيامه بدور المعبر نحو مجموعة جديدة من الأفكار والاهتمامات المتصلة بالمفاهيم. ولكن نجد - من ناحية أخرى- أن ذلك ليس بالأمر الحتمى، لأن مفهوم المسار المهني (وأبعاده وخصائصه الفرعية) ربما تبقى فى خلفيتنا الذهنية كأمر ضرورى، ولكنها تظل مفهوما ثانويا بالضرورة. وفى هذا الشأن سيكون الأمر مجرد تحول فى بؤرة الاهتمام من خلاله تبدأ خصائص مختلفة من التحكم فى احتلال صدر اهتمامات البحث.

التدقيق الثلاثي: الاعتماد على نظرية عامة

ربما تتابع عملية تدقيق النظرية مسارها نحو مرحلة متقدمة عندما تدخل ضمن إطارها المرجعي بعض جوانب النظرية العامة. ونلاحظ هنا مرة أخرى أن هذه لا تعد عنصرا ضروريا بصورة مطلقة لإقامة كل النظريات، وهو ما يصدق أيضا على عملية التدقيق الثانوي. ويتوقف ذلك إلى حد كبير على التسلسل الطبيعي لعمليات التدقيق الأولية - أي فهم الجوانب المنطقية والعقلية المؤثرة - والظروف الخاصة بالبحث نفسه أيضا. وعلى الرغم من أن ذلك ليس ضروريا، فأننى أرى أنه يتعين ممارسة ذلك كلما سنحت الفرصة، لأنها تفتح لنا طريقا آخر تجاه التراكم العام للمعرفة السوسيولوجية. ويعنى ذلك، أن أى محاولة لوصف الصلات بين النظريات الشكلية والموضوعية ترتبط بمجالات معينة من البحث أو ببحوث معينة، وسوف تساعد النظريات والأطر المرجعية الأكثر عمومية فى التأليف بين عناصر المعرفة السوسيولوجية والربط بينها، وهى العناصر التى كان يمكن دون هذا أن تظل مفتتة ومتضاربة.

إن توضيح مثل هذه الروابط أمر حيوى للنمو الكلى للمعرفة العلمية الاجتماعية، لأنه يوجد لسوء الحظ اتجاه لاستبعاد تطوير الأفكار النظرية العامة بصورة ما - من البحث الإمبريقي أو الموضوعي. وهناك دائما بالطبع استثناءات، ولكن يوجد اتجاه عام نحو تقسيم معقد للعمل فى العلوم الاجتماعية لاجبار المتخصصين على التركيز على مجالات محددة النطاق إلى حد ما. وهكذا نجد الباحثين التطبيقيين يركزون اهتماماتهم فى الغالب على ميادين معينة من الخبرة (مثل أسواق العمل، والصحة والطب، والتدرج الطبقي) والالتزام بمعارف النظريات (الموضوعية) المرتبطة بمجال الخبرة. ومن الممكن أن يصبح ذلك مشكلة صعبة بالنسبة للأبحاث الممولة، لأن رغبات الممول واحتياجاته يمكن أن تقيد مكونات البحث ذاته. وربما يصر الممول أو يقترح تفضيل استخدام منظورات أو مداخل معينة، قد تضيق نطاق المصادر الممكنة لإقامة النظرية. وقد ينعكس ذلك على سبيل المثال فى قصر الاهتمام على الطب البيولوجى فى بحث عن الرعاية الصحية.

وعلى العكس من ذلك نجد أن أصحاب النظريات العامة انشغلوا بتطوير وتدقيق منطق التفكير المفاهيمي والمنطقي لمشروعاتهم لدرجة أنهم فشلوا في إنتاج نظريات ذات علاقة واضحة ومباشرة إلى حد ما بالعالم الإمبريقي للبحث التطبيقي، ولكنهم كانوا ينتجون أحيانا أعمالا على درجة عالية من التجريد والصعوبة تجعل من المستحيل على بعض الباحثين أو غير المتخصصين ادراك وفهم مضامينها الحقيقية أو ترجمتها إلى مصطلحات بحثية (انظر: بريانت، ١٩٩٥). وقد أدى تزايد الاتجاه نحو التخصص العلمي الدقيق، والنمو الفائق للمعرفة في كل هذه المجالات إلى حد أنه أصبح من الصعب التغلب على معوقات التواصل بين النظرية العامة، ونظرية البحث. وهكذا، لم يعد هناك سوى طريق واحد لمعالجة ذلك ألا وهو تبنى سياسة التدقيق التي أدعو إليها وأدعمها هنا. وهناك -كما ذكرت- نماذج متفرقة من باحثين معينين، أو منظرين معينين نجحت أعمالهم في التغلب على هذه الصعوبات، ولكنها لم تكن نمطية بأي حال من الأحوال.

من المهم جدا ادراك كل أوجه التشابه والتباين بين التدقيق الثلاثي، والتدقيق الأولي في استخدام المفاهيم الموجهة. ذلك أن هناك روابط واضحة ومحددة طالما أن المفاهيم الموجهة مستمدة من صلب النظريات العامة، أو مستمدة من النتائج الإمبريقية، أو مستخلصة من الملامح العامة للبيانات الإمبريقية. وبيت القصيد في استخدام مثل هذه المفاهيم هي أنها تمارس وظيفتها باعتبارها أدوات تنظيم أولية للبيانات الإمبريقية بالمعنى الجزئي، وطرقا موصلة إلى التدقيق النظري. (وذلك تميزا لها عن استيراد نظريات، أو أطر العمل النظرية للإستعانة بها في تنظيم عملية البحث بأكملها باصرار مسبق. ومن شأن مثل هذه الاستراتيجيات أن تؤثر عادة على إعادة تشكّل ما هو معروف بالفعل ولا يعد ملائما لاختبار النظرية أو تسهيل تقديمها بأي معنى حقيقي). إن النقطة المتعلقة بالتدقيق الثلاثي أنه يختلف إلى حد ما عن استخدام المفاهيم الموجهة، المستمدة من النظرية العامة بصورة أكثر شمولية لتعزيز التفسير المحتمل. ويتعين على أي حال توظيف التدقيق الثلاثي بمثل هذه الطريقة لتجنب تبنى النظريات المفضلة دون تدبر، وهي التي تعد -ربما بصورة غير مقصودة- بمثابة قيود دوجماتيقية مسبقة

على التحليل. فالمهم دائما وفي جميع الأحوال هو تطوير أو اختبار أو تعديل، أو توسيع النظرية، وليس مجرد إعادة تأكيد التحيزات النظرية للباحث وحسب.

هناك إذن ثلاثة نماذج أساسية من التدقيق الثلاثي تتوافق جميعها مع المراحل المختلفة من عملية البحث أى قبله أو أثناءه أو بعده. هذه النماذج قد تحدث سواء بالاشتراك مع أنماط أخرى من التدقيق أو مستقلة عنها نسبيا. وسوف أتناول هذه النماذج وفقا لترتيبها الزمني الذى أشرت إليه، وأبدأ بتبنى الباحث للنظرية العامة فى مرحلة ما قبل البحث. ويتخذ الباحث قراره فى هذا الشأن ربما بناء على استعراض التراث قبل بداية البحث، نظرا لأن بعض المدخلات النظرية العامة قد تكون وسيلة مفيدة لتنظيم بعض البيانات حول القضايا المستمدة من اهتمامات بحوث بعينها. فى مقابل ذلك قد يؤدى اطلاع الباحث على النظريات العامة إلى دفعه إلى الاهتمام بالتطبيق الإمبريقي لبعض جوانب النظرية. واستمرارا للأمتثلة السابقة، سوف نتصور أن القضية كانت حول "التحكم" (الضبط)، وان الباحث قرر سلفا توظيف بعض جوانب النظرية العامة. وفيما يلى قائمة تضم ثلاثة مصادر ممكنة للنظريات العامة (وهناك الكثير من هذه المصادر) يمكن أن تكون ذات صلة بالموضوع فى مثل هذا الموقف:-

* مقولة فيبر عن السلطة والسيطرة: الأنماط الكارزمية، والرشيطة القانونية، والتقليدية للسلطة، صور الشرعية، التمييز بين السلطة والقوة، روتينية الكاريزما، الترشيذ، البيروقراطية، تفويض السلطة.

* نظرية جينز عن الصياغة البنائية: جدلية الضبط، ازدواجية البناء، القوة كعلاقة، المصادر الرسمية والخاصة، الفعل والقوة، أهمية أسباب ودوافع الفاعلين.

* مقولة فوكو عن القوة: طبيعة الخطاب، والمعرفة، والقوة، والعلاقات المتبادلة بينها، القوة الحيوية، القوة المنظمة، نقد القوة المطلقة، القوة كسلعة أو كشيء مملوك للأفراد أو الجماعات، القوة باعتبارها ذات سمة منتجة أكثر من كونها قوة حظر وتحريم.

لم أذكر كل المفاهيم والأفكار النظرية الممكنة التي يحتمل أن تتصل بالموضوع في نظر كل كاتب، لأن ذلك يعنى ببساطة أن يضفى سمة مميزة على الامكانيات المتاحة. فالباحث قد يتبنى على سبيل المثال مقولة جينز عن جدلية الضبط كنقطة انطلاق مفيدة لفهم جوانب معينة من البيانات في مشروعه، أو دراسة توازن القوة بين جماعات معينة أو أفراد بعينهم خلال ما يحدث له من تغييرات عبر الزمن وفي سياقات معينة. وقد يرغب الباحث -من ناحية أخرى- في الاستفادة من القضايا العامة لنظرية الصياغة البنائية، التي تشكل السياق النظرى الأرحب لجدلية الضبط. وربما يقتنع باحث آخر برؤية فوكو، أو وجهة نظر فيبر عن القوة، ومن ثم يعتمد جزئياً -أو بصورة أكثر شمولاً- على صياغاتهم النظرية كأداة لتنظيم البيانات في المراحل الأولى من البحث. ويتعين على الباحث -على أى حال- أن يتناول بحذر التسليم الشامل مسبقاً بكل المواد النظرية في الموضوع، ويجب أن يتعامل مع هذه المواد بروح من الشك حول مدى قابليتها للتطبيق على المعلومات التي لم يتم اكتشافها بعد، بدلاً من أن تتحول إلى عبء ثقل مفروض على موضوع البحث بأكمله.

إن السبب الأساسى لاستخدام النظرية العامة بهذه الطريقة ليس تعزيز النظرية موضع الدراسة أو التحقق منها، وإنما هو فقط نقطة انطلاق للتدقيق النظرى، والتفسير. والغاية من وراء التدقيق هو توسيع وتطوير الخطوط الأساسية، والمستقلة للبحث باستخدام نظرية عامة قائمة للانطلاق. وإذا كان من المحتم على الباحث -على الرغم من محاولات التدقيق (من خلال تحرى التحسينات، والاضافات، والتعديلات فى الأفكار والمفاهيم النظرية) -أن يصل إلى استنتاج مؤداه أن البحث فى مجموعة يعزز المادة النظرية الموجودة سلفاً، فلا غبار على ذلك وبصبح العمل منتظماً تماماً. ولكن مثل هذا الاستنتاج يكون غير مشروع لو تم التوصل إليه كنتيجة لقرار يؤمن بصدق المادة النظرية السابقة على البحث صدقاً لا يتطرق إليه الشك، ثم يتم بعد ذلك إخضاع النتائج والبيانات لمقولات ومفاهيم غير ملائمة (أى غير صحيحة).

يتضمن النوع الثانى من التدقيق الثلاثى قراراً بتبنى جوانب مختلفة من النظرية العامة خلال تنفيذ البحث، ومع اضطراد العمل فيه. وسأعود -مرة

أخرى- إلى مثال التحكم (الضبط). ولكي نتتبع كافة دلالات هذا المفهوم سوف نتخيل -كما في المثال السابق- أن مفهوم التحكم (الضبط) يشغل طليعة اهتمام الباحث كنتيجة للتدقيق الثانوى (بينما المفهوم الموجه الأسمى للمسار المهني يظل ماثلا في الخلفية). فى مثل هذه الحالة، قد يتطلب موضوع البحث أو مجاله معلومات نظرية إضافية لمساعدة عملية تدقيق النظرية، ربما لأن مصادر توليد النظرية من داخل البحث قد فقدت قوة الدفع، وهناك -كما فى المثال السابق- عناصر عديدة يمكن اشتقاقها من أعمال فيبر أو جينز أو فوكو، مع الرغبة فى تجديد مدخلات التدقيق النظرى. ومن خلال الأفكار المفيدة التى تكون بالضرورة خارجية بالنسبة لخصائص البحث، سوف يحاول الباحث الاستعانة بخطوط جديدة من الهجوم، ومصادر جديدة من الإبداع والإلهام فى تفسير البيانات (كتلك المستمدة من المقابلات، والوثائق، والملاحظات). وهكذا يتم توظيف هذا النمط من تبنى الرأى النظرية بصورة مستمرة، ويضطر هذا النمط بالترادف مع تقدم عملية البحث ذاتها، حيث يتم بشكل مستمر تبنى مصادر متنوعة من النظريات والمفاهيم. ويمكن القول بأن ذلك الأسلوب هو فى الأساس أسلوب ارتجالى يستغل تآزر الفعل والارادة الناتج من خلال المواجهة بين تفكير الباحث التحليلى، واضطراد سير العمل فى البحث وبين الأدوات والأفكار التحليلية المستمدة من صلب النظرية العامة القائمة. والمأمول أن يودى مثل هذا التأثير الثلاثى المتبادل إلى انتاج طرق جديدة فى النظر فى نتائج البحث وتفسيره.

ف عند دراسة العلاقات الشخصية بين الشركاء -على سبيل المثال- قد يفتح الباحث بأهمية التحكم (الضبط) أو بأهمية جانب معين من جوانب التحكم (كالتميز بين التحكم المباشر وغير المباشر)، ولكن الباحث قد يحتار -حينئذ- فيما يختص بتطوير أو تدقيق التحليل لتفسير النتائج بصورة كاملة. عند هذه النقطة يجب على الباحث أن يستدعى فكرة جينز عن جدلية الضبط لكى يستمد منها قوة الدفع. فجدلية الضبط تؤكد على وجود موازنات متغيرة باستمرار للقوة فى العلاقات الاجتماعية، لأن أولئك الذين يشغلون أوضاعا ثانوية (فى فترة معينة) عادة ما يمتلكون بعض الموارد التى تمكنهم من التأثير على سلوك الذين يسيطرون عليهم. هذه الرؤية ربما تقود الباحث إلى التركيز على أنواع الموارد المتاحة لمختلف الأفراد، والتى يستعينون بها فى ممارسة علاقاتهم اليومية مع رفاقهم. ومن شأن

ذلك أن يسمح بدوره للباحثين أن يبدأ في تطوير أفكار عن كيفية ممارسة الناس التحكم في رفاقهم بوسائل مباشرة وغير مباشرة، وكيف أن ذلك يغذى عملية توازن مستمر للقوة بينهم. ويؤدي ذلك -مرة أخرى- إلى فتح الباب أمام عدد إضافي من امكانيات توليد المفاهيم، كتطوير تخطيط لاستراتيجيات العلاقات بين الأشخاص التي تستخدم في استعادة القوة في مثل هذه العلاقات أو الحفاظ عليها، أو تحديد المواقف التي لا تبدو فيها جدلية الضبط ملائمة كطريقة لفهم العلاقات بين الأشخاص.

ويتضمن هذا النوع من تدقيق النظرية -في الأساس- وظيفتين أساسيتين يترتب عليهما نوعان من التأثيرات. ففي الحالة الأولى، يتم اختيار النظرية العامة بهدف إحياء الدوافع النظرية بإضافة قضايا جديدة وتعزيز القضايا الموجودة. ويترتب على ذلك أن يتوصل الباحث إلى أفكار وأشكال مهجنة من التفكير النظري. وينعكس ذلك -كما في المثال السابق- في إعادة تركيز الاهتمام على مصادر التحكم المباشرة وغير المباشرة، وتطوير تخطيط لسياسات التحكم (والظروف التي تكون فاعلة في ظلها). وبهذا المعنى يستخدم الباحث جدلية الضبط (والمفاهيم المرتبطة بها) ببساطة كمعبر أو أداة مفيدة لتطوير مفاهيم جديدة. ويترتب على ذلك أن يتمكن الباحث من التوصل إلى بعض المقترحات حول كيفية تعديل أو توسيع نطاق جدلية الضبط لتغطي أنواعاً من الأمثلة والحالات هي هدف البحث، ولكن ذلك لا يعد الهدف الأساسي. ومع هذه الاستراتيجية لا يهتم الباحث بتطوير النظرية العامة نفسها (أو حتى شذرات منها). وإنما يتركز الاهتمام على استخدامها كوسيلة ملائمة لتطوير الأفكار النظرية الأساسية.

وفي الحالة الثانية من هذا النوع من التدقيق تتحول نقطة الاهتمام إلى النظرية العامة. ومرة أخرى لا يكون التأكيد على مجرد التثبيت أو التحقق من صحة الأشياء، ما لم يكن العائد من عملية البحث يوحى بقوة بأن ذلك لابد أن يكون هو حقيقة الأمر. إن التأكيد يكون أكثر ما يكون على التوسيع، والتدقيق، والتعديل، والتفويض. وينعكس ذلك -في المثال السابق- في فكرة تحديد المواقف التي تكون فيها جدلية التحكم ملائمة لتفسير التحكم في العلاقات بين الأشخاص.

إن النتيجة المترتبة على هذا النوع من التحليل الدقيق هي أن جدلية الضبط لا تفسر جوانب حاسمة من التحكم في العلاقات بين الأشخاص، ولهذا لا يكون لها أى دور تلعبه في الوصف أو التفسير العام للظاهرة.

من ناحية أخرى قد تأخذ الخلاصة شكل تعديلات مقترحة أو تحديد أدق للإدعاءات المرتبطة بالمفهوم (كالادعاء مثلا بأنه ينطبق على كل أنواع علاقات القوة) حتى يمكن المحافظة على صدقه واستمراره كمفهوم، ولكن بصورة أكثر تحديدا. حينئذ يصبح من الضروري أن يتبنى هذا النمط من التدقيق توجهها يركز على اختبار كفاءة وصدق النظرية العامة وقابليتها للتطبيق، وما إلى ذلك. ويثير ذلك اعتراض، بأن هذا الموقف الحوارى يؤثر على إقامة النظرية وصقلها، وأنها أفضل من مدخل التحقق من صحة الأشياء، الذى يأخذ ببساطة -صدق النظرية العامة كأمر مسلم به. إنه من الصعب القول بأن هذا المدخل الأخير لا يؤدي إلى ابداع نظرى (سواء من خلال الصقل أو من خلال استبعاد بعض العناصر). بل الأكثر من ذلك أنه لا يمكن أن يؤدي إلا إلى شكل دائرى من التأكيد والسخرية من التشييد النظرى.

ويركز الشكل النهائى من التدقيق الثلاثى الاهتمام على تبنى النظرية العامة، بعد أن تكتمل عملية البحث، أى بعد أن يكون قد تم جمع البيانات والمعلومات. ولكن البحث قد يكون فى حقيقته مهمة للبحث عن الحقيقة فى مجال أو موضوع لا تتوافر عنه سوى معلومات ضئيلة. وبهذا المعنى يمكن أن يكون البحث فى أساسه موجها نحو إلقاء الضوء على مشكلة معينة، أو ترشيد السياسة الاجتماعية، ومن ثم لا يكون مهتما بأى مشكلة، ولكن قد يتضح بعد جمع البيانات -على أى حال- أن هناك بعض الأفكار أو المفاهيم النظرية التى يمكن أن تلقى ضوءا على البيانات، أو يحدث عكس ذلك عندما تلقى البيانات الضوء مباشرة على مبادئ نظرية معينة. والنموذج الجيد لذلك هو دراسة بلور و ماكينتوش (١٩٩٠) عن الزيارات المنزلية الصحية والجمعيات العلاجية فى إنجلترا، التى ركزت على العلاقات بين المريض (العميل) والمتخصصين (فريق الطب والتمريض). كانت الأفكار الرئيسية لملاحظتهما ومقابلاتهما تتركز حول المشكلات التى يواجهها المتخصصون فى مجال الصحة، والعاملون فى الجمعية

فى ضبط سلوك العملاء (المرضى) والطرق التى يتعامل بها العملاء فى ظل هذا الضبط، من خلال تبنى أشكال متعددة من المقاومة.

وبعد اتمام عملية جمع البيانات، أدرك بلور وماكينتوش أن دراسة فوكو (١٩٧٧) عن القوة، والمراقبة (الإشراف) والمقاومة تتصل أوثق الاتصال بالبيانات التى جمعت لديهما، وبالتالي استفادا فى تحليلهما النهائى ببعض أفكار ومفاهيم فوكو التى ساعدت فى تنظيم البيانات. ويقدم لنا هذا المثال نموذجا لحالة تم فيها تعزيز عملية تفسير البيانات باستخدام جوانب من النظرية العامة. ومن الواضح أن الباحثين قد شيدوا بالفعل نموذجا تنميطيا لمقاومة العميل من خلال ما توفر لهما من بيانات (المعارضة الايديولوجية (الفردية والجماعية)، أو عدم التعاون، أو الهرب أو التجنب، أو الاحتجاب)، ولكنهما ارتقيا بمستوى تحليلهما، وقوته التفسيرية، وصقله من خلال ربط هذا التمييط بأفكار فوكو عن القوة والمراقبة (الإشراف) والمقاومة. وتنقسم نتائج هذا التدقيق إلى طريقتين: أولا، أنها تضيف إلى تحليل فوكو من خلال تقديم مواد إمبيريقية غير معتادة يمكن من خلالها الحكم على القدرة التفسيرية، لمفاهيم وأفكار فوكو. ثانيا، أنها تعزز كذلك المدى التفسيري، والقوة التفسيرية لنموذج مقاومة العميل بطريقة مستقلة -إلى حد ما- عن مجمل التحليل الاجتماعى العام عند فوكو.

هناك متغير آخر لهذا الشكل السابق من أشكال التدقيق يمكن أن نسميه تدقيق بأثر رجعى، يهتم بضم البيانات الإمبيريقية (التي تم تجميعها ربما من أجل أغراض متوازية أو أغراض أخرى) إلى الأطر المرجعية العامة (أو على الأقل أجزاء رئيسية منها) ذات علاقة مباشرة ببعضها البعض. وفى هذا الشأن تسمح البيانات الإمبيريقية للباحث باختبار أو فحص كفاءة وصدق عناصر النظرية العامة. إن الأمر ببساطة ليس مجرد تعزيز أو عدم تعزيز الأفكار أو المفاهيم النظرية العامة، ولكن يجب ان نتجه نحو محاولة تطوير نظرية أساسية سواء من خلال صقل أو توسيع النظرية الأساسية، أو التخلي عن مصطلحاتها ومفاهيمها كلية.

ومثال ذلك البحث الذى أجرته مع زميلين لى (انظر: لايدر وزملاؤه، ١٩٩١). فقد كان المجال الإمبيريقى للدارسة هو انتقال الشباب من المدرسة إلى

العمل، ونمط المشاركة في سوق العمل من جانب الشباب من الطبقات الاجتماعية المختلفة. وقد تم في الأصل جمع البيانات وتحليلها كجزء من دراسة أكبر لدراسة العمل، وأسواق العمل، وأنماط العمالة والطبقة الاجتماعية. ولقد تبين لنا على أي حال أن نفس البيانات تقدم مواد وثيقة الصلة بالموضوع يمكن من خلالها دراسة واختبار بعض القضايا التي تشكل مكونات أساسية في نظرية جينز عن الصياغة البنائية. ولتحقيق هذا الهدف قمنا بدراسة بعض جوانب "ازدواجية البناء"، وبصفة خاصة تداخل النشاط (مثل البحث عن وظيفة، واستخدام رأس المال التعليمي) والملاحم البنائية (الماكرو) (الأصول الطبقية، أسواق العمل المحلية، توافر الموارد) للحياة الاجتماعية. ومن بين النتائج التي انتهينا إليها (بما في ذلك تعليقات على فكرة جينز التصنيف المنهجي) توصلنا إلى أن فكرة ازدواجية البناء قد دعمتها الشواهد الإمبريقية بصورة جزئية فقط، كما أن بعض الصياغات الجديدة المحددة للعلاقة بين الفعل والبناء يجب تبنيها حتى يمكن فهم البيانات واستيعابها.

إن الحجج المؤيدة والمعارضة لجدلنا حول نظرية الصياغة البنائية ليست محل اهتمامنا هنا. ولكن ما يعنينا هنا تلك المبادئ التي تربط استخدام البيانات الإمبريقية ببعض جوانب النظرية الاجتماعية العامة. وعلى الرغم من أن البيانات قد تم جمعها أساساً من أجل هدف مختلف تماماً، فإنها قد ألقت ضوءاً مهماً على بعض جوانب النظرية الاجتماعية العامة. ومع أننا لا ندعي أننا نجحنا في التوصل إلى استخلاصات قاطعة حول قابلية نظرية الصياغة البنائية للتطبيق بصفة عامة (خاصة لأن القضية تتضمن في مجملها جدلاً معقداً حول عدد المستويات) إلا أننا استطعنا إنجاز عملية من عمليات التدقيق النظرى بالمزاوجة بين استخدام البحث الإمبريقي وبعض جوانب النظرية العامة.

خاتمة

التدقيق النظرى والبحث الاجتماعى

أكدت طوال هذا الفصل على أهمية استخدام المادة النظرية المتوفرة، حتى ولو كان الهدف الكلى من البحث هو تطوير أفكار جديدة، واكتشاف بيانات إمبريقية جديدة، وكنت قد بدأت الفصل بمناقشة دور المفاهيم الموجهة فى تطوير النظرية وفى التدقيق النظرى. وعلى خلاف تدقيق المفاهيم المحددة، تستهدف المفاهيم الموجهة التوصل إلى التأثير بشكل متصاعد على تفكير الباحث بشأن النظرية والمفاهيم. وترتبط جدوى المفاهيم الموجهة بحاجة أوليه لبدء العملية، ولتأسيس بعض المواصفات والشروط الخاصة بتدقيق الأفكار النظرية. وعلى الرغم من أن اهتمامنا كان منصبا على النظرية باعتبارها نقطة البداية الأولية، فقد أوضحت باستمرار أن عملية تدقيق النظرية ترتبط ارتباطا وثيقا بجمع البيانات واضطراد العمل فى البحث الإمبريقى.

إن استخدام المفاهيم الموجهة -باعتبارها دوافع أولية للتفكير النظرى- يساعد بصفة عامة التفكير النظرى فى البيانات الموجودة بالفعل، أو التى يجرى جمعها، والمجال الإمبريقى التى تتبع منه. تثير المفاهيم الموجهة المحورية والتابعة (وشبكة الأفكار التى تولدها) ألغازا معينة فيما يتصل بالبيانات و موضوع البحث. وتطرح هذه الألغاز -فى الأساس- أسئلة تتعلق بكيف؟ ولماذا؟ وماذا؟ بشأن طريقة سير الأمور فى المجال موضع الدراسة (الفعل، والفصل المدرسى، والزواج، والعلاقات بين العميل و المتخصصين وما إلى ذلك). كما أن هناك أسئلة تتعلق بآثار أو وظائف الأنشطة النمطية على الأوضاع والسياقات الاجتماعية التى تقع فى ظلها، وكذلك التأثيرات المتبادلة، وتأثيرات تلك السمات البنائية والنسقية على الأنشطة نفسها.

كما تتبعت المراحل المختلفة للتدقيق النظرى ودلالاتها، وعلى الرغم من أن استخدام المفاهيم الموجهة يمثل شكلا أوليا من أشكال التدقيق النظرى، فقد أكدت

على أهمية التدقيق الثانوى، الذى يتضمن إقامة صلات واضحة بين مجموعة مترابطة من المفاهيم التى تحدد العلاقات بين المفاهيم والمقولات المحورية، والتابعة، والمشتقة، والثانوية. كما ركزت على الدور الحاسم الذى يمكن أن تلعبه النظرية العامة- ويجب أن تلعبه- فى تيسير الروابط القوية بين البحث الاجتماعى والتشييد النظرى. لقد أسميت ذلك التدقيق الثلاثى رغبة فى تمييزه عن أشكال التدقيق الأخرى (الأولى والثانوى). ولكن يجب ألا يعنى ذلك أن هذا التدقيق الثلاثى ينبغى أن يأتى زمنيا فى نهاية المطاف. إن استخدام بعض النظريات العامة القائمة بصورة جزئية أو كلية- يمكن أن يدخل فى حسابات البحث فى أى مرحلة من مراحل عملية البحث (بما فى ذلك قبلها أو بعدها). كما يمكن أن يتزامن مع توظيف أنماط التدقيق النظرى الأخرى (بما فى ذلك استخدام التتميطات) أو مستقلا عنها نسييا.

وأيا كان الشكل الكلى لسياسات التدقيق والأساليب المستخدمة فيها، فإن لب مناقشتى يتمثل فى أن التأثيرات التصاعدية لتدقيق النظرية ينبغى أن ينتج عنها شبكة من المفاهيم التى تكون بمثابة شبكة مغلقة تطرح بعض النقاط النهائية فى العملية. وذهبت فى مناقشتى إلى أن النظرية لا يجب أن تكون على هذا النحو، على الرغم من أن بعض ممارسى البحث (وبعض المداخل مثل الوضعية) قد شجعونا على الاعتقاد بأن هذا هو الوضع القائم فعلا. إن مجموعة المفاهيم التى تعكس المرحلة الأخيرة من التدقيق يجب النظر إليها دائما على أنها قابلة للتعديل فى المراحل النهائية من البحث. ومن الأمور الأكثر أهمية أن اطار المفاهيم والذى يفترض أنه يمثل المنتج النهائى لسلسلة محددة من التدقيق، لا يصح النظر إليه إلا كمنتج نهائى مؤقتا، طالما أنه يجب أن يعد هو الآخر قابلا للتعديل.

ولا يجب أن تؤخذ تلك الآراء باعتبارها نصيحة تستهدف تقويض ثقة الباحث فى أعماله، وما يمكن أن تقدمه من ثمار نظرية. وربما كان المقصود هو عكس ذلك تماما، فهو محاولة لجعل الباحث أكثر ثقة وأمانا من مكانة العمل ومصادقته من خلال تحديد أسسه المعرفية. إن التأكيد على غياب الثبات المطلق للمعرفة التى يتم انتاجها عن هذا الطريق (وقابليتها للمراجعة فى المستقبل) لا يعنى أن تلك المعرفة مؤقتة أو مرحلية بشكل لا مبرر له، وذلك فيما يتعلق بنتائج

أو استخلاصات البحث. كما لا يجب النظر إليها على أنها تعنى ضمناً أن عملية البحث سوف تستمر بلا نهاية، ولا أن النتائج ستكون أقل تأكيداً. ومن المأمول (بالرغم أن ذلك لا يمكن ضمانه ضماناً كاملاً على الإطلاق) أنه كلما تقدم البحث وتقدمت عملية تدقيق النظرية كلما أصبح الفرد أكثر يقيناً من صواب المقولات الأساسية، وشبكة المفاهيم التي تشكل أساسها. أن البداية الأولى لهذا الشكل من المعرفة والتحليل الذي أدعو إليه يضمن أن عمليات التفاعل بين التفكير المنطقي النظري والتحليل المنطقي وبين الملاءمة الإمبيريقية يجب أن تسمح للباحث باختبار كفاءة النظرية واستخلاصات البحث.

الفصل السادس

نحو نظرية تكيفية

أريد في هذا الفصل أن أطور رؤيتي الكلية لذلك النوع من التنظير الذي يشكل - ولكن يترتب أيضا - على أنواع الاستراتيجيات و الممارسات التي حددتها من قبل . وسوف أركز على المسائل المتعلقة بطبيعة العلاقة بين النظرية و البحث، ومداها، وأسسها الفلسفية، وهي العلاقة التي أتيناها هنا . وسوف أعرض فيما يلي الاتجاه الذي أطلقت عليه مصطلح " النظرية التكيفية " الذي يقع في مكان ما بين ما يشار إليه بصور متنوعة على أنه "اختبار النظرية"، أو مداخل إستخلاص الفروض من ناحية، ومداخل النظرية الموثقة (أو تشييد النظرية) من ناحية أخرى . و تختلف النظرية التكيفية عن بعض المداخل الأخرى (بما فيها مابعد الحداثة ، و الأشكال المتعددة من التفاعلية ، والفينومينولوجيا)، والتي تتبنى موقفاً مضاداً للتنظير، ويعتقد أن التنظير التراكمي العام أو النسقي لم يعد يلعب دوراً في التحليل الاجتماعي، وأن الأساليب التقليدية للموضوعية، ولتنظيم خطوات البحث (البروتوكول) قد أصبحت موضة قديمة.

عرضت من قبل لبعض العناصر الأساسية للنظرية التكيفية، وعلي الرغم من أنني لم أفعل ذلك بصورة منظمة ، كما لم أذهب إلي أن العناصر التي ذكرتها يمكن أن تتحد لتكون إستراتيجية شاملة يمكن استخدامها في البحث . لقد تناولت قضايا بناء النظرية، واختبار النظرية ، التي تستند إلي المفاهيم المدققة والمفاهيم الموجهة، وأساليب التدقيق النظري، وبناء النموذج وما إلي ذلك، وكل هذه الأشياء جوانب ضرورية للنظرية التكيفية. وسوف أضمن هذا الفصل السمات والملاح التي تناولتها بالفعل بصورة منفصلة كجزء من مدخل عام متماسك للتنظير والبحث. ولكي يتم ذلك، لابد أن أضع خيوط مناقشتي المنفصلة في سياق أكبر من المناقشات المدعمة التي تنهض على النظرية العامة، و فلسفة العلم الاجتماعي، ومنهج البحث. وسوف تسير المناقشة على النحو التالي. سوف أتناول في البداية تسع نقاط أساسية أهدف

منها إلى عرض المؤشرات الكلية لمدخل النظرية التكيفية كما أراه . ثم أنتقل فيما بعد إلى مناقشة هذه النقاط بتفصيل أكبر .

طبيعة النظرية التكيفية و مداها

١- اتجاه النظرية التكيفية اتجاه تركيبي استعار الكثير من الاتجاهات الأخرى، ولكنه علاوة على هذا يطرح بديلاً متميزاً عنها.

٢- تعد النظرية التكيفية نظرية متوسطة المدى فيما يتعلق بمحور التركيز المباشر، ولكنها تتميز بعلاقة مفتوحة بالنظريات الكبرى (الواسعة المدى)، أو أنماط البحث الأكثر شمولاً.

٣- تشكل النظرية التكيفية، كما تتشكل أيضاً بالبيانات الإمبريقية النابعة من البحث، و يسمح ذلك بالتأثير المزدوج للنظريات القائمة (النماذج النظرية) وكذلك النظريات التي يكشف عنها البحث (أو التي يتضمنها أو ينطوي عليها البحث) . يعد التنظير التكيفي سمة مستمرة في عملية البحث .

السياق الفلسفي و المنهجي و النظرى :

٤- تستخدم النظرية التكيفية كلا من الأساليب الاستقرائية والاستدلالية لتطوير و تدقيق النظرية .

٥- تركز النظرية التكيفية على موقف معرفي لاهو وضعي ولا هو تأويلي.

٦- أنها تفيد كل من النزعتين الموضوعية و الذاتية فيما يتعلق بافتراضاتها الأنطولوجية .

٧- تفترض النظرية التكيفية أن العالم الاجتماعى عالم معقد ، و متعدد الأوجه، و متلاحم بصورة كثيفة .

٨- تركز النظرية التكيفية على الارتباطات المتنوعة بين الفعل الإنسانى، والأنشطة الاجتماعية و التنظيم الاجتماعى (الأبنية و الأنساق) .

ولكى تكون مناقشاتنا هنا ذات طابع عملي، و تتمركز حول أهمية الإستراتيجيات العملية المرتبطة باستخدام النظرية التكيفية ، سوف أتناول أولاً السياق الفلسفي و المنهجي الوارد في النقاط من ٤-٨ ، ثم أركز بعد ذلك بصورة أكبر علي التفصيلات العملية للنظرية التكيفية ذاتها (النقاط من ١-٣). ولا شك أنه من المهم أن نضع في إعتبارنا - ونحن نفعل ذلك - دلالات النقاط من ١-٣ (حتى على الرغم من أنها مازالت حتى الآن أقرب إلي المخطط الأولي) نظراً لأن الهدف الأساسي من بلورة السياق المنهجي والنظري الأكبر هو إلقاء الضوء على الجوانب العملية و المتصلة باستخدام النظرية التكيفية . ولعل إلقاء نظرة خاطفة على النقاط من ١-٣ يعطينا إنطباعاً بأنها تقف بمفردها كموجه لممارسة البحث لا يحتاج إلي مزيد من المبررات . فالأمر الحاسم هنا - على أي حال - ليس فقط مجرد إثبات مجموعة من الموجهات أو القواعد العملية لممارسة البحث ، و إنما كذلك بلورة مجموعة جديدة من القواعد المنهجية للتحليل السوسيولوجي بصفة عامة.

و سوف أتناول ذلك بالتفصيل في الفصل الختامي ، و إنما رغبة مني في تجنب أي سوء فهم محتمل ، سوف أعلق بإختصار على ما لم تتضمنه هذه العبارة . أولاً ، عندما أقول أنني أحاول صياغة مجموعة جديدة من قواعد المنهج السوسيولوجي، فإنني لا أقصد بذلك أنها يجب أن تحل بصورة ما محل كل القواعد و الاتجاهات المنهجية القائمة، وتغني عنها . ويمكن القول بصفة عامة أن وجهة نظري عن ممارسة البحث الاجتماعي يجب فهمها على نحو موسع ، و أن تكون مرنة و مفتوحة أمام عدد كبير من المؤثرات. فلا يستطيع أي مدخل واحد بمفرده ، أو مجموعة من القواعد، أن تمثل بصورة مطلقة التنوع غير المحدد للواقع الاجتماعي ، و من ثم لا يوجد مدخل بعينه جامد يمكن أن يسمح له باحتكار ممارسة البحث. وبهذا المعني، فإنني عندما أقترح وضع قواعد جديدة ، فإنما ألمح إلي أن هذه القواعد الجديدة يجب فهمها جنباً إلي جنب المداخل التقليدية أو المستقرة، و هي قد تمثل في بعض الأحيان بديلاً راديكالياً في بعض الأحوال ، و لكنها تعد في حالات أخرى قواعد مكملة لقواعد المنهج القائمة بالفعل.

ورأيي أن مثل هذا الهدف هو الذي يجب أن تتوخاه الأسس المعرفية لخطط تنظيم البحوث الجارية، والدلالات الأرحب للنظرية العامة. ويرجع ذلك بالدرجة الأولى لأن القضايا المنهجية (بما فيها القضايا المعرفية و الأنطولوجية) وكذلك تلك القضايا المرتبطة بالنظرية العامة ، قد يعدها البعض أحياناً مستقلة أو منبئة الصلة بممارسة البحث ، كما يحدث على وجه الخصوص في الكتب التي تتناول مناهج البحث و أساليب جمع البيانات . إنني أرى أن هذه الوجهة من النظر خاطئة كل الخطأ . فكل الادعاءات بصدق المعرفة (حتى تلك التي تصر على حصانتها من هذه الادعاءات) تدعمها الافتراضات المعرفية و بالتالي يجب دراستها و تبريرها باعتبارها جزء من حكم دائم بحق تلك الادعاءات يصدره مجتمع البحث . كما أن كل الافتراضات النظرية الأرحب عن طبيعة المجتمع، و النشاط الاجتماعي، وأفضل السبل لتفسيرها ترتبط أقوى إرتباط بالتساؤلات حول أفضل طريق لإجراء البحث . فهذه الأسئلة متداخلة أوثق التداخل مع بعضها البعض .

استخدام الأساليب الاستنباطية و الاستقرائية

يتضمن الاستنباط - في البحث الاجتماعي - استخدام مجموعة من الافتراضات العامة من أجل صياغة قضايا إمبيريقية قابلة للاختبار عن الظاهرة (مثل الانتحار، أو استخدام موارد المجتمع)، بينما يعتمد الاستقراء بصورة أكبر على الجمع الأولى للبيانات الإمبيريقية كأداة للوصول إلي فهم (نظري) أكثر عمومية. تستخدم النظرية التكيفية كلاً من الأساليب الاستنباطية و الاستقرائية لصياغة النظرية، بالرغم من أن المزج بين الأسلوبين يتوقف على الظروف. ولكن يتعين علينا على أي حال ألا نخلط ذلك بادعاءات مماثلة - ولكنها في الأساس تجميلية أو سطحية - يطلقها كتاب ينتمون إلي مداخل أو مدارس فكرية معينة. ويذهب أمثال هؤلاء الكتاب عادة إلي أن المداخل أو الاتجاهات التي يفضلونها تستخدم بصورة روتينية كلاً من الأساليب الاستقرائية و الاستنباطية. و بهذا المعنى يفترض أن كل ممارسة بحثية تمثل مزيجاً من كل من الأساليب الاستقرائية و الاستنباطية (و كذلك أيضاً مزيجاً من النظريات الإمبيريقية و العقلية عن الحقيقة التي تقوم عليها، إنظر الجزء التالي من هذا الفصل). ولكن تدقيق النظر في هذه الادعاءات يوضح أنها

غالباً ما تقوم على تعريفات ضيقة جداً لهذه المصطلحات، بينما الافتراضات الأكبر و الأعم التي تنهض عليها تلك الاتجاهات المفضلة لديهم نجدها في واقع الأمر تحظر، أو تقبل واحداً أو آخر من تلك المبادئ.

ف نجد على سبيل المثال، أن شتراوس (١٩٨٧) الذي انطلق في عمله بشكل واضح من تراث النظرية الموثقة، يذكر أن موقفه قد إستفاد من كل من الاستنباط و الاستقراء. هذا في الوقت الذي نجد فيه أن الافتراضات الأساسية للنظرية الموثقة لا تسمح بذلك سوى داخل السياق الكلى للأسلوب الاستقرائي المسيطر، حيث يعتقد ان النظرية المشروعة أو الصحيحة تتبثق بصورة مستمرة من بيانات البحث ، وليست مفروضة على البيانات فرضاً كما يدعى جلاسر وشتراوس (١٩٦٧). (سوف أوضح فيما بعد أن فكرة أن النظرية التي تفرض على البيانات، هي بالدرجة الأولى اساءة فهم للاستنباط (متوسط المدى) وللتنظير العام). ومن الواضح في حالة النظرية الموثقة أن المناهج الاستنباطية لا يُسمح بها إلا داخل حدود إطار العمل الأساسى للافتراضات المتعلقة بالطبيعة الاستقرائية الأساسية للتنظير من واقع بيانات البحث.

ونجد بالمثل أن رؤية ميرتون (١٩٦٧) للبحث والتنظير المتوسط المدى توجد داخل حدود المدخل ذى الطابع الاستنباطى الفرضى الغالب. وفي ذلك اصرار على أن النظرية يجب أن تقوم وتنشأ من خلال مجموعة من الافتراضات المجردة، التي يمكن منها استنباط مجموعة من فروض البحث القابلة للاختبار. وفي ضوء هذا، يحدد ميرتون أيضاً العناصر الاستقرائية مثل التعميم من خلال الملاحظات الإمبريقية، أو اكتشاف حقائق معينة تحتم إعادة صياغة النظريات القائمة (ميرتون، ١٩٦٧). ولكننا نلاحظ مرة أخرى، أن تلك الرؤية تعد رؤية محدودة جداً للأسلوب الاستنباطى، التي لا يمكن السماح بها إلا في سياق أكبر لصياغة النظرية الاستنباطية. وتركز وجهات النظر هذه على تعريف ضيق سواء للاستقراء أو الاستنباط، وكلاهما مسموح به داخل مجموعة من الافتراضات. فمن الواضح على أى حال، أن المجموعة الأكبر من الافتراضات تمنع وتقيّد المعانى المهمة للمصطلحات، واستخداماتها في التحليل والبحث. وبالتالي، فإن الحرية المزعومة في الاستخدام تبدو أكبر مما هي عليه في الحقيقة.

وهذا النوع من القيود المعرفية بالذات هو الذى أحرص على تجنبه من خلال اصرارى على أن تستخدم النظرية التكييفية كلا من الأساليب الاستنباطية والاستقرائية. من هنا يتعين فهم ذلك على انه محاولة للتأليف والربط بين مبادئ قد تبدو فى الظاهر مقدمات متضاربة أو افتراضات كامنة. فالنظرية التكييفية تحاول أن تشق طريقها بوضوح داخل هذه التناقضات من خلال تجنب التعريفات المتطرفة والجامدة. وهكذا، فإن استخدامى لهذه المصطلحات لا يسعى إلى تأكيد فكرة انه لم يتم فى التحليل النهائى التوصل إلى النظرية بصورة شاملة الا من خلال الطريقة الاستنباطية أو من خلال الاطار المرجعى الاستقرائى وحده. وإذا استخدمنا لغة النظرية التكييفية نقول ان كلا الشكلىين من توليد النظرية ، وتشيد أو تدقيق النظرية أمر جائز داخل نفس الاطار المرجعى، وبصفة خاصة داخل نفس مشروع البحث والاطار الزمنى المحدد. وبهذا المعنى فإن كلا من المعانى والتعريفات الفضفاضة يمكن أن تأتي فى المقدمة وأن تلعب دوراً فى التنظير فى البحث الذى يتضمن جمع بيانات أولية.

كما أنه فيما يتصل بهذه التعريفات الشاملة، فأننى أنظر إلى الاستقراء والاستنباط كأطر عمل للأفكار (و كذلك أنواع الخطاب، و الممارسات التى تتضمنها) التى تتعرض للتأثر ببعضها البعض. و هكذا فإن الأمر ليس مجرد السماح بالتأثيرات الثنائية - لكليهما - على عملية تشيد النظرية، وانما يتجاوز ذلك إلى السماح بالتأثير المتبادل بينهما. ان التعريفات المعتدلة (لا المتطرفة) لهذه المصطلحات سوف يتيح لنا ذلك. و كقاعدة معرفية، لا يمكن فهم الاستقراء ولا الاستنباط مسبقاً على أنه أفضل من الآخر فما يتعلق بالتأثير، كما يجب ألا تكون هناك نقطة بداية محددة كمقدمة أساسية فى إنتاج المعرفة. إنما يجب النظر إلى الاستنباط والاستقراء باعتبارهما متساويين من حيث الأهمية، ومدخلين للمعرفة يتبادلان التأثير أحدهما فى الآخر تبعاً للظروف الإمبيريقية والنظرية المختلفة. وهذه الظروف هى التى تعكس الطبيعة المستمرة لأهداف بحث معينة. وبهذا المعنى يمكن القول أن النظرية التكييفية تتكيف مع الظروف المتاحة سواء فيما يتعلق بالبيانات المتوافرة، والأشكال النظرية للتفسير (النماذج والمفاهيم، وأطر العمل). وهكذا، فإن

النموذج التفسيري (مثل أنماط الانتحار، أو الأنماط المختلفة التي يتم في ضوئها تصنيف البغاء من وجهة النظر الاقتصادية) سوف يشكل وفي نفس الوقت يتشكل من خلال التجميع المستمر للبيانات (مثل المقابلات والوثائق).

فرأى النظرية التكيفية بإختصار أن مسألة ما إذا كان الباحث سيقوم بالاستدلال من الافتراضات العامة وصولاً إلى القضايا القابلة للاختبار امبيريقياً (استنباط)، أو أنه سيبدأ من مواقف امبيريقية معينة ليصل إلى فهم عام للمفاهيم (استقراء)، هذا الاختيار يتوقف على دور الظروف التي تشكل السمات المميزة لعملية البحث. ويعني ذلك أن خطأ معينة سوف تنتج مجموعة متفردة من الظروف فيما يتصل بالمشكلات العملية، ومشكلات المفاهيم القائمة، والحلول العملية، والنظرية التي تحدثها. فالأدوار المحددة التي تلعبها الأساليب الاستقرائية والاستنباطية بالنسبة لبعضهما البعض سوف تتوقف على الديناميات المتفردة والمنتشرة للبحث الجارى، ولكن بصرف النظر عن الدرجة المحددة لتأثير الأسلوبين في أى مشروع بحث معين فى كل (أو معظم) الظروف. فمن المؤكد أنه سوف يكون هناك تفا على متبادل بين المؤثرات وليس تأثير فى اتجاه واحد فقط.

نظريات الحقيقة : النزعة الإمبريقية والمذهب العقلى

ترتبط قضية الاستقراء والاستنباط كذلك وتتداخل مع جدل آخر له دلالاته هنا يتعلق بطبيعة انتاج المعرفة فى التحليل والبحث الاجتماعى، وهى قضية تقع بين الادعاءات والمزايا التى تنسب إلى كل من النزعة الإمبريقية وإلى المذهب العقلى كنظريات للمعرفة (المقدمات المعرفية). إذ تصر النزعة الإمبريقية على أن المعرفة الصحيحة تركز على الخبرة الحسية وحدها، أو هى تنهض بإختصار على السمات الملاحظة للعالم الاجتماعى، كما تبدو لإدراكنا. من ناحية أخرى يؤمن المذهب العقلى بالمعرفة المسبقة، وهى معرفة مستقلة عن الخبرة، وتمثل نتاجاً لأشكال مختلفة من المناقشة والتفكير المنطقى. وقد ارتبطت النزعة الإمبريقية - تقليدياً - بمفهوم "تناظر" الحقيقة. وهو مبدأ يؤمن بأن كل من النظرية والمفاهيم "تناظر" أو "تقابل" بطريقة مباشرة (تكاد تكون فوتوغرافية) الحقائق أو البيانات الإمبريقية. كذلك يرتبط

المذهب العقلي بتصور متماسك للحقيقة، حيث يعتقد أن العلاقات الداخلية بين المفاهيم في النظرية تلعب دوراً حاسماً في تشكيل المصطلحات التي تفهم من خلالها الظواهر التي تشير إليها النظرية.

ويبدو في الظاهر أن تلك الآراء تعكس بكل دقة الجدل حول الاستقراء مقابل الاستنباط، حيث كانت النزعة الإمبريقية منسجمة مع الاستقراء، وكان المذهب العقلي أكثر اقتراباً من المناهج الاستنباطية. ولكن الأمر ليس بمثل هذه البساطة، إذ يبدو أن معظم مداخل التنظير الإمبريقي تركز على النزعة الإمبريقية باعتبارها أكثر أسس المعرفة أهمية وضماناً. أما بالنسبة للنظرية الموثقة فكان موقفها واضحاً من حيث أن النظرية يجب أن تنبثق من خلال الملاحظة والتصوير الأمين لحياة الأفراد التي تحاول أن تعرض خبراتهم. فنسبة أي دور معين مستقل - في هذه الحالة - لأشكال التفكير المنطقي والمناقشة النظرية سوف يفتقر قطعاً إلى التوثيق، وسيصبح نوعاً من الأفكار التجريدية التأملية (حسب رأي جلاسر وشتراوس، ١٩٦٧، وشتراوس ١٩٨٧، وشتراوس وكوربين ١٩٩٠)، أو يعد في أسوأ الأحوال تجسيدا غير مشروع للحياة الاجتماعية، (انظر : بلومر، ١٩٦٩، وبيكر في كتاب روك، ١٩٧٩). ونجد من ناحية أخرى، أن وجهة نظر ميرتون القوية التأثير للنظرية الإمبريقية، يبدو بوضوح أنها تفسح مكاناً للأشكال العقلية من المعرفة، مع تأكيدها على الفروض الإمبريقية الاستنباطية المستمدة من الافتراضات والمفاهيم المنطقية. ولكن إمعان النظر بدقة سوف يكشف لنا أن دور المعرفة العقلية في النظرية الإمبريقية محدد إلى حد كبير بسبب الأهمية القصوى التي يحلقها ميرتون على المعايير الإمبريقية من خلال اعتبارين مهمين. ففي المحل الأول يذهب ميرتون إلى أنه على الرغم من أن النظرية الإمبريقية لن تصبح نظرية بالمعنى الصحيح بمجرد وضعها في سياق مجموعة من الافتراضات المجردة، فإنه يتم تحديد الأسس الأولية للمشكلة النظرية من خلال التعميمات الإمبريقية التي تركز على الملاحظات (مثل معدلات الانتحار أو الانحراف). وهكذا نرى - مثلاً - وحسب رأي ميرتون أن نظرية دوركايم الشهيرة عن الانتحار قد انبثقت في البداية من خلال ملاحظة أوضحت أن معدلات الانتحار في البلاد التي غالبية سكانها من

الكاثوليك أقل من معدلاته في البلاد التي أغلب سكانها من البروتستانت. يحدد هذا التعميم الإمبريقي المستمد من هذه الملاحظة طبيعة المشكلة النظرية، وهي لماذا تنخفض معدلات الانتحار في البلاد الكاثوليكية وترتفع في البلاد البروتستانتية؟ فهذه مشكلة يمكن حلها إن بصورة أساسية عن طريق الأسلوب الاستنباطي. ثانياً، يذهب ميرتون إلى أنه بعد صياغة المشكلة النظرية بصورة ملائمة من خلال وضعها في سياق مجموعة من الافتراضات المجردة (التي تقدم تفسيراً للملاحظات، والتعميمات الإمبريقية)، فإنه يجب الحكم على صدق الفروض التي تم صياغتها على هذا النحو من خلال قابليتها للاختبار الإمبريقي، ومدى توافقها، أو في ضوء النتائج والشواهد الإمبريقية.

ولذلك ترى دراستان أن فكرة ميرتون عن النظرية المتوسطة المدى تعتمد اعتماداً قوياً على المعايير الإمبريقية لتقييم وإنتاج النظرية الشرعية أو النظرية الملائمة كما حددها ميرتون. وهكذا يرى جلاسر وشتراوس أن ميرتون كان يميل إلى أن يسقط من اعتباره أي نظرية لا تخضع للسلطة الأكبر للعالم الإمبريقي، كما تبدو من خلال الخبرة الحسية (مثل الملاحظة والقياس)، لأنه من المعتقد أنها منبثقة من العالم الإمبريقي. وهكذا نجد أنه حتى بالرغم من أن هذا المدخل يستخدم المنهج الاستنباطي في ظروف متباينة، فإن العامل الحاسم في تشكيل وإنتاج النظرية الإمبريقية يكون ثمرة الشواهد الإمبريقية، والقابلية للاختبار، وأي ظواهر أخرى يمكن ملاحظتها في صورة حسية. وبهذا المعنى يتم تحييد تأثير المذهب العقلي تماماً بسبب التأثير الطاغى للمعايير الإمبريقية للصدق. وهكذا، فإن كلا من الأشكال الموثقة والمتوسطة المدى من النظرية الإمبريقية تدين للأسس الإمبريقية أكثر مما تدين للأسس العقلية.

وفي أسوأ الأحوال أدى ذلك إلى فهم العلاقة المهمة بين البحث الإمبريقي - والنظرية الإمبريقية أو الحقيقية التي تنهض عليها - وبين النظرية العامة في علم الاجتماع. وسبب ذلك أن النظرية العامة تحافظ عادة على قدر من الالتزام بالأشكال العقلية من الإثبات والصدق والتفسير. ولكن إذا كان يقال أن ذلك الميل نحو المذهب العقلي قد اتسع نطاقه إلى حد كبير،

فى بعض الحالات؁ ينتهى معظمها بنظريات ذات مرجعية ذاتية تماما؁ تتجنب السلطة الشرعية للشواهد الإمبيريقية؁ وهى أيضاً تلك الحالة التى لم تتخلى فيها النظرية العامة تماما عن صلاتها بالمذهب العقلى. وفى رأى أن هذه الصلة القوية - التى طرحت فى أعمال علماء الاجتماع الكلاسيكيين - يجب أن يعاد توليدها فى سياق عودة الوفاق بين النظرية الإمبيريقية والنظرية العامة. وهذه الصلة - تحديداً - هى التى تسعى النظرية التكيفية إلى دعمها وتأكيدا من خلال ضمان أن الأشكال العقلية من الأدلة؁ والبراهين؁ والصدق لها دور مستمر تلعبه فى البحث الإمبيريقى وفى التنظير؁ التى تنتج من البحث الإمبيريقى (جمع المادة الأولية) أو تتغذى عليه. وبهذا المعنى؁ فإن التأكيد على النماذج الاستنباطية لإقامة النظرية يجب أن يرتبط إيجابيا بالمعايير العقلانية للتقييم .

و نلاحظ هنا أنه كما كان الحال بالنسبة للعلاقة بين الاستنباط و الاستقراء؁ كذلك يجب فهم النزعة الإمبيريقية و المذهب العقلى على أنهما نوعان من الخطاب يؤثر كل منهما فى الآخر؁ و أنهما قادران على إنتاج تفاعلات إيجابية و بنائية؁ و ليسا منطلقين معرفيين يتسمان بالتضارب و عدم التكافؤ. و الجانب الهام فى ذلك (والذى عرضت له فى الفقرة السابقة) هو نظريات الحقيقة التى يركز عليها المذهب العقلى والنزعة الإمبيريقية. وعلى حين يوجد اعتراف بأن كلا من المذهب العقلى والنزعة الإمبيريقية لديهما ما يقدمانه؁ فإنه من المهم تجنب النظريات التى تغالى فى التماسك؁ والنظريات التى تغالى فى التوافق؁ لأن كليهما يؤدى إلى ادعاءات مبالغ فيها ومن ثم خاطئة بشأن أفضل سبيل للوصول إلى الحقيقة (قوة تفسيرية أعظم). وللبحث عن أشكال تفسيرية أكثر ملائمة وقوة؁ تعتمد النظرية التكيفية على كل من النظريات؁ وتشغل الأرضية المشتركة بينها؁ فى جهد مبذول لتجاوز نواحي القصور فى كل منها.

طبيعة العلم الاجتماعي والواقع الاجتماعي

تتبنى النظرية التكيفية موقفاً محدداً بشأن طبيعة العلم الاجتماعي، وهو ليس موقفاً وضعياً ولا تأويلياً . و تعجز الوضعية التقليدية عن إدراك أن العالم الاجتماعي مؤلف من أفعال الكائنات البشرية التي تخضع المعنى على الأشياء، و التي يختلف سلوكها تماماً عن الظواهر غير الحية للعالم الطبيعي شبه المقننة و التي يمكن التنبؤ بها و تعميمها. إن سلوك الأفراد، و تأثير الأبنية الاجتماعية و العمليات الاجتماعية كثيراً ما يصعب التنبؤ بها، و إخضاعها بشكل حتمي لمبادئ و أسس عامة، كما لا يمكن التعبير عنها في ضوء تعميمات لها سمة القانون و عموميته. وفي ضوء ذلك، فإن الرؤية التأويلية (أو الإنسانية) للتحليل الاجتماعي تصر - بحق - على أن وجهة النظر الذاتية تحتل أهمية فائقة في فهم الحياة الاجتماعية. و لابد أن يدور التحليل الاجتماعي حول محاولة فهم العالم الاجتماعي من وجهة نظر الأفراد الخاضعين للبحث في لحظة زمنية معينة. و من المشكلات الأساسية المتعلقة بالاتجاه التأويلي أنه يميل إلى التطرف في هذه الواجهة من النظر، و يصور العالم الاجتماعي على أنه يتكون كلية من معاني الاتصال بين الذوات و في ذلك إغفال لعناصر عديدة من مكونات الحياة الاجتماعية، كالأبنية و الأنساق الاجتماعية، و أشكال السيطرة، و الرموز الثقافية، و الايديولوجيا، التي لا يمكن فهمها بهذه الطريقة وحدها.

تحاول النظرية التكيفية أن توفق بين فكرة أن كثيراً من عناصر الحياة الاجتماعية يجب تفسيرها في ضوء معاني الفاعلين و صور الفهم الذاتي، ذلك إلى جانب الاعتراف بحقيقة مهمة و هي أن هناك عناصر أخرى من الحياة الاجتماعية تقترب كثيراً من الظواهر الطبيعية، و من ثم يتعين تفسيرها في ضوء معايير علمية موضوعية. و يجب ألا يحدث خلط بين الظواهر الاجتماعية - كالأبنية، و العمليات، و المواقف، و المصادر (و كذلك الميكانيزمات التي تجعل هذه الظواهر شيئاً ممكناً) - و بين السلوك و النشاط الإنساني، حتى على الرغم من أنها تتضمن هذه الظواهر بصورة مباشرة. و كثيراً ما يتم فهم هذه الظواهر على نحو أدق باعتبارها ذات طبيعة متولدة أو سببية، و توجد تحت السطح الخارجي الملاحظ من الحياة الاجتماعية، و

تساهم في تشكيله. و هكذا نجد أن بعض الظواهر الاجتماعية كالأبنية الطبقية، و أشكال السيطرة قد لا تصلح - في حد ذاتها - للملاحظة المباشرة والقياس، ولكن تأثيراتها علي الحياة الاجتماعية يمكن الكشف عنها بوضوح، كما هو الحال في اختلاف الطبقات الاجتماعية من حيث توزيع الموارد، أو رموز معينة في الكلام (برنشتاين، ١٩٧٣)، أو وجود أنواع مختلفة من القمع والضوابط المصاحبة للسيطرة.

و هكذا نرى أنه علي الرغم من أن النظرية التكوينية ترفض الاتجاه الوضعي بصفة عامة، إلا أنها لا ترفض وجهة النظر القائلة بوجود ظواهر في العالم الاجتماعي تشبه إلي حد ما الظواهر الموجودة في العالم الطبيعي. إنه من الخطأ اعتبار هذه العناصر من مكونات العالم الاجتماعي مجرد جوانب من المعنى الداخلي و العمليات التفاعلية بين الذوات. وبدلاً من ذلك، يجب فهم هذه الظواهر باعتبارها تتسم بخصائصها المميزة التي تميزها عن السلوك الإنساني و النشاط الاجتماعي، بينما تكون لها في نفس الوقت علاقات و روابط وثيقة لا فكاك منها مع عالم التفاعل الاجتماعي. و هكذا فإن هذه الظواهر الاجتماعية يجب معاملتها علي أنها ذات طبيعة لا شخصية نسبياً، و أنها ذات طبيعة موضوعية أو تتعلق بالعلاقات بين الأشخاص وبين المواقف المختلفة.

ولكي تحقق النظرية التكوينية ذلك تتبنى موقفاً معرفياً يتضمن كل من النظرة الذاتية الداخلية إلي التفاعل الاجتماعي بينما تدرك في نفس الوقت أن مثل هذا النشاط يتم عادة في سياق من المواقف و الموارد الاجتماعية الأرحب. و تحيط موارد الموقف بصورة خارجية ببعض الأفراد والجماعات و المواقف المعنية، و بالتالي يجب فهمها من خلال وجهة النظر الموضوعية للملاحظ (هابرماس، ١٩٨٧). إن هذه النظرة الموضوعية للملاحظ لا علاقة لها بالأفكار الوضعية عن الموضوعية التي تتطوي علي الادعاء بقدرتها علي الاقتراب من الحقيقة، من خلال التخلص من الأفكار والمشاعر والخبرة الذاتية و ما إلي ذلك. أنها تشير ببساطة إلي التحول من منظور الفاعل إلي نقطة أخرى أفضل لكي تعكس الخصائص الجديدة للأوضاع و السياقات الاجتماعية، أي تعكس سماتها النسقية. و لا تدعي مثل هذه الآراء البديلة

قدرتها على الاقتراب بشكل أفضل لنفس الحقيقة. و إنما هي تكشف عن نماذج مختلفة للتوصل إلي نظم مناظرة من الظواهر الاجتماعية و ادعاءات الحقيقة المرتبطة بها. فإذا كانت هذه المسلمات المعرفية عن طبيعة التحليل العلمي الاجتماعي تميز النظرية التكيفية عن الاتجاهات الوضعية و التأويلية، فمنها تنبثق التزاماتها الأنطولوجية، أي كيف تتصور طبيعة الواقع الاجتماعي. فاحتواء النظرية التكيفية لكل من النزعة الذاتية و النزعة الموضوعية يعني أنها تتصور العالم الاجتماعي على أنه يتضمن كلا من الجوانب الموضوعية و الذاتية (و مزيجاً منهما معاً). فكل من عالم التفاعل الاجتماعي (أو عالم الحياة بمصطلح هابرماس)، و عالم المواقف الاجتماعية، و مصادر السياق (أي الأنساق الاجتماعية عند هابرماس) تعد عناصر حقيقية مترابطة من عناصر العالم الاجتماعي. ولقد أوضحت في موضع آخر (انظر: لايدر، ١٩٩٧) أن هذه المجالات تتشكل بطرق مختلفة و تتسم بسمات و خصائص مستقلة جزئياً، ولا يمكن ردها إلي بعضها البعض.

و بهذا المعنى تتبنى النظرية التكيفية شكلاً معتدلاً من الموضوعية، يجب ألا يختلط بتلك الصور العديدة منها التي تعرضت للكثير من النقد (بدون أساس في الغالب). فنجد مثلاً جيندز (١٩٨٤)، و كذلك بعض الكتاب من أنصار النزعة الإنسانية، كأنصار التفاعلية الرمزية، و الاثنوميثودولوجيا، و الفينومينولوجيا وغيرهم، يعارضون بعنف الاتجاه الموضوعي في كل أشكاله و صوره. فمثل هذا الرفض للاتجاه الموضوعي كان سابقاً لأوانه ولا مبرر له، لأن ذلك يحول بيننا وبين أن ندرك أن شكلاً ما من الموضوعية ضروري ولا شك، لأن السبيل الوحيد الممكن لتحديد الخصائص المميزة والمستقلة جزئياً للظواهر المنتظمة. و نلاحظ في هذا الصدد أن الشكل المعتدل من الموضوعية الذي أقترحه لا يرتبط و لا يتطابق مع الاتجاهات الحتمية أو الوظيفية أو الوضعية (كما يدعي جيندز، انظر: لايدر، ١٩٩٧). و من المهم في السياق الحالي التصدي لنسبة النزعة الحتمية خطأً إلي الفعل الاجتماعي (النشاط - الفعل) من خلال البناء الاجتماعي، أو الظواهر النسقية كنتيجة منطقية مزعومة لتبني الموقف الوضعي.

و تذهب الصورة المعتدلة من النزعة الموضوعية إلي أن الحقيقة الاجتماعية تتكون من كل من الجوانب الذاتية و الموضوعية، و أن كل منهما يؤثر في الآخر لأنهما مرتبطين ببعضهما البعض بقوة. و يعني ذلك أن النشاط الاجتماعي مشروط بالظواهر النسقية و يخضع لها بقوة (كالقيم، والايديولوجيا، و القوة، و الأموال، و المواقف الاجتماعية المنظمة التي تحتضن تلك الظواهر)، بينما نجد في الوقت نفسه ان النشاط نفسه يعيد إنتاج أو يدعم أو ينقل تلك الخصائص الاجتماعية النسقية، و الترتيبات الاجتماعية. و من المهم أن هذا الموقف الموضوعي يتخلى عن النزعة الذاتية الساذجة التي لا تستطيع أن تتصور العالم فيما وراء مجالات التفاعل بين الذوات، أو فيما وراء الدوافع و الأسباب التي يقدمها الفاعلون كتفسير لسلوكهم. إن فكرة أن العالم الاجتماعي يتضمن كلا من السمات الموضوعية و الذاتية، و خليطاً متنوعاً أو مزيجاً من نتائجها و تأثيراتها يعني أن أهداف البحث في النظرية التكوينية تفترض أن العالم الاجتماعي معقد و متشابك. كما أنها تذهب - فضلاً عن ذلك - إلي أن السمة المميزة لهذا التعقد و التشابك هو نتاج الصلات و الروابط الداخلية المتنوعة بين الفعل و البناء.

التعقد و العلاقات بين الفعل والبناء

ان الاعتراف بتشابك و تعقد العالم الاجتماعي (خاصة طبيعته ذات المستويات و الوجوه المتعددة) لا يعني على الأقل انكار وجود - أو التخلي عن البحث عن - أنماط متعددة من أفضل أساليب الاقتراب من الحقيقة. بل إن وجود التعقد و التشابك يعزز - ببساطة - فكرة أن البحث الاجتماعي سيظل أكثر انتباهاً للحاجة إلي الحقيقة في التفسيرات و النتائج التي يطرحها، و ليس التخلي عن البحث عن معلومات أكثر يقيناً و أكثر صحة. و هكذا، فعلى حين لا تنتمي النظرية التكوينية إلي أي أفكار وضعية عن اليقين المطلق أو الموضوعية الكاملة للمعرفة، التي تشكل نتائج و ثمار البحث الاجتماعي، فإنها لا تتخلي عن فكرة أن هدف البحث الاجتماعي هو أن يستمر في إنتاج المعرفة الصحيحة. و هنا نلاحظ أن كفاءة المعرفة و صدقها تنعكس بطريقتين. أولاً، أنها تنعكس في محاولة تقديم وصف أكثر دقة و إحكاماً لطبيعة الواقع الاجتماعي محل الدراسة (جماعة معينة، وسط، موقف

اجتماعي، قضية من قضايا السياسة الاجتماعية) وذلك على نحو يفوق ما كان يحدث من قبل. ثانياً، تتعكس كفاءة المعرفة في صياغة و طرح تفسيرات أكثر قوة عن الظواهر الاجتماعية. و يعني ذلك، أن الأشكال التفسيرية تتضمن داخل أطرها المرجعية أكثر مما كان موجوداً من قبل.

إن هذه المعايير و هذا البحث الشامل عن رفع مستوى الكفاءة يتناقض تناقضاً مباشراً مع المواقف التي تبنتها المدارس الفكرية لاتجاه ما بعد الحداثة و ما بعد البنيوية كرد فعل لمشكلة التعقد. و ينطوي ذلك الاتجاه على نزعة نسبية عامة، قد تتضمن أو لا تتضمن كذلك فكرة أن كل أشكال المعرفة متساوية في الصدق (بصرف النظر عن أي إهتمام بأفكار الدقة أو الصدق). إن التخلي عن البحث عن "نظام" في العالم الاجتماعي البالغ التعقيد يصاحبه نصيحة منهجية تقول: "إن كل شيء جائز"، بصرف النظر عن إجراءات وقواعد العمل في البحوث العلمية. و على حين يمكن تقبل بعض صياغات قضية "التخلي عن المنهج" (فاير أبند، ١٩٧٨) على الأقل من وجهة نظر النظرية التكوينية - خاصة فكرة أن بعض القيود المعرفية و الشكلية المحددة للمنهج يجب التخلص منها - و لكن التخلي الفوضوي بلا أي أساس عن الإجراءات و القواعد المنهجية يعني ببساطة انكار المسؤولية و معايير الحكم، و المعايير الأخلاقية. كذلك فإن تبني الاتجاه الذي يتبنى موقف اللاأدرية^(*) من النظرية، أو الإصرار على تحريم التنظير العام أو النسقي، كاستجابة للاعتراف بالتعقيد اللانهائي للواقع الاجتماعي هو التخلي عن واجب الباحث عن تبين افتراضاته التحليلية، و الفروض الأساسية للبحث الاجتماعي بوضوح. و لا شك أن هذا التهرب من هذه المسؤولية التفسيرية، و تجنب قواعد الصدق و الثبات يناقض كل التناقض أهداف و اهتمامات النظرية التكوينية.

(*) اللاأدرية Agnosticism، مذهب فلسفي ينكر معرفة أو إمكان معرفة وجود أو طبيعة الله أو أي شيء وراء عالم الظواهر المادية.

و ننقل المناقشة الآن بعيداً عن قضية أكثر الطرق ملائمة للتعامل مع التعقد و التداخل لنركز على كيفية تشكل هذه الجوانب في المحل الأول. و على حين يقوم العالم الاجتماعي - إلي حد كبير - على المعاني و الدوافع و الأسباب التي يضيفها الناس على سلوكهم، فإنه لا توجد طريقة تستطيع أن تستغرق وحدها بناء العالم الاجتماعي. و هكذا، فإن التعقد و الكثافة لا يشير ان فقط إلي إدماج وتداخل هذه الظواهر. وهنا نلاحظ أنه يتعين رفض فكرة أن العالم الاجتماعي ظاهرة تقوم كلية على التفاعل بين الذوات، وكذلك رفض الفكرة التأويلية التي ترى أن البحث الاجتماعي يجب أن يهتم بمثل هذه الأشياء وحدها. ونجد من ناحية أخرى، أن فكرة أنه لا يوجد في العالم الاجتماعي سوى متغيرات البناء الاجتماعي، أو المتغيرات النسقية (كالطبقة، و المكانة، و الدخل، و المهنة، و الإنتماء الديني، و توقعات الدور، وما إلي ذلك)، هذه الفكرة يتعين رفضها هي الأخرى على أساس أنها لا تمثل سوى جزء ضئيل من الظواهر الممكنة التي تشكل الواقع الاجتماعي ككل.

وكما ذكرت، فلا يعني كلامي هذا أن المتغيرات البنائية أو المعاني الذاتية ليست ذات أهمية لفهم العالم الاجتماعي. و إنما الخطأ هو في الإدعاء بأن أياً منهما وحده يمكن أن يكون محور الاهتمام الأساسي الوحيد للتحليل الاجتماعي. و تصر النظرية التكيفية على أن مثل هذه النظرية يجب أن تستكمل بالاهتمام بالقوى و الميكانيزمات، و عمليات التجديد النسقية و البنائية. كما تركز النظرية التكيفية - بصفة خاص - على الظواهر التي تجمع بين هذه العناصر المتنوعة، وتطرح الروابط التي تربط عالم الحياة و عناصر النسق معاً بشكل عام. فهي بمعنى آخر تهدف إلي التوصل إلي كافة أشكال الترابط بين الفعل الاجتماعي و البناء الاجتماعي (أو عناصر النسق). هذه العناصر ترتبط ببعضها أوثق الارتباط لتشكل واقعا اجتماعياً معقداً متعدد الأوجه. و تسعى النظرية التكيفية إلي أن تستخلص من ذلك التعقد المحكم تماماً أشكالاً محددة من الارتباط بين الفعل و البناء/ النسق. كما تسعى النظرية التكيفية إلي عزلها مؤقتاً (بالمعنى المنهجي) عن السياق المباشر لهما بهدف التحليل.

و طالما أن النظرية التكيفية تركز على الصلات بين الفعل و البناء، فإنها تكون مفيدة تماماً للبحث الذي يشغله نفس الاهتمام. و معنى ذلك أن النظرية التكيفية تكون ذات صلة فائقة القوة بالبحث الذي يتعلق بتداخل و تشابك عناصر النسق (ظروف النشاط و الأوضاع المحيطة به) مع السمات المحدودة النطاق للحياة الاجتماعية (مواقف المواجهة بين الأشخاص) و هي أقل جدوى للبحث الذي يركز إهتمامه إما على الظواهر الاجتماعية الجمعية وحدها (كالطبقة، و الفعل الجمعي، و العناصر المؤسسية و التنظيمية للمجتمع) أو على تحليل المعنى الذاتي. و يعني هذا ان مدخل النظرية التكيفية يتطلب التركيز على كليهما معاً.

و تفرض هذه الواجهة من النظر التخلي عن مواضع معينة من النظرية الاجتماعية الحديثة، خاصة تلك التي تسعى إلى إذابة الإسهامات المتميزة للفعل و البناء في وحدة إصطناعية عديمة الملامح. و قد كان لنظرية جيندز عن الصياغة البنائية (١٩٨٤) تأثيراً فائق القوة في هذا الشأن. و على الرغم من أنها حاولت أن تربط بين الفعل و البناء، فقد فعلت ذلك عن طريق إسقاط الخصائص المميزة لجوانب الحياة الاجتماعية، و كذلك الإسهامات المختلفة التي تدخل في تشكيل نشاطها، و في إعادة إنتاج الأبنية الاجتماعية و الأنساق. و من أسباب ذلك رفض جيندز للموضوعية في كل صورها (كما يذهب علماء التفاعلية الرمزية، و الاثنوميثودولوجيا، و الفينومينولوجيا، و غيرهم ممن يلتزمون بنفس المقدمات المعرفية و الأنطولوجية).

و من النتائج المهمة المترتبة على رفض النزعة الموضوعية، أن الباحث لن يكون قادراً على أن يرسم بصورة صحيحة الصلات بين العناصر الذاتية و الموضوعية للحياة الاجتماعية. ففي رأي جيندز - على سبيل المثال - أن الأنساق الاجتماعية لا تتميز بأي استقلالية عن الظواهر الذاتية. إذ يرى أن الأنساق لا توجد إلا بمقدار ما تكون متضمنة بصورة مباشرة في أسباب الفاعلين و دوافعهم. و نتيجة لذلك، فإن نظرية الصياغة البنائية تميل بقوة نحو تفضيل الاتجاه الذاتي و الظواهر الذاتية. و قد أدى ذلك إلى تحليل غير متوازن، و إلى تركيز البحوث على محاور لا تستطيع أن تسجل على نحو صحيح الإسهامات المستقلة جزئياً عن عالم الحياة، و عن الظواهر النسقية، و

بالتالي لا يستطيع أن يصف الصلات بينها بكفاءة. و ينعكس ذلك في إثنتين من القواعد الجديدة للمنهج في علم الاجتماع طرحها جيندز (١٩٧٦).

يركز جيندز في أولهما على عدم وجود موضوعات للبحث محددة بصورة مسبقة، و أن العالم الاجتماعي هو عالم يقوم على الأداء النشط للأفراد، و هو أيضا ثمرة هذا النشاط (جيندز، ١٩٧٦، ص: ١٦٠). إن النظرية التكوينية، و نظرية المجالات الاجتماعية التي تركز عليها (انظر: لايدر، ١٩٩٧) ترفض مثل هذا الإدعاء، لأنه يؤدي إلى اهتمام غير متوازن بالنشاط و المعنى و الدوافع التي تم الإشارة إليها من قبل. و تصر نظرية المجالات الاجتماعية على أنه على حين لا توجد جوانب محددة بصورة مسبقة للواقع الاجتماعي، و مستقلة تماما عن الواقع الإنساني، فإن هناك سمات أساسية للمجتمع لها وجود قائم من قبل، و ذات كيان تاريخي. و يمثل ذلك الظروف الخارجية المستمرة التي تواجه الناس في حياتهم اليومية.

و تتميز مثل هذه الظروف الخارجية بوجود صلة حقيقية مع العالم الداخلي المحدود النطاق لمواقف المواجهات الشخصية التي تسهم إسهاما كبيرا في الملامح الروتينية للحياة اليومية. و هكذا، فإن هناك عناصر كثيرة من العالم الاجتماعي الموجودة سلفا (الظواهر النسقية بصفة عامة)، و التي ترتبط بعلاقات ترادف، و علاقات معقدة بالأنشطة الفعالة للأفراد في مواقف المواجهة القائمة. كما تعجز نظرية الصياغة البنائية (انظر: جيندز، ١٩٨٧) عن إدراك مثل هذا النشاط القائم (الذي يطلق عليه جوفمان نظام التفاعل، ١٩٨٣) الذي يتسم بخصائص مميزة لها، لا تماثل إعادة الإنتاج المؤسسي في بناء الحياة الاجتماعية. إن إدراك الطابع المستقل جزئيا للنشاط القائم، من شأنه أن يعقد الآثار الناتجة عن النشاط الاجتماعي بصفة عامة، و يظل غير معترف به من نظرية الصياغة البنائية (انظر: لايدر، ١٩٩٧).

و نجد القاعدة المنهجية الثانية التي يقدمها جيندز (١٩٨٤) في فكرته عن التصنيف المنهجي. و هي فكرة غريبة بعض الشيء، إذا نظرنا إليها في نظرية الصياغة البنائية ككل، لأن الهدف الأساسي من نظرية الصياغة البنائية هو التأليف بين عناصر الفعل و البناء من خلال مفهوم "ازدواجية البناء". و على

العكس من ذلك، فإن التصنيف المنهجي يفرض على الباحث أن يصنف (أو يعزل جانباً) بعض عناصر كل من التحليل المؤسسي أو التحليل التأويلي، في الوقت الذي يركز فيه على جانب أو أكثر من الظواهر الإمبيريقية الخاضعة للبحث. و يعد ذلك العزل جانباً أمراً ضرورياً بسبب الصعوبات العملية (و المنهجية) المفترضة في دراستها في نفس الوقت. و على الرغم من أن جيدنز يقول انه يجب - من حيث المبدأ - توظيف كل من التحليل التأويلي أو المؤسسي معاً، و تعني الصعوبات التي تواجه ذلك أنه يجب التعامل معها بصورة مستقلة. ومن اللافت للنظر أن نصيحة جيدنز أثرت على التميز الأساسي لعالم الحياة، و العناصر النسقية أكثر من تأكيدها على الاعتماد المتبادل بينهما.

و على حين لا يشك أحد في أن الصعوبات الناتجة عن محاولة تتبع الصلات بين الفعل و البناء في نفس الوقت (عالم الحياة أو النسق)، فإنه من الخطأ تماماً التأكيد عمداً على الهوية بينهما. فالهدف النهائي للتركيز على العلاقات بين الفعل و البناء في البحث هو تحديد الدلالات المتزامنة لكل منهما لتتبع تفسيراتهم و علاقاتهم الفعلية، و ليس التخلي عن هذه الوظيفة بسبب مشكلة منهجية. ولن تنشأ المشكلة المنهجية - على أي حال - في أكثر أشكالها الحاحاً (لا نقول إنها لا تقهر) الا عندما ننكر السمات المميزة للفعل و البناء في الأساس. تلك بالتجديد هي المشكلة التي ظهرت مع فكرة جيدنز عن "ازدواجية البناء" حيث يتم إذابة الإسهامات المستقلة للفعل و البناء في وحدة صلبة ذات "طبيعة مزدوجة" (و ذلك في مقابل الأشكال المتميزة التي تمتزج ببعضها البعض بعدة طرق مختلفة). و هكذا فان عملية صياغة المفاهيم الأساسية عن ازدواجية البناء تجعل قضية جيدنز عن الصياغة البنائية عاجزة عن تناول محتويات الفعل و البناء، و من ثم الانخراط في تحليل تأويلي ومؤسسي في نفس الوقت.

و من خلال تبني وجهة نظر بديلة من نظرية المجال، يتشجع الباحث في دراسة طبيعة عالم الحياة وعناصر النسق، و علاقات التداخل بينهما - بدلاً من الفصل بينهما منهجياً - وذلك أثناء العمل في مشروعات بحث معينة (انظر: لايدر و زملاؤه، ١٩٩١). إن السمة المميزة لمثل هذا التحليل هي

مراعاة المكانة المعرفية للمفاهيم التي تشير إلى جوانب مختلفة من الواقع الاجتماعي. لقد تناولت ذلك بقدر من التفصيل مع العديد من القضايا المرتبطة به في الفصل الرابع من هذا الكتاب. و لذلك لن أكررها هنا مرة أخرى. إن بيت القصيد هنا أنه في ضوء الأنماط المختلفة للمفهوم التي حددتها (السلوكية، و النسقية، و الوسيطة، و النظرية)، يصبح من المهم أن نضع في الاعتبار مختلف الوظائف التي تقوم بها، و تأكيداتها المختلفة فيما يتعلق بالوصف التفسيري الكلي لمشكلة البحث موضع الدراسة.

ومن الأمور ذات الصلة الخاصة هو دور المفاهيم الوسيطة كأداة للتركيز على الروابط التي تربط عالم الحياة و عناصر النسق معاً. و إن كان يتعين أن يؤخذ في الاعتبار أنه علي الرغم من أن المفاهيم الوسيطة تمثل هدفاً يبدو أكثر تحديدا لهذه المشكلة، إلا أننا نلاحظ أن المفاهيم السلوكية و النسقية و النظرية تلعب هي الأخرى دوراً حاسماً. و هنا يكون أفضل السبل لفهم ما تحتويه من أوزان دلالاتها لكل من عالم الحياة و عناصر النسق. تعدد الاعتبارات المعرفية و الانطولوجية ذات دور حاسم في فهم الطريقة التي من خلالها تدعم الصلات بين المفهوم و المؤشر كل منهما الآخر في محاولتهما تصوير الواقع الاجتماعي المعقد المتعدد الأوجه.

الجوانب العملية للنظرية التكيفية

لقد حان الوقت لكي نترك مناقشة السياق الفلسفي والمنهجي والنظري، ونركز فيما يلي على الدلالات العملية للنظرية التكيفية. أولاً، تعتمد النظرية التكيفية على مجموعة من المداخل، والنماذج، والمواقف المعرفية المختلفة في التحليل الاجتماعي. (النظرية النقدية، النظرية العامة، النظرية الموثقة، النظرية المتوسطة المدى) ولكن لا يمكن اختزالها إلى أي واحدة بعينها من تلك النظريات، ونلاحظ في هذا الصدد أنها تعتمد فقط على تلك الأجزاء من المداخل الأخرى التي تتسق مع افتراضاتها. وتحاول النظرية التكيفية على وجه الخصوص أن تتغلب على الفروق بين مختلف النماذج النظرية لبعض هذه المداخل وذلك من خلال أحداث تغيير جذري في سياقها المعرفي. وعن هذا الطريق وحده يصبح من الممكن خلق روابط بين المداخل المختلفة، وتسهيل تواصل النماذج.

وعلى الرغم من أن النظرية التكوينية لا تتكرر - على سبيل المثال - (بل إنها تحاول أن تتشرب) بعض عناصر تصور ميرتون عن النظرية المتوسطة المدى، إلا أنها ترفض الالتزام باتجاه معرفي امبيريقى، وبالقيود التى يفرضها ذلك الاتجاه على البحث الاجتماعى وعلى التحليل (رفض أنواع معينة من النظريات العامة، وتفهم مناسب للمعنى الذاتى الداخلى). وكذلك ورغم أن النظرية التكوينية تمتدح الطبيعة "العضوية" لمدخل النظرية الموثقة، إلا أنها ترفض الفكرة المحدودة لما يمكن أن يطلق عليه النظرية الموثقة، وبالتالى محاولات توسيع مصطلحاتها المرجعية (انظر : لايدر، ١٩٩٣). وبالمثل، بينما تعتمد النظرية التكوينية على النظرية العامة (مثل تبنيها بعض عناصر النظرية النقدية) أنها تسعى إلى تجاوز حدود التحليل النظرى البحث، أو تحليل الخطاب من أجل الاشتغال بالقضايا المتعلقة بالبحث الإمبريقى التطبيقى، وجمع البيانات بالدرجة الأولى. ونلاحظ فى هذا الصدد أن النظرية التكوينية تتخبط فى حوار بناء مع عدد من المداخل أو النماذج النظرية التى قد تعد متنافرة أو متنافسة مع بعضها البعض. ومن خلال هذا التوثيق المحكم نفسه على أساس معرفي وانطولوجي متماسك، تتجنب النظرية التكوينية مسئولية الانتقاء العشوائى أو غير المتدبر. وتسعى النظرية التكوينية بدلا من ذلك - إلى أن تكون انتقائية - بمعنى وضعي وبنائى - وذلك عن طريق الجمع داخل نفس الاطار بين استراتيجيات بحثية ظلت حتى الآن منعزلة عن بعضها أو متضاربة مع بعضها، وحينئذ ومن خلال إعادة صياغة وترتيب العناصر الداخلية الأساسية تحاول النظرية التكوينية الاستفادة من تأزيرهما ومن القوى المركبة. وهكذا على حين يعد مدخل النظرية التكوينية مدخلا انتقائيا، وتركيبيا بطبيعته، فإن النظرية التكوينية تطرح بديلا نسقيا للمداخل التى تتبثق منها.

وبيت القصيد هنا هو النظرية النقدية التى لم أتطرق إليها بعد. ويمكن القول ان النظرية التكوينية ذات صلة بالنظرية النقدية، لأنها تركز تقليديا على أهمية تحليل القوة والسيطرة فى المجتمع كجزء هام من عملية البحث الاجتماعى. على الرغم من أننى لم أنفق وقتا طويلا على دراسة هذه المسألة تحديدا (انظر؛ لايدر ١٩٩٧، للوقوف على تحليل تفصيلي للقوة)، إلا أن مثل هذا التأكيد متضمن فى الأهمية التى أضفيتها على تحليل الظواهر النسقية

والعلاقات المتبادلة بين عالم الحياة وعناصر النسق (الفعل والبناء). وبديهي أن تحليل القوة والسيطرة يفتح المجال لأسئلة حول مدى أخلاقية أنواع متعددة من القهر، سواء كانت لأفراد أو جماعات، وكذلك مقاومة أشكال السيطرة والقهر.

كما أن المسائل المتعلقة باتاحة الفرصة للجماعات المضطهدة للتعبير عن رأيها، وإعادة توزيع القوة، أو تمكين الجماعات والأفراد الضعفاء نسبيا، تتبع بصورة طبيعية من الاهتمام بتحليل ونقد أشكال القوة المستغلة أو المؤذية. وتعتمد النظرية التكوينية على النظرية النقدية طالما أنها تركز على العديد من هذه القضايا في سياق البحث والتحليل الاجتماعي. ولكن النظرية التكوينية ترفض العديد من افتراضات هذه الصور من النظرية النقدية التي انبثقت من المدارس الفكرية لنظريات ما بعد البنيوية وما بعد الحداثة. إذ نلاحظ أولا أن النظرية التكوينية ترفض فكرة أن جدل الفعل/ البناء قد تم تجاوزها أو تجاهلها ومن ثم يجب إهمالها. وعلى العكس تماما، وكما أكدت المناقشة السابقة، فإن تتبع الروابط والتداخلات بين الفعل والبناء قضية محورية بصورة مطلقة. ثانيا، ترفض النظرية التكوينية فكرة أن القوة مرتبطة بالخطاب (المستمدة أساسا من فوكو واتباعه) وهي الفكرة التي ترى - باختصار - أن القوة ملازمة للخطاب، طالما أن أنواع الخطاب نفسها ذات قوة مؤثرة. ولا تتكرر النظرية التكوينية أن أنواع الخطاب تكون ذات قوة مؤثرة، ولكنها ترفض الادعاء بأن ذلك يستغرق تحليل القوة في الحياة الاجتماعية تماما. إن نظرية المجالات الاجتماعية تقلل من شأن فكرة تعدد أشكال القوة التي يتم فهمها في ضوء تعقد العلاقات مع الفعل الاجتماعي، وتاريخ الحياة النفسية، والنشاط القائم، والظواهر النسقية، وكذلك أنواع الخطاب. ذلك أن الخبرة الذاتية والواقع الاجتماعي لا يمثلان وحدهما محتوى مؤشرات الخطاب، ومن هنا يكونان أكثر تعقيدا، وتنوعا ومركبا مما تسمح به اتجاهات ما بعد البنيوية، وما بعد الحداثة. وبصرف النظر عن ذلك ترفض النظرية التكوينية الافتراض المسبق لعدد من صور النظرية النقدية التي ترى أن فهم الحياة اليومية ملازم لتحليل الايديولوجيا، أو أبنية القوة الرسمية للانساق الاجتماعية، على الرغم من أن تحليل الايديولوجيا والسيطرة يعد أيضا مكونا ضروريا من مكونات

التحليل الاجتماعي. وأنه يجب النظر إلى الحياة اليومية كموضوع للتأثير المستقل - جزئيا -، وتحديد ظروف نظام التفاعل، كما أطلق عليه جوفمان، ومن ثم يتعين التعامل معه كمجال مستقل.

نطاق ومجال النظرية التكيفية

تعد النظرية التكيفية نظرية "متوسطة المدى" في ضوء بؤرة اهتمامها المباشر، ويعنى ذلك أن محورها الأولى يدور حول مجموعة الأنشطة (أو الوقائع) والعلاقات والتنظيمية الاجتماعية التي تشكل بيئتها المباشرة. ومن هنا نجد أنها تفهم مجموعة الأنشطة المحورية على أنها شبكة متداخلة في عدد من المواقف الاجتماعية المتنوعة، كالتنظيم الرسمي، وأسواق العمل، وأشكال القوة والسيطرة التي تشكل أساس تلك المواقف. وتطرح تلك المجموعة من روابط الفعل - النسق خطاب بؤرة البحث وتوجه المشكلة. فالأسئلة التي توجه اهتمام البحث حول كيف وأسباب أشكال معينة من السلوك والأنشطة والأحداث تتغلغل داخل الأشكال المحيطة للقوة والتنظيم الاجتماعي. ولكن نجد داخل نطاق هذا النوع من الاهتمام نطاقا واسعا من الاحتمالات. من ذلك أن دراسة طبيعة العمل العاطفي المأجور في مهنة التدريس يمثل حالة لوضع تنظيمي تصطدم فيه الأوضاع الرسمية للسلطة بقدرات المدرسين على توظيف العمل العاطفي المأجور في صور متعددة أثناء التدريس.

وفي مقابل هذا نجد أن البحث في السلك المهني للممثلين يلقي الضوء مباشرة على موقف العمل - مهنة التمثيل ككل - الذي يتميز بقدر ضئيل من التنظيم الرسمي. أن العقود القصيرة الأمد (لمسرحية، أو لفيلم، أو لبرنامج تليفزيوني) والبطالة المزمدة، وازدحام المهنة بالراغبين في العمل، كل ذلك يعنى أن أساس المهنة تقلب العرض والطلب في سوق عمل التمثيل. ولكننا نجد في كلا المثالين أن الطريقة التي ترتبط بها العوالم اليومية، والأنشطة الاجتماعية للمدرسين والممثلين بصورة تبادلية مع العوامل النسقية - مثل طبيعة العلاقات الاجتماعية (بما فيها القوة والسلطة) وتنظيم مواقف العمل، وسياقها الأوسع - يشكل حجر الأساس الذي تنهض عليه المشكلة المحورية للبحث. كذلك يطرح بحث البغاء مثلا لوضع وسياق مغاير، ولكنه يتضمن

نفس المشكلة المحورية في تشابك الفعل - البناء، أو روابط وتأثيرات عالم الحياه - النسق.

كشفت دراسة أوكونيل دافيدسون (الصادرة عام ١٩٩٨) أن تنوع تنظيم البناء يتراوح - من ناحية - ما بين التنظيم الناجح ماديا لدعارة البالغين مروراً بأشكال يتم فيها التحكم بصورة مباشرة أو غير مباشرة في البغي (عندما يتضمن ذلك طرفاً ثالثاً مثل القوادين والمسؤولين عن الحماية والمراقبة "الناضورية")، وانتهاء - على الطرف الآخر - بأشكال الاستعباد، حيث يحتجز الأطفال وفاء لدين. إن الحياة اليومية للبغايا وعلاقاتهن مع عملائهن تخضع - إلى حد كبير - لشروط هذه الأشكال من السيطرة والتحكم، وهذا هو الشكل النمطي لمحور المشكلة الذي يؤكد عليه مدخل النظرية التكوينية. ومع أن هذا المحور يمثل المحور المباشر للموضوع، إلا أن ذلك لا يعنى أنه سيبذل دائماً محدوداً في داخل هذا الاهتمام الأولي، أو نقطة الاتصال. وهكذا تعد النظرية التكوينية - من هذه الناحية - أداة مرنة، على أساس امكانيات تطبيقها، ورؤيتها الشاملة للقضايا والاهتمامات المرتبطة بها. وهكذا، ربما تنتشر فيما وراء الاهتمامات المتوسطة المدى، بمعنى أنها قد تتضمن مدخلات من النظرية العامة بكافة أنواعها، كنظريات الفعل أو الانساق، أو نظريات التنمية على سبيل المثال.

كذلك لا يوجد سبب للقول بأن اهتمامات النظرية التكوينية يجب أن تظل محصورة على المستوى المتوسط للتنظيم الاجتماعي وحده، حتى ولو ظل هذا المستوى هو نقطة الانطلاق في عديد من الحالات. لابد أن يتحول اهتمام الباحث أو المحلل إما إلى جانب النشاط والسلوك من الأشياء (طبيعة ونماذج التفاعل الاجتماعي والعلاقات الاجتماعية، وما إلى ذلك) أو إلى جانب النسق، مع الاهتمام النسبي بالمواقف والسياقات (المؤسسات، والتنظيم، وإعادة إنتاج العلاقات الاجتماعية، والقوة، والايديولوجيا). ومن المهم مع ذلك أن نلاحظ أن تحول الاهتمام من جانب إلى آخر يجب ألا يحدث إلا كوسيلة تحليلية مؤقتة في مراحل محددة من البحث بغرض تعزيز أو إثبات سمات معينة، والوقوف على معلومات معينة. إن الميل نحو جانب معين/ أو مجموعة من القضايا لابد أن يتوازن من خلال التركيز على مجموعة متكاملة من

الاهتمامات، ولا بد أن يتضمن محاولة نظامية لتتبع الصلات وصور الاعتماد المتبادل بين عالم الحياة وعوامل النسق. وهكذا فإن التحليل الكلى سوف يتم على خلفية افتراض مؤداه أن الفعل والبناء مترابطان معا بصورة اساسية، وبالتالي لا يمكن فهم أحد جانبي المعادلة بمعزل عن الآخر. ومن الأمور الحاسمة أن ادخال عناصر من النظرية العامة، وفكرة الرابط المستمر بين الظواهر السلوكية والنسقية، من شأنه أن يسمح للباحث بالنفاز إلى ما وراء النتائج الطبيعية للاهتمامات المتوسطة المدى كما حددتها أفكار كل من ميرتون (١٩٦٧)، وجلاسر وشتراوس (١٩٦٧).

ما هو المقصود بالتكيف فى النظرية التكيفية ؟

سوف أركز هنا على مصطلح النظرية التكيفية، محاولا شرح ما يدل عليه أو يشير إليه بالتحديد. فهناك معنيان اساسيان يرتبطان بهذا المصطلح. أولا، تشير كلمة "تكيفى" إلى النظرية التى يكون محور اهتمامها هو الحساسية لعالم الظواهر الإمبيريقية وتسجيل معلومات عنه، كما تتجلى فى بيانات البحث الأولية (كالمقابلات، والملاحظات، وتفسير الوثائق والمستندات). ويعنى ذلك أن النظرية التكيفية قابلة للتكيف، أو قابلة للتغير أو التعديل بحيث تتلائم مع تحليل وتفسير البيانات التى يتم جمعها بشكل مستمر (وهى بهذا الوصف تتسم بجزء من الجوهر الحقيقى للنظرية الموثقة، ولكنها تتحرر من نقاط ضعفها الإمبيريقية). ثانيا، توحى كلمة "تكيفى" بأن بعض العناصر ذات الصلة بالنظرية (مثل النماذج النظرية) توجد أولا، وبالترايف مع جمع وتحليل بيانات البحث. حقيقة أن تلك العناصر النظرية القائمة هى موضوع الاستجابات التكيفية (صور التكيف أو التعديل) لبيانات جديدة وتفسيرها.

وهكذا يقصد بالجزء التكيفى من المصطلح أن النظرية تتطوى فى نفس الوقت على خاصيتين اساسيتين. أولا، وجود دعامة نظرية قوية ذات شكل راسخ نسبيا، إذ أنها تتكيف بشكل تأملى، لا بشكل آلى، مع البيانات الإمبيريقية. ثانيا، أنه لا يصح النظر إلى هذه الدعامة على أنها ثابتة أو غير قابلة للتغير، لأنها قابلة للتكيف مع معلومات وتفسيرات جديدة من خلال إعادة تشكيل نفسها. وهكذا نجد أنه على الرغم من أن العناصر النظرية القائمة لا

تعد مجرد تأملات امبيريقية بسيطة للبيانات، إذ أنها قادرة في الحقيقة على إعادة صياغة نفسها عن طريق التكيف أو التلاؤم استجابة لاكتشاف معلومات جديدة و / أو تفسيرات جديدة لبيانات تمثل تحديا أساسيا لمسلّماتها الأساسية. إن عمليات إعادة الصياغة تلك قد تتطوى في بعض الأحيان على مجرد تعديلات ثانوية فقط (مثل ملء فراغ تفصيلات لفئة موجودة، أو مفهوم معروف مثل البغاء الذي يتحكم فيه طرف ثالث، أو الاحتراق العاطفي) ولكنها قد تتطلب في أحيان أخرى نوعا من إعادة التنظيم الأساسي، سواء بالتخلي عن أحد الفئات أو النماذج، أو التفسيرات القائمة، أو خلق فئة أو نموذج أو تفسير جديد تبعا للظروف.

ويتجاهل هذا الوصف للنظرية التكيفية فكرتين هامتين تتصلان بطبيعة التحليل الاجتماعي وعلاقته بالواقع الاجتماعي الذي تتخذه موضوعا للتحليل. هذه الأسس المعرفية والانطولوجية هي التي يقوم عليها، وهي التي تتحكم في فلسفة العمل لمدخل النظرية التكيفية، وتتبع منطقيا من القضايا المنهجية التي تم مناقشتها في مواضع سابقة. إن المدخل بأكمله يؤيد الفكرة التي ترى أن هناك نظاما في العالم نفسه، وأن هذا النظام هو الذي يسعى التحليل الاجتماعي إلى الكشف عنه وفهمه في حدود معرفتنا (ولكن ليس بالمعنى الوضعي "اللامنتمي" إلى حد ما). وهكذا يسعى التحليل الاجتماعي إلى عرض هذا الواقع من خلال نظرياته وتفسيراته، ولكن ليس بصورة "تطابق" مباشر مع واقع هذا العالم. وتوحى وجهة النظر هذه بأن هناك عالما مستقلا ومختلفا عن محاولة أي شخص معرفته أو الكشف عنه بطرق مختلفة (مثل بناء نماذج له).

ومن الأمور المهمة - على أي حال - أن هذا الموقف يوحي بأنه على الرغم من أن الواقع الاجتماعي يتسم بخصائص جوهرية (قد تعد بصورة جزئية نقاجا إنسانيا)، فإننا عندما نحللها نفرض عليها بطبيعة الحال أنواعا مختلفة من النظم اللغوية (الوصف، وصياغة المفاهيم، والنظريات) في محاولة مفهومة لنا. وهكذا فإننا في سعينا لمعرفة هذا الواقع من خلال البحث أو التحليل، نسعى كذلك أيضا إلى فرض نظام عليها من خلال المعاني اللغوية التي ننسبها لها. وتحاول النظرية التكيفية أن تعقد صلة بين هاتين الرؤيتين،

أن هناك نظاماً في العالم الذي نحاول الوصول إليه وفهمه، واننا - في نفس الوقت - نفرض أنماطاً متعددة من النظام على هذا العالم، في سياق ما نقوم به من تحليل وتفسير له. وهناك من وجهة نظر مدخل النظرية التكيفية مشكلتان رئيسيتان تتبعان من هذا الموقف وتحتاج إلى مزيد من التأمل.

أولاً، يجب أن نكون حساسين (ومن ثم نتحاشى بقدر الإمكان) تجاه احتمال أن التصورات التي نفرضها ربما تتجاوز بشكل خطر أو تتعدى على النظام "النظام الجوهرى" الذى يتجلى فى الواقع الاجتماعى (من هذا القبيل مشكلة الأفراط فى العقلانية، أو نظرية الحقيقة الصارمة). ثانياً، يجب - فى المقابل - ألا نذهب إلى أن الواقع الاجتماعى يطرح تفسيراً ذاتياً عن نفسه. بمعنى أن بناءه يتيح لنا أن نعرفه بشكل مستقل عن المعانى الاجتماعية التي تنتقل من خلال اللغة والتي ننسبها إلى ذلك البناء. تلك هي المشكلة المرتبطة بالزرعة الإمبريقية المتطرفة، والصور المقابلة لها من فهم الحقيقة. ولهذا، فإن الصعوبة هي إدراك كل من النظام الجوهرى للواقع الاجتماعى، وكذلك فرض نظام معين على هذا الواقع فى مواضع مختلفة (وملائمة) فى ثنايا عملية البحث.

ونستطيع أن نتبين الدلالات العملية لذلك فيما يتصل باستخدام النماذج فى النظرية التكيفية. فالنظرية التكيفية تولى اهتماماً خاصاً لتوليد نماذج نظرية من الواقع الاجتماعى الذى يتناوله موضوع البحث. ويعنى ذلك أن النظرية التكيفية تحاول أن تتبع صور الاقتران بين بعض أشكال النشاط والعلاقات الاجتماعية من ناحية، وأنماط التنظيم التى تحتويها من ناحية أخرى. ومثال ذلك العلاقات بين البغايا وعمالهن التى تتحدد فى ضوء تنظيم البغاء اجتماعياً، وأشكال القوة والضبط الكامنة داخل هذه العلاقات. ويتم توليد هذه النماذج عن طريق عدد من السبل، من بينها تجميع البيانات وتحليلها، وصك المفاهيم، والتفكير من خلال الدلالات النظرية للنظريات وأبنية المعرفة القائمة (بما فى ذلك المجالات المحددة وبيئية حقيقية، انظر الفصل الثالث فى هذا الكتاب)، والاشتغال بعمليات التدقيق النظرى.

وهكذا، يسعى مدخل النظرية التكيفية إلى ضمان أن يظهر عند مرحلة ما من تنفيذ مشروع بحث معين نموذج نظري عن صور التداخل بين الفعل والنسق (سواء كان بشكل مبدئي أولى، أو ما يمكن صياغته بصورة واضحة)، وهو النموذج الذي سوف يطرح تفسيراً لما يحدث ولماذا. وعندما يبدأ هذا النموذج (من قبيل التنظيم الاجتماعي للبغاء، أو التباينات في أبنية المسار المهني، أو أسباب الاحتراق العاطفي) في الظهور، فإنه سوف يلعب دوراً هاماً في البحث الجاري، والتفسيرات الكلية للبيانات التي تم التوصل إليها من خلال البحث. وسوف يبدأ النموذج في تغذية البحث، بمعنى تنظيم البحث على نحو معين، بينما نجد في نفس الوقت أن النموذج نفسه سيكون معرضاً على الدوام لامكانية إعادة صياغته من خلال تنظيمات الواقع الاجتماعي، التي تكشف عن نفسها من خلال بيانات البحث المتاحة.

يعتمد منطق العملية أشد الاعتماد على التوصل المبكر للنماذج النظرية (التي قد تكون مؤقتة بطبيعتها) والتي تضطلع عندئذ بمهمة تنظيم البيانات. وهكذا تقف النماذج النظرية كنماذج تصنيفية يتم في ضوئها تقييم البيانات ومواءمتها مع مخطط نظري (النموذج). وعلى هذا النحو طرحت نموذجاً عن تدرج سوق العمل في مجال التمثيل والميكانيزمات التي تؤدي إلى إعادة إنتاجه. وقد بدأ هذا النموذج لأول مرة عندما أمنت النظر في بيانات مسحية عن عمالة الممثلين، ودخولهم، وإن كان قد حدث بعد ذلك أن تم تطوير النموذج وصقله من خلال عمليات جمع وتحليل بيانات المقابلات التي أجريت مع الممثلين والوكلاء، ومديري اختيار فريق العمل، ومن اليهم. وقد تم إجراء هذا التطوير والصقل من خلال طريقتين أساسيتين. الأولى، فكرة أن سوق العمل مقسم في الحقيقة إلى طبقات وشرائح على أساس الدخول الكلية، ومن ثم أوحى ظروف التوظيف أنماطاً معينة من التفسير لتحليل بيانات المقابلات من خلال حراس البوابة الأساسيين مثل مديري الأعمال الشخصيين، والوكلاء، ومديري اختيار فريق العمل. ثانياً، قامت بيانات المقابلات - نفسها - بعمليات تغذية مرتدة لتطوير النموذج، وقدمت مفاتيح مهمة لفهم مجموعة من العمليات الاجتماعية التي تتم في إطارها تلك الوقائع، وهي مفاتيح لم يكن من الميسور التقاطها من / أو اقتراحها بواسطة النموذج الأولي بنفسه.

ومن الممكن أيضا أن تنشأ مفاهيم وأفكار نظرية جديدة عن هذا الطريق، طالما أنه يتم جمع وتحليل البيانات، التي تكمل النموذج الأولي وتضيف إليه (من خلال اقتراح تعديلات بسيطة على صياغة المفاهيم أو مقوماتها). أما إذا لم يكن من السهل استيعاب البيانات بسهولة في الإطار النظري، كان تمثل تلك البيانات تحديا قويا للإطار القائم، سواء من خلال اقتراح أنواع مختلفة جذريا من المفاهيم أو التفسيرات، أو إذا كانت النتائج الجديدة تتعارض مع بعض الافتراضات الأساسية للنموذج. حينئذ تكون وظيفة التحليل هي صقل ذلك الإطار النظري أو بعض جوانبه، بحيث يصبح قادرا على أن يستوعب البيانات. وقد يتطلب ذلك في الواقع التخلي عن مفاهيم أو فئات معينة (مثل بعض أنماط البغاء) أو ابتكار مفاهيم وفئات جديدة (من هذا مثلا توليد فئات جديدة ترتبط بالتحمل العاطفي، أو الاحتراق العاطفي). وأيا كان الوضع، فإن هذا الاستخدام العام للنماذج يجعل المدخل التكيفي مختلفا تمام الاختلاف عن النظرية الموثقة التي تصر على أن النظرية في حالة انبثاق مستمر، وبالتالي لا يمكن أن يوجد أي إطار نظري يسبق جمع البيانات في أي مرحلة من عملية البحث.

ونلاحظ أن الأسباب المؤدية لهذا التباين تلعب دورا مهما في تحديد تمايز مدخل النظرية التكيفية. تنشأ الاختلافات جزئيا لأن النظرية الموثقة - كما ألمحت إلى ذلك - تتخلى عن فكرة الأطر النظرية المسبقة، واستخدام النظرية العامة القائمة، لأنها ترى أنهما يقفان عقبة في طريق صياغة نظرية، وأفكار نظرية جديدة. في مقابل ذلك تركز النظرية التكيفية على فكرة أن النظرية المسبقة تلعب دورا حيويا وبناء في البحث الاجتماعي الذي يعمل على توليد النظرية. وعلى الرغم من أن البيانات الجديدة وتحليلاتها تلعب دورا مهما في صقل النماذج التي يتعامل معها الباحث، إلا أنها لا تقدم لنا النماذج بشكل كامل متكامل. كما أن النماذج لا تستجيب إلى ما لا نهاية لمتطلبات البيانات أو المعلومات الجديدة الناشئة. وإنما الأصح أن تلك النماذج تستجيب بشكل انتقائي وتأملّي، ومن ثم نجدها متوافقة مع العالم الإمبريقي، أكثر من كونها نتيجة لاستجابة آلية مرنة لهذا العالم الإمبريقي. معنى ذلك أن وجود النظرية المسبقة ذاته يخلق رابطة عضوية مع النظرية الناشئة الجديدة،

ويوجد من خلال علاقة تبادلية جدلية معها. فهذه النظرية المسبقة تحفز على ظهور نظريات جديدة، ولكنها تمثل قيداً عليها في بعض الأحيان، وفي بعض مراحل التحليل وعملية البحث.

وهناك سبب آخر لتمييز المدخل التكيفي، يتمثل في أن النظرية الموثقة تضيف أولوية على بعض عناصر عالم الحياة (كأشكال التفاعل، والاتصال، والمعنى، وما إلى ذلك) في تطويراتها النظرية، وأطروحاتها، وذلك في نفس الوقت الذي تسقط فيه من اعتبارها الظواهر الاجتماعية البنائية أو النسقية. ومن خلال التركيز الكامل على ظواهر عالم الحياة، تركز النظرية الموثقة على تفاصيل العلاقات بين الأشخاص التي لا نهاية لها في الأساس. وعندما يقترن ذلك بنصيحه لإنتاج أكبر عدد ممكن من الرموز (انظر الفصل الثالث من هذا الكتاب) يكون لذلك تأثير مدعم للطابع الفردي، من شأنه أن يشجع الباحث باستمرار على إنتاج مفاهيم جديدة، تعكس السمات السلوكية التي تتجلى في البيانات.

ولا تنضب السمات السلوكية - خاصة سمات المشاركين في مقابل مفاهيم الملاحظ - لأن هناك الكثير من المعاني التي يمكن اضافؤها على سلوك الشخص بمقدار تعدد الأوجه المختلفة لشخصية ذلك الفرد وقدراته الاجتماعية. ويزداد هذا الكم حجماً وضخامة، إذا وضعنا في اعتبارنا سلوك الناس في تباين تفاعلهم مع بعضهم البعض. وعلى الرغم من أن القائم بالتحليل يختار من بين هذه الاحتمالات اللانهائية، فإن هناك دائماً اغراء اضافة مفاهيم وصفية اضافية خوفاً من أن يضيع أي منها، مما قد يكون ذا أهمية تحليلية. وهكذا، فإن عدد الاحتمالات الممكنة لإنتاج مفاهيم جديدة تتضاعف بشكل هائل.

وإذا لم يوجه بعض الاهتمام إلى الظواهر النسقية (كأشكال علاقات القوة، والتنظيم الاجتماعي، والموارد، والايديولوجيات وما إلى ذلك)، فلن تكون ثمة ضوابط طبيعية يمكن أن تطبق حينئذ على عملية الجمع المستمر للبيانات والنمو المستمر في المفاهيم السلوكية. غير أن مثل هذا التراكم المستمر لا يضيف بالضرورة سمات تفسيرية للنظرية، وإنما هو يخلق مجموعة متنوعة

من المفاهيم التي قد تكون هامة، أو غير هامة للنظرية على المدى الطويل. وتلك واحدة من أهم مشكلات مدخل النظرية الموثقة، حيث لا يوجد عامل مميز حقيقى يمكن أن يفصل "الاضافات الزخرفية (التجميلية)" للإطار النظرى عن المكونات الأساسية لإطار المفاهيم أو النموذج النظرى. فى مقابل ذلك نجد أن النظرية التكيفية رغم اهتمامها بالظواهر السلوكية، تستكمل ذلك فى نفس الوقت من خلال ادراك الظواهر النسقية والتركيز عليها. ومن شأن ذلك أن يسمح بتطبيق الضوابط عند التشعب أو التوسع فى توليد مفاهيم نظرية لانها تتدخل فى عملية خلق النظرية بكافة مراحلها. ويلاحظ على وجه الخصوص أن ذلك يسمح للقائم بالتحليل أن يقرر اطلاق مفاهيم سلوكية جديدة من خلال قياسها فى ضوء مدى صلتها بالأشكال النسقية الاجتماعية التي تتداخل وتتشابك معها. وهكذا، فإن توليد مفاهيم سلوكية يتحدد فى ضوء دلالتها بالنسبة للظواهر النسقية والعكس بالعكس، وإلى أى مدى تلقى ضوءا عليها. وبمجرد أن يتم التوصل إلى مجموعة أساسية من المفاهيم السلوكية ويتم اختبارها، وتعد بمثابة لب تحليل علاقات التشابك داخل النسق السلوكى، لا تصبح هناك حاجة حقيقية لتوليد مفاهيم سلوكية إضافية. ولا يعنى ذلك بالطبع افتراض وجود نوع من التحريم المطلق بشأن طرح المزيد والمزيد من المفاهيم السلوكية. ولكن ذلك لا يشير إلى حقيقة أن ذلك المزيد قد يكون فى الغالب غير ضرورى لأنه لا يضيف شيئا إلى تحليل و / أو تفسير الروابط بين عالم الحياة ونسق الظواهر.

يلعب التأثير العكسى (المضاد) دورا هنا، حيث أن طبيعة تشابك عالم الحياة - النسق تفرض قيودا متبادلة على تطوير المفاهيم النسقية. إلا أن المشكلات التحليلية المطروحة فى هذا السياق ليست حادة بنفس الدرجة التي نجدها مع المفاهيم السلوكية، لأن امكانيات التوليد غير المحدود للمفاهيم النسقية ليس لها اطلاقا نفس مجال، ولا نفس أبعاد مفاهيم عالم الحياة، والمفاهيم السلوكية. وسبب ذلك أن التركيز على الظواهر النسقية فى حد ذاتها يمارس بطبيعته تأثيرا عاما، وليست عبارة عن اهتمام بما هو خاص وملموس، كما هو الحال مع المفاهيم السلوكية. تعد المفاهيم النسقية مفاهيم تحليلية، تهتم بالمؤشرات العامة للتنظيم الاجتماعى والعلاقات الاجتماعية.

وهى فى حد ذاتها تتناول عددا محدودا من الأشكال الاجتماعية النسقية الممكنة (على سبيل المثال، التنظيم المهنى، وأنماط البغاء، وسيناريوهات العلاقات الجنسية التى تقع بين البغايا وعملائهن) (انظر أوكونيل دافيدسون، ١٩٩٨). تعد المفاهيم النسقية - فى حقيقتها - مفاهيم لا سلوكية (على الرغم من أنها تتصل بالسلوك)، ولهذا فإنها لا تصف جوانب لا نهائية من السلوكيات المحتملة. وإنما هى تتناول سمات عامة للعلاقات الاجتماعية، والتنظيمات التى تتقاطع وتتجاوز أمثلة معينة من السلوك التى تقع داخل هذه الأشكال الاجتماعية.

وهكذا نرى أن أوجه التباين الأساسية بين المدخل التكييفى والنظرية الموثقة، أن النظرية الموثقة تركز كلية على البعد السلوكى للحياة الاجتماعية وحده، بينما يتعامل المدخل التكييفى مع كل من الجوانب السلوكية والنسقية معا. وبفضل التعامل مع المدخلات المزوجة لهذه الظواهر، تمتلك النظرية التكييفية عددا من السمات التى تجعلها تتميز من عدة نواح على النظرية الموثقة. أولا، أنها تتيح - بل أنها تشجع فى الواقع - الحوار بين النظرية المسبقة (بما فى ذلك النماذج النظرية) وعناصر المفاهيم الموجودة فى البيانات، والتى تنشأ كاستجابة تكييفية لجمع البيانات وتحليلها. ومن شأن التآزر الناتج عن هذا التبادل أن يخلق الطبيعة العضوية للنظرية، التى تضيف عليها حيوية واستمرارية واضحة تبعا لتغير ظروف البحث والحياة الاجتماعية. ثانيا، أنها تتناول قطاعات كبيرة من الحياة الاجتماعية، خاصة تلك المجالات التى تمتد عبر الزمان والمكان، مثل إعادة انتاج العلاقات الاجتماعية، وأشكال التنظيم الاجتماعى، التى تعيد الانتاج الكلى للأوضاع والعلاقات، والممارسات الاجتماعية. ثالثا، أن التركيز المزوج للنظرية التكييفية يمكنها من تحديد أهمية المفاهيم الجديدة بشكل أدق، وبطريقة مضبوطة، بصرف النظر عما إذا كانت المفاهيم الجديدة نابعة من تجميع البيانات أو من التطوير النظرى.

كما نلاحظ أيضا أن هذه السمات تتميز من نواح عديدة المدخل التكييفى عن النظرية الاستقرائية، والمداخل المتوسطة المدى. فالسمة الأساسية للنظرية التكييفية هى طبيعتها المتماسكة والمتنامية باستمرار. إنها وحدة عضوية تنمو باستمرار وتعيد تشكيل ذاتها كنتيجة للتأثير المتبادل والحوار بين

النظرية الجديدة (التي تتضمن البيانات)، والنظرية المسبقة (مفاهيم النماذج، والأطر العامة). وفي هذا الشأن تمثل النظرية التكيفية نقیضا حادا للمداخل التي تقصر إقامة النظريات على اجزاء أو مراحل معينة من عملية البحث، كما فی المرحلة الأولى (الاطار العام للمفاهيم) أو فی المرحلة الأخيرة (مرحلة التحليل والاستنتاجات). فهذه المداخل تنظر إلى التنظير كما لو كان عملية منفصلة، وتطبيقا أكثر استاتيكية للأسس والاجراءات التحليلية، وليس مجرد كيان عضوی دائم التطور يشكل جزءا حقیقيا ومستمرًا من عمليات البحث والتحليل. وعلى حين تعتمد النظرية التكيفية على بعض عناصر هذه المداخل للتنظير، كالمبادئ الاستنباطية، والاهتمام بالسمات البنائية الاجتماعية الكامنة وراء التفاعل الاجتماعي والاتصال الرمزي، فإنها تختلف عنها فی مسألة استمرارية التنظير كعنصر مستمر من عناصر البحث.

المحور الإمبيریقي والنظري للنظرية التكيفية

ان جوانب الحياة الاجتماعية التي تكون النظرية التكيفية أكثر ملاءمة لدراستها من ناحية محور البحث، هي تلك التي تتناول التداخل بين ما أسميه "المواقف الاجتماعية"، و"الانشطة المحددة" التي تأخذ مكانها داخل المواقف الاجتماعية. فهذه العلاقات تمثل تركيزا على تداخل هذين الجانبين من جوانب الحياة الاجتماعية، وهذا أمر مهم لأنهما مرتبطان معا بإحكام، ولا يمكن فهمها بحال من الأحوال باعتبارهما منفصلين عن بعضهما البعض تمام الانفصال. ولكن مع أن الأوضاع والنشاط الاجتماعي يرتبطان معا بقوة، إلا أنه يجب أن ندرك أيضا انهما غير متماثلين، بمعنى أن كلا منهما يتميز بسمات مستقلة. ومن الأمور الفارقة الأهمية أن تظل تلك السمات المميزة فی اعتبارنا بصورة مستمرة (وكذلك الصلات القائمة بينهما)، وأن نقاوم اغراء فهمهما بصورة محايدة، أو تمزج وتخلطهما معا كنتيجة لارتباطهما هذا. ومن شأن هذا الاقتراض الخاطي الأخير أن يؤدي إلى إضعاف البحث إذ يجعل الباحث يغفل دراسة الاسهامات المستقلة التي يقدمها كل منها تأثيرا على الآخر. ويشترك فی هذا الخطأ عدد من المداخل، التي تختلف فيما عدا هذا أشد الاختلاف من ناحية الاتجاه النظري العام، ومضامين البحث، بما فی ذلك نظرية الصياغة البنائية، والبنیوية، وما بعد البنیوية، وما بعد الحداثة، وتحليل الخطاب،

والتفاعلية الرمزية، والفينومينولوجية، والتفاعلية الرمزية، أو علم اجتماع العمليات.

ونلاحظ بداية أنه من السهل كل السهولة إغفال دراسة المكونات الهامة المميزة للمواقف والأنشطة الاجتماعية، لأنها تبدو في بعض الحالات متماثلة ومتراصة أشد الترابط. لهذا يتعين علينا أن نكون من هذه الناحية أكثر وعياً بأوجه التمايز بين الأنواع العديدة من المواقف التي نواجهها في الحياة الاجتماعية، وليس التمييز بينها وبين سلوكنا. فعندما نفلح في أن نضع في اعتبارنا العديد من المواقف المتباينة للحياة الاجتماعية - مثل المقاهي، والمطاعم، والمدارس، والجامعات، والمصانع، والمحلات، والتكنات العسكرية، والأديرة، وموائد تناول الإفطار، وقاعات المحاكم، واجتماعات اللجان، والمصاعد، والمواصلات العامة، وشوارع المدينة. حينئذ يكون من الصعب أن نفكر في التفرقة بينها وبين الأنشطة التي تتم داخلها. إن اعتمادنا على التفكير البديهي يؤدي بنا إلى تجاهل مثل تلك التباينات، ومن ثم نميل إلى التفكير في أن مثل هذه المواقف هي نفسها الأنشطة الاجتماعية التي تتبدى في موضع معين ووقت محدد. بل إننا، وعلى العكس من ذلك، نفترض أن أنماط السلوك الظاهرة للعيان دوماً في أي مرحلة إنما تمثل نسيج وبنية الموقف الذي نعيشه.

ولكن لكي يتسنى فهم طبيعة الحياة الاجتماعية ودلالاتها بالنسبة للبحث الاجتماعي، يكون من المهم ألا نخيب عن نظرنا المكونات المختلفة، أو السمات المختلفة للمواقف، والأنشطة التي تتبثق في نفس الوقت داخل الرابطة القوية بينها. كما أنه من المهم - من أجل التحليل وتحقيق أهداف البحث - التأكيد على أنه لا يجب النظر إليها على أنها متماثلة، حتى على الرغم من أنها لا تظهر في الواقع بصورة مستقلة عن بعضها البعض تمام الاستقلال. وتعتمد المواقف على الأفراد وأنشطتهم الاجتماعية حتى تستطيع أن تحقق بعض الاستمرارية والدوام في الحياة الاجتماعية. وهكذا، فإن النشاط الاجتماعي - بصفة عامة - هو الذي ينتج (في الحاضر)، ويقوم بإعادة إنتاج المواقف الاجتماعية بمرور الوقت، التي تتم داخلها تلك الأنشطة. ونجد على العكس من ذلك، أن النشاط الاجتماعي عادة ما يتم داخل البيئة المباشرة

للمواقف الاجتماعية (وفى سياق اجتماعى أرحب)، ولا يكون له أى تواجد خارج تلك البيئة.

ومع ذلك فإن النشاط يمكن أن يكون مستقلا جزئيا ومتميزا عن المواقف الاجتماعية (والسياقات) بمعنيين. أولا، تختلف المواقف عن النشاط طالما أنها تعد المواضع الاجتماعية للنشاط، وطالما أنها تمثل بوصفها كذلك الظروف الاجتماعية المعاد انتاجها (العلاقات، والممارسات، والموارد، والضبط، وأنواع الخطاب، والايديولوجيات وما إلى ذلك)، التى تتفاعل فى اطارها أنشطة اجتماعية معينة. ويعنى ذلك أن المواقف والسياقات الاجتماعية تمثل الظروف الاجتماعية المطلوبة التى تكونت عبر التاريخ، وأنها هى التى تحدد وتؤثر على الأنشطة المعاصرة المستمرة. أما النشاط المعاصر من ناحية أخرى فيتوقف عادة على تواجد المشاركين، وتتحدد بداياته ونهاياته من خلال وصولهم ورحيلهم (انظر : جوفمان، ١٩٦٧).

ولدى النشاط القائم دينامياته الداخلية للتعامل مع مشاركين بعينهم، ومعانى وواقع الأبنية التى تتعامل معها، والتى تختلف عن المواقف الاجتماعية المعاد انتاجها، والممارسات والعلاقات التى تتجمع لتشكيل البناء أو التنظيم الأساسى أو الموقف موضع الدراسة. انها الطريقة التى تتقاطع وتتداخل من خلالها الديناميات الداخلية للنشاط القائم مع المواقف المعاد انتاجها، وعلاقات وممارسات المواقف لتحويل خصائصها التنظيمية أو تعديلها أو المحافظة عليها، التى تعد المحور الأساسى لمدخل النظرية التكيفية. وتتعلق السمات الفرعية المهمة لهذا المدخل بالاختلافات فى الشكل التنظيمى للمواقف المختلفة، وكيف تصطدم بالأنشطة الاجتماعية، وكيف تؤثر أنماط مختلفة من النشاط القائم على المواقف، وامكانيات السياقات الأرحب (انظر : لايدر، ١٩٩٧). أما المواقف الاجتماعية ذاتها فنجدها متباينة بصورة واضحة، كما فى السياقات الطبقيّة الأرحب، وسياقات النوع، والعرق الخاصة بهذه المواقف، والأساس المادى والايديولوجى، وأساس القوة، لتوزيع الموارد التى تؤثر عليها. اما نطاق المواقف نفسها فيتراوح ما بين الأشكال المصاغة والمحددة والمبلورة بدقة كبيرة، والتى تنعكس فى التنظيمات البيروقراطية والتدرجية الهرمية، كما فى بعض المصانع، والتنظيمات العسكرية والدينية

وما إلى ذلك، وبين العلاقات ذات الطبيعة الشخصية وغير الرسمية تماماً، والتي توجد داخل الأسر، وعلاقات الصداقة، والعلاقات الشخصية والجنسية، مروراً بالمواقف غير المحددة ذات الطبيعة شبه العامة، والتي نصادفها في حياة الشارع، وكالأنشطة الإجرامية السرية، ووسائل النقل العامة وما إلى ذلك. أن طبيعة العلاقات والممارسات والمركز الاجتماعي المعاد انتاجها في هذه المواقف المختلفة تتباين بدرجة كبيرة وتكون دلالاتها مختلفة كل الاختلاف بالنسبة للأفراد، وأنماط السلوك التي تتأثر بها من ناحية، وتساعد في تشكيلها من ناحية أخرى. نجد في مقابل هذا أن علاقات الوجه للوجه، والأنشطة القائمة تكون هي نفسها متعددة الأوجه وتؤثر على المواقف بطرق متعددة. باختصار، أن المشكلة المحورية الهامة في النظرية التكيفية هي الطريقة التي تؤثر من خلالها أنشطة محددة على صياغة (تشكيل) المواقف الاجتماعية (والسياقات)، وكذلك الطريقة التي تعمل بها أنواع الخطاب، والقوى، والممارسات، والعلاقات المعاد انتاجها بدورها على تشكيل وتحديد السلوك والنشاط الاجتماعي.

عناصر النظرية التكيفية

تركز النظرية التكيفية - كما حاولت المناقشة السابقة أن توضح - على أوصاف وتفسيرات الروابط المتبادلة بين المواقف والأنشطة الاجتماعية التي تساندتهما وتغيرهما. وفي ضوء هذه الخلفية عن الاهتمامات الجوهرية نلاحظ أن الشكل المحدد الذي يمكن أن تأخذه النظرية التكيفية عندما تظهر، أو عندما تتبثق من خلال نتائج بحث معين، يمكن أن يتنوع ويتغير. وتتضمن الأبعاد الأساسية لهذه التباينات : أنواع العناصر النظرية، والمفاهيم التي تتضمنها، ونطاق استخدام العناصر المختلفة داخل نفس النظرية، والطريقة التي ترتبط بها العناصر المختلفة داخل إطار نفس النظرية، والطريقة التي ترتبط بها العناصر المختلفة داخل إطار نفس النظرية. لقد تناولت هذه الأنواع المختلفة من العناصر النظرية بصورة متفرقة على امتداد هذا الكتاب، ولكنني سأعتمد هنا إلى تناولها مع بصورة منظمة

جدول (٦ - ١)

المجموعات الأساسية للعناصر النظرية للنظرية التكوينية

المفاهيم	مجموعات أساسية لأنماط التنظير، التركيبي، الموجه، المحوري، التابع (الثانوي)، السلوكي، النسقي، الوسيط، المتضمن، المتاح.
مجموعات أو شبكات، أو الأطر العامة للمفاهيم	مجموعات المفاهيم المترابطة التي تغطي طائفة من الظواهر : النظرية العامة، النظرية الحقيقية (الموضوعية) والشكلية، النظرية الموثقة، النظرية المتوسطة المدى (مفتوحة أو مغلقة، محكمة، تفتقر التكامل).
النماذج التتميطية	سلسلة متصلة من نماذج لطائفة من الظواهر المترابطة، التي تحدد أوجه التماثل والاختلاف بينها: الأنماط السلوكية (الفعل)، والأنماط النسقية (البناء).

ويمكن القول بصفة عامة أن هناك ثلاث مجموعات رئيسية من العناصر النظرية التي تمثل محل إهتمام النظرية التكوينية هي: المفاهيم، مجموعات أو شبكات الأطر العامة للمفاهيم، و النماذج التتميطية (إنظر جدول ٦-١). و تمثل المفاهيم - بالطبع - وحدات البناء الأساسية لأي نظرية، لأنها تزودنا بالتعريفات المجردة العامة التي تضع الموضوعات أو الظواهر الاجتماعية في مجموعات معا في ضوء التأليف بين عناصرها. إن المفاهيم التي عرضت لها هنا ربما تكون مستعارة أو مستمدة (من خلال عملية التدقيق النظري) من بعض النظريات، أو الأطر النظرية العامة القائمة. و بديل ذلك، أن يتم التوصل إليها من خلال الرموز المستخدمة في تنظيم البيانات الإمبريقية مثل نصوص المقابلات، و تقارير الملاحظات أو الوثائق. و تلعب المفاهيم دوراً

مهماً في إقامة علاقات مع المؤشرات الإمبيريقية، و بالتالي إقامة صلات محددة بين المفهوم و المؤشر و كما أشرت، فإن المفاهيم داخل النظرية التكيفية تأخذ أشكالاً مختلفة، فهناك المفاهيم المدققة، و الموجهة، و المفاهيم الأساسية و الثانوية، و المفاهيم السلوكية، و النسقية، و الوسيطة و ما إلي ذلك. و يمكن القول بصفة عامة، أن المفاهيم تسمى و تصنف أجزاء (شرائح) صغيرة من الواقع الاجتماعي. وهي تزودنا بأحجار البناء الأساسية التي يمكن من خلالها التوصل إلي تنظيم للواقع أكبر وأكثر تعقيداً.

و في جدول (٦-١) إعتبرت أن مجموعات و شبكات الأطر العامة للمفاهيم تمثل مجموعات من المفاهيم، و لكن موضوعاً معاً في تجمعات أكبر. و هذه بدورها يمكن إعادة تقسيمها في ضوء نوع الإطار النظري العام الذي تنتمي إليه. من هذا مثلاً إن كانت مشتقة من نظريات عامة، أو نظريات حقيقية موضوعية، أو نظريات موثقة، أو نظريات متوسطة المدى (الاستنباطية الافتراضية). كما يمكن تصنيفها في ضوء مدى اتساقها بالتكامل المحكم، أو الافتقار إلي التكامل، و مدى كونها "مفتوحة" أو "مغلقة" بشأن حدودها مع أطر العمل و المفاهيم الأخرى. فهناك - على سبيل المثال - العديد من النظريات العامة التي تتكامل بإحكام (مثل نظريات بارسونز، أو فوكو، أو هابرماس)، و مغلقة بحكم طبيعتها - من وجهة نظر النظريات العامة الأخرى - لأنها تسعى أن تكون شاملة، و إلي حد ما منافسة لها. و على الجانب الآخر، فإن النظريات الحقيقية (عن المهن، و الانحراف، و السلوك الجنسي و ما إلي ذلك) غالباً ما تكون أكثر قابلية لأن تمتص في نماذج أكثر عمومية. كما نستطيع أن نميز بين المجموعات القائمة، أو الجديدة، و كذلك بين التوليفات المختلفة من هذه الخصائص (انظر الفصل الرابع من هذا الكتاب). تشير هذه التباينات إلي أنه ليس من الضروري أن تتوافق كل المفاهيم الفردية التي تشكل إطار العمل مع المجموعة الأساسية بنفس المدى أو نفس الطريقة. فقد نجد مثلاً أن بعضاً منها ربما يتكامل تماماً مع مفاهيم أخرى، و من ثم تحتل موضعاً أساسياً داخل فئة المفاهيم، بينما تبدو مفاهيم أخرى ذات ارتباط غير مؤكد وصعب مع باقي الفئة، على حين تبدو المجموعة الأساسية نفسها تكاملاً و تماسكاً قوياً. و على الرغم من هذه

التباينات الخارجية، تتمحور الاختلافات الأساسية بين المفاهيم المتفردة كوحدات البناء النظرى، و المجموعات و الأطر العامة الأكثر شمولاً حول القضايا التالية :-

أولاً، يمكن أن تقوم المفاهيم المتفردة بوظائف أوسع نطاقاً، مثل طرح نظام مؤقت أو وصف للظاهرة الذي قد يتم تعديله بصورة أساسية، أو التخلي عنه، أو مجرد أن تتلشى دلالاته (أهميته)، كما في حالة المفاهيم الموجهة (انظر الفصل الرابع من هذا الكتاب). ثانياً، إن بعض المفاهيم المتفردة ربما تنشأ أما من خلال تحليل البيانات، أو التطوير النظرى، أو التأليف بينهما معاً، و قد لا تقبل الإنتماء بشكل و اضح إلى مجموعة أكبر. و هذا بالطبع قد يحدث أو لا يحدث فيما بعد في الواقع، و يتوقف ذلك على كيف يبدأ المفهوم في التشكل وفقاً لاتجاه التحليل و التطوير. ثالثاً، نلاحظ أن المجموعة الكبيرة من المفاهيم المرتبطة تغطي - في حقيقتها - نطاق من الظواهر الاجتماعية أكبر من تلك التي يوضحها أو يحددها المفهوم الفردى. و معنى ذلك، أنه بدلاً من مجرد الإشارة إلى شريحة صغيرة من الواقع، فإن الاندماج في المجموعة الأكبر يعني أنه يمكن تغطية جزء أكبر من الواقع، طالما أن المفهوم الواحد يقود الآن إلى شبكة من المفاهيم أكثر شمولاً.

ومن هنا يؤدي ذلك إلى نقطة الخلاف الرابعة بين المفاهيم المفردة و المجموعات المترابطة. إن تعقد نطاق المعاني التي يشير إليها المفهوم تتزايد من خلال الاندماج في مجموعة قائمة، أو مجموعة مفاهيم طالما أن ذلك سوف يتضمن أن معنى المفهوم نفسه يكون مرتبطاً الآن أيضاً بمعاني المفاهيم الأخرى في المجموعة ككل. و المماثلة الملائمة للتعبير عن ذلك أنها تمثل الكلمات المختلفة في مقابل قواعد النحو في اللغة. ففي هذه الحالة نجد أنه يكون لكل كلمة من الكلمات معنى مستقلاً خاصاً بها، و لكن عندما تندمج الكلمات من خلال قواعد النحو لتشكل جملاً، فإن قدرتها على توليد المعاني تتزايد بصورة كبيرة.

و تمثل العناصر النظرية النهائية التي ترتبط بالنظرية التكيفية النماذج النظرية و التتميطية، و يعتمد كلا النوعين على أنماط مختلفة من المفاهيم، و

مجموعات المفاهيم التي أشرنا إليها بالفعل. و إن كان من المفيد الإنتقال إلي النماذج التتميطية و النظر إليها - بصورة ما - علي أنها مختلفة عن مجموعات المفاهيم، أن يوضع في الإعتبار الدور الذي تلعبه النماذج النظرية بصفة عامة. وفي هذا السياق، تشبه بعض النماذج كثيراً مجموعات المفاهيم بصورة عامة. فالعديد من النظريات العامة - علي سبيل المثال - (سواء عن كتاب معينين، أو من خلال مداخل عامة) يتضمن نماذج نظرية عن جوانب معينة، أو بعض سمات العالم الاجتماعي، أو التفاعل (كما في التفاعلية الرمزية)، أو ممارسات خاصة (كما في الاثنوميثولوجيا)، أو ربما تكون نماذج لبعض الملامح الأساسية للحياة الاجتماعية (كما في وجهة نظر فوكو عن الروابط بين أنواع الخطاب، و الممارسات، و القوة). ومن الأهمية بمكان بالنسبة للمناقشة الراهنة تلك النماذج عن الروابط بين الظواهر الذاتية، و النظم الاجتماعية، و التي أطلقت عليها مسميات مختلفة، مثل عالم الحياة، و النسق (عند هابرماس) أو الفعل و البناء (عند جيدنز)، أو نظام التفاعل، و النظام المؤسسي (عند جوفمان).

إن النموذج المحدد للصلة بين الجانبين الأساسيين للحياة الاجتماعية اللذين أشرت إليهما في مواضع متفرقة في هذا الكتاب مستعار من نظريتي عن المجالات الاجتماعية (انظر: لايدر، ١٩٩٧). ويطرح ذلك مثلاً حول كيف أن النماذج النظرية المشتقة من مجموعات أكبر من المفاهيم ربما تصبح جزءاً من النمو العضوي لفكر نظري جديد، أو تطويراً لأفكار موجودة نتيجة للإعتماد عليها في خطط البحوث، و هي في هذه الحالة النظرية التكيفية. و تتبع مثل هذه النماذج - و ترتبط بصورة عضوية - من الأنساق الفكرية النظرية العامة. و على الرغم من أن مناقشتي هنا تستهدف تشجيع (كلما كان ذلك ممكناً، و تلفت الإنتباه الواجب إلي المشكلات المماثلة) استخدام النماذج النظرية (أو جوانب منها) بدرجات مختلفة من البعد عن المجموعة الأساسية التي تنتمي إليها أصلاً، و ذلك بهدف توليد النظريات في سياقات مختلفة. و في هذا السياق يمكن أن تأخذ النماذج النظرية أشكالاً متعددة، كما نجد في حالة النمط المثالي الشهير عند فيبر الذي يوضح بجلاء: السلطة، و التنظيم البيروقراطي، و أخلاقيات العمل الرأسمالي. و لتطوير تلك الأنماط المثالية

شدد فيبر و بالغ في بعض السمات الموجودة في الواقع الإمبريقي، و المشتركة مع بعض الظواهر المحددة موضع الدراسة، و قد مكنه ذلك من طرح أنماط عامة مجردة.

ترتبط فكرة الأنماط المثالية أوثق الارتباط بتطوير النماذج التتميطية (أو التتميطات) للظواهر الاجتماعية. فتركز الأنماط المثالية على نمذجة السمات النموذجية لظاهرة معينة، مثل التنظيم البيروقراطي، لكي تكون صورة عن خصائصها الحقيقية اللاحقة بها. و يذهب بناء النمط خطوة أبعد، عندما يركز علي نطاق الظواهر التي تقع داخل نفس الفئة، مثال ذلك نطاق أنماط التنظيم الرسمي الممكنة، و كيف أنها تختلف او تتطابق مع النمط البيروقراطي. و هكذا تستفيد عملية التتميط من سلسلة من الأنماط المثالية من خلال ضمها مع بعضها البعض لدراسة نطاق التباين داخل المجموعة الواحدة. تساعد عملية التتميط و استخدام الأنماط على توليد و استثارة التفكير النظري من خلال تشجيع الباحث على عقد مقارنات بين الظواهر المتماثلة و المختلفة ايضاً عن تلك الخاضعة للدراسة. إن الأسئلة التي تدور حول لماذا و كيف يكون مختلفاً؟ و كيف و لماذا يكون متشابهاً أو متطابقاً؟ تؤثر علي توليد الرموز، و الفئات، و المفاهيم حول مثل تلك القضايا، و هكذا تنشط المزيد من عمليات تحليل المفاهيم، و الروابط.

لقد أكدت في الفصل الثالث من هذا الكتاب، و في موضع آخر (انظر: لايدر، ١٩٩٣) علي أهمية التفرقة بين عمليات التتميط السلوكية (أو تتميط الفعل) و النسقية (أو البنائية) لتسجيل و وصف المجالات الاجتماعية المختلفة تماماً التي تنبثق منها. كما أكدت أيضاً علي جدوى تطوير كلا النمطين في نفس الوقت بهدف توليد درجة عالية من تكثيف المفاهيم عند وضع نماذج رابطة عالم الحياة، و الظواهر النسقية. و تلك نقطة علي جانب كبير من الأهمية، لأن المؤلفات المتاحة عن مناهج العمل الميداني غالباً ما تركز علي عمليات تتميط الفعل أو التتميط السلوكي، و من ثم لا تغطي بشكل كاف الجوانب النسقية الاجتماعية للحياة الاجتماعية في مجالات الأنشطة التي تعد محاور التحليل و المجالات المتعلقة بها. و قد لا يكون من الميسور في بعض الأحيان بالطبع، أو قد لا يكون من الملائم أو الممكن أن يركز المحلل إهتمامه

على الاثنين معاً في نفس الوقت، و لهذا فإنه من الضروري أن يكون هناك قدراً من الانتقاء في تحديد نقاط الاهتمام. و إنما يتعين أن المسألة في حقيقتها قضية اهتمام أو تأكيد فلا يحول ذلك دون الاهتمام التحليلي الشامل بالتركيز على عالم الحياة أو نسق الظواهر. و هناك في هذا الشأن سياستان مفيدتان. الأولى، على الرغم من أن الاهتمام قد يكون منصباً بالدرجة الأولى على التطوير التفصيلي إما للتميط السلوكي أو النسقي، فإنه من المفيد دائماً استخدام خطة أو نموذج تميطي أولي (و مؤقت) للجوانب الأخرى كوسيلة لتحقيق التوازن و التكامل مع الاهتمام الأولى. كما أن البحث عن مفاهيم وسيطة يساعد في هذا الشأن من خلال تحويل الاهتمام إلي صور التداخل و الاتصال بين المجالين.

مصادر النظرية التكميلية

إن ما تطرحه النظرية التكميلية من توجهات نظرية و مفاهيم تتبع من عدة مصادر يمكن تصنيفها بصورة تقريبية في أربع مجموعات، إثنان منها مصدرهما النظرية، و الآخران مصدرهما الواقع الإمبريقي (انظر جدول ٦-٢). تشير المصادر النظرية إلي النظرية القائمة، و هي تنقسم إلي "النظرية العامة"، أو ما أطلقت عليه "النظرية الحقيقية". تشير النظرية العامة (أو نظرية الباحث المنظر) إلي السمات الحقيقية للحياة الاجتماعية، و تتضمن أسئلة مثل "ما هي طبيعة النشاط الاجتماعي و/ أو النظم الاجتماعية؟ أو "كيف ترتبط الأنشطة و النظم ببعضها البعض بالمعنى العام؟" وفي هذا السياق ترتبط النظرية العامة وتطبق على العديد من المجالات الإمبريقية المتباينة. و هكذا، تختلف النظرية العامة عن النظرية الحقيقية التي ترتبط فقط بمجالات حقيقية معينة (مثل الجريمة، أو الإنحراف، أو الطب، أو التعليم، أو العمل، أو الصناعة، أو العلاقات السلافية ... إلخ).

جدول (٦-٢)

مصادر النظرية التكيفية

المصادر النظرية	* النظرية العامة * النظرية الحقيقية
المصادر الإمبيريقية	* البيانات الموجودة من قبل * البيانات الناتجة من البحث

ان استخدامي لمصطلح "النظرية الحقيقية" يختلف عن استخدام جلاسر و شتراوس (١٩٦٧) لها، حيث استخدمهما للفرقة بين النظرية الحقيقية و النظرية الشكلية. حيث تشير رؤيتهما للفرقة إلى درجة عمومية النظرية و تجريدها. فعلى سبيل المثال يمكن أن تكون هناك نظرية حقيقية عن المسار المهني للعلماء، من خلال عينة مكونة من العلماء فقط. و لكن قد يود أحد الباحثين أن يصل إلى نظرية شكلية عن التنظيم المهني من خلال عينة من أي عدد من المهن المختلفة التي تقع داخل نطاق المجال الشكلي للمهن التنظيمية، و في هذه الحالة تكون مهن العلماء مجرد مثال. بينما لا أشك في ان فكرة النظرية الشكلية تمثل نمطا أكثر عمومية و تجريداً من النظرية الحقيقية عند جلاسر و شتراوس، فإن ذلك لا يتضمن بالتأكيد النظرية العامة كما حددتها، لأنها يرفضان أهمية النظرية العامة للبحث. و في هذا الشأن، فإن ما أطلق عليه نظرية حقيقية يستوعب في داخله فكرتهما عن النظرية الشكلية، لأنها تتضمن كثيراً جداً من المجالات الإمبيريقية المحددة، و ليس المشكلات و القضايا النظرية في الحياة الاجتماعية.

إن كلا من النظرية العامة و النظرية الحقيقية تقدم مصادر جاهزة يمكن أن تستخدم في عملية توليد النظريات في سياق تطبيق البحث الأولي. و في رأيي أن النظريتين تقدمان أنواعاً من المصادر التي ربما تساعد الأشكال

المختلفة لعملية التدقيق النظري التي أشرت إليها في الفصلين الثالث و الرابع في هذا الكتاب، و ذلك من خلال التفكير في العلاقات بين المفاهيم القائمة (ملائمتها في حلقات التفكير النظرى و المنطقي) ومن خلال الاستجابة (التلاؤم - التكيف) مع بيانات البحث. علي الرغم من أنه سواء كانت تلك الاستراتيجيات ملائمة و فعالة في ذاتها، فقد أكدت أن أقوى تلك الأشكال هو المستمد من علاقة الحوار المترامنة بين أشكال تدقيق النظرية. و إذا كان صحيحاً أن كلاً من النظرية العامة و الحقيقية يمكن أن تسهم في هذا النمط من عملية توليد النظريات بشكل مستمر، فإنه من المفيد الإشارة إلي بعض الفروق الهامة بين النظرية العامة و النظرية الحقيقية. إذ أن من شأن ذلك أن يرجع بنا إلي بعض الأبعاد التي ذكرتها فيما يتعلق بمجموعات المفاهيم في الجزء السابق من هذا الفصل.

ويلاحظ علي وجه الخصوص أن النظريات العامة و الحقيقية تتباين وفقاً لمحور "مفتوح" أو "مغلق". تميل الأنساق النظرية الي الإتساق الداخلي والمرجعية الذاتية علي نحو يجعلها صالحة للتعميم علي شرائح كبيرة من الحياة الاجتماعية. يتطلب المجال الحقيقي للنظريات العامة (نطاق دلالتها) أن تكون ذات مرجعية مؤكدة، و أن تكون المفاهيم التي تعبر عنها مكثفة وشاملة. ويعني هذا الشمول في الغالب أنها تميل إلي وضع حدود و قيود واضحة ومحددة. و يصاحب ذلك حقيقة أن الأنساق النظرية عادة ما تعمم باعتبارها مدخلات أساسية في الجدل الدائر، وبالتالي فإنه ينظر إليها باعتبارها بدائل تفسيرية تتنافس مع النظريات الأخرى. وتعمل الشمولية، والمحافظة علي الحدود، والمنافسة علي ترسيخ الفروق بينها، وعدم التكافؤ بينها، والتعارض مع النظريات الأخرى.

ولكن إذا كان علي النظريات العامة أن تؤدي أي دور أساسي خطير في عملية توليد النظريات في البحث الاجتماعي، فيجب ألا ينظر إليها علي أنها مستودعات لليقين، أو الحقيقة، أو حتي علي أنها المعرفة الملائمة علي نحو ما. ويتعين بدلا من ذلك، التعامل مع النظريات العامة علي أنها قادرة علي أن تنمو داخليا، أو علي إنتاج فروع جديدة في ضوء الشواهد الجديدة، و/أو التدقيق النظري. ان كلا من الأشكال الداخلية والخارجية (التي يتضمنها البحث) لتوليد

النظرية تتضمن نوعاً من البحث المنظم عن النظريات العامة، ودراسة مكوناتها الأساسية للبحث عن الجوانب التي يمكن أن تخدم الهدف الخلاق لمزيد من التوليد النظرى. ويغذى الجمع، وجمع المفاهيم والأفكار الناتجة ظهور نظريات جديدة.

إن نفس مشكلة "الانغلاق النسبى" لا تبلغ نفس المدى فى النظرية الحقيقية. ويرجع ذلك إلى أن النظريات الحقيقية عادة ما يكون مجالها أكثر تحديداً، ويركز على المجال الحقيقى نفسه، وتقتصر اشاراتها على مجالات أرحب. فالنظريات التي تهتم - على سبيل المثال - بأداء أسواق العمل، مثل نظرية التجزوء، تشير بالتأكيد إلى المجالات القريبة منها كالطبقة، أو تنظيم العمل، ولكنها لا تطرح ادعاءات عن الطبيعة العامة للتنظيمات أو التفاعل الاجتماعى. وفى هذا الشأن، فإنها تبدو معرضة بشكل مباشر للمؤثرات الأخرى (سواء نظرية، أو متعلقة بالشواهد) وللإختصاص المتبادل للأفكار. هناك بالطبع مشكلات حقيقية تتصل بالتكافؤ والمساواة المتعلقة بأمور المفاهيم والمعرفة والانتولوجيا، ولا يمكن أن ننحى كل ذلك جانباً بسبب الانفتاح النسبى للنظريات الحقيقية. ومع ذلك، فإن الغياب المقارن للانغلاق يعنى أن بعضاً من هذه المشكلات يمكن التغلب عليه بسهولة.

أما فيما يتصل بالمواد الخام الإمبريقية، فإن ما أطلقت عليه اصطلاحياً البيانات المتاحة تمثل أكثر مجموعة من الموارد انتشاراً التي يمكن الاعتماد عليها لخدمة عملية توليد النظريات. تشير البيانات المتاحة إلى كل نتائج البحوث الاجتماعية السابقة، وتتضمن بطبيعة الحال مجموعات البيانات الكبيرة والصغيرة، وقواعد البيانات التي تراكمت، أو التي تم التوصل إليها حديثاً أو على امتداد فترة زمنية طويلة. إلا أن البيانات المتاحة لا تقتصر على نتائج البحث الاجتماعى بصورته الرسمية. إن نطاق هذه البيانات من الاتساع بحيث أنه يتضمن أى شئ وكل شئ يمكن أن يؤثر بشكل واضح على أشكال المعرفة والتفسير الذى تطرحه نظرياتنا الاجتماعية. وهكذا تشتمل الكتب، والتراث الخاص ببعض المجالات المعرفية غير علم الاجتماع، على مؤلفات جماهيرية، ومساعدة ذاتية، مادة موحية كالروايات، والصحف، والمذكرات اليومية، والمجلات الجماهيرية، أو الخاصة بجماعات الصفوة، أو بجماعات محدودة، والاعلانات، والصور، والأفلام، والمسرح، والمباريات الرياضية التي يمكن أن تمثل جانباً من البيانات المتاحة، أو باختصار أى جانب من جوانب الحياة الاجتماعية الذى يمكن أن

يتشكل فى شكل يسمح له أن يستخدم أو يستعان به كشاهد على الاتجاهات والعادات، وأنماط العمل، أو الترويج... الخ أى شئ يمكن أن يكون توثيقه سواء بصريا، أو لغويا، والذي يمكن -تبعاً لهذا- أن يعد شاهداً على بعض جوانب الحياة الاجتماعية، أو الواقع الاجتماعى، ويصبح مصدراً ذا قيمة يمكن أن يستثير التفكير النظرى ويحفزه.

ولا شك أن كون شئ ما قابل للاستخدام كشاهد أو دليل لا يعنى تقبله آلياً كأمر صحيح مشروع، وفى هذا الشأن فإن المعايير التقليدية للبرهان والصدق يجب التوصل إليها من خلال الشواهد التى لم يتم جمعها بطريقة منظمة أو لأغراض البحث الاجتماعى. يجب أن نفرق هنا بين البيانات المتاحة والتى تمثل دليلاً على شكل ما من التفسير المنظم أو النظرية الشاملة الواسعة المدى، وبين البيانات المتاحة التى تحفز إلى خط جديد من صياغة المفاهيم أو التفكير النظرى. وفى الحالة الأخيرة، فإن البيانات المستخدمة كبرهان والتى تبدو نادرة تماماً، ومجهولة أو غير واضحة المصدر ليس من المحتم رفضها لهذا السبب وحده، ذلك إذا كان يمكن استخدامها لتوجيه النظرية وجهة جديدة، أو الاسهام فى إعادة صياغتها، أو إذا أمكن استخدامها كمنطلق للتفكير النظرى الخلاق. تتمثل أهمية البيانات المتاحة (كما الحال أيضاً بالنسبة للنظرية المسبقة) فى أنها تشجعنا على الاعتماد على أكبر نطاق ممكن من المصادر عند العمل فى إطار مشاريع بحث معينة. وكما أن الوعى بالنظرية القائمة يضمن أننا لن نقتصر على الاهتمام بالجوانب الناشئة أو الموثقة من النظرية النابعة من البحث الجارى، لأن البيانات المتاحة تسمح لنا أن ندرك الدلالات الأخرى الممكنة للمعلومات، والشواهد التى يمكن أن تغذى التفكير النظرى، وتوليد النظرية.

إن ما أطلقت عليه "بيانات البحث الناشئة" تركز على النتائج والمعلومات المباشرة المستمدة من مشروع البحث الجارى. وفى ضوء هذا المعنى تقدم البيانات الجديدة اختباراً مستمراً للنظرية الموجودة سلفاً أو القائمة، ومن ثم تمثل نظاماً للتغذية المرتدة التى تشكل الرابطة العضوية بين عملية التنظير وعملية جمع البيانات وتحليلها. كما تمثل البيانات الناشئة مصدراً ممكناً لاقتراح مفاهيم وأفكار نظرية جديدة. وبهذا المعنى يمكن فهم بعض المفاهيم على أنها متضمنة فى البيانات طالما أنها غير متضمنة فى المواد النظرية المتاحة، كما الحال مع مصطلح "أسلوب اختيار فريق العمل". ولكن القول بأن بعض المفاهيم متضمنة،

لا ينبغي أن يوحى إلينا بشكل من أشكال النزعة الإمبريقية التي تدعى أن البيانات نفسها تقدم أو تطرح المفاهيم النظرية. يشير التضمين - بهذا المعنى - إلى حقيقة أن البيانات والنتائج الإمبريقية التي لم يتم التوصل إليها يمكن أن تكشف عن جوانب من العالم الموضوعية في الاعتبار الذي يستثير التأمل النظرى في ضوء النظريات الموجودة سلفا والقائمة، والتي يمكن أن تؤدي حينئذ إلى صياغة المفاهيم أو إعادة صياغتها.

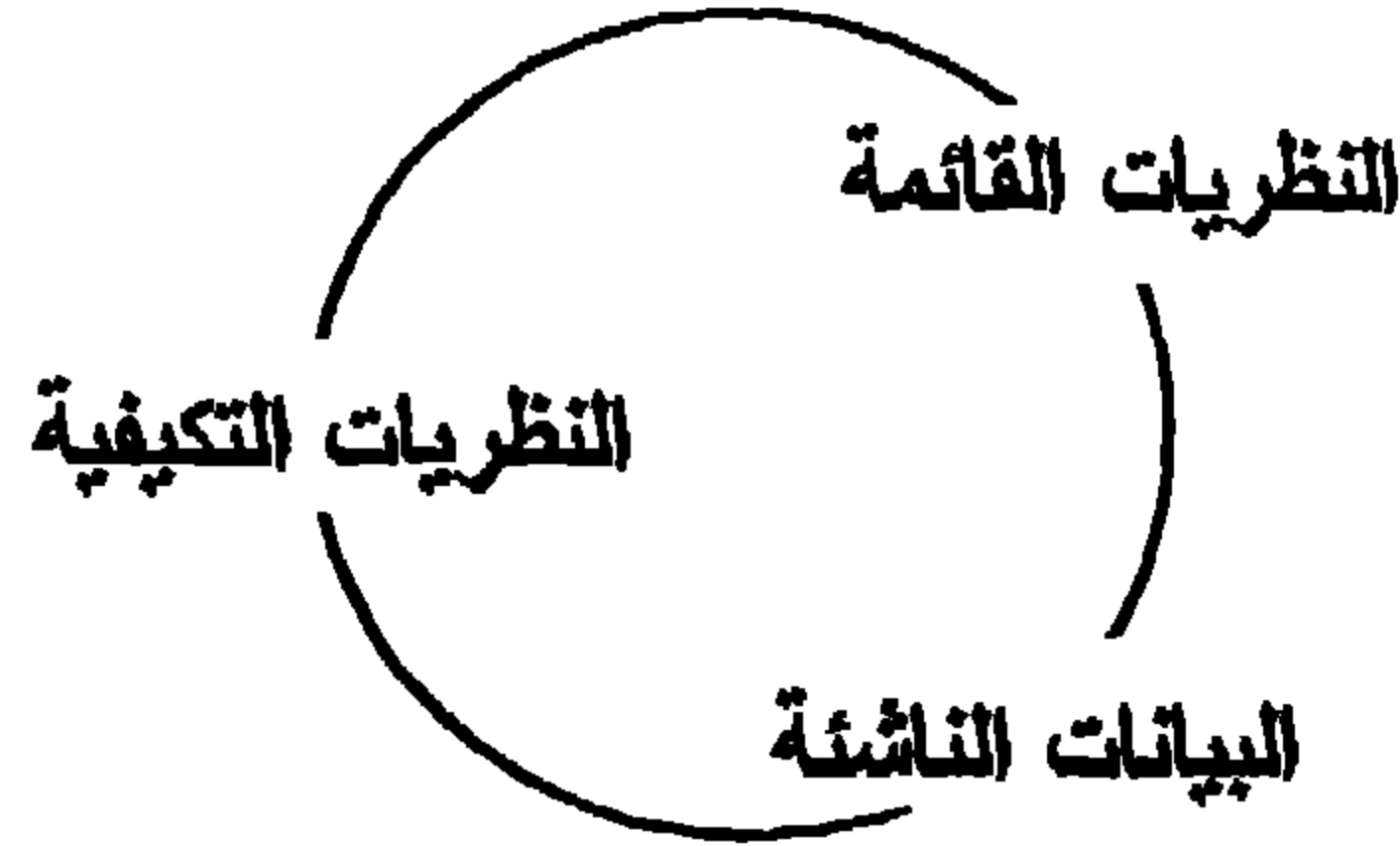
ويؤكد هذا أيضا فكرة أن الحقائق أو المعلومات أو البيانات (سواء تم التوصل إليها مؤخرا أو كانت موجودة من قبل) لم تكن أبدا نقية أو بريئة. ذلك أن كل البيانات متشعبة نظريا بالفعل، سواء من خلال "التلوث" بالتفسير السابق، أو من خلال الأفكار المتصورة سلفا، أو الافتراضات البديهية المسبقة التي يطرحها الباحث (أو أجيال من الباحثين). وهكذا فإن الحديث عن الطريقة التي تحاو النظرية التكيفية من خلالها التوصل إلى معرفة العلاقة العضوية بين التفسير وجمع البيانات وتحليلها أو صياغتها، لا تعنى وجود رابطة قوية لا تنفصم. وعلى الرغم من أن النظرية التكيفية تعترف بل تشجع في الحقيقة العلاقة الجدلية بين صياغة المفاهيم النظرية، والمجموعات والنماذج وإعادة صياغتها أو مراجعتها وتعديلها في ضوء جمع وتحليل البيانات الناشئة، لا يفترض ذلك ضمنا وجود نوع من الأساس قبل النظرى (أو المحاييد معرفيا) الذي ينعكس في السياق العضوى. وبهذا المعنى لا تشير العضوية إلا إلى بيانات البحث التي تم التوصل إليها، وما يتزامن معها من عملية صياغة المفاهيم بشكل مستمر وكذلك التأمل النظرى.

أنماط عمليات توليد النظرية:

يرتكز الأساس الرئيسى لمدخل النظرية التكيفية على التوظيف المزوج والتفاعل اللاحق بين المواد النظرية القائمة من قبل والبيانات الناتجة من البحث المستمر. ويضمن لنا المدخل المزوج أن كلا من المفاهيم والنظرية الموجودة سلفا أو القائمة يشترك في تشكيل وتغذية تحليل البيانات التي تتبع من البحث الجارى وذلك في نفس الوقت الذى تشكل فيه البيانات الناشئة نفسها والمواد النظرية المتاحة وتصوغها. إن التفاعل الجدلى بينها والشكل الذى تتضمنه يؤدي بدوره إلى إنتاج شكل مركب من النظرية التكيفية.

شكل (٦-١)

العلاقات بين النظريات القائمة، والبيانات الناشئة والنظرية التكيفية



يعرض لنا شكل (٦-١) العلاقات بين النظريات القائمة، والبيانات الناشئة والنظرية التكيفية الناتجة عن تفاعلهم على هيئة دائرة مستمرة من التأثيرات والمؤثرات. ويعكس ذلك حقيقة مؤداها أنه لا يوجد طريق وحيد لفهم ديناميات صياغة النظرية التكيفية وتشكلها. ونظرا لأن كل العوامل تتفاعل في نفس الوقت، فإنه من الصعب فصل تأثيرات العناصر الموجودة، وهو ما يعكس طبيعتها المعقدة وتطورها المستمر. وبهذا المعنى تتكيف النظرية بصورة مستمرة لمقتضيات كل من التفكير المنطقي النظري والطابع الواقعي للعالم الإمبريقي.

وهناك على أى حال نموذجان رئيسيان متميزان من النظرية التكيفية ينتجان مجموعة من المؤثرات والتأثيرات المتنوعة في طبيعتها ومداها. وسوف أتناول هذين النموذجين تحت عنواني: التأثيرات الثانوية، والنظرية التكيفية بالمعنى الصحيح.

التأثيرات الثانوية:

تعد التأثيرات الثانوية للنظرية التكيفية "إضافة زائدة" للاهتمام الأساسي بالنظرية الجديدة في مجال البحث الجارى. ويشير ذلك إلى علاقتها بجوانب النظرية العامة من وجهة نظر النظرية العامة. فهي بهذا المعنى تمثل رابطة مباشرة بين التنظير العام والبحث الإمبريقي. وتضمن تلك الرابطة أن النظرية العامة التي نحن بصددتها (أو جوانب منها) تتلقى مدخلات (إيجابية أو سلبية)

مصدرها التطبيق في السياق الإمبريقي أو الموضوعي. ويربط هذا الاهتمام الثنائي جوانب التنظير من وجهة تطوير النظرية القائمة. يتضمن الأول اختبار أو مصداقية ادعاءات تفسيرية متعددة، وجوانب أخرى من النظرية العامة (كالمفهوم، والنموذج، والاطار العام للمفاهيم) في سياق مشروع البحث الجارى. ويهتم الثنائي بتنقيح وإعادة صياغة وإضافة أو تدقيق المجال التفسيري، ونوعية المواد النظرية الأصلية، كنتيجة أخرى للتناول المباشر للمواد الإمبريقية. لا تقتصر أهمية هذا الاتصال المباشر بالبيانات الإمبريقية على التلميح بأن النظرية العامة تفتقر تماما إلى السند الإمبريقي. ولكن الأصح أن البحث الجارى يوفر قاعدة اختبار لتطبيق النظرية في سياقات لم تكن موضوعة في الاعتبار من قبل، أو ينظر إليها على أنها أولية، أو ذات دلالة خاصة بالنسبة لاهتمامات النظرية العامة التي نحن بصدددها.

ونلاحظ -على سبيل المثال- أن استخدامى لجانب معين من نظرية "الصياغة البنائية" -جدلية الضبط- في سياق بحث عن المسار المهني للممثلين ألقى الضوء على العلاقة بين هذين الجانبين. فقد وظفت جدلية الضبط -على وجه الخصوص- في دراسة العلاقة بين الممثلين، والوكلاء (أو المديرون الشخصيون). ومن خلال النظر إلى علاقاتهم الاجتماعية من خلال منظورين -العلاقات الاجتماعية (التي يعاد إنتاجها) بين الممثلين أو الوكلاء كعلاقات جمعية تتكون عبر الزمن، والطريقة التي تتغير بها علاقات معينة بين ممثلين معينين ووكلائهم بمرور الوقت -أمكننى إقامة الدليل على أمرين. الأول، وهو أن نظرية الصياغة البنائية كانت مفيدة بصفة عامة فيما يتعلق بالموضوع تحديدا الذى كنت أتناوله، ولهذا فإنها تقلل من صدق سمات معينة من فكرة جدلية الضبط، وبعض جوانب السياق الأرحب لنظرية الصياغة البنائية. ثانيا، المقارنة بين العلاقات الاجتماعية الجمعية، والعلاقات الاجتماعية الفردية بين الممثلين ووكلائهم تذهب إلى أن جدلية الضبط -كما حددها جيننز- في حاجة إلى التعديل بحيث يمكن أن تأخذ في اعتبارها الأشكال البنائية من القوة (انظر: لايدر، ١٩٩٧)، وكذلك بعض سمات الضبط على مستويات مختلفة من التحليل (انظر: لايدر، ١٩٩٣).

عندما يكون هناك اهتمام محوري بتوليد النظريات من البحث الجارى، يحدث هذا النوع من التأثير الثانوى كثمرة أو نتيجة ثانوية للبحث عن نوع أكثر

تحديدا من توليد النظرية. وكنتيجة لذلك، يحدث هذا النوع من الاضافة للنظرية العامة بالتوازي مع الظهور الحتمى للنظرية المنصبة على البحث. إلا أنه يمكن - من حيث المبدأ- ان يحدث هذا النمط من العلاقة مع النظرية العامة فى أى مرحلة معينة فى أى عملية بحثية، بما فى ذلك قبل أن يبدأ البحث أو بعد أن تكون عملية جمع البيانات اكتملت (انظر: بلور وماكينتوش، ١٩٩٠، ولايدر وزملاؤه، ١٩٩١). وبهذا المعنى لا ادعى أن هذه الصلة بالنظرية العامة تقتصر على النظرية التكميلية وحدها، وانما أنا أرى أنها مسألة متكررة وشائعة. إن الاختلاف الأساسى بين استخدام النظرية العامة فى اجزاء معينة من البحث فى سياقات أخرى أنه عادة ما يتضمن قرارا واعيا -وأحيانا بصورة استثنائية- "لاستيراد" نظرية عامة أو عناصر منها للمساعدة فى تنظيم البيانات وتحليلها، على حين يستثير هذا المدخل بصورة آلية للنظرية القائمة كوسيلة روتينية لتنشيط الأفكار النظرية. وفى ضوء ذلك تسعى المؤثرات الثانوية بصورة مباشرة إلى اقامة جسر لعبور الهوة القائمة بين البحث والنظرية.

وهناك نقطة اختلاف أخرى -ذكرتها من قبل- وهى ان النظرية التكميلية تنظر إلى النظريات العامة -من حيث المبدأ- على أنها عوالم مفتوحة من المعنى أو الخطاب القابلة للتعديل أو اعادة الصياغة بصورة طبيعية....الخ، وليس كأطر عامة - لا جدال فيها- للتفسير الكلى. ومن شأن ذلك أن يجنبنا المشكلات التى تظهر عندما تعد النظريات العامة شيئا مقدسا لا يجوز انتهاكه، وأنها تتسع لتشمل كل المنظورات التى يمكن تطويع كل البيانات لتتلاءم أو تتسق معها. ومع الاخيرة فان كل البيانات الناشئة أو شواهد البحث الجارى يجرى تنظيمها بواسطة النظرية الرئيسية، الأمر الذى يدفع إلى تفسيرها باعتبارها تدعم وتعزز النظرية الأصلية. ولا بد أن يودى مثل هذا الوضع إلى تسفيه إقامة النظرية، ويقودنا إلى نتائج هزيلة بالنسبة لتطوير أو تنقيح النظرية العامة. ولكن عندما يتم النظر إلى النظريات العامة على أنها أنواع من الخطاب المفتوح حقيقة، عندئذ فقط يكون من الممكن احراز تقدم نظرى حقيقى.

ومن السمات الأخرى البارزة تلك التى تتعلق بحقيقة ان المؤثرات الثانوية هى ثمار للبحث الأولى الذى يركز على النظرية. ففى حالة النظرية التكميلية الحقة سوف يكون هناك دائما بعض التغذية المرتدة الايجابية من النظرية العامة فى النظرية المرتكزة على البحث -اللب الحقيقى للنظرية التكميلية- وهذا هو ما يشكل

التأثير الأولى، ولا يحدث إلا في الحالات التي لا يتوافر فيها تغذية مرتدة في النظرية التكيفية الحقبة أن يتم انتاج مؤثرات ثانوية للنظرية العامة. يقابل ذلك الاستخدامات الأخرى للنظرية العامة في البحث حيث تستخدم كوسائل إمبريقية لتنظيم (أو تحديد نمط) بيانات البحث. وفي هذا الشأن لا يوجد مجال لتطوير هذا الشكل من الجيوب المستقلة نسبيا (أو حتى شبه المستقلة) من النظرية التي تمثلها النظرية التكيفية بالمعنى الصحيح.

النظرية التكيفية بالمعنى الصحيح:

تقوم بنية النظرية التكيفية الحقبة - وبمعنى معين تتبثق من - على موضوع البحث ومشكلته، وذلك على خلاف التأثيرات الثانوية. ويعد "بزوغ" النظرية هنا نتيجة للاعتماد المترام على المواد النظرية (وعلى البيانات الإمبريقية أيضا)، وعلى عملية التشكل والصياغة التي تتبع من هذين المصدرين. ان التزامن المتميز للنظرية والبيانات في ظهور نظرية جديدة هو الذي يميز هذا المدخل عن مدخل النظرية الموثقة، التي تعطي الأولوية للبيانات في مقابل النظريات المسبقة. ان ما يميز النظرية التكيفية هو ما تضيفه من أهمية على علاقة الحوار بين النظريات القائمة - من ناحية - وجمع البيانات وتحليلها من ناحية أخرى.

و سوف أعطي فيما بعد - مثلا واقعيا، ولكني أقول في البداية أن هناك مستويين عريضين تشكل النظرية من خلالهما المناقشات بشكل مسبق. أولا تطرح كل من النظرية العامة والنظرية الحقيقية مجموعات المفاهيم والنماذج الموجودة، التي يمكن ان تصب في فهم البيانات الجديدة من خلال اقتراح أنماط أو أساليب لتنظيم هذه البيانات. ولكننا نلاحظ أن عملية التنظيم المؤقت للبيانات من شأنها أن تؤدي إلى تحويل المواد إلى درجة ما عندما يتم تنقيتها ومطابقتها للشروط بواسطة البيانات الجديدة. ثانيا، هناك احتمال أن المفاهيم والأفكار النظرية الجديدة سوف يتم الكشف عنها، أو تتبع من جمع وتحليل البيانات نفسها، الأمر الذي سوف يغذي المناقشات النظرية. ولهذا نجد ان المدخلات المزبوجة من مواد النظريات القائمة، والمفاهيم الجديدة أو المتضمنة، سوف تولد شكلا مركبا من النظرية (هو النظرية التكيفية).

وهكذا يظهر في اثناء البحث مكون جديد - هو النظرية التكيفية ذاتها - كقوة ثالثة تمارس تأثيرا وتؤدي دورا كوسيط بين المواد النظرية القائمة، وجمع البيانات

وتحليلها. وعندما تبدأ هذه القوة الثالثة في النمو تبدأ في لعب دورها كنظرية مسبقة في مستويات أو مراحل مختلفة من عملية البحث. وسوف تمارس النظرية التكوينية الحديثة الظهور دورها كأداة للتنظيم، حيث تطرح أو تفرض مقولات تفسيرية وأطرا للمفاهيم على البيانات الواردة، بطريقة مماثلة لما تمارسه النظريات القائمة (العامة والحقيقية). وترتبط النظرية التكوينية ارتباطا عميقا أيضا بجمع وتحليل البيانات. وقد يتم في النهاية تعديلها وإعادة تشكيلها من خلال هذه الأشياء. وفي نفس الوقت سوف تفقد النظرية القائمة صلتها المباشرة بجمع وتحليل البيانات لأنها سوف تمارس تأثيرها من خلال الاطار العام الجديد للمفاهيم. وبهذا المعنى ستكون النظرية التكوينية الجديدة هي أهم النظريات المسبقة التي تضع نفسها بين المواد النظرية الخام الأصلية القائمة فعلا، وبين البيانات التي كشف عنها البحث الاجتماعي.

ولتوضيح ذلك، نقول إن المواد النظرية الخام الأصلية القائمة فعلا، والتي تدور حول قضية العمل العاطفي المأجور، وكان موضوع البحث هو كيف يتعامل مدرسو المدارس مع القضايا العاطفية في بيئة عملهم. ولعل المادة الموجودة سلفا تتمثل في كل من النظريات العامة للتفاعل (مثل نظريات ميد أو جوفمان)، والنظريات الحقيقية عن العمل العاطفي المأجور (هوخشيلد)، بينما تتمثل بيانات البحث في الملاحظات، و/أو المسوح، و/أو المقابلات التي تجرى مع المدرسين في المدرسة. على الرغم من أن المواد النظرية الموجودة من قبل قد تطرح نظاما مؤقتا محكم البناء لتنظيم وفهم البيانات التي تم جمعها، فقد يجد الباحث فيما بعد أن فكرة العمل العاطفي المأجور كما تبدو في المجال الواقعي، كما في مجال الضيافة الجوية (المثال الأساسي عند هوخشيلد) في حاجة إلى المزيد من التوضيح والتعديل حتى يمكن تطبيق مضامينه على التعليم المدرسي. ويقود ذلك الباحث إلى تطوير عملية تنميط الأنواع المختلفة من العمل العاطفي المأجور في أنواع مختلفة من المواقف الاجتماعية (من التحليل الثانوي لدراسات مختلفة من أنواع وبيئات العمل).

عندما تصبح إقامة هذا التنميط هي النقطة الأساسية للنظرية التكوينية التي تغذى جمع البيانات (ونقل من خلال اتساع نطاق العينة ليشمل التلاميذ)، ويغذى النظرية العامة (التفاعلية)، والنظرية الحقيقية (العمل العاطفي المأجور). ولهذا فبينما تشكل المواد النظرية القائمة، وبيانات البحث التي تم جمعها عملية التنميط

نفسها وتعديلها، فإن النظرية التكيفية الجديدة (التميط، والمفاهيم المرتبطة) تقوم في نفس الوقت بتشكيل وتعديل وتنظيم البيانات والمواد المتاحة. فنحن بازاء موقف معقد من التأثيرات المتبادلة، وآليات التغذية المرتدة وقنوات الاتصال، ذات القوة الدافعة الذاتية، والدينامية الداخلية القائمة. ويبدأ التمييط الذى يتخذ شكلا وملامح محددة بهذه الطريقة بحيث يصبح نتاجا نظريا إضافيا مستقلا جزئيا (أى يصبح نظرية جديدة)، كما أنه يطرح رؤى نظرية جديدة حول المجال الحقيقى للتعليم المدرسى كشكل من اشكال العمل. وفى الوقت الذى تتبلور فيه ملامح الشكل الأساسى من التمييط، تتدعم فرص تبلور المفاهيم للمساعدة كلما تقدم العمل فى البحث. وقد تمارس هذه المفاهيم المساعدة دورها كتوابع حول المفهوم الأساسى، وتقدم تدعيما كبيرا للنظرية الكلية، وتطرح هذه الروافد المختلفة من التنظير وصياغة المفاهيم معا نظرية جديدة ناشئة من خلال الاشتغال بجمع وتحليل البيانات حول موضوع بحث معين، ومن خلال تدقيق المواد النظرية القائمة.

خاتمة

حاولت فى هذا الفصل التأكيد على الدلالات الفلسفية و المنهجية والعملية لمدخل متميز لفهم العلاقة بين النظرية والبحث الاجتماعى. وذهبت إلى أن المدخل الذى أدعو إليه مدخل حكيم يمثل مزيجا من الاجراءات الاستقرائية والاستنباطية، ونظريات الحقيقة الإمبيريقية والعقلية التى تشكل أساس مثل هذه الاجراءات. ولكنى حاولت أن أذهب إلى أبعد من مجرد التأكيد الواهى، وهو أن التنظير أو البحث يتضمن قليلا من كل الأجزاء الضرورية. وانما اجتهدت أن أحد الطريقة التى تؤثر بها هذه الإجراءات المنهجية المختلفة، ونظريات الحقيقة فى حسابات البحث، وفى الاحتمالات العملية لتوليد النظريات.

وتحظى هذه القضايا بأهمية محورية بالنسبة للطريقة التى نفهم بها العلم الاجتماعى (أو التحليل الاجتماعى) بصورة عامة، وللب محاور مشكلة الفعل والبناء، أو علاقات التداخل بين عالم الحياة والنسق. وعندما نركز على كيف تتداخل الأنشطة الاجتماعية مع النظم الاجتماعية والثقافة والجوانب الأخرى المعاد انتاجها من العالم الاجتماعى، عندئذ فقط نستطيع أن نتعامل بصورة

صحيحة مع قضية العلاقات المتداخلة بين عالم الحياة والنسق. وهكذا، فإن موضوع النظرية التكيفية يهتم بالطرق المتنوعة التي تتقاطع بها جوانب عالم الحياة (السلوك، والنشاط، والحياة اليومية) مع الجوانب النسقية للعالم الاجتماعي (الثقافة، والنظم، والقوة، والضبط، والمراكز المعاد انتاجها، والممارسات، والعلاقات الاجتماعية).

لقد ركزت على توليد النظرية من جمع وتحليل البيانات، وبعض جوانب النظريات القائمة (كل من النظرية العامة والحقيقة)، والنطاق الكبير للمواد الإمبريقية، وخاصة المصادر الوثائقية من التراث غير المتخصص (الذي قد يكون شعبيا أحيانا). وتعمل النظرية التكيفية دائما على أن تتصهر وتتوافق مع جوانب الأفكار النظرية السابقة، والمفاهيم، أو مجموعات المفاهيم مع العناصر النظرية النابعة من الجمع الجارى للبيانات الإمبريقية وتحليلها. وتتقح النماذج النظرية وتعيد تنظيم اتجاه البحث، كما تضيف شكلا محددا على بيانات البحث الجديدة باستمرار. وفي نفس الوقت يساعد جمع المعلومات الإمبريقية والبيانات في إعادة تشكيل النموذج النظرى (أو الترتيبات الفضاضة للمفاهيم والأفكار).

ويوفر مثل هذا المدخل الملامح الضرورية لإقامة نظرية تتسم بالقوة والصلابة، وتعمل على التقريب بين النظرية العامة والبحث الاجتماعي معا. أولا، أنها تتيح -كلما كان ذلك ضروريا- عملية مستمرة من التدقيق، وإعادة التكيف، وإعادة صياغة النظرية وهي فى مرحلة النمو والتبلور. ثانيا، أنها توفر الظروف التى فى ظلها يمكن أن يتم بصورة روتينية ضبط ومتابعة صدق وثبات النظرية على امتداد مراحل تقدم العمل فى البحث. وأخيرا، توفر ما أطلقت عليه مصطلح التأثيرات الثانوية وسيلة اضافية يمكن من خلالها تطوير النظرية العامة (بالتعديل، والتدقيق، وإعادة التشكيل) من خلال صلته بالجمع المنظم لبيانات البحث الاجتماعي، الأمر الذى يساعد على ضمان الا تتجمد الاتجاهات النظرية العامة وتتحول إلى عقيدة (فكرة قطعية).

الفصل السابع

بعض قواعد المنهج الجديدة

حرصت على امتداد فصول هذا الكتاب ألا أقتصر على طرح بعض القواعد المستمدة من التجربة العملية التي تسهل توليد النظرية في سياق البحث الجارى، وإنما اجتهدت إلى جانب ذلك لتحديد بعض القواعد الجديدة للمنهج فى علم الاجتماع. ويجب أن أكرر، أننى لا أقصد بهذا المدخل الذى رسمته أن يحل وحده محل المداخل القائمة المستقرة أو التقليدية. وقد حددت فى هذا الصدد احتمالين لهما الصفة العامة. الأول، أنه يمكن استخدام الاستراتيجيات والمناهج التى أدعو إليها مقترنة بالاستراتيجيات والمناهج التقليدية، مع التطلع إلى المزيد من الإخصاب المتبادل بين الأفكار المتعلقة بتطوير النظرية. الثانى، يمكن استخدام مدخل النظرية التكيفية كبديل راديكالى، بمعنى كونه مجموعة من القواعد والاستراتيجيات الجديدة للمنهج السوسيولوجى التى شقت لنفسها طريقا مستقلا خاصا بها. وسأحاول فى الجزء التالى أن أتناول هذه القضايا من خلال طرح بعض التعليقات والملاحظات حول السمات العامة للنظرية التكيفية. هذه المناقشة لبعض القواعد المستمدة من التجربة العملية للمدخل تلخص بعض ملامحه الأساسية كما عرضت لها فى الفصول السابقة. وسوف يتبع ذلك مناقشة أكثر عمومية لبعض الدلالات النظرية والمنهجية لعلم الاجتماع والبحث الاجتماعى.

الخصائص العامة لمدخل النظرية التكيفية

سرعة ومستوى تشييد النظرية:

على الرغم من أن جوهر النظرية التكيفية سوف يبدأ فى التشكل أحيانا أثناء البحث، فإن النقطة الدقيقة التى يحدث عندها هذا التشكل لا يمكن تحديدها سلفا. وسبب ذلك أن عوامل مثل الإبداع النظرى، والالهام، والاكتشاف بالمصادفة، أو الطبيعة المحتملة لجمع البيانات لا تتسق مع منطق القواعد المنهجية أو خطط البحوث، ولهذا لا يمكن ضمانها سلفا. وبالمثل، فإن درجة ومعدل التدقيق الأولى للنظرية لا يمكن التنبؤ بها لأنها تتوقف على ظروف متغيرة مميزة للبحث الذى

نحن بصدد. إن التقدم في كلا السيلين (نقطة البداية ومعدل التدقيق) قد يكون بطيئاً أو سريعاً، لطيف أو قاسياً، ويتوقف ذلك على مجموعة من العوامل، من بينها الحساسيات النظرية للباحث. إن قدرة الباحث على فهم الصلات بين المفاهيم، وإدراك المؤشرات الإمبريقية تماثل في الأهمية تناول البيانات (الملائمة وذات الصلة بالموضوع)، والظروف الصحيحة (الوصول إلى البيانات).

الطبيعة المستمرة للتنظير التكيفي:

هناك ثلاثة أسباب رئيسية تضمن الاستمرارية والطبيعة الدينامية للتنظير التكيفي. أولاً، أوضحت من قبل أن النظرية التكيفية تعترف بعدم القدرة على التنبؤ بعديد من العوامل الداخلة في توليد النظرية، بما في ذلك العمل الابداعي، وحالات التوصل إلى الحقائق بالمصادفة، والظروف التي تحيط بالعمليات الاجرائية لنشاط البحث التي تضيف ثقلاً على فكرة أن عملية توليد النظرية يجب أن تظل نشاطاً مستمراً. ثانياً، ينظر المدخل التكيفي إلى كل مرحلة، وإلى كل طور في البحث على أنها فرصة لتشييد النظرية. وبالتالي فإن توليد النظرية لا يقتصر أبداً على مرحلة معينة في البحث، مثل التشييد الأولى لإطار العمل النظري، أو مناقشة الاستخلاصات أو النتائج. يتم توليد النظرية التكيفية في أي وكل لحظة من البحث، بدءاً من الاعداد والتخطيط لجمع البيانات (بما في ذلك اختيار المناهج، والأساليب، ومشكلات الحصول على البيانات... الخ) خلال كل طور من الجمع الفعلي وتحليل البيانات. كما أكدت من قبل أن توليد النظريات لا بد أن يسير موازياً لسرعة تحليل البيانات، وأن كلاهما يجب أن يبدأ بمجرد أن يتم الجمع الأولى للبيانات. لا بد أن يكون باحث النظرية التكيفية معاشياً لكل لحظة من البحث، لأن الفرصة محتملة لبناء المفاهيم والأفكار النظرية، حتى في المراحل المتأخرة بعد أن تستقر المفاهيم والفئات الأساسية. ويستتبع ذلك أن الاستخدام الخلاق للعينة، وأساليب اختيار العينة، والتوصل إلى الرموز والصلات بين المفهوم والمؤشر، وكتابة التقارير النظرية من الملامح المستمرة للعملية بأكملها. إن مثل هذه الأنشطة لن تكتمل في الحقيقة إطلاقاً، أو توضع لها حدود تفصلها وتحددها كمراحل منفصلة في البحث. ثالثاً، إن الطبيعة المستمرة للتنظير التكيفي تتبع من حقيقة أنه من المفيد تماماً النظر إليها على أنها نتاج ناقص وغير مكتمل دائماً (انظر فيما بعد حديثاً عن طبيعة النهاية المفتوحة للنظرية التكيفية).

نطاق وأنماط النظرية التكيفية:

لقد ذهبت -على امتداد هذا الكتاب- إلى أن نطاق النظرية التكيفية والأشكال التي يمكن أن تتخذها قد تتنوع كل التنوع. إن تطوير التتميطات (سواء كانت سلوكية أو نسقية أو كلاهما) والنماذج التي تحاول أن تمثل علاقات التداخل بين عالم الحياة والنسق قد تعد أكثر الأشكال تطورا وتعقيدا، وتتباين في مدى تطورها وتعقدها. غير أن النظرية التكيفية تشير كذلك إلى أى عنصر من عملية التحليل التي يمكن أن تسهم في النظرية والتتظير على المدى الطويل. وهكذا، فإن تطوير الرموز، والفئات... الخ -حتى بما فيها المقطعات الهامة من التقارير النظرية- يجب النظر إليها كعناصر متكاملة للعملية النظرية.

على الرغم من أن مثل هذه العناصر النظرية (أو المواد الخام) يجب أن تعد هامة في حد ذاتها، فإنها تعد في نفس الوقت ذات قيمة محورية لعملية صياغة المفاهيم، وتشبيد الصلات بين المفهوم والمؤشر. وبهذا المعنى تمثل المفاهيم الفردية جانبا بارزا من عملية النظرية التكيفية بصرف النظر سواء فهمت بوصفها جزءا من مجموعة أو شبكة مفاهيم أكثر شمولاً، أو حتى بوصفها جانبا مكملا لنموذج على درجة عالية من الدقة والإحكام. أما المفاهيم الحديثة النشأة -والتي تقف منعزلة عن المجموعة- قد تصبح ذات أهمية مثل المفاهيم الأخرى، التي ينظر إليها حاليا على أنها مفاهيم أساسية أو محورية. وتكتمل سمة النهاية المفتوحة والطبيعة المستمرة للنظرية التكيفية من خلال طبيعتها الانتشارية والتراكمية المتنامية.

طبيعة النهاية المفتوحة للتتظير التكيفي:

لا يأخذ الشكل العام للنظرية التكيفية شكل الفرض المثبت أو مجموعة من الفروض المؤكدة. وهي ليست نظرية أعيد صياغتها أو تم تنقيحها أو تعديلها على أى نحو في شكل مجموعة حقائق بديهية تحدد العلاقات بين متغيرات يتم قياسها بصورة منفصلة (أو حتى الأحكام التي تتخذ شكل القانون العام عن السلوك الإنساني). ونلاحظ علاوة على ذلك أن النظرية التكيفية لا تقتصر على وصف عوالم الحياة التي تمثل أهمية لأفراد بعينهم أو مجموعات معينة. وهي تحاول -أيضا- أن تحدد بعض علامات التداخل بين عالم الحياة -النسق التي تتشكل من تشابك الجوانب الذاتية والموضوعية للحياة الاجتماعية. وبهذا الصفة يتكون شكل

النظرية من الجوانب الوصفية والتفسيرية، ويعتمد على المفاهيم، وشبكات ونماذج مفاهيم العالم الاجتماعي التي تشكل هذا العالم وتتشكل من خلاله.

ونتيجة لهذه الخصائص لا يجب النظر إلى النظرية التكوينية على أنها نقطة النهاية أو نتيجة محددة لعملية بناء النظرية. وتشير طبيعتها التكوينية إلى قدرتها على تشكيل نفسها في الاستجابة للشواهد الجديدة والطرق الجديدة لفهم تلك الشواهد. إن مجموعة المفاهيم التي تمثل المرحلة الأخيرة من تدقيق النظرية يجب النظر إليها دائما على أنها قابلة للتعديل في كل من المراحل النهائية من البحث، وكذلك في التطلع إلى البحوث في المستقبل. إن النظرية التكوينية التي تعد النتاج النهائي للبحث يجب ألا تعد مجرد نتاج مؤقت سيظل يلزمه النقص دائما، لأنه قابل على الدوام للتعديل وإعادة الصياغة. وأضيف هنا أن كل النظريات يجب أن ينظر إليها على هذا النحو، رغم أن الكثيرين سوف ينكرون ذلك، وهو ما يتطلب إحداث تحول جذري في فهم طبيعة النظرية وعلاقتها بالشواهد المتاحة. وعلى العكس من ذلك ترى النظرية التكوينية أن ذلك يمثل جزءا من طبيعتها معترفا به بكل وضوح.

ولكني أرى -كما أكدت في نهاية الفصل الرابع من هذا الكتاب- أن افتقار النظرية التكوينية إلى الثبات أو الحقيقة المطلقة لا يعني أن الباحث (و/أو القائم بالتنظير) يجب أن تتسم نتائج عمله بالطابع المؤقت. كما لا يعني أن البحث نفسه لن يكتمل أبدا بأسلوب مرض. إن الطبيعة الفعلية للنظرية التكوينية تشجع وتضمن -على قدر الامكان- الاختبار والتعديل المستمر للنظرية الناشئة كلما سار البحث إلى الامام. وبهذا المعنى فإن صدق النظرية الذي يتحقق عن هذا الطريق لا ينفصل عن الشواهد الإمبريقية، وإنما يرتبط به بصورة جوهرية. وبانتهاء البحث يجب أن تقنع الاختبارات والتوازنات والضوابط الكامنة فيها الباحث بصحة المفاهيم، والفئات، والمجموعات الأساسية، التي تشكل أساس النظرية التكوينية. وهكذا، يمكن أن ينتهي البحث وتوليد النظرية بصورة مرضية "كمنتج مكتمل" فيما يتعلق بالسياق المباشر للبحث. إلا أن الانفتاح الحقيقي للمدخل التكويني يتطلب النظر إلى المعرفة بوصفها قابلة للتعديل والمراجعة المستمرة في ضوء الشواهد المتاحة، وكثيرة للإبتكارات في عمليات صياغة المفاهيم والتفسير.

هل هي قواعد جديدة للمنهج؟

بقدر ما يمكن النظر إلى النصيحة والاقتراحات التي طرحتها في هذا الكتاب بوصفها تمثل تحولا جذريا عن الممارسات القائمة، بقدر ما يعنى ذلك أنها تمثل قواعد منهجية للتحليل والبحث الاجتماعى، سأحاول أن أخصها فيما يلى. تتضمن كل النقاط التي تعد أساس المناقشات التي دارت على امتداد هذا الكتاب، وإن كنت قد جمعتها معا هنا بطريقة واضحة مصحوبة بتعليقات مختصرة.

١- يجب أن يتم التحليل و البحث الاجتماعى انطلاقا من فرض مؤداه أن الواقع الاجتماعى متنوع بحكم طبيعته، وليس متماثلا. ويعنى ذلك فى ضوء اعتبارات الشكل أن العالم الاجتماعى يعد من الناحية الأنطولوجية تحديدا، ويتضمن ما يلى:-

أ- المداخل التحليلية التي تفترض سلفا أن الواقع الاجتماعى يمكن فهمه من خلال الإشارة إلى بعض السمات أو الملامح الموحدة، مثل أنواع الخطاب، والممارسات المعاد انتاجها، والتشكيلات الاجتماعية والمعانى المتضمنة فى العلاقات بين الذوات، وأسباب ودوافع الفاعلين، وازدواجية البناء، تلك المداخل يجب التخلي عنها لأنها تجسد وتمثل أنطولوجيات ناقصة تؤدي إلى اشكال متحيزة من التحليل.

ب- تصور العالم الاجتماعى على أنه يتكون من خلال عديد من المجالات الأنطولوجية، التي تتميز بخصائص وسمات متميزة لا يمكن ردها إلى بعضها البعض، أو الادعاء بانتمائها إلى اساس شامل أو آلية بنائية معينة.

ج- من الضروري أن تكون هناك استراتيجيات منهجية تمكن الباحثين والقائمين بالتحليل من التوصل إلى الميول الذاتية، والمعانى التي يتم توليدها من خلال العلاقات بين الذوات، والتي تشكل عوالم الحياة اليومية للأفراد فى المجتمع، وتسمح فى نفس الوقت بالوصول إلى حقيقة الجوانب النسقية الاجتماعية الموضوعية للمجتمع (كالعلاقات الاجتماعية المعاد انتاجها، والمراكز الاجتماعية، والممارسات، وأنواع الخطاب، وأشكال القوة). ومن شأن مثل هذه الاستراتيجيات أن تتيح للباحث فهم الطبيعة المعقدة والمتعددة الأوجه للواقع

الاجتماعى، فى نفس الوقت الذى تسمح فيه بتتبع العلاقات المتبادلة بين المجالات النوعية دون إغفال ما بينها من فروق.

د- على الرغم من أن الصلات بين عالم الحياة والنسق تتخذ طرقا عديدة معقدة، فإن التزاوج بينها قد اعتمد على تفرقة أنطولوجية أساسية بين الظروف المتكونة تاريخيا والمعاد انتاجها اجتماعيا، والتي انتقلت من أجيال سابقة (النسق)، والأنشطة المعاصرة، والمعاني، وأسباب ودوافع الانسان فى التفاعل الاجتماعى اليومى (عالم الحياة). وينطوى هذا التزاوج أيضا على اقتران وانصهار أشكال و أطر مختلفة من الصفة المؤقتة.

هـ- على هذا الأساس، يتعين علينا أن نقر بأن علم الاجتماع والبحث الاجتماعى يهتم -ويجب أن يهتم- بعالم من الموضوعات المحددة مسبقا فى جانب منها، كما يهتم أيضا بجوانب الواقع الاجتماعى الناتج عن الأداء الفعال للأفراد.

٢- يجب أن يتم التحليل والبحث الاجتماعى انطلاقا من أساس معرفى تعددى للوصول إلى تعظيم القدرة على الفهم والتفسير. على أن ذلك يجب أن يكون مصحوبا بأدراك الصعوبات التى ستواجهنا فيما يتعلق بقضايا تناغم وصدق أشكال مختلفة من المعرفة. وتعنى هذه "التعددية" مايلى:-

أ- الانفتاح والرغبة فى الدخول فى حوار مع أشكال ومستويات وأنماط مختلفة من النظريات والشواهد التى يمكن أن توجد فى أوضاع معرفية متنوعة (و إلى حد ما متناقضة).

ب- يجب إعطاء الفروض المعرفية والضمنية ما تستحقه من اعتراف، وهى الفروض التى تضمن نظريات ومبادئ منهجية مختلفة (الاستقراء، والاستنباط، والإمبيريقية، والنزعة العقلية)، والاستفادة من قوتها فى نفس الوقت الذى تتجنب نواحي ضعفها الكامنة فيها.

ج- يجب اعتبار كل النظريات، والمداخل المنهجية... الخ عوالم مفتوحة فى حقيقتها.

٣- يجب أن يعمل البحث الاجتماعى على أساس من التعددية المنهجية، وليس فى ظل التزام صارم بمجموعة واحدة أو محددة من الأساليب والقواعد

المنهجية. ويجمل ذلك كثيرا من النقاط المثارة في نقطتي ١، ٢ السابقتين، ولكنها تشير بالتحديد إلى ما يلي:-

أ - يجب أن يستخدم البحث الاجتماعي أكبر عدد ممكن من أساليب جمع البيانات، كي يستطيع تعظيم قدرته على سبر غور كل المجالات الاجتماعية بعمق.

ب- يتعين على البحث الاجتماعي ألا يقتصر على تطبيق نمط واحد من المداخل أو يركز عليه وحده، خاصة عندما يقصر هذا المدخل نفسه على تحليل أحد ميادين الواقع الاجتماعي، على حساب مجالات أخرى على نفس القدر من الأهمية.

٤- إن مبدأ التعددية الذي أكدت عليه في النقاط من ١-٣ يجب ألا يختلط بالفوضوية المعرفية أو المنهجية، أو بالنزعة النسبية (فايرآبند، ١٩٧٨).

أ - من المهم أن يكون الباحث منفتحاً ومرناً قدر الامكان، من حيث تطبيق القواعد بالاعتماد على مجموعة واسعة من المصادر النظرية والإمبيريقية، والسياسات والأساليب المنهجية. وإن كان من المهم على أي حال الاستفادة من الجوانب المفيدة من شتى المداخل والمواقف المختلفة، وليس التخلي عن فكرة المنهج المنظم تخلياً تاماً. إن القواعد النظرية والمنهجية الواضحة والمحددة ضرورية مطلقة لتوليد نظرية قوية يصل نطاقها وقوتها التفسيرية إلى أقصى الحدود.

ب- يجب النظر إلى كل النظريات على أنها "ثمرات مؤقتة" قابلة للتعديل وإعادة الصياغة في ضوء الشواهد الإمبيريقية والحجج والآراء النظرية. ومن شأن هذا الشرط أن يضمن لنا أن تظل النظرية في حالة اختبار دائم في ضوء الشواهد الإمبيريقية، الأمر الذي سيؤدي في النهاية إلى زيادة درجة صوابها وصدقها وثباتها.

ج- إن فهم النظرية والتظير على أنها في حقيقتها مشروع غير مكتمل وناقص (في ضوء ما يستجد من آراء وشواهد) من شأنه أن يساعد على تعويض الاتجاه نحو النظريات القائمة، وتطبيقها من خلال طريقة صارمة ودوجماتيقية (قطعية) بصرف النظر عن المناقشات والشواهد المعارضة التي تبرز مدى الحاجة الملحة إلى التعديل والتنقيح.

٥- تتميز النظرية العامة، والبحث الاجتماعي دائما بوصفهما مجالين متخصصين- بالاهتمامات ومحاور المشكلات الداخلية الخاصة بها والمستقلة نسبيًا. ولكن لا شك أن القاعدة المعرفية التعددية، والالتزام بالتنوع المنهجي، وإدراك الطبيعة المتنوعة للأنطولوجيا الاجتماعية سوف تساعد على تعويض التعصب سواء من جانب النظرية أو البحث. ويجب أن يساعد ذلك بدوره على دعم وتشجيع جهود الوساطة (بين النظرية والبحث) التي نحتاجها بالحاح من أجل تشييد بناء تراكمي حقيقي من المعرفة العلمية الاجتماعية.

Bibliography

- 1- Alexander, J. (1995) *Fin de siècle Social Theory*. London: Verso.
- 2- Archer, M. (1995) *Realist Social Theory: The Morphogenetic Approach*. Cambridge: Cambridge University Press.
- 3- Backett, K. (1990) 'Studying health in families', in S. Cunningham-Burley and N. McKeganey (eds), *Readings in Medical Sociology*. London: Routledge.
- 4- Bernstein, B. (1973) *Class Codes and Control* (vol.1). London: Paladin.
- 5- Bhaskar, R. (1979) *The Possibility of Naturalism*. Brighton : Harvester.
- 6- Bloor, D. and McIntosh, J. (1990) 'Surveillance and concealment: a comparison of techniques of client resistance in therapeutic communities and health visiting', in S. Cunningham-Burley and N. McKeganey (eds), *Readings in Medical Sociology*. London: Routledge.
- 7- Blumer, H. (1954) 'What is wrong with social theory?', *American Sociological Review*, 19:3-10.
- 8- Blumer, H. (1969) *Symbolic Interactionism*. Englewood Cliffs, NJ: Prentice-Hall.
- 9- Brewer, J. (1990) 'Talking about danger: the RUC and the paramilitary threat', *Sociology*, 24:657-74.
- 10- Bruyn, S. (1966) *The Human Perspective in Sociology*. Englewood Cliffs, NJ: Prentice-Hall.
- 11- Bryant, C. (1995) *practical Sociology*. Oxford: Polity Press.

- 12-Bryman, A. (1988) Quantity and Quality in social Research. London: Unwin.
- 13-Bryman, A. and Burgess, R. (1994) Analysing Qualitative Data. London: Routledge.
- 14-Burns, T. and Stalker, G. (1961) The Management of Innovation. London: Tavistock.
- 15-Clegg, J., Standen, P. and Jones, G. (1996) 'Striking the balance: a grounded theory analysis of staff perspectives', British Journal of Clinical Psychology, 35: 249-64.
- 16-Denzin, N. (1990) 'Researching alcoholics and alcoholism in American society', Studies in Symbolic Interaction, 11:81-101.
- 17-De Vaus, D. (1996) Surveys in Social Research. London: UCL Press.
- 18-Durkheim, E. (1952) Suicide: A study in Sociology. London: Routledge.
- 19-Durkheim, E. (1964) The Division of Labour in Society. New York: Free press
- 20-Edwards, R. (1979) Contested Terrain. London: Heinemann.
- 21-Etzioni, A. (1961) The Comparative Analysis of Complex Organisations, New York: Free Press.
- 22-Feyerabend, P. (1978) Against Method. London: Verso.
- 23-Foucault, M. (1977) Discipline, and Punish: The Birth of the Prison. Harmondsworth: Penguin.
- 24-Foucault, M. (1980) Power and Knowledge. Brighton: Harvester.

- 25-Giallombardo, R. (1966) 'Social roles in a prison for women', *Social problems*, 13:268-88.
- 26-Giddens, A. (1976) *New Rules of Sociological Method*. London : Hutchinson.
- 27-Giddens, A. (1979) *Central problems in Social Theory*. London: Macmillan.
- 28-Giddens, A. (1984) *The Constitution of Society*. Oxford: Polity Press.
- 29-Giddens, A. (1987) *Social Theory and Modern Sociology*. Stanford, CA: Stanford University Press.
- 30-Glaser, B. (1994) *Emergence versus forcing: Basics of Grounded Theory Analysis*. San Francisco: Sociology press.
- 31-Glaser, B. and Strauss, A. (1965) *Awareness of Dying*. Chicago: Aldine.
- 32-Glaser, B. and Strauss, A. (1967) *The Discovery of Grounded Theory*. Chicago: Aldine.
- 33-Glaser, B. and Strauss, A. (1971) *Status Passage*. London : Routledge
- 34-Glesne, C. and Peshkin, A. (1992) *Becoming Qualitative Researchers*. New York: Longman.
- 35-Goffman, E. (1967) *Interaction Ritual*. New York: Anchor.
- 36-Goffman, E. (1968) *Asylums*. Harmondsworth: Penguin.
- 37-Goffman, E. (1983) 'The interaction order sui generis', *American Sociological Review*, 48:1-17.
- 38-Gouldner, A (1954) *Patterns of Industrial Bureaucracy*. New York: Free Press.

- 39-Habermas, J. (1984) *The Theory of Communicative Action: Reason and Rationalization of Society* (vol. 1). Oxford: Polity Press.
- 40-Habermas, J. (1987) *The Theory of Communicative Action: The Critique of Functionalist Reason* (vol. 2). Oxford: Polity Press.
- 41-Hilbert, R. (1990) 'Ethnomethodology and the micro-macro order, *American Sociological Review*, 55: 794-808.
- 42-Hochschild, A. (1983) *The Managed Heart*. Berkeley, CA: University of California Press.
- 43-Hughes, E. (1937) 'Institutional office and the person', *American Journal of Sociology*, 43: 404-13.
- 44-Kanter, R. (1989) 'Careers and the wealth of nations: a macro perspective on the structure and implications of career forms', in A. Hall and B. Lawrence (eds), *Handbook of Career Theory*. Cambridge: Cambridge University Press.
- 45-Keat, R. and Urry, J. (1975) *Social Theory as Science*. London: Routledge.
- 46-Layder, D (1984) 'Sources and levels of commitment in actors' careers', *Work and Occupations*, 11:147-62.
- 47-Layder, D. (1985) 'Power, structure and agency', *Journal for the theory of Social Behaviour*, 15:131-49.
- 48-Layder, D. (1990) *The Realist Image in Social Science*, Basingstoke: Macmillan.
- 49-Layder, D. (1993) *New Strategies in Social Research*. Oxford: Polity press.
- 50-Layder, D. (1994) *Understanding Social Theory*. London: Sage.

- 51-Layder, D. (1997) *Modern Social Theory: Key Debates and New Directions*. London: University College Press.
- 52-Layder, D. Ashton, D. and Sung, J. (1991) 'The empirical correlation of action and structure: the transition from school to work', *Sociology*, 25: 447-64.
- 53-Lemert, E. (1962) 'Paranoia and the dynamics of exclusion', *Sociometry*, 25:2-20.
- 54-Lewins, F. (1992) *Social Science Methodology*. Melbourn: Macmillan.
- 55-Lofland, L. (1966) *In the presence of Strangers*, Working paper 19. Michigan: Center for Research on Social Organization.
- 56-Marx, K. and Engels, F. (1968) *Selected Works*. London: Lawrence & Wishart.
- 57-McKeganey, N. (1990) 'Drug abuse in the community: needle sharing and the risks of HIV infection', in S. Cunningham - Burley and N. McKeganey (eds), *Readings in Medical Sociology*. London: Routledge.
- 58-McKeganey, N., Bernard, M. and Bloor, M. (1990) 'A comparison of HIV-related risk behaviour and reduction between female working prostitutes and male rent boys in Glasgow', *Sociology of Health and Illness*, 11:274-92.
- 59-Mead, G. (1967) *Mind, Self and Society*. Chicago: Chicago University Press.
- 60-Merton, R. (1967) *On Theoretical Sociology*. New York: Free Press.
- 61-Mouzelis, N. (1995) *Sociological Theory: What Went Wrong?* London: Routledge.

- 62-Nijismans, M. (1991) 'Professional culture and organisational morality: an ethnographic account of a therapeutic community', *British Journal of Sociology*, 42: 1-12.
- 63-O'Connell Davidson, J. (1995) 'British sex tourists in Thailand', in M. Maynard and J. Purvis (eds), (Hetero) Sexual Politics. London: Taylor & Francis.
- 64-O'Connell Davidson, J.(1998) *To Enter in These Bonds: Prostitution, Power and Freedom*. Oxford: Polity Press.
- 65-O'Connell Davidson, J.and Layder, D. (1994) *Methods, Sex and Madness*. London: Routledge.
- 66-Patton, M. (1990) *Qualitative Evaluation and Research Methods*. London: Sage.
- 67-Pawson, R. (1989) *A Measure For Measures*. London: Routledge.
- 68-Popper, K. (1972) *Objective Knowledge: An Evolutionary Approach*, Oxford: University Press.
- 69-Richie, J.and Spencer, L. (1994) 'Qualitative data analysis for applied policy research', in A. Bryman and R. Burgess (eds), *Qualitative Data Analysis*. London: Routledge.
- 70-Rock, P. (ed.) (1979) *The Making of Symbolic Interactionism*. London: Macmillan.
- 71-Rose, G. (1984) *Deciphering Sociological Research*. London: Macmillan.
- 72-Rosenau, P. (1992) *Post-modernism and the Social Sciences*. Princeton, NJ: Princeton University Press.
- 73-Scheff, T. (1966) *Being Mentally III*.Chicago: Aldine.

- 74-Schutz, A. (1972) *The Phenomenology of the Social World*. London: Heinemann.
- 75-Silverman, D. (1985) *Qualitative Methodology and Sociology*. Aldershot: Gower.
- 76-Silverman, D. (1993) *Analysing Qualitative Data*. London: Sage.
- 77-Stanley, L. and Wise, S. (1983) *Breaking Out*. London: Routledge.
- 78-Stebbins, R. (1970) 'Career: the subjective approach', *Sociological Quarterly*, 11: 32-49.
- 79-Strauss, A. (1987) *Qualitative Analysis For Social Scientists*. Cambridge: Cambridge University Press.
- 80-Strauss, A. and Corbin, T. (1990) *Basics of Qualitative Research*. London: Sage.
- 81-Turner, J. (1988) *A Theory of Social Interaction*. Oxford: Polity Press.
- 82-Vaughan, D. (1992) 'Theory elaboration and the heuristics of case analysis', in C. Ragin and H. Becker (eds), *What is a Case?* Cambridge: Cambridge University Press.

**قائمة بأهم المصطلحات الانجليزية
الواردة فى الكتاب مترجمة الى العربية**

1	Actors' Motives	دوافع الفاعلين
2	Adapting	التكيف
3	Adaptive Approach	مدخل تكيفى
4	Adaptive theory	نظرية تكيفية
5	Adjustment	التوافق - التلاؤم
6	Alienation	الاغتراب
7	Analytic Concepts	مفاهيم تحليلية
8	Analytic Induction	استقراء تحليلى
9	Anarchism	الفوضوية
10	Anomie	الأنومى
11	Applicability	القابلية للتطبيق
12	Appraisal Criteria	معايير التقدير
13	Approach	مدخل
14	Attitude	الاتجاه
15	Authority	السلطة
16	Axial Coding	ترميز محورى
17	Balance of Power	توازن القوة
18	Behavioural Concepts	مفاهيم سلوكية
19	Behavioural Phenomena	ظواهر سلوكية
20	Behavioural System	نسق سلوكى
21	Behavioural Typologies	انماط سلوكية
22	Bridging Concepts	مفاهيم وسيطة
23	Bureaucracy	البيروقراطية
24	Bureaucratic Organization	تنظيمات بيروقراطية
25	Career	السلك المهنى

26	Case Study	دراسة الحالة
27	Casting	اختيار فريق العمل الفني
28	Casting Director	مدير اختيار فريق العمل
29	Category	شريحة - فئة - مفهوم
30	Characteristics	سمات - خصائص
31	Charismatic Authority	سلطة كارزمية
32	Class	الطبقة
33	Class Conflict	الصراع الطبقي
34	Class Domination	السيطرة الطبقة
35	Classical Social Theory	نظرية اجتماعية كلاسيكية
36	Classification	التصنيف
37	Coding	الترميز
38	Coercive Power	قوة قسرية
39	Collecting Data	جمع البيانات
40	Collective Action	الفعل الجمعي
41	Collective Consciousness	الوعي الجمعي
42	Communication	الاتصال
43	Communicative Action	الفعل الاتصالي
44	Comparative Perspective	منظور مقارن
45	Competition	المنافسة
46	Components	عناصر - مكونات
47	Concept	مفهوم
48	Conceptual Frameworks	أطر مرجعية
49	Conceptualization	صياغة المفاهيم
50	Conceptual Schemes	أطر مفهومية (نظرية)
51	Contamination	تلوث
52	Conventional Approaches	مداخل تقليدية
53	Conventional Canons	المعايير التقليدية
54	Core Codes	رموز أساسية

55	Core Concepts	مفاهيم أساسية
56	Correspondence	تطابق - تماثل - توافق
57	Crime	الجريمة
58	Criminal Activities	أنشطة إجرامية
59	Critical Theory	نظرية نقدية
60	Cross - Fertilization of Ideas	الاخصاب المتبادل للأفكار
61	Cultural Discourses	خطاب ثقافي
62	Culture	الثقافة
63	Customs	العادات
64	Data - Collection	جمع البيانات
65	Data - Gathering	جمع البيانات
66	Data - Sampling	سحب عينة البيانات
67	Decision - Making	اتخاذ القرار
68	Deduction	الاستنباط
69	Deductive Theory	نظرية استدلالية
70	Definitive Concept	مفهوم قاطع
71	Delegation of Authority	تفويض السلطة
72	Depression	إكتئاب
73	Descriptive Concepts	مفاهيم وصفية
74	Detached	اللامنتمى (المستقل)
75	Determinism	النزعة الحتمية
76	Developmentalism	النزعة التطورية
77	Deviance	الانحراف
78	Deviance Amplification	تضخيم الانحراف
79	Dialectical Interplay	تفاعل جدلي
80	Dialectical Relationship	علاقة جدلية
81	Dialectic of Control	جدلية الضبط

82	Dialectic Of Separateness And Relatedness	جدلية الانفصال و الترابط
83	Dialogical Relation	علاقة الحوار
84	Dialogue	حوار
85	Discourse Analysis	تحليل الخطاب
86	Discursive Consciousness	الوعي بالخطاب
87	Division of Labour	تقسيم العمل
88	Domination	السيطرة
89	Drug Addiction	إدمان المخدرات
90	Duality Of Social Relation	ثنائية العلاقات الاجتماعية
91	Duality Of Structure	إزدواجية البناء
92	Dysfunctional	خلل وظيفي
93	Economic Infrastructure	البناء التحتي الاقتصادي
94	Elite	الصفوة
95	Emergent Data	البيانات الناشئة
96	Emotional Burn – Out	الاحتراق العاطفي
97	Emotional Distance	مسافة عاطفية
98	Emotional Labour	العمل العاطفي المأجور
99	Emotional Overload	التحمل العاطفي الزائد
100	Emotion Management	إدارة عاطفية
101	Empirical Data	بيانات إمبريقية
102	Empirical Evidences	شواهد إمبريقية
103	Empirical Generalizations	تعميمات إمبريقية
104	Empirical Indicators	مؤشرات إمبريقية
105	Empirical Phenomena	ظواهر إمبريقية
106	Empirical Research	بحث إمبريقي
107	Empiricism	النزعة الإمبريقية
108	Employer Control	تحكم أو سيطرة صاحب العمل
109	Employment	عمالة – توظيف – تشغيل
110	Enslavement	الاستعباد

111	Epistemology	إتجاه معرفي
112	Ethnomethodology	الأنثوميثودولوجي
113	Existentialism	المذهب الوجودي
114	Explanatory Schemes	(أطر) مقولات تفسيرية
115	Exploitation	الإستغلال
116	Extant Data	البيانات المتاحة
117	Extant Theory	النظرية المتاحة (القائمة)
118	Extreme Empiricism	النزعة الإمبريقية المتطرفة
119	Face -to-Face Relationships	علاقات الوجه للوجه
120	Factual Characher	الطابع الواقعي
121	Familiarity	الألفة
122	Family Culture	ثقافة الأسرة
123	Feedback	تغذية مرتدة
124	Feminism	النزعة النسوية
125	Formal Concept	مفهوم شكلي
126	Formal Organization	تنظيم رسمي
127	Formal Positions	الأوضاع الرسمية
128	Formal Theory	نظرية شكلية
129	Frame Of Reference	إطار مرجعي
130	Functionalism	الإتجاه الوظيفي (المدرسة الوظيفية)
131	Gatekeepers	حراس البوابة
132	Gender	النوع
133	Generalizability	القابلية للتعميم
134	General Theory	نظرية عامة
135	Generating Theory	توليد نظرية
136	Geriatric Provision	رعاية المسنين
137	Grand Theory	نظرية كبرى
138	Grounded Theory	نظرية موثقة
139	Habitus	هابيتوس

140	Hierarchical Organizations	التنظيمات التدرجية (الهرمية)
141	Hierarchy	تدرج
142	Historical Analysis	تحليل تاريخي
143	Home Theory	النظرية الأم
144	Humanism	النزعة الإنسانية
145	Hypotheses	فروض
146	Hypothesis	فرض
147	Ideal Type	النمط المثالي
148	Ideology	إيديولوجيا
149	Immediate Environment	البيئة المباشرة
150	Incommensurability	عدم التكافؤ
151	In – Depth Interview	مقابلة متعمقة
152	Individuation	التحول إلى الفردية
153	Induction	الاستقراء
154	Inductive Theory	نظرية استقرائية
155	Informal Relationships	علاقات غير رسمية
156	Innovation	ابتكار
157	Inputs	مدخلات
158	Inspiration	الإلهام
159	Institutional Order	النظام المؤسسي
160	Interaction Order	نظام التفاعل
161	Interconnectedness Of Meaning	ترابط المعاني
162	Internally Consistent	اتساق داخلي
163	Interpersonal Relations	علاقات بين الأشخاص
164	Interpretivism	النزعة التأويلية
165	Intervention	التدخل
166	Interviewing	إجراء المقابلة
167	Isolation	العزلة
168	Knowledge	المعرفة

169	Labour Market	سوق العمل
170	Lifeworld	عالم الحياة
171	Logic	المنطق
172	Loyalty	ولاء - وفاء - إخلاص
173	Macro Analysis	تحليل واسع النطاق
174	Marginal Notes	ملاحظات هامشية
175	Marxism	الماركسية
176	Master Theory	نظرية رئيسية
177	Mechanical Solidarity	تضامن آلي
178	Mediating Concept	مفهوم وسيط
179	Memo - Writing	كتابة التقرير
180	Mental Health	صحة عقلية
181	Mental Illness	مرض عقلي
182	Methodological Bracketing	التصنيف المنهجي
183	Methodological Issues	قضايا منهجية
184	Methodological Pluralism	التعددية المنهجية
185	Methodological Procedures	إجراءات منهجية
186	Methodological Strategies	استراتيجيات منهجية
187	Methodology	منهج البحث
188	Micro Analysis	تحليل ضيق النطاق
189	Middle - Range Theory	نظرية متوسطة المدى
190	Military Organizations	تنظيمات عسكرية
191	Mock Bureaucracy	بيروقراطية صورية
192	Mode Of Production	نمط الإنتاج
193	Modes Of Control	أنماط الضبط
194	Modification	تعديل
195	Motivations	دوافع
196	Multi - Strategy Approach	مدخل متعدد الاستراتيجيات
197	Mutual Pretence	تظاهر متبادل

198	Neo – Functionalism	الوظيفية الجديدة (المحدثة)
199	Objectivism	النزعة الموضوعية
200	Observation	الملاحظة
201	Occupational Career	(المسار) السلك المهني
202	Occupational Organization	التنظيم المهني
203	Ontology	انطولوجي
204	Open Coding	ترميز مفتوح
205	Organic Solidarity	تضامن عضوي
206	Organizational Career	السلك المهني التنظيمي
207	Organizational Characteristics	الخصائص التنظيمية
208	Organizational Culture	الثقافة التنظيمية
209	Orienting Concept	المفهوم الموجه
210	Original Concept	المفهوم الأصلي (الأساسي)
211	Original Interventions	مداخلات أساسية
212	Original Theory	النظرية الأصلية (الأساسية)
213	Participant Observation	الملاحظة المشاركة
214	Personalized Relationships	العلاقات ذات الطبيعة الشخصية
215	Phenomenology	فينومينولوجي
216	Phenomenon / Phenomena	ظاهرة / ظواهر
217	Philosophy	الفلسفة
218	Pimp	قواد
219	Pluralism	المذهب التعددي
220	Postmodernism	ما بعد الحداثة
221	Poststructuralism	ما بعد البنيوية
222	Practical Consciousness	وعي عملي
223	Practical Implications	الدلالات العملية
224	Pre – Coding	ترميز أولى
225	Pre – Existing Theory	نظرية موجودة سلفاً
226	Primary Consciousness	وعي أولى

227	Primary Data	بيانات أولية
228	Primary Deviance	انحراف أولي
229	Primary Elaboration	تدقيق أولي
230	Probability Sample	عينة احتمالية
231	Process Sociology	علم اجتماع العمليات
232	Prostitution	بغاء - دعارة
233	Provisional Coding	ترميز مؤقت
234	Purposive Sample	عينة عمدية
235	Qualitative Data	بيانات كيفية
236	Quantitative Data	بيانات كمية
237	Racialization	تنشئة عنصرية
238	Racialized Relations	علاقات سلافية
239	Radical	جنري - قطعي - أصلي
240	Random Sample	عينة عشوائية
241	Rates Of Suicide	معدلات الانتحار
242	Rationalism	الاتجاه العقلاني
243	Rationalization	ترشيد
244	Recreation	الترويح
245	Referral	التحكم
246	Relations Of Production	علاقات الإنتاج
247	Relative Closure	الانغلاق النسبي
248	Relativism	النزعة النسبية
249	Reliability	الثبات
250	Religious Organizations	تنظيمات دينية
251	Remunerative Power	قوة مكافئة
252	Reproduced Practices	الممارسات المعاد إنتاجها
253	Research	البحث
254	Research - Focused Theory	النظرية المرتكزة على البحث
255	Role Expectation	توقعات الدور

256	Sampling	اختيار العينة
257	Satellite Codes	رموز ثانوية
258	Satellite Concept	مفهوم ثانوي
259	Secondary Deviance	انحراف ثانوي
260	Secondary Elaboration	تدقيق ثانوي
261	Segmentation Theory	نظرية التجزوء
262	Self – Confirmation	تعزيز الذات
263	Self – Consistent	اتساق الذات
264	Self – Justification	تبرير الذات
265	Self – Presentation	عرض الذات
266	Self – Projection	الإسقاط الذاتي
267	Self – Referentially	مرجعية ذاتية
268	Self – Sufficient	إكتفاء ذاتي
269	Sensitizing Concepts	المفاهيم المدققة
270	Serendipitous	الاكتشاف بالمصادفة
271	Sexual Deviance	إنحراف جنسي
272	Sexuality	السلوك الجنسي
273	Shared Control	ضبط مشترك
274	Situated Activities	الأنشطة المحددة
275	Snowballing Technique	أسلوب كرة الثلج في اختيار العينة
276	Social Action	فعل اجتماعي
277	Social Activities	الأنشطة الاجتماعية
278	Social Analysis	تحليل اجتماعي
279	Social Behaviour	السلوك الاجتماعي
280	Social Domains	المجالات الاجتماعية
281	Social Forms	الأشكال الاجتماعية
282	Social Inquiry	البحث الاجتماعي
283	Social Institutions	النظم الاجتماعية
284	Social Integration	التكامل الاجتماعي

285	Social Interaction	التفاعل الاجتماعي
286	Social Locations	المواضع الاجتماعية
287	Social Organization	التنظيم اجتماعي
288	Social Positions	المراكز الاجتماعية
289	Social Practice	الممارسة الاجتماعية
290	Social Processes	العمليات الاجتماعية
291	Social Reality	الواقع الاجتماعي
292	Social Relationships	العلاقات الاجتماعية
293	Social Role	الدور الاجتماعي
294	Social Settings	المواقف الاجتماعية
295	Social Standing	الوضع الاجتماعي
296	Social Structure	البناء الاجتماعي
297	Social Survey	المسح الاجتماعي
298	Social System	النسق الاجتماعي
299	Social Trends	الاتجاهات الاجتماعية
300	Sociological Method	المنهج في علم الاجتماع
301	Sociology Of Emotion	الدراسة الاجتماعية للعواطف
302	Sophisticated	محكم - دقيق
303	Speculative Theory	نظرية تأملية
304	Statistically Representative Sample	عينة ممثلة إحصائياً
305	Status Mobility	حراك المكانة
306	Status Passage	جواز المرور للمكانة
307	Stratification	التدرج
308	Structural Concepts	مفاهيم بنائية
309	Structural Control	ضبط بنائي
310	Structuralism	البنائية
311	Structural Variables	متغيرات بنائية
312	Structuration	الصياغة البنائية
313	Subjective Adequacy	ملائمة ذاتية

314	Subjective Experience	خبرة ذاتية
315	Subjectivism	النزعة الذاتية
316	Substantive Theory	نظرية حقيقية (موضوعية)
317	Supply And Demand	العرض و الطلب
318	Suspicion Awareness	الاحساس بالشك
319	Symbolic Communication	الاتصال الرمزي
320	Symbolic Interactionism	التفاعلية الرمزية
321	Synthetic Concept	مفهوم تركيبى
322	Systematic Collection	الجمع المنظم
323	Systemic Concepts	مفاهيم نسقية
324	Systemic Factors	عوامل نسقية
325	Systemic Phenomenon	ظاهرة نسقية
326	Systemic Typologies	أنماط نسقية
327	Theoretical Assumptions	افتراضات نظرية
328	Theoretical Concepts	مفاهيم نظرية
329	Theoretical Creativity	الابداع النظري
330	Theoretical Deliberation	التطوير النظري
331	Theoretical Imagination	الخيال النظري
332	Theoretical Implication	الدلالات النظرية
333	Theoretical Memos	تقارير نظرية
334	Theoretical Models	نماذج نظرية
335	Theoretical Orientation	توجه نظري
336	Theoretical Perspective	منظور نظري
337	Theoretical Reasoning	التفكير المنطقي النظري
338	Theoretical Reflection	التأمل النظري
339	Theoretical Sampling	سحب العينة في ضوء نظرية
340	Theoretical Systems	أنساق نظرية
341	Theoretical Thinking	التفكير النظري
342	Theoretical Tradition	تراث نظري

343	Theoretician's Concepts	مفاهيم تنظيرية
344	Theorizing	التنظير
345	Theory	النظرية
346	Theory Elaboration	تدقيق النظرية
347	Theory – Generating Approach	مدخل توليد النظرية
348	Theory Of Social Domains	نظرية المجالات الاجتماعية
349	Theory – Testing Approach	مدخل اختبار النظرية
350	Total Institution	المؤسسة الشاملة
351	Triangulation	إستخدام أكثر من طريقة
352	Typification	إسلوب اختيار فريق العمل
353	Underground Activities	أنشطة سرية
354	Unemployment	البطالة
355	Uni-Dimensional Approach	مدخل أحادي البعد
356	Validity	الصدق
357	Value	قيمة
358	Violence	العنف
359	Voluntary Associations	الروابط الطوعية
360	Voluntary Exclusion	الاستبعاد الاختياري (الطوعي)

المشروع القومى للترجمة

اللغة العليا (طبعة ثانية)	جون كوين	ت : أحمد درويش
الوثنية والإسلام	ك. مادهو باننيكار	ت : أحمد فؤاد بليغ
التراث المسروق	جورج جيمس	ت : شوقي جلال
كيف تتم كتابة السيناريو	انجا كاريتتكوفا	ت : أحمد الحضري
ثريا في غيبوبة	إسماعيل فصيح	ت : محمد علاء الدين منصور
اتجاهات البحث اللساني	ميلكا إفيتش	ت : سعد مصلوح / وفاء كامل فايد
العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولدمان	ت : يوسف الأنطكي
مشعلو الحرائق	ماكس فريش	ت : مصطفى ماهر
التغيرات البيئية	أندرو س. جودي	ت : محمود محمد عاشور
خطاب الحكاية	جيرار جينيت	ت : محمد معتمد وعبد الجليل الزبي وعمر حلي
مختارات	فيسوفا شيمبوريسكا	ت : هناء عبد الفتاح
طريق الحرير	ديفيد براونستون وايرين فرانك	ت : أحمد محمود
ديانة الساميين	روبرتسن سميث	ت : عبد الوهاب علوب
التحليل النفسي والأدب	جان بيلمان نويل	ت : حسن الموين
الحركات الفنية	إنوارد لويس سميث	ت : أشرف رفيق عفيفي
أثينة السوداء	مارتن برنال	ت : لطفي عبد الوهاب / فلروق القاضي / حسين الشيخ / منيرة كروان / عبد الوهاب علوب
مختارات	فيليب لاركين	ت : محمد مصطفى بنوي
الشعر النسائي في أمريكا اللاتينية	مختارات	ت : طلعت شاهين
الأعمال الشعرية الكاملة	جورج سفيريس	ت : نعيم عطية
قصة العلم	ج. ج. كراوثر	ت : يمنى طريف الخولي / بنوي عبد الفتاح
خوخة وألف خوخة	صمد بهرنجي	ت : ماجدة العناني
مذكرات رحالة عن المصريين	جون أنتيس	ت : سيد أحمد علي الناصري
تجلى الجميل	هانز جيورج جادامر	ت : سعيد توفيق
ظلال المستقبل	باتريك بارنر	ت : بكر عباس
مثنوى	مولانا جلال الدين الرومي	ت : إبراهيم الدسوقي شتا
دين مصر العام	محمد حسين هيكل	ت : أحمد محمد حسين هيكل
التنوع البشري الخلاق	مقالات	ت : نخبة
رسالة في التسامح	جون لوك	ت : منى أبو سنه
الموت والوجود	جيمس ب. كارس	ت : بدر الديب
الوثنية والإسلام (ط ٢)	ك. مادهو باننيكار	ت : أحمد فؤاد بليغ
مصادر دراسة التاريخ الإسلامي	جان سوفاجيه - كلود كاين	ت : عبد الستار الطوجي / عبد الوهاب علوب
الانقراض	ديفيد روس	ت : مصطفى إبراهيم فهمي
التاريخ الاقتصادي لإفريقيا الغربية	أ. ج. هويكنز	ت : أحمد فؤاد بليغ
الرواية العربية	روجر آلن	ت : د. حصة إبراهيم المنيف

الأسطورة والحادثة	بول . ب . بيكسون	ت : خليل كلفت
نظريات السرد الحديثة	والاس مارتن	ت : حياة جاسم محمد
واحة سيوة وموسيقاها	بريجيت شيفر	ت : جمال عبد الرحيم
نقد الحداثة	ألن تورين	ت : أنور مغيث
الإغريق والحسد	بيتر والكوت	ت : منيرة كروان
قصائد حب	آن سكستون	ت : محمد عيد إبراهيم
ما بعد المركزية الأوروبية	بيتر جران	ت : عطف أحمد / إبراهيم قحى / مصود ملجد
عالم ماك	بنجامين بارير	ت : أحمد محمود
اللهب المزدوج	أوكتايفو پات	ت : المهدي أخريف
بعد عدة أصياف	ألدوس هكسلي	ت : مارلين تانرس
التراث المغفور	روبرت ج دنيا - جون ف أ فاين	ت : أحمد محمود
عشرون قصيدة حب	بابلو نيرودا	ت : محمود السيد على
تاريخ النقد الأدبي الحديث (١)	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
حضارة مصر الفرعونية	فرانسوا دوما	ت : ماهر جويجاتي
الإسلام في البلقان	هـ . ت . نوريس	ت : عبد الوهاب علوب
ألف ليلة وليلة أو القول الأسير	جمال الدين بن الشيخ	ت : محمد برادة وعثمانى الللود ويوسف الأنطكي
مسار الرواية الإسبانية الأمريكية	داريو بيانوييا وخـ م بيناليستي	ت : محمد أبو العطا
العلاج النفسى التديمى	بيتر . ن . نوفاليس وستيفن . ج . روجسيفيتز وروجر بيل	ت : لطفى فطيم وعادل دمرdash
الدراما والتعليم	أ . ف . ألنجنون	ت : مرسى سعد الدين
المفهوم الإغريقى للمسرح	ج . مايكل والتون	ت : محسن مصيلحي
ما وراء العلم	جون بولكنجهوم	ت : على يوسف على
الأعمال الشعرية الكاملة (١)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود على مكى
الأعمال الشعرية الكاملة (٢)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود السيد ، ماهر البطوطى
مسرحيتان	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمد أبو العطا
المحبرة	كارلوس مونييث	ت : السيد السيد سهيم
التصميم والشكل	جوهانز ايتن	ت : صبرى محمد عبد الفتى
موسوعة علم الإنسان	شارلوت سيمور - سميث	مراجعة وإشراف : محمد الجوهري
لذة النص	رولان بارت	ت : محمد خير البقاعى .
تاريخ النقد الأدبي الحديث (٢)	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
برتراند راسل (سيرة حياة)	ألان وود	ت : رمسيس عوض .
فى مدح الكسل ومقالات أخرى	برتراند راسل	ت : رمسيس عوض .
خمس مسرحيات أندلسية	أنطونيو جالا	ت : عبد اللطيف عبد الحليم
مختارات	فرناندو بيسوا	ت : المهدي أخريف
نتاشا العجوز وقصص أخرى	فالنتين راسبوتين	ت : أشرف الصباغ
العالم الإسلامى فى أولى القرن العشرين	عبد الرشيد إبراهيم	ت : أحمد فؤاد متولى وهويدا محمد فهمى
ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية	أوخينيو تشانج رودريجت	ت : عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد

السيدة لا تصلح إلا للرمى	داريو فو	ت : حسين محمود
السياسى العجوز	ت . س . إليوت	ت : فؤاد مجلى
نقد استجابة القارئ	چين . ب . توميكنز	ت : حسن ناظم وعلى حاكم
صلاح الدين والمماليك فى مصر	ل . ا . سيمينوفا	ت : حسن بيومى
فن التراجم والسير الذاتية	أندريه موروا	ت : أحمد درويش
چاك لاكن واغواء التحليل النفسى	مجموعة من الكتاب	ت : عبد المقصود عبد الكريم
تاريخ النقد الألبى الحديث ج ٢	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
العولة : النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية	رونالد روبرتسون	ت : أحمد محمود ونورا أمين
شعرية التأليف	بوريس أوسبنسكى	ت : سعيد الغانمى وناصر حلاوى
بوشكين عند «نافورة الدموع»	ألكسندر بوشكين	ت : مكارم الغمرى
الجماعات المتخيلة	بندكت أنترسن	ت : محمد طارق الشرقاوى
مسرح ميجيل	ميجيل دى أونامونو	ت : محمود السيد على
مختارات	غوتفريد بن	ت : خالد المعالى
موسوعة الأدب والنقد	مجموعة من الكتاب	ت : عبد الحميد شيحة
منصور الحلاج (مسرحية)	صلاح زكى أقطاى	ت : عبد الرازق بركات
طول الليل	جمال مير صانقى	ت : أحمد فتحى يوسف شتا
نوز والقلم	جلال آل أحمد	ت : ماجدة العنانى
الابتلاء بالتقرب	جلال آل أحمد	ت . إبراهيم الدسوقي شتا
الطريق الثالث	أنتونى جينز	ت : أحمد زايد ومحمد محيى الدين
وسم السيف	ميجل دى تريانس	ت . محمد إبراهيم مبروك
المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق	بارير الاسوستكا	ت : محمد هناء عبد الفتاح
أساليب ومضامين المسرح		
الإسبانوأمريكى المعاصر	كارلوس ميجل	ت : نادية جمال الدين
محدثات العولة	مايك فينرستون وسكوت لاش	ت : عبد الوهاب علوب
الحب الأول والصحبة	صمويل بيكيت	ت : فوزية العشماوى
مختارات من المسرح الإشباني	أنتونيو بويرو بايخو	ت : سرى محمد محمد عبد اللطيف
ثلاث زنبقات ووردة	قصص مختارة	ت : إينوار الخراط
هوية فرنسا	فرنان برودل	ت : بشير السباعى
الهم الإنسانى والابتزاز الصهيونى	نماذج ومقالات	ت : أشرف الصباغ
تاريخ السينما العالمية	ديفيد روبنسون	ت : إبراهيم قنديل
مساغة العولة	بول هيرست وجراهام تومبسون	ت : إبراهيم فتحى
النص الروائى (تقنيات ومناهج)	بيرنار فاليط	ت : رشيد بنحدو
السياسة والتسامح	عبد الكريم الخطيبى	ت . عز الدين الكتانى الإبريسى
قبر ابن عربى يليه آباء	عبد الوهاب المؤدب	ت : محمد بنيس
أوبرا ماهوجنى	برتولت بريشت	ت : عبد الغفار مكاوى
مدخل إلى النص الجامع	جيرارچينيت	ت : عبد العزيز شبيب
الأدب الأندلسى	د . ماريا خيسوس روبييرامتى	ت : د . أشرف على دعور

صورة الفنان في الشعر الأمريكي المعاصر	نخبة	ت : محمد عبد الله الجعدي
ثلاث دراسات عن الشعر الأثليسي	مجموعة من النقاد	ت : محمود علي مكي
حروب المياه	جون بولوك وعادل درويش	ت : هاشم أحمد محمد
النساء في العالم النامي	حسنة بيجوم	ت : منى قطان
المرأة والجريمة	فرانسييس هيندسون	ت : ريهام حسين إبراهيم
الاحتجاج الهادي	أرلين علوي ماركليود	ت : إكرام يوسف
رأية التمرد	سادى پلانت	ت : أحمد حسان
مسرحيات حصاد كونجى وسكان المستنقع	ول شوينكا	ت : نسيم مجلى
غرفة تخم المرء وحده	فرچينيا وولف	ت : سمية رمضان
امرأة مختلفة (نرية شفيق)	سينثيا نلسون	ت : نهاد أحمد سالم
المرأة والجنوسة فى الإسلام	ليلي أحمد	ت : منى إبراهيم ، وهالة كمال
النهضة النسائية فى مصر	بث بارون	ت : ليس النقاش
النساء والأسرة وقوانين الطلاق	أميرة الأزهرى سنيل	ت : بإشراف/ رؤوف عباس
الحركة النسائية والتطور فى الشرق الأوسط	ليلي أبو لغد	ت : نخبة من المترجمين
الدليل الصغير فى كتابة المرأة العربية	فاطمة موسى	ت : محمد الجندي ، وإيزابيل كمال
نظام العبودية القديم ونموذج الإنسان	جوزيف فوجت	ت : منيرة كروان
الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية	نيل الكسندر وفنادولينا	ت: أنور محمد إبراهيم
الفجر الكانب	جون جرائ	ت : أحمد فؤاد بليغ
التحليل الموسيقى	سيدريك ثورپ بيقي	ت : سمحه الخولى
فعل القراءة	فولفانج ايسر	ت : عبد الوهاب علوب
إرهاب	صفاء فتحي	ت : بشير السباعي
الأدب المقارن	سوزان باستيت	ت : أميرة حسن نويرة
الرواية الاسبانية المعاصرة	ماريا بولورس أسيس جاروته	ت : محمد أبو العطا وآخرون
الشرق يصعد ثانية	أنريه جوند فرانك	ت : شوقي جلال
مصر القديمة (التاريخ الاجتماعى)	مجموعة من المؤلفين	ت : لويس بقطر
ثقافة العولة	مايك فينرستون	ت : عبد الوهاب علوب
الخوف من المرايا	طارق على	ت : طلعت الشايب
تشريح حضارة	بارى ج. كيمب	ت : أحمد محمود
المختار من نقد ت. س. إليوت	ت. س. إليوت	ت : ماهر شفيق فريد
فلاحو الباشا	كينيث كونو	ت : سحر توفيق
منكرات ضابط فى الحملة الفرنسية	جوزيف مارى مواريه	ت : كاميليا صبحي
عالم التليفزيون بين الجمال والعنف	إيقلينا تارونى	ت : وجيه سمعان عبد المسيح
النظرية الشعرية عند إليوت وأنونيس	عاطف فضول	ت : أسامة إسبير

(نحت الطبع)

الشعر الأمريكى المعاصر	أنطوان تشيخوف
الجانب الدينى للفلسفة	من المسرح الإسباني المعاصر
الولاية	خطبة الإدانة الطويلة
حيث تلتقى الأنهار	تاريخ النقد الأنبي الحديث (الجزء الرابع)
المدارس الجمالية الكبرى	حكايات ثعلب
الإسكندرية : تاريخ ودليل	شامبوليون (حياة من نور)
مختارات من الشعر اليونانى الحديث	الحورية الهاربة
بارسيفال	الإسلام فى السودان
اثننا عشرة مسرحية يونانية	العربى فى الألب الإسرائيلية
العلاقات بين المتدينين والعلمانيين فى إسرائيل	آلة الطبيعة
عدالة الهنود	ضحايا التنمية
جان كوكتو على شاشة السينما	المسرح الإسباني فى القرن السابع عشر
الأرضة	أيدولوجى
غرام الفراعنة	تاريخ الكنيسة
نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية والقوانين المعالجة	فن الرواية
القصة القصيرة (النظرية والتقنية)	ما بعد المعلومات
صاحبة اللوكاندة	الورقة الحمراء
التجربة الإغريقية : حركة الاستعمار والصراع الاجتماعى	موت أرتيميد كروث
العنف والنبوة	علم الجمالية وعلم اجتماع الفن
خسرو وشيرين	المهلة الأخيرة
العمى والبصيرة (مقالات فى بلاغة النقد المعاصر)	الهيولية تصنع علماً جديداً
وضع حد	قضايا التنظير فى البحث الاجتماعى
التلفزيون فى الحياة اليومية	مدرسة فرانكفورت نشأتها ومفزاها

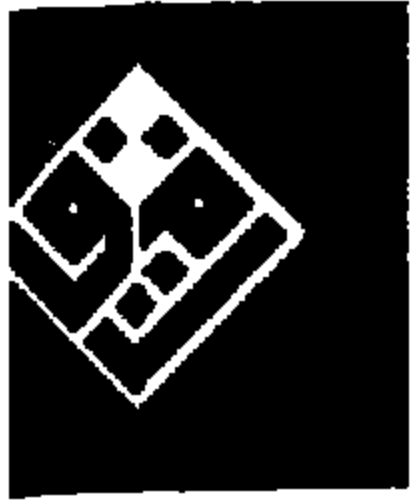
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية

٢٠٠٠/١٥٥٤



Sociological Practice

Linking Theory And Social Research



DEREK LAYDER

قطع علم الاجتماع شوطاً طويلاً في رحلة التنظير والبحث على امتداد نحو قرنين من الزمان أو أقل قليلاً. شهد في البداية تفلسفاً اجتماعياً، أو محاولة لرؤية الحقيقة الاجتماعية (التي لم تكن قد اتخذت بعد شكل الحقيقة الواحدة) من منظور تطورها التاريخي، أو إطارها المعياري والقيمي، أو مدى قابليتها للتقنين بمفهوم القانون في العلم الطبيعي..... الخ.

وإذا كان الانتقال من المسح الاجتماعي إلى البحث الاجتماعي الحقيقي بعد الحرب العالمية الأولى قد تميز بالتوسع في استخدام الأساليب غير الكمية على يد مدرسة شيكاغو، فقد بدأت المناهج ذات الطابع الكمي البارز تفرض نفسها منذ أواخر العشرينات وأوائل الثلاثينات. وأخذت النزعة الوضعية المحدثّة ترسخ أقدامها في حقل البحوث الاجتماعية (كما تمثل ذلك عند جورج لندبرج على وجه الخصوص) وظهرت بعض الدراسات الرائدة التي أبدت حذقاً كبيراً في الانتفاع بهذه المناهج الكمية في دراسة موضوعات محددة تحديداً دقيقاً. وتجلّى الاهتمام الكبير بالمسائل والمشكلات المنهجية في أن الكتب الدراسية وكتب المدخل الخاصة بالبحث الاجتماعي كانت تستطيع في بداية الأمر أن تستوعب الحديث عن مناهج البحث الاجتماعي كلها، ثم إذا بهذه الكتابات تنمو وتتسع بحيث أصبحت تستعصي على المعالجة بين دفتي كتاب واحد. ولم يعد بوسع باحث واحد بمفرده أن يتابع كل ما ينشر في هذا الميدان، وأن يلم بكل جديد فيه. وكان من شأن هذا كله أن تكون الانطباعات بأن البحث الاجتماعي الحديث قد غرق في دراسة أمور منهجه. ثم كان من شأن إنشاء بعض الأجهزة والمجلات وغيرها من الأدوات المتخصصة أعظم الأثر في خلق نوع من التنسيق والتوجيه الذي يعين السفينة على مواصلة طريقها إلى الأمام بنجاح.

LE 12.25

LE 12.25